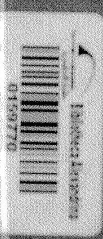
محمد بن الخوجة

صفحات من تاريخ تونس

تقديم وتحقيق

حمادي الساحلي   الجيلاني بن الحاج يحيى





محمد بن الخوجة

صفحات من تاريخ تونس

تقديم وتحقيق

حمادي الساحلي — الجيلاني بن الحاج يحيى



دار الغرب الإسلامي
بيروت

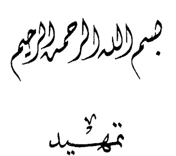
الطبعة الاولى
1986



بيروت - لبنان



صورة المؤلف المرحوم محَمد بن الخوجة



تمهيد

نقدّم إلى القارىء الكريم ضمن هذا الكتاب مجموعة من الدّراسات التّاريخية التي تولّى نشرها المرحوم مَحمّد بن الخوجة من سنة 1936 إلى سنة 1942 تحت عنوان «صفحة من تاريخ تونس» في «المجلّة الزّيتونية»[1] التي لم يكد يخلو عدد من أعدادها من مساهمات الفقيد، إلى أن أدركته المنيّة في آخر سنة 1942. فقد صدرت له أوّل دراسة في العدد الثّالث من المجلّد الأوّل (نوفمبر 1936)، وآخر دراسة في العددين الثّالث والرّابع من المجلّد الخامس (مارس/ أفريل 1942)، أي قبل وفاته ببضعة أشهر.

وتعميماً للفائدة، أضفنا إلى الدّراسات المذكورة خمسة بحوث على غاية من الأهمية، ظهر البحث الأوّل منها في «الرزنامة التونسية» وظهر البحث الثاني في مقدّمة كتاب «عنوان الأريب» للمرحوم الشيخ محمد النيفر (1932) ونُشِرَت البحوث الأخرى في مجلة «شمس الإسلام»[2]. فيكون مجموع ما جمعناه في هذا الكتاب 37 دراسة، منها 32 نشرت في المجلّة الزّيتونية. وبناءً على ذلك فقد سمّينا الكتاب باسم الرّكن الذي ظهرت فيه تلك الدّراسات بالمجلّة المذكورة أي «صفحات من تاريخ تونس».

---

(1) ظهر العدد الأوّل من المجلّة الزّيتونية في شهر رجب 1355 (سبتمبر 1936)، والعدد الأخير في شهر ربيع الثاني 1375 (نوفمبر 1955) انظر. جعفر ماجد «الصّحافة الأدبية بتونس من سنة 1905 إلى سنة 1955» (بالفرنسية) منشورات الجامعة التّونسية ـ 1979.

(2) «شمس الإسلام»: مجلة إسلامية أصدرها المرحوم الشيخ محمد الصالح بن مراد بتونس سنة 1356 هـ 1937 م.

وتيسيراً للمطالعة والمراجعة قسّمنا محتوى الكتاب إلى خمسة أبواب:

الباب الأوّل:

وقد جمعنا فيه كلّ الدّراسات والبحوث التي تمتّ بصلة إلى التّاريخ الإسلامي بوجه عام، والتّاريخ التّونسي بوجه خاصّ، وذلك بغضّ النّظر عن تاريخ صدورها، وقد قال صاحبها في شأنها إنّه «جمع شتاتها من مختلف المصادر المعروفة وغير المعروفة لتكون مرشداً وبياناً لأهل الأجيال القابلة».

الباب الثّاني:

وهو يتضمّن الدّراسة التي نشرها المؤلّف في أربعة أعداد متتابعة من «المجلّة الزّيتونية» حول القضاء الشّرعي، وأضفنا إليها الفصل الذي ظهر في نفس المجلّة حول خطّة شيخ الإسلام في تونس، بمناسبة وفاة المغفور له الشّيخ محمد بن يوسف.

والملاحظ أنّ تلك الفصول قد اقتبسها مؤلّفها من البحث الذي كان ألقاه باللغة الفرنسية في مؤتمر شمال إفريقيا المنعقد في سنة **1908** بباريس، ثمّ نشره فيما بعد باللغة العربية في رسالة مستقلّة بذاتها تحتوي على **67** صفحة، وتحمل العنوان التّالي: «بحث تاريخي يتعلّق بالقضاء الشّرعي في الإسلام وبخطّة شيخ الإسلام في تونس».

الباب الثّالث:

وقد نشرنا فيه المقالات والفصول المتعلّقة ببعض العادات والتّقاليد التّونسية.

الباب الرّابع:

وهو يحتوي على كلّ ما كتبه المؤلّف بالمجلّة الزّيتونية من فصول للتّعريف ببعض المعالم الأثرية الموجودة بمدينة تونس، كجامع الزّيتونة المعمور، والمدرسة الصادقية، وباب البحر، ودار الباي الخ....

الباب الخامس:

وقد جمعنا فيه بعض ما كتبه مَحمّد بن الخوجة من فصول لترجمة حياة عدد من الأعلام التّونسيين وهم: الشيخ إسماعيل التميمي، والوزير الأكبر محمد العزيز بوعتّور، والشّيخ محمد النّيفر صاحب «عنوان الأريب»، والأمير ألاي محمد القروي أوّل رئيس للجمعية الخلدونية، وذلك بالإضافة إلى الفصل المخصّص لأصحاب الإمام أبي الحسن الشّاذلي رضي الله عنه.

وممّا دفعنا إلى إصدار هذا الكتاب، بعد إعادتنا لنشر كتاب «تاريخ معالم التّوحيد في القديم وفي الجديد»، حرصنا أوّلاً على نشر إنتاج الكتّاب التّونسيين المتناثر في الصّحف والمجلاّت، ثمّ رغبتنا في المزيد من التّعريف بالعمل الذي قام به هذا المؤرّخ طوال حياته المليئة بالإنتاج في سبيل إبراز خصائص التّاريخ التّونسي.

وقد تمثّل عملنا في نشر هذا الأثر الجديد فيما يلي:

1 — جمع الدّراسات والبحوث وتبويبها حسب مواضيعها.
2 — إصلاح النّصوص ممّا علق بها من الأخطاء المطبعية وغيرها.
3 — المقابلة بين التّاريخ الهجري الذي اعتمده المؤلّف في جميع دراساته وبين التّاريخ الميلادي.
4 — إضافة بعض التّعاليق، لزيادة التّوضيح والإفادة. وقد وضعناها بين معقّفين [ ] للتّمييز بينها وبين التّعاليق التي أوردها المؤلّف نفسه.
5 — الإحالة على المراجع والمصادر التي اعتمدها المؤلّف عند نشر تلك الدّراسات، وقد كان جلّها مخطوطاً آنذاك.
6 — وضع فهارس للأعلام والأماكن والكتب.

***

ولا يسعنا في ختام هذا التّمهيد إلاّ أن نتقدّم بجزيل الشّكر والامتنان إلى كلّ من ساعدنا على إنجاز هذا العمل وفي طليعتهم صديقنا الفاضل السيد أحمد الجلولي، وأن ننوّه خاصّة بما وجدناه من عناية بالغة لدى صديقنا المحترم الحاج الحبيب اللمسي صاحب «دار الغرب الإسلامي»، وفّقه الله لما يحبّه ويرضاه.

وعسى أن يساعد عملنا هذا على لفت الانتباه إلى ضرورة الحرص على جمع ما تناثر من بحوث الأدباء والمفكّرين التّونسيين، وأن يكون حافزاً للباحثين والدّارسين لمزيد البحث والتّنقيب، كي يساهموا في التّعريف بعلمائنا السّالفين وإحياء تراثهم المجيد.

والله الموفّق. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المحققان

تونس في 1985/4/16

نبذة من حياة المؤلّف (*)

محمد بن الخوجة
1942 — 1869

* ولد بمدينة تونس في شهر فيفري 1869.
* لمّا بلغ السّابعة من عمره ألحقه والده بالمدرسة الصّادقية ثم انتقل إلى المدرسة العلوية.
* عيّن مترجماً بالكتابة العامّة للحكومة التّونسية سنة 1887.
* عيّن رئيساً لقسم المحاسبات سنة 1892.
* عيّن عضواً في اللجنة المكلّفة بتأليف الفهرس العلمي لمكتبة جامع الزّيتونة المعمور.
* ساهم في الحياة الثّقافية والفكرية، فكان من أبرز المؤسّسين لأوّل جريدة عربية تونسية غير رسمية، وهي جريدة «الحاضرة» وذلك سنة 1888.
* شارك في تأسيس الجمعية الخلدونية وكان من أبرز أعضاء هيئتها المديرة، وذلك سنة 1896.
* شارك مع نخبة من أعضاء «حركة الشّباب التّونسي» في مؤتمر شمال إفريقيا الذي انعقد بباريس سنة 1908 وقدّم بحثاً حول «القضاء الشّرعي في الإسلام» (باللغة الفرنسية).
* في سنة 1902 أصدر «الرّزنامة التّونسية» التي استمرّ ظهورها كلّ سنة بانتظام إلى سنة 1918.
* عيّن مديراً للمطبعة الرّسمية التّونسية من سنة 1902 إلى سنة 1915.
* سُمّي مديراً للتّشريفات السَّنِيَّة سنة 1914.

(*) انظر الترجمة الكاملة لحياة المؤلف في تقديمنا لكتابه. «تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد» (الطبعة الثانية) - دار الغرب الإسلامي - بيروت 1985. (المحققان).

* تولّى تدريس التّعريب والنّقل والتّاريخ بالمدرسة العليا للغة والآداب العربية بتونس.
* سمّي عاملاً (والياً) على قابس (1919) ثم انتقل إلى الكاف ثمّ إلى بنزرت (1924).
* أحيل على التّقاعد سنة 1934، وعيّن مستشاراً للحكومة التّونسية وهي خطّة شرفية احتفظ بها إلى آخر حياته.
* توفّي سنة 1942، رحمه الله رحمة واسعة.

البَابُ الأَوَّل

فصُول في التّاريخ والحَضَارة

المولد النّبويّ الشّريف

اتّفق جمهور رجال الحديث وأصحاب السِّير على أنّ ولادة النّبيء ﷺ كانت عام الفيل. وروى بعض المحدّثين أنّ الرّسول عليه السّلام قال: ولدت في زمن الملك العادل. فما هو عام الفيل؟ وما هو زمن الملك العادل؟

قبل البحث عن هذين الزّمنين لا بدّ لنا من تقديم تمهيد وجيز ليتصوّر القارىء لماذا لم يرد فيما ذكره أهل الصّدر الأوّل عن الولادة الشّريفة تعيين وقتها بالإحالة على عام معلوم من تاريخ محفوظ كتواريخ عصور الأنبياء عليهم السّلام، ومنها التّاريخ المسيحي المتّصل بزمن الفترة التي أشرقت بعدها الأنوار المحمّدية. ومقدار ما بين ميلاد عيسى عليه السّلام ومولد النّبيء ﷺ ستّمائة واثنتان وعشرون سنة.

والجواب ـ والله أعلم ـ أنّ عصر النّبوّة كان متداخلاً في عصرين عظيمين من عصور التّاريخ، وهما عصر الرّوم وعصر الفرس. وأهل هذين الجيلين كانوا يؤرّخون بمدد ملوكهم وعظمائهم، فالرّوم كان تاريخهم من الإسكندر الأكبر، وهو من أعظم رجالهم، ولد بمقدونية ومات سنة 323 قبل الميلاد، والفرس كانوا يؤرّخون بملوكهم، ومنهم ملوك الطّبقة الثّانية بنو ساسان، أوّلهم أردشير ابن ببك شاه ومن عقبه كسرى الأوّل أو الأكبر، واسمه أنو شروان. وهذا هو الملك العادل الذي ولد في زمنه رسول الله ﷺ، وسيأتي خبره. وبأروبا كانوا يؤرّخون في تلك الأعصر بأشهر الحوادث عندهم، كتأسيس مدينة رومة القديمة، وبهذا التّاريخ ضبطوا ولادة المسيح

عليه السّلام فقالوا: إنّه ولد ببيت لحم عام 749 لرومة، وسيأتي الكلام على التاريخ المسيحي وما تناوله من الأغلاط. ولم يكن بناء رومة بالمرجع الوحيد لديهم، بل كانوا يؤرّخون أيضاً بما يسمّونه في ملّتهم عصر الشّهداء، وهم الأشياخ الذين ماتوا تحت العذاب في عهد الأمبراطور الظّالم (ديوكليانوس) (Dioclétien) الرّوماني المتوفى سنة 313 للميلاد، وغيرهم كان يؤرّخ بتخريب بيت المقدس على يد الأمبراطور (طيطش) (Titus) في عهد أبيه سنة 70 للميلاد، ولم يشذّ عن هذه الطريقة إلّا اليهود، فإنّهم كانوا وما زالوا يؤرّخون ببداية الخليقة في زعمهم، وعامهم الموافق لعامنا الحاضر 1356 [1937] هو عام (5697) على ما جاء في التّوراة بذكرهم. وليست كلّ هذه البدايات لتاريخ الأزمان عند الأمم المختلفة بالوحيدة في العصور الخالية، بل هنالك غيرها ممّا لا محلّ لبسطه بهذه النّبذة، لذلك نكتفي هنا بذكر ما كان مشهوراً من التّواريخ التي لها علاقة بالموضوع الذي نحن بصدده وهي ثلاثة؛ تاريخ الرّوم، وتاريخ الفرس، وتاريخ الميلاد. وأكثرها ذكراً لدى رجال التّاريخ في الإسلام، ومنهم أصحاب السِّيَر هو تاريخ الفرس، لما بينهم وبين العرب من صلة الجوار، ناهيك أنهم أوّل الأمم الأعجميّة الذين اعتنقوا الإسلام. وقد رأيت فيما تقدّم أنه لم يكن هنالك ذكر للتّاريخ المسيحي في عصر النّبوّة لأنّه لم يكن معمولاً به يومئذٍ كما ستراه، إنما كان التّاريخ المشهور في ذلك العصر بجزيرة العرب هو التّاريخ الفارسي كما قدمنا، ومنه زمن الملك العادل كسرى الأوّل أنو شروان الذي ولد على عهده رسول الله ﷺ في العام الموافق لعام الفيل الذي سنتكلم عليه. وكسرى هذا غير حفيده كسرى الثّاني الذي تمزّق ملكه عند البعثة النبويّة، وهي من معجزاته ﷺ. قال وليّ الدّين بن خلدون: وعلى عهد كسرى (الأوّل) ولد رسول الله ﷺ لثنتين وأربعين سنة من ملكه وذلك عام الفيل ا هـ. فهذه الطّريقة في ضبط الحوادث الهامّة بإحالة وقت ظهورها على حوادث أخرى عظيمة مثلها تقدّمتها في الوجود هي التي درجت عليها الأمم الغابرة كما قدّمنا. وهكذا استرسلت كيفية ضبط الحوادث التاريخية إلى أن ظهر التّاريخ الهجري في خلافة أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب رضي الله عنه وذلك في السّنة السّادسة عشرة للهجرة الشّريفة. وقد رأيت فيما سبق أنّ التاريخ المسيحي متقدّم على الهجرة النّبويّة بستّمائة واثنتين وعشرين سنة، فهذا التّاريخ لم يستقرّ قراره عند أهله إلّا على رأس المائة الثّامنة للميلاد بعناية الأمبراطور (شرلمان) (Charlemagne). نعم إنّ أحد القسّيسين برومة، وهو الراهب (دونيس) من رجال المائة السادسة في تاريخهم ضبط بالتّدقيق في زعمه تاريخ ولادة المسيح عليه السلام، وعلى حسابه انبنى التّاريخ المسيحي كلّه، لكن تحرّر لديهم بعد أزمان أن ذلك الحساب غير صحيح لتأخّره عن يوم الميلاد الحقيقي بأربعة أعوام، وعلى هذا التّحريف جرى عمل الأمم المسيحية حتى اليوم بمعنى أنّهم أبقوا ما كان على ما كان باستمرارهم على ما ضبطه الرّاهب (دونيس) بدون اعتبار للغلط المحقّق الذي عثروا عليه.

ولنرجع بك لتاريخ زمن كسرى أنو شروان الذي تخلّله عام الفيل، وكلاهما عمدتنا في تحرير تاريخ المولد الشّريف. فكسرى تولّى ملك الفرس من سنة 531 إلى سنة 579 للميلاد وكان مشهوراً بالعدل، ناهيك أنه انتصف من نفسه لخصيّ، وكان مكرّماً للعلماء ومحبّاً للعلم، وفي أيّامه ترجم كتاب كليلة ودمنة من العبرية للغة الفرس، وفي الاصطلاح السياسي العصري لا يجوز تعريف الفرس بهذا الاسم بل حكم الشاه بهلوي بنسبتهم لأصلهم الإيراني، فقل إيران، ولا تقل فارس.

وأمّا عام الفيل فهو عام مولده ﷺ، ويوافق في التاريخ المسيحي سنة 571 على ما رواه ثقاة الحساب المسلمين البارعين في الفنون الرّياضية، منهم الباشا محمود حمدي المصري الفلكي الذي سيأتي ذكره، وهذا العام يوافق العام 42 من ملك كسرى الذي نقله لنا ابن خلدون.

وزعم الرّاهب (كولبو) من حزب المبشّرين بالحبشة في تاريخه الكبير لهذه البلاد، أنّ عام الفيل كان سنة 569 للميلاد، وهذا القول يوافق ما نقله ابن الأثير من أنّ عام الولادة الشريفة ـ وهو نفس عام الفيل على القول

المشهور ـ كان سنة 892 لذي القرنين، هذا إذا جوّزنا أنّ ذا القرنين هو نفسه الإسكندر المقدوني المتوفى سنة 323 قبل الميلاد، لأنّ السنة 892 المذكورة آنفاً موافقة بالحساب الشّمسي لمجموع المدّة الواقعة بين موت الإسكندر المقدوني وبين عام الفيل. ولا تعجب إذا قلت لك أنّ ذا القرنين والمقدوني إسكندران اثنان لا إسكندر واحد. وقال المسعودي في مروج الذهب: إنّ عام الفيل يوافقه سنة 882 لذي القرنين لا سنة 892، وإذا تعارضا تساقطا، وليس هذا الخلاف بالوحيد في هذا المقام بين المؤرّخين، فإنّ الرّوايات فيه كثيرة ليس فقط عند مؤرّخي الإفرنج، بل وعند رجال الحديث وأصحاب السّير ومؤرخي العرب أيضاً، ولكنهم أي علماء الإسلام، لم يهملوا الأمر، بل اجتهدوا في نقده إلى أن بلغوا فيه لدرجة التّرجيح الذي كانت غايته النّتيجة المتّفق عليها اليوم عند جمهور العلماء في الشّرق والغرب، يعني وقوع المولد في الثاني عشر من ربيع الأول، الموافق لخمسين يوماً مضت على حضور الفيل لهدم البيت الحرام بقيادة أبرهة الأشرم الذي سنتكلّم عليه، وبهذا القول الذي رجّحه أيّمة الإسلام يوافق المولد النبوي يوم 20 نيسان (إبريل) سنة 571 للميلاد وهو تاريخه الصّحيح الذي حرّره بالحساب الفلكي المدقّق لثمانين سنة ماضية العلاّمة الوزير محمود حمدي باشا المصري المعروف بالفلكي، وهذا الرّجل الرّياضي المشهور يعدّه أهل الشّرق من كبار رجال النّهضة المصرية، درس العلوم الرّياضية بباريس في عهد سعيد باشا بن محمد علي الكبير وصنّف في سنة 1858 كتابه في التقاويم العربية قبل الإسلام، بحث فيه عن يوم ولادة النّبيء ﷺ، وعن عمره السعيد، فوصل إلى نتيجة مآلها أنّه ولد في 9 ربيع الأول الموافق 20 نيسان (إبريل) سنة 571 للميلاد، وأنّه مات عليه السّلام عن 63 سنة قمرية وثلاثة أيام، ودقّق النظر في هذا البحث لغاية أدّته لثبوت كون العرب كانوا يعملون بالحساب القمري الصّرف، وارتأى أنّ العرب في العصر الجاهلي لم يكونوا يعرفون السّاعات التي ينقسم إليها اليوم، وهو رأي جماعة من الفرنسيين والانكليز، وله غير ذلك من التّآليف المفيدة في الفنون الرّياضية والطّبيعية

والجغرافية، منها خريطة هندسية محرّرة بغاية الدّقّة للبلاد المصرية معروفة باسمه لهذا الزمان، وتقلّد رحمه الله مناصب ذات شأن، منها وزارة الأشغال العامة، ووزارة المعارف، فزهت العلوم في عهده وأضاءت البلاد بها، وناب عن حكومة بلاده في المجمع الحغرافي بباريس سنة 1875 وفي البندقية سنة 1881، وتولّى رئاسة الجمعية الجغرافية الخديوية، ولما أدركه أجله وصفته الألسن والأقلام بقولها إنّه كان هماماً حازماً محبّاً لوطنه قضى حياته عاملاً على خدمته مجاهداً في سبيل نشر المعارف حتّى توفاه الله فجأة سنة 1303 [1885] وهو محاط بالكتب والأوراق.

هذا وقد رأيت فيما نقلنا عن هذا الوزير الرّياضي أنّ الولادة الشّريفة كانت في 9 ربيع الأول لا في 12 منه، وهذا القول رغم مطابقته ليوم المولد بالحساب الشّمسي (20 نيسان) لا يصحّ اعتباره كيوم للمولد لمخالفته للقول المشهور الذي رجّحه رجال الحديث من أنّ الولادة كانت يوم 12 ربيع الأوّل فحسبنا إلحاقه بالرّوايات المختلفة الواردة في يوم الولادة وهي سبعة على ما جاء في المواهب اللدنية بشرح الزّرقاني، منها يوم 2 ربيع الأوّل إلى أن قال: «وقيل ولد (عليه السّلام) لثمانٍ من ربيع الأوّل وهو اختيار أكثر أهل الحديث، وقيل لعشر منه، وقيل لاثني عشر، وعليه عمل أهل مكّة قديماً وحديثاً في زيارتهم موضع مولده (وربّ الدّار أدرى بما فيها) وقيل لسبع عشرة، وقيل لثماني عشرة منه، وقيل لثمانٍ بقين منه، ثم قال: والمشهور أنّه ﷺ ولد يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأوّل وهو قول محمد بن إسحاق بن يسار إمام المغازي» ا هـ. قلت هو أوّل من كتب في السّيرة النّبويّة وضبط يوم المولد الشّريف وعنه روى عبد الملك بن هاشم، وكان لابن إسحاق الباع الطويل والرواية الثّابتة في الحديث، وثقه الإمام البخاري، ولكنّه لم يخرج عنه في صحيحه لطعن مالك فيه ومات ابن إسحاق سنة 155.

واختلف العلماء في مدة الحمل به ﷺ، فقيل تسعة أشهر، وهو القول الصّحيح الذي اعتمده رجال الحديث، وقيل عشرة، وقيل ثمانية، وقيل

سبعة، وقيل ستّة، الجملة خمسة أقوال، قول راجح، وأربعة مرجوحة يمجّها الذّوق السّليم، لتلبّسها إمّا بالنّقص في حالة الولادة في الشّهور السّادس والسّابع والثّامن، وإمّا بعلّة في حالة الولادة فيما بعد الشّهر التاسع الذي هو أجلها الطبيعي لكافّة البشر. نعم إنّ الجنين يكون عند زرع الروح فيه بإذن خالقه مستكمل الخلقة ابتداء من الشّهر السّادس من مدّة الحمل، ولكنّه إذا ولد قبل نهاية الشّهر التّاسع تكون ولادته سابقة الإبّان كباكورة الثّمار، وهذه دون أختها التي يكمل نضجها في وقتها الطبيعي، وقول من يرى أنّ الجنين المتزايد في الشّهر الثّامن لا يعيش، وأنّ النّبيء ﷺ ولد فيه وعاش وتلك معجـزة له عليه السّلام كما وقع لأخيه عيسى صلوات الله عليه. فهذه رواية من قبيل أحاديث القصّاصين ليست من الصّحّة بمكان، فأوّلاً لأنّ عيسى عليه السّلام حملت به أمه وولدته في ساعة واحدة وهو القول الصّحيح الذي اتّفق عليه جمهور العلماء، وثانياً لأنّ العلم أثبت أنّ المولود الثّموني متوفّرة فيه شروط العيش أكثر من المولود السّبوعي المتّفق بين النّاس على عيشه، ولكن دون المولود الذي يولد في تمام الشّهر التّاسع الذي هو منتهى المدّة الطبيعية للحمل، والإحصائيات الطّبّية جاءت مؤيّدة لذلك كما يؤيّده العقل والذّوق السّليم. فولادة الجنين قبل إبّانه غير متوفّرة فيها شروط استكمال التّكوّن المرتبط بمدّة التّسعة أشهر، وهو نقص لمخالفته لنواميس الخليقة، ومقام الأنبياء منزّه عمّا ينقصهم عن بقيّة البشر. ولو أراد الله جعل معجزة للنّبيء عليه الصّلاة والسّلام متلبّسة بحمل أمّه به لفعل ذلك بما فيه الإعجاز الذي هو خرق العوائد، وهو سبحانه وتعالى إنما يقول للشّيء كن فيكون، وليس من الإعجاز في مجاري العادات الولادة في الشّهر الثّامن من الحمل، ولم يثبت أن الذي يولد فيه لا يعيش.

والمقام يقتضي الإطناب لأهميّة الموضوع، لذلك ننقل هنا بعض ما وقفت عليه ممّا كتبه كبراء المستشرقين في هذا المقام، ومنهم العلاّمة (هوار) الفرنساوي، وهو من الأفذاذ الأروباويين الذين توفّقوا في الأعصر المتأخّرة

لكشف اللّثام عن محاسن الإسلام، إذ كتب في التعريف بعلوم الإسلام وعلمائه ما لم يكتبه ابن النديم في كتاب الفهرست. فهذا الرّجل العالم كتب أيضاً تاريخاً عامّاً للعرب، وممّا جاء فيه زعمه أنّ تاريخ مولد النّبيء ﷺ ليس له أساس يعتمد عليه لضبطه بالتّدقيق، ولكنّ المؤرخ (لافيس) من أكابر المؤرّخين الفرنساويين أثبت في تاريخه العام أنّ النّبيء ﷺ ولد في 20 نيسان (إبريل) سنة 571، وهذا التّاريخ يطابق ما اتّفق عليه أيّمة المسلمين من أنّه ﷺ ولد في فصل الربيع، وفي شهر ربيع الأوّل. وقال المستشرق الطلياني (فراكاسي) مترجم القرآن أنّ الولادة كانت في 20 نيسان، ولكنّ العام هو سنة 570 أو 571، فهو متّفق معنا في الشّهر، ومتشكّك في العام. وممّن يقول بأنّ الولادة كانت في عام 570 المستشرق (كوسان برسفال) وزاد على ذلك بزعمه أنّها كانت في 29 من شهر آب (أغشت) الذي هو أشدّ شهور الحرّ، وعنه نقله المستشرق (كازمرسكي) في مقدّمة ترجمته للقرآن، وقال إنّه نتيجة بحث طويل عريض، وهذه الرّواية لم يقل بها أحد غيره لأنّ الولادة كانت كما قدّمناه في شهر ربيع الأوّل من فصل الرّبيع كما أثبته أهل الذّكر من حساب الإسلام، وكما رجّحه رجال الحديث، وكُتّاب السّيرة النّبويّة منهم الخوارزمي على ما رواه الإمام القسطلاّني، وكفى به حجة. نعم إنّ بعض أرباب السّير روى في تاريخ الولادة أقوالاً كثيرة منها أنّه ﷺ ولد في المحرّم يوم عاشوراء، ومنها أنّه ولد في رجب، ومنها أنّه ولد في رمضان، وهذه كلّها روايات مرجوحة لم يعتمدها رجال الحديث، ودفعوها بأدلّة قاطعة مذكورة بمحلها من كتب السُّنّة. فتحصّل من جميع ما تقدّم أنّ مولد النّبيء ﷺ كان بمقتضى ما رجّحه جمهور علماء الإسلام في ثاني عشر ربيع الأوّل من عام الفيل يوافقه بالتّاريخ المسيحي يوم 20 نيسان (إبريل) سنة 571. ولقائل أن يقول هنا أنّ مبتكر فكرة الاحتفال بالمولد في الإسلام يعني مظفّر الدّين ملك أربل كان يحتفل به على التّناوب مرّة في اليوم الثّامن، ومرّة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأوّل. والجواب أنّ هذا العمل لا يستفاد منه أكثر من معرفة درجة التّورّع الذي كان عليه الملك المشار إليه، شكر الله سعيه، فإنّه لمّا كان

مقصوده العناية بالمولد النّبوي وليلته على ما قصّه علينا التّاريخ، ناهيك أنّه كان ينفق في ذلك السبيل ثلاثمائة ألف دينار كلّ عام، كان همّه محصوراً في التّوفيق بين صنيعه وبين الوقت الحقيقي المطابق للولادة الشّريفة، للتّبرّك به حتى لا يفوته وقتها ولو على القول المرجوح. ولهذا السّلوك أشباه ونظائر حتى في زماننا هذا، فقد سمعنا غير مرّة من إخواننا الذين أكرمهم الله بحجّ البيت الحرام، أنّهم وقفوا مرّتين في يومين متتابعين بجبل عرفات، أحدهما يوم الجمعة مظنّة موافقة يوم الوقفة ليوم الجمعة الذي هو يوم الحجّ الأكبر حتى لا يفوتهم فضلها على كلا الاحتمالين، ولو اكتفوا بوقفة واحدة لكان حجّهم صحيحاً بما لا ريب فيه.

بقي علينا البحث فيما هو اليوم الأسبوعي الذي وافق المولد، وهل الولادة كانت ليلاً أو نهاراً، وهذا الباب استغرق أيضاً مجلّدات، وأنفد دنونا من المداد، لما تناوله من اختلاف الأقوال، وتناقض الرّوايات. والذي رجّحه أهل الذّكر هو أنّ الولادة كانت يوم الاثنين، ففي المواهب اللدنية سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم الاثنين فقال: «ذاك يوم ولدت فيه وأنزلت عليّ فيه النّبوّة» يعني بداية الوحي الشّريف. وقوله يوم الاثنين يستفاد منه أنّ الولادة كانت نهاراً لا ليلاً، كما قال به بعض رواة الحديث، بناءً على ما ورد من تدلّي النجوم في رواية البيهقي، وكلام البيهقي ردّه دحية من كبار رجال الحديث. وقال الزّركشي (غير المؤرخ) إنّ زمان النبوة صالح للخوارق، ويجوز أن تسقط النّجوم نهاراً ا هـ.

والخلاصة إنّ القول الصّحيح الذي اعتمده أكثر رجال الحديث، هو أنّ الولادة كانت عند الفجر، والفجر أوّل منازل النهار، وهذا القول يستفاد صراحاً من جواب عبد المّطلب جدّ النّبيء عليه السّلام للرّاهب (عيص) الذي كان أعلمهم من قبل باقتراب ظهور النّبيء العربي المبشّر به في الإنجيل، وعبارة عبد المطّلب «ولد لي الليلة مع الصّبح مولود» فأفادت المعيّة أنه عند طلوع الفجر. وقال الخوارزمي إنّ يوم الولادة هو 20 نيسان (إبريل) وبه قال

جماعة من أهل الحديث، وبه قال محمود باشا المصري، وبه قال المؤرّخ (لافيس) الفرنساوي وغيره من المؤرخين. فالولادة الشّريفة كانت يوم الاثنين، وساعتها هي الفجر، وبعبارة أفصح ولد رسول الله ﷺ مع صبح يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأوّل على القول المشهور، وذلك عام الفيل، الذي يوافقه بالحساب القمري عام 42 لملك كسرى (53 قبل الهجرة)، وهذا يوافقه بالحساب الشّمسي يوم الاثنين موفّي 20 نيسان (إبريل) سنة 571 للميلاد ولم يبق بعد هذا محل للانتقاد ولا مجال للعناد.

بقيت لي ملاحظة نوردها هنا في حق أبرهة وجيشه، والفيل الذي جاء به لهدم الكعبة المشرفة، فأبرهة ويعرف بالأشرم لضربة سيف شرمت شفته وأنفه وحاجبه، ومعنى أبرهة في اللسان الحبشي هو أبراهم في العبرية وإبراهيم في العربيّة، وكان والياً على اليمن للنّجّاشي أصحمه، كما جاء لفظه في التّواريخ العربية، وصوابه أصبحه كما هو أصله في اللغة الحبشية، والجيش الذي جاء به كان عدده ستّين ألفاً التحق بهم أصحاب الجرائم الذين كانوا في سجنه وعددهم نحو الألف شقي، والفيل المصاحب له الذي قصّ علينا القرآن خبره، قالوا إنّه أبيض اللّون، واسمه محمود، ولعلّه لفظ محرف عن «ماموت» الذي هو اسم صنف قديم من الفيلة انقرض نوعه في الزمن البعيد. وفي رواية ابن خلدون أنّ هذا الفيل كان برأس سرب من الفيلة عدده ثلاثة عشر، وقيل أكثر من ذلك، وكان القصد من إحضار تلك الحيوانات الضّخام التي لم تكن معروفة إذ ذاك بالحجاز وهو إرهاب العرب وحسب، لأنّ أبرهة ـ وكان يدين بالنصرانية ـ لم يجىء للمحاربة، بل لمجرد تخريب البيت الحرام، أخذاً بالثّأر من العرب قبل اعتناقهم للإسلام، لأنّهم سخروا به لما بنى كنيسة فخمة بصنعاء اليمن بنية تحويل حجّ العرب إليها عوض حجّهم للبيت الحرام. فقد أخبر قريشاً وسيّدهم عبد المطّلب أنه لا يحاربهم إلا إذا منعوه من هدم الكعبة المشرّفة. والقصّة معروفة في كتب التّفسير والحديث والسّير وغيرها، إنّما تضمّن حديثها عبارة لبست ثوب الخلود، وهي قول عبد المطّلب «إنّ للبيت ربّاً يحميه» وعبد المطّلب هو جدّ الرّسول عليه السّلام

من جهة أبيه، وكان سيّد قريش، ولم يكن قسّيساً كما زعمه المؤرّخ (كولبو) راهب الحبشة الذي نعته بقوله «القسّ الأكبر للكعبة»، فلمّا حضر عبد المطّلب لدى أبرهة في طلب إبله التي اغتصبها منه أتباع أبرهة قال له أبرهة «إنّي أكبرتك عند رؤيتك فلما طلبت الإبل زهدت فيك لأنّه كان أولى بك أن تطلب منّي الرّجوع عن نيّة هدم الكعبة دين آبائك وأجدادك» فقال له عبد المطّلب: «طلبت منك الإبل لأنّي أنا ربّها وللبيت ربّ يحميه» وهكذا كان، فإنّ الله تعالى حمى بيته بإرسال الطّير الأبابيل (ومعناه الجماعات ولا مفرد له من لفظه) شبيهة بالخطاطيف، وكانت تحمل في مناقرها ومخالبها حصاة صغيرة بمقدار العدسة طلتها يد الأقدار بجراثيم الجدري، ولم يكن معروفاً قبل ذلك العام بالحجاز، فكان كلّ من أصابته حصاة منها هلك بوقته. وقد استفيد حديثاً من نقوش تاريخيّة كشف عنها الأثري (كلازير) بجهة سدّ مأرب، أنّ أبرهة كان يطلق على نفسه في تلك النّقوش المكتوبة بالقلم الحميري لقب «الأمير التّابع لملك الحبشة ملك سبا وريدان وحضرموت ويمنات (جمع لبلاد اليمن) وعرب نجاد (نجد) وعرب السواحل».

والفيل نوعان؛ إفريقي ولونه أشهب، وهندي ولونه أبيض. والأوّل أضخم من الثّاني، وهو أجسم الحيوانات ذوات الثّدي، مشهور بالذّكاء والهدوء والرّأفة، ويعيش أسراباً. ورأيت في بعض التّفاسير أنّه لا يلد متى كان في قيد الأسر، وهو وهم، فقد نشرت الجرائد في العام الفارط رسم فيل صغير ولد بفرنسا لإحدى الفيلة التي جاءت مع (سيرك عمّار) لتونس لعامين فارطين، وفي هذا الشّهر أخبرت الجرائد بولادة فيل آخر بأروبا. قال الراوي: إنّه الثاني عشر فيلاً الذي ولد بها بالمشاهدة الصّحيحة. وقال ابن خلدون إنّ الحيوانات الضارئة لا تلد في الأسر. وأنا رأيت بعيني لبوة وحولها شبلان بمتحف الحيوان بمدينة بوردو ولدا قبل ذلك بأسبوع، ولها في الأسر ثلاث سنين مع أسدين فحلين. قالوا إنّ الولد للفراش وللعاهر الحجر. وما سمعناه ورأيناه لا يناقض القول الآخر لأنّ الحقيقة هي أنّ تلك الحيوانات يقلّ نسلها في قيد الأسر عن حالتها في القفار وفي رؤوس الجبال، لذلك قال ابن

خلدون وغيره بأنّها لا تلد في الأسر، يعني إذا وقع عكس ذلك كان من الشّاذّ الذي لا حكم له. ونختم هذه النّبذة المباركة ونلفت نظر القارىء لمولد عام 1359 [1940] القابل، فإنّ يومه سيوافق كما في البدء يوم 20 نيسان (إبريل) الذي ولد فيه رسول الله ﷺ:

ولا يستهـلّ الملك إلّا لأهله ولا ترجع الأيّام إلّا إلى الشّهر(*)

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 1 ـ الجزء 9 (ماي 1937).

التّأريخ بالهجرة الشّريفة

عند انبلاج صبح اليوم الأوّل من محرّم الجاري، استقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها عاماً هجرياً جديداً، وهو عام ثمانية وخمسين وثلثمائة وألف، عرّف الله خيره، فذلك اليوم المبارك جدير بأن يلفت بذكراه أنظار عامّة المتلفّظين بكلمة التّوحيد نحو صاحب الهجرة الشّريفة ألا وهو سيّدنا ومولانا محمد ﷺ الذي بعثه الله إلى الخلق بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

أمّا المقصود من هذا التّحرير، فهو الإلمام بحديث الهجرة النّبوية من حيث اتّخاذها مبدأ للتّاريخ بالنسبة لعامّة المسلمين. ذلك أنّ الأمم كانت في الزّمن المتقدّم على البعثة المحمّدية تؤرّخ بحوادث الأزمان، وأوّلها بدء الخليقة بعد هبوط آدم عليه السّلام، وهذا التّاريخ مستفاد في زعمهم من التّوراة المكتوبة باليونانية، وقد قدّروه بستّة آلاف سنة ومائتين وستّ عشرة سنة قبل الهجرة، وهو قول المؤرّخين، وخالفهم فيه الفلكيون حيث قالوا إنّ بين هبوط آدم والهجرة، خمسة آلاف وسبعمائة وتسعا وستّين سنة، والقولان مخالفان لما جاء في نسخة التّوراة السّريانية، وهذه بدورها مخالفة لنسخة التّوراة العبرانية، فالتّاريخ بمبدأ الخليقة ضرب من الرّجم بالغيب، لا سيما وأنّ علم طبقات الأرض، وهو من العلوم الحديثة التي حفّت من أجلها الأقلام وجفّ مداد المحابر، قضى على مثل هاتيك المزاعم بالدّليل والحجّة. والمقام لا يقتضي الإطناب لأنه يبعدنا عن المقصود، إنّما تعرّضت

له بطريق الإشارة المجرّدة توطئة لتسجيل بعض التّواريخ المشهورة في قدم العهود، كالتّاريخ بطوفان نوح عليه السّلام، وبينه وبين الهجرة ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربع وتسعون سنة على اختيار المؤرّخين، ودونه بنحو مائتين وسبعين سنة على اختيار الفلكيين، وهم المنجّمون في اصطلاح الأقدمين. قال في عيون المعارف: إنّهم بعد الطوفان أرّخوا بنار إبراهيم عليه السلام، ولمّا تفرق بنوه من بعده، أرّخ بنو إسحق بنار إبراهيم إلى زمن يوسف، ومن يوسف إلى مبعث موسى، ومن موسى إلى ملك سليمان عليهم السلام، ثمّ أرّخوا بما كان من الكوائن، ثم بخروج اليهود إلى التّيه (بكسر التاء المشددة وبفتحها مع سكون الياء ـ معناه الكبرياء)، ثمّ أرّخوا بخراب بيت المقدس، وأمّا بنو إسماعيل عليه السّلام، فأرّخوا ببناء الكعبة المشرّفة، وداموا كذلك إلى أن تفرّقوا، فأرّخوا بعد ذلك بما اشتهر بينهم من الوقائع الهامّة كيوم الفجار، وحرب البسوس، وسيل العرم، وعام الفيل، وفيه ولد رسول الله ﷺ في العشرين من نيسان 571 للميلاد.

وأمّا النّصارى، فقد كانوا يؤرّخون أيضاً بحوادث أزمانهم، وهي كثيرة، من أشهرها غلبة الإسكندر على الفرس، واستقرّ تاريخهم في ميلاد عيسى عليه السّلام.

والفرس ـ وهم أرقى الأمم في الزمن القديم ـ كانوا يؤرخون بملوكهم، وآخر تاريخ لهم هلكة (يزدجرد)، وقس على ذلك ما حفظه التاريخ من أسماء بقية الشّعوب والأمم البائدة والباقية، فكلّ أمّة كان لها تاريخ تؤرّخ به كالأشوريين، والكلدان، والأقباط والأنباط، وغير ذلك ممّا لا يدخل تحت حصر. وهذا يغنينا عن الإشارة لكون أهل الصّين والهندوس أصقاع الشّرق الأقصى يدّعون انقضاء عشرات الألوف من السّنين على تاريخهم، ومن أراد زيادة البيان فعليه بالرّجوع لخطط المقريزي.

ولنضرب صفحاً عن كلّ ذلك لنقول أنّ التّاريخين القديمين اللذين لهما علاقة في هذا الزّمان بأهل تونس، هما التّاريخ المسيحي، ونحن في عامه

التّاسع والثلاثين بعد تسعمائة وألف، وتاريخ اليهود، وهم في عامه التّاسع والتّسعين وستّمائة وخمسة آلاف. هذا وقد اختلف المؤرّخون والفلكيون في مدة الزّمان الواقع بين تاريخ الميلاد وبين الهجرة الشّريفة، ولكلا الشّقّين أقوال وأنقال، والشّيء الذي اعتمده كتّاب التّاريخ ودرجوا عليه في هذا الزمان، هو أنّ الهجرة النّبوية كانت في اليوم الموافق لسادس عشر تموز، وهو اسم شهر يوليه في السّريانية، من سنة اثنتين وعشرين وستمائة للميلاد، وهذا اليوم يوافقه الجمعة في حساب الأيّام. قال بعض العلماء إنّ الهجرة كانت بالجمعة، ولكنّه قول شاذّ. وفي قول ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ خرج مهاجراً يوم الاثنين وقيل كان خروجه من مكّة المكرّمة يوم الخميس. وقال في المثل الكامل: إنّ النبي ﷺ دخل إلى المدينة المنوّرة بعد أن صلّى الجمعة بمسجد قُبَا، وقُبَا من أحواز دار الهجرة، وكان الأنصار محيطين به وهم متقلّدون سيوفهم، فسرّ أهل المدينة أيّما سرور، وقد خرج لملاقاته فيمن خرج النّساء والصّبيان والولائد ينشدن:

أَشْـرَقَ ٱلْبَـدْرُ عَلَيْنـا ... مِـن ثَـنِيَّـات الـوَداعِ
وَجَبَ ٱلشُّكْـرُ عَلَيْنـا ... مَـا دَعَـا لِـلَّهِ دَاعِ
أَيُّهَـا ٱلْمَبْعوثُ فِينَـا ... جِئْتَ بِـٱلأَمْـرِ ٱلْمُطَاعِ

وللأبيات بقيّة لم يذكرها صاحب المثل الكامل، ننقلها هنا ترحيباً بدخوله للمدينة عليه السّلام:

صِـلِّ يَـا رَبِّ عَـلَيْـهِ ... مَـا دَعَـا لِلَّـهِ دَاعِـي
أَقْـبَـلَ الْبَـدْرُ عَـلَيْنَـا ... وَاخْـتَفَـتْ مِنْـهُ الْبُـدُورْ
مِثْـل وَجْهَـك مَـا رَأَيْنَـا ... قَطُّ يَـا وَجْـهَ الـسُّرُورْ
أَنْـتَ شَـمْسٌ أَنْـتَ بَـدْرٌ ... أَنْـتَ نُـورٌ فَـوْقَ نُـورْ
أَنْـتَ وَاللَّهْ يَـا مُـحَـمَّـدْ ... أَنْـتَ مِفْـتَـاحُ الـصُّدُورْ
وَأَتَـانَـا بِـكَ غَـيْـثٌ ... حَـلَّ في كُـلِّ الْبِقَـاعْ
وَجَـبَ الـشُّكْـرُ عَـلَيْنَـا ... مَـا دَعَـا لِلَّـهِ دَاعِـي

يَـا إِمَـامَ الْـمُـرْسَلِيـنْ   يَـا شَفِيـعَ الْـمُـذْنِبِيـنْ
أَرْسَلَكْ مَـوْلَى الْـمَـوَالِي   رَحْـمَـةً لِلْعَـالَـمِـيـنْ
قَـالَ رَبِّ فَـادْخُـلُوهَـا   بِـسَـلَامٍ آمِـنِـيـنْ
مَـرْحَبـاً أَهْـلًا وَسَهْـلًا   بِـكَ يَـا بَـدْرٌ تَـجَـلَّى
أَشْـرَقَتْ شَمْسُ الْمَعَـانِي   قَـدْ بَـدَا وَجْهُـكْ يُجَلَّى
وَانْـجَـلَى بِـكَ الـظَّلَامْ   مِنْ سَنَى حَـزْمِـكْ وَوَلَّى
يَـا إِلَاهِـي بِـالْـمُـشَفَّـعْ   صَـاحِبَ الْقَـدْرِ الْمُـرَفَّعْ
لَا تُـخَـيِّـبْ يَـا إِلَاهِـي   كُـلَّ مَنْ حَضَرْ وَيَسْمَـعْ[1]

قلت هذا الكلام الموزون ينسبونه للطيّبات الصّالحات بنات النّجّار رضي الله عنهن، وبنو النّجّار هم أخوال رسول الله ﷺ من جهة أبيه، يعني أخوال عبد الله بن عبد المطّلب.

واختلف العلماء فيمن وضع التّاريخ الهجري، فبعض المحدّثين روى بسنده إلـى ابن شهاب أنّ النّبيء ﷺ لمّا قدم المدينة في شهر ربيع الأوّل، أمر بالتّاريخ، وعلى هذا القول يكون ابتداء التاريخ الهجري في عام الهجرة، ولكنّ هذه الرّواية يخالفها المشهور بين جمهور العلماء، وهو أنّ ابتداء التّاريخ بالهجرة كان في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. قال الحافظ الشّيخ أبو الفرج بـن الجوزي، من أعلام المائة السادسة: دفع إلى عمر صكّ محلّه شعبان، قال عمر شعبان هذا الذي مضى أو الذي هو آتٍ أو الذي نحن فيه؟ ثمّ جمع أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لهم: ضعوا للنّاس شيئاً يعرفونه، فقال قائل: اكتبوا تاريخ الفرس كلّما قام ملك طرح ما كان قبله، فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله ﷺ، فوجدوه أقام بالمدينة عشر سنين، فكتب التّاريخ على هجرة رسول الله ﷺ. وقال سعيد بن المسيّب: أول من كتب التّاريخ عمر رضوان الله عليه، لسنتين ونصف من خلافته،

---

(1) يظهر للقارىء أنّ بقية الأبيات فاقدة للرّوح العربية، فلعلّها من نظم بعض المتأخّرين ذيّل بها الأصل (المجلّة).

فكتب لستّ عشرة من المحرّم بمشورة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه. وقال غيره من الرّواة: إنّ عمر كتب التّاريخ في شهر ربيع الأوّل سنة ستّ عشرة، فكتبه من هجرة النّبيء ﷺ من مكة إلى المدينة. وقال القلقشندي في صبح الأعشى بالنقل عن ذخيرة الكتاب: لمّا أراد عمر التّأريخ، جمع النّاس للمشورة، فقال بعضهم نؤرّخ بمبعث النّبيء ﷺ، وقال بعضهم بل بوفاته، وقال بعضهم بل بهجرته من مكّة إلى المدينة، لأنّها أوّل ظهور الإسلام وقوّته، فصوّبه عمر، واجتمع رأيه عليه. ثم قال: وكان وقوع ذلك في اليوم الثّاني عشر من شباط (أي فبراير) سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين لذي القرنين.

ونقطة الاتّفاق بين أصحاب تلك الأقوال المختلفة التي ذكرناها، هي أن قائليها وغيرهم ممّن لم نذكره، أجمعوا على أنّ عمر رضي الله عنه، لمّا وضع التّاريخ الهجري، ردّه لليوم الأوّل من محرّم، بمعنى أنّه ابتدأ حساب التّاريخ لا من يوم استقرّ قراره على وضعه، بل من مستهلّ المحرّم الواقع في عام الوضع، مع اعتبار المدّة التي مضت قبل ذلك من يوم الهجرة الشّريفة إلى غرّة محرّم عام الوضع، وعلى مقتضى تلك النّتيجة الثّابتة الصّحيحة جرى عمل المسلمين من عهد عمر بن الخطّاب إلى هذا الزّمان، وسيبقى إن شاء الله كذلك ما بقي الدّهر.

وإذا كان وضع التّاريخ الهجري وقع سنة ستّ عشرة بعد الهجرة، فلتعلم أنّ وضع التّاريخ المسيحي لم يقع إلاّ بعد الميلاد بنحو أربعة قرون، وقد رأيت فيما تقدّم الاضطراب الذي تناول تاريخ اليهود قبل استقراره فيما هو عليه اليوم.

هذه خلاصة القول في وضع التّاريخ الهجري بالنّقل عن المسانيد الصّحيحة، وبقي لنا الكلام على يوم رأس العام، أهو موسم أم لا؟ وسرعان ما نقول إنه ليس بموسم شرعي، والمواسم الشّرعية معروفة وهي: عاشوراء، وليلة القدر، واتّفق جمهور العلماء على أنّها ليلة السّابع والعشرين من شهر رمضان ولفظ رمضان إذا قصد به شهر الصّيام لا بدّ من تقديم لفظ شهر قبله،

ومثله الرّبيعان الأوّل والآخر، ولا يقال ربيع الثّاني، لأنّه ليس لهما ثالث، وكذلك الجماديان الأولى والآخرة، وهذا الخروج عن الموضوع جاءت به القافية. فلنعد لما كنّا بصدده لنقول إنّ بقية المواسم الشّرعية هي: يوم عرفة - والجبل عرفات -، ويوما الفطر، والأضحى، ولك أن تقول النّحر. واختلفوا في ليلة المعراج من رجب، وفي ليلة نصف شعبان هل هما موسمان شرعيان، أم لا. ولا خلاف في أنّ موسم المولد الشّريف ليس بموسم شرعي اتّفاقاً، لأنّه حدث في أوائل المائة السّابعة، وإنّما تلبّست به صبغة المواسم في هذه الدّيار وفي غيرها من بلاد الإسلام من أجل العادات والسّنن المباركة التي قضت بإلحاقه بالمواسم العظمى، تنويهاً بقدره، وإشهاراً لذكره.

أمّا يوم رأس العام الهجري، وإن هو ليس بموسم في أصله، فقد تقرّر اعتباره في البلاط الحسيني منذ نحو مائة سنة كموسم رسمي، صاروا يحتفلون به ويقيمون له موكباً خاصّاً بدار الإمارة، ولكنّه دون موكب المولد والعيدين. وهذه المواسم الثّلاثة صار اعتبارها مع موسم عاشوراء أعياداً قانونية بتونس، يتمتّع بعطلتها كلّ المتوظّفين والمستخدمين بالمصالح العمومية، حتّى الذين لا يدينون بدين الإسلام. واعلم أنّ موسم رأس العام بتونس بدأ ضئيلاً، ثمّ تدرّج في مدارج الفخامة والظّهور، إلى أن بلغ للحدّ الذي هو عليه الآن، وحديثه هو ما نقصّه عليك. ففي الدّولة المرادية وما قبلها كانت المواسم بهذه الدّيار، هي المواسم الشّرعية، والمولد النّبوي، وكان لهم مع ذلك موسم ربيعي، نسبة لربيع الزّمان، لا لربيع الشّهور، يقيمونه في شهر ماية، وصفه المؤرخ ابن أبي دينار[2] وصفاً حسناً، وهذا الموسم بقي له أثر بتونس إلى الأزمان المتأخّرة، ولعله انقرض تماماً في هذا العهد.

وكان عامّة السّكّان من أهل المدن يستقبلون العام الجديد في افتتاحه

---

(2) [«المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس» لابن أبي دينار - تحقيق محمد شمّام - تونس (الطبعة الثانية) ص 307 - 308].

بأكل بعض الحلويات، وأشهرها عندهم المقروض[3]، لا يبغون بغيره عنه بديلاً. فقد حكي في المؤنس[4] بإسناده لغيره قوله: عجبت لمن في بيته المقروض كيف ينام الليل. وكان الطعام الذي لا يتخلّفون عن أكله يوم رأس العام، هو الملوخية، يفعلون ذلك تفاؤلاً بالخير لما في خضرتها من الرّجاء وحسن الأمل، وهي لم تكن معروفة عند العرب قبل المائة الرّابعة. قالوا إنّ الأطبّاء وصفوها للمعزّ لدين الله عند نزوله بمصر حيث لم يوافقه طقسها، فدبّروا له قانوناً من العلاج، في جملته ورق الملوخية، وكان اسمها يومئذٍ الملوكية، فوجد لها نفعاً في التّبريد والتّرطيب، وعوفي من الإمساك الذي كان به، فتبرّك بها، وسار من ذلك الحين ذكرها وانتشرت في البلاد. هذا حديثها والعهدة فيه على غيري، لأنّي ناقل لا مبتكر، بيد أن هذا التّعريف يدعوني للإشارة لقول من يقول إنّ لفظ (ملوخية) ربما كان مقتبساً من (الملنخوليا) في اليونانية، وهي الموافقة لكلمة (ميلانكلي) (Mélancolie) في الفرنساوية، ومعناها قريب من السّوداء. ولم يتعرض لها الشّيخ داود في التّذكرة بأكثر من قوله: ملوخيا ويقال ملوكيا من الخبازي. ومهما كان الحال فعادة أكل الملوخية بالديار التّونسية يوم رأس العام، مضت عليه القرون بحيث إنّك لا تجد بيتاً أهلياً بشهيرات المدن التّونسية غنيّاً عنها في مستهلّ كل عام جديد، وما زالت الأمّهات عالقات بها، وحريصات على عدم إغفالها، والعادة طبيعة خامسة في الإنسان.

هذا ومن المقرّر المعلوم أنّ البيوت التّونسية، وعلى رأسها البيت الحسيني الرّفيع العماد، وآله هم السّادة القادة لأهل البلاد، ومن أشهرهم ذكراً، وأوفرهم فخراً، المشير الأوّل أحمد باي[5]، فهذا الأمير هو الذي سنّ موسماً لرأس العام بالتّوسيع فيه على حاشيته، وأهل قرابته، حيث افترض

---

(3) [نوع من المرطّبات المحشوّة بالتّمر اشتهرت به مدينة القيروان على وجه الخصوص].

(4) [المؤنس - ص 504].

(5) [مدة المشير أحمد باي الأوّل (1837 - 1855)].

بميزانية دولته ترسيم اعتماد مالي خاص بذلك اليوم، وكان هذا المال في البداية قدره خمسمائة ريال من مضروب سكّة الفضّة، وكان صرف الرّيال الفضّي في ذلك الزمان خمسة ريالات، إلّا أنّه لم يشترط في ذلك المال أن يكون بضرب العام الجديد، بل كان يكتفي بتوزيع قطع جديدة من ضرب أيّ عام كان، حتّى إذا استقرّت تلك العادة، ورسخت بين أهل السّراية الملكية فكرة الفرح والازدهاء والاحتفال برأس العام، توسّعوا في ذلك بطبيعة الحال - وكلّ حي نام - إلى أن تلبّس ذلك اليوم بالصّبغة الموسمية بين أهل الدّولة بوجه عام.

ولما استوى المشير الثاني محمد باي[6] على العرش الحسيني، ابتدأ من حيث انتهى سلفه، فقرّر سنّة توزيع المسكوك ذهباً وفضّة من ضرب العام الجديد، ورتّب لذلك موكباً رسمياً ينتصب فيه لقبول التّهاني من آل بيته ورجال دولته. وعلى قياس صنيع هذا الباي، جرى عمل أخيه المشير الثالث محمد الصادق باي[7]، بزيادة عناية وتفخيم في مظهر الموكب المنعقد يوم رأس العام، حيث كان ينتصب له بقصر باردو، واتّفق له ذات مرّة حضور هذا الموكب السنوي بكسوة الأنكشارية التي اتّخذها عام 1281 [1864]، فكان رأسه متوّجاً بعمامة من الحرير المقصّب، زادته مهابة وجلالاً، ومثله كان لباس وزرائه وأهل دولته. سمعت من الوزير المرحوم السيد الطاهر خير الدين[8] أنّه كان لديه رسم ذات والده بالزّيّ المتحدّث عنه.

ولما تولّى المقدس المبرور المولى علي باي الثالث[9] أريكة الملك الحسيني، نسج على منوال أسلافه الأكرمين، فعقد لعهده أوّل موكب لرأس

(6) [مدة المشير محمد باي (1855 - 1859)].

(7) [مدة المشير محمد الصادق باي (1859 - 1882)]

(8) [الطاهر خير الدين هو ابن الوزير الأكبر خير الدين باشا التونسي. انظر ترجمة حياته في «تراجم الأعلام» للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور - ص 247]

(9) [مدة علي باي الثالث (1882 - 1902)].



أحمد باشا باي الثاني

العام في غرة المحرم سنة 1300 [1882] بقصر المرسى المعمور، وممّن حضر هذا الموكب يومئذٍ حسب ما وقفت عليه بالرائد التونسي، العلاّمة الشّيخ أحمد بن الخوجة[10] شيخ الإسلام، فأجلسه سموّ المولى الأمير ليمينه، وسمع منه في ذلك الموكب المشهود قصيدته التي يقول في مطلعها:

تهلّل وجه الملك بالطّلعة الغرّا   ودار السّرور الصّرف في الأكؤس البشرا

ولم يزل المولى علي باي متحفّظاً بإجراء هذا الموكب في أوقاته إلى آخر ساعاته، غير أنّه لمّا أدركه الهرم في السّنوات الأخيرة من عمره، كان لا يحضر هذا الموكب إلاّ الوزراء، وكبار أهل الدائرة الملكية. وفي مدّة أخلافه المقدّسين المولى محمد الهادي باي[11] والمولى محمد الناصر باي[12]، والمولى محمد الحبيب باي[13]، كان الاحتفال ليوم رأس العام من أفخر مواكبهم، سوى أنّهم لا يلبسون فيه كسوة التّشريفية الكبرى قياساً على أسلافهم في الزّمن الماضي. ويكون انعقاد هذا الموكب بالسّراية التي يسكنها الأمير حسب فصول العام، يعني إمّا بقصر الشّتاء، وإمّا بقصر الصّيف حسب الظروف والأحوال.

أمّا سلوك حضرة وليّ النّعم سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي[14] ـ نضّر الله وجهه ـ فقد جاء معزّزاً ومؤيّداً لسلوك أسلافه المقدّسين بزيادة التّوسّع منه ـ أطال الله عمره ـ في الإنعام والإحسان لمن حول سدّته من أهل الرّفعة والشّأن، ومن تلكم الملاطفات والتّوجّهات، أنّ سموّه الملوكي يتحف بمناسبة يوم رأس العام جناب وزيره الأكبر بهديّة سنيّة، زيادة على مسكوك الذهب والفّضة، وهي عادة سنّها البايات السّابقون، وعادات الملوك ملوك

---

(10) [انظر ترجمة حياة شيخ الإسلام أحمد بن الخوجة في «تراجم الأعلام» ص 91].
(11) [مدة محمد الهادي باي (1902 - 1906)].
(12) [مدة محمد الناصر باي (1906 - 1922)].
(13) [مدة محمد الحبيب باي (1922 - 1929)].
(14) [مدة أحمد باي الثاني (1929 - 1942)].

العادات. ومن العادة أيضاً، أنّ صاحب العرش الحسيني بعد أن يتلقّى فروض الولاء والطّاعة والتهاني يوم العام الجديد من آل بيته، ورجال دولته، وأهل دائرته وحاشيته، يزوره بعد ذلك في وقت خاصّ، ممثل الدّولة الحامية بتونس[15]، لتهنئة حضرته العليّة أصالة عن نفسه ونيابة عن فخامة رئيس الجمهورية.

ومن البديهي أنّ ألسن الشّعراء تتسابق يوم هذا الموسم المبارك نحو ساحة المولى الأمير، لإلقاء غرر البديع من قصائد المديح على شريف أسماعه، ويكون افتتاح هذا المهرجان بترتيل بعض آيات الذّكر الحكيم، بالصّوت الرخيم، وسموّه يشمل الجميع بواسع عطائه وفضله.

وقد جرت عادة الملوك الحسينيين أن يفتتحوا العام الجديد بمظاهر البشر والتّفاؤل بالخير، فيجعلون أحكامهم وأوامرهم ونواهيهم قاصرة يوم رأس العام على ما فيه البشرى والسّرور، كالولايات الدّينية، والتّوقيع بالعفو والصّفح الجميل عن المجرمين، وفيه يتولّى صاحب العرش الحسيني إمضاء حسابات وكيل الدّار الكريمة، ويشرف بذاته على توزيع ريعها على مستحقّيه من آل بيته الكريم في موكب مهيب يحضره الوزراء، وأمراء الأمراء، ومدير الشؤون. وهذه الأحباس انجرّت لهم من أسلافهم الأكرمين، وكان تناولها التّلاشي في مدّة وزارة مصطفى بن إسماعيل[16]، فجمع شتاتها في أوائل هذا القرن المولى علي باي الثالث ـ قدس سره ـ ورتّب نظامها على أسلوب حكيم. ومن مجموع ما تقدّم يتّضح جلياً رسوخ موسم رأس العام الذي يذكّرنا يوم الهجرة الشّريفة، فيا لها من منقبة منيفة كتبتها يد الأقدار بمداد الذّهب في صحيفة حسنات البيت الحسيني، لأنّ الملوك الحسينيين هم

---

(15) [ممثل الدولة الحامية: أي المقيم العام الفرنسي بتونس].

(16) [مصطفى بن إسماعيل: تولّى الوزارة الكبرى من سنة 1878 إلى سنة 1881. انظر: «سيرة مصطفى بن إسماعيل» تحقيق رشاد الإمام تونس ـ 1981].

الذين سنّوها بين أهل هذه الدّيار، وأحكموا تنظيمها وانتظامها حول الأعصار، بما سيبقي لهم جميل الذّكر إلى آخر الأدهار.

ونختم هذه النّبذة بطرفتين، إحداهما لا تخلو من فائدة، والأخرى جاءت على حدّ قولهم. ما بعد إذا زائدة. فالأولى هو أنّك إذا أردت الموافقة بين السّنين الهجرية والمسيحية طرداً وعكساً، فعليك إن كان المقصود تحويل عام هجري لما يقابله في التّاريخ المسيحي، أن تطرح من ذلك العام الهجري الجزء الثّالث والثّلاثين منه، وأن تضيف للبقية عدد (622) تكون الجملة هي السّنة الميلادية المطلوبة، وإن كان العكس، فابدأ بطرح عدد (622) من السّنة المسيحية، ثمّ أضف للبقية الجزء الثّاني والثّلاثين منها، تكون الجملة هي السّنة الهجرية المطلوبة. وهذه القاعدة لا تتخلّف، ما دام الواحد نصف الاثنين. وأمّا الطّرفة الثّانية، فإنّها نتيجة إحصائية تكلّفتها لضبط مبتدأ قرن هجري كامل، ووقع اختياري على القرن الثّالث عشر، فكانت تلك النّتيجة بالضّبط الصحيح ما نذكره: وافق كلّ من أيّام الأحد والثلاثاء والخميس، مدخل خمس عشرة عاماً، ووافق كلّ من أيّام السّبت والإثنين والأربعاء، مدخل أربع عشرة عاماً، ووافق يوم الجمعة مدخل ثلاث عشرة عاماً فقط، والجملة مائة.

وعلى ذكر أيّام الأسبوع، نلحق بتينك الطّرفتين، طرفة ثالثة، وهذه فيها فائدة لمن لا يعرف جموع هاتيك الأيّام:

فالسّبت يجمع على أسبت وسبوت، والأحد يجمع على آحاد وأحدان، والاثنين لا جمع له، لأنّه مثّنى، فإذا تكلّفنا إيجاد جمع له قلنا الأثانين، والثّلاثاء بالمدّ، ويقال الثّلاثاء بالضّمّ أيضاً، يجمع على ثلاثاوات، قاله في مختار الصحاح. والأربعاء بالمدّ ويقال أيضاً الأربعاء بفتح الباء، يجمع على أربعاوات، قاله في مختار الصّحاح. وقال في القاموس المحيط: الأربعاء مثلّث الباء، وهما أربعاآن، والجمع أربعاءات، والخميس. يجمع على

أخمساء وأخمسة، والخميس أيضاً الجيس، والجمعة بالضّمّ، ومثلها الجمعة بسكون الميم، وهما جمعتان، والجمع جمع وجمعات، وما مضى فات، وكل ما هو آتٍ آت(*).

(*) المحلة الزيتونية ـ المجلد 3 العدد 3 (مارس 1939).

عقد الدّرّ والمرجان
في سلاطين آل عثمان

نظم العلاّمة الشّيخ محمد بيرم الثّاني[1] قصيدته المعروفة التي جمع فيها أسماء سلاطين آل عثمان من بداية ظهورهم في سنة 699 [1299] إلى سلطان زمانه سليم خان الثّالث، وتناقل الأدباء هذه القصيدة الفريدة من بعده بحيث لا تخلو منها المكاتب العربية التونسية عامّة وخاصة، وفي عـام 1311 [1893] ظهر الجزء الخامس من كتاب (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار)[2] للشيخ محمد بن مصطفى بيرم[3] دفين حلوان (مصر) متضمّناً للقصيدة المشار إليها، متبوعة بذيل لصاحب التّأليف، ابتدأه من حيث انتهى سلفه المبرور، وأنهاه بدولة السّلطان عبد الحميد خان الثّاني الذي تقدم للدّست العثماني في سنة 1293 [1876] ومنه يفهم أن هذا النّظم الفرعي لم يتقدمه ذيل قبله للنّظم الأصلي من آل بيرم الأعلام، غير أنّ الحقيقة التّاريخية كانت مستورة بحجاب الخفاء، إلاّ أنّ الأقدار ساقت لمكتبتنا في هذه الأثناء نسخة من قصيدة عقد الدّرّ والمرجان، بخطّ مؤلّفها رحمه الله، متبوعة في آخرها

(1) أفقه فقهاء السّادة الأحناف في زمنه، كان معاصروه يلقّبونه بأبي يوسف الثّاني، ولد سنة 1162 [1748] وتقدّم للفتوى والقضاء، وكانت بحاره العلمية زاخرة، وتونس به فاخرة، إلى أن حنّ إلى الدّار الآخرة في سنة 1247 [1831].

(2) [«صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» تأليف الشيخ محمد بيرم الخامس ـ الجزء الخامس ـ من ص 47 إلى ص 51].

(3) كان رئيساً لجمعية الأوقاف وأستاذاً فذّاً بجامع الزيتونة، هزّته رياح الأقدار للدّيار الشّرقية وتوفّي بمصر سنة 1307 [1889] وله بها عقب محسوب في صفّ الأعيان من أهل الرّفعة والشّان.



السلطان مصطفى خان الثالث

من خطّ غيره بذيل لابن المؤلّف الشيخ محمد بيرم الثّالث، يستفاد من تعليق عليه أنّ الشيخ الثالث كتب هذا الذّيل باقتراح من السّلطان محمود خان الثاني، وهذا ممّا يحمل على الظّنّ وأنّ الحفيد البيرمي صاحب كتاب صفوة الاعتبار لم يقف على هذا الذّيل الأوّل، إذ لو كان خلاف ذلك لكان ابتدأه لما ألحقه بالقصيدة المتحدّث عنها من حيث انتهى نظم الشيخ الثالث لا من حيث انتهى النّظم الأصلي، فلأجل إشهار هذا الذّيل الأوّل بين أهل الأدب، أحببت إلحاق هذا الفرع بأصله، مع ما سيتبعه من ذيول أخرى متعلّقة بالموضوع، وليتصوّر القارىء شكل هذا الهيكل الأدبي بأجمعه، يلزمني في البداية الإشارة للأساس الذي بني عليه، فهذا الأساس افتتحه الشيخ محمد بيرم الثّاني بقوله:

أقدّم قبل القصد شكراً لمنعم	علينا بما أربى على كلّ أنعم
على عزّ هذا الدّين والملّة التي	وإن لحقت فازت بفضل التّقدّم
وأتبعه أزكىٰ الصّلاة مسلّماً	على أشرف المخلوق قدراً وأعظم
نبيّ له وصف النّبّوة ثابت	وآدم بين الماء والطّين فاعلم
محمّد من قد أظهر الله دينه	بمكّة ذي البيت العتيق المعظّم

واسترسل في هذه المقدّمة حتى البيت السادس عشر، حيث ابتدأ بذكر أوّل السلاطين، وهو عثمان خان الذي تولّى الملك في سنة 699 [1299] فقال:

فأوّلهم عثمان باكورة العلا	مذيق الرّدا من بأسه كلّ مجرم

وختم نظمه رحمه الله بدولة معاصره السّلطان سليم خان الثالث الذي جلس على العرش العثماني في سنة 1203 [1789] فقال:

سليم ابن خاقان الخواقين مصطفى	لدينك يا مولاي صنه وسلّم
فلا زال منها قائم إثر قائم	إلى زمن المهدي وعِيسى بن مريم

هنا ختام النّظم الأصلي، وإليك الأبيات التي ذيّل بها الشيخ محمد بيرم الثالث قصيدة أبيه، مبتدأ بالسّلطان مصطفى خان الرابع الذي تقدّم

لكرسي الخلافة في سنة 1223 [1808] فقال:

ومن بعده قد قام بالأمر مصطفى ... همام بـه ثغر العـلا ذو تبسّم
سرت فيه من عبد الحميد جلالة ... فـأكرم بـه نجلاً لأصـل معـظّم
وقد لاح في أفق الخلافة بعده ... شقيق لـه محمود أهـل التّقـدّم
هو الملك الخاقان من خضعت له ... رقاب البرايا من فصيح وأعجم
تطلّع من بيت السّلاطين مثل ما ... تـطلّع بـدر التّمّ من بين أنجم
أعدّ لهذا الدّين ما لم تجد له ... قـريحة ذي لبّ وجيش عـرمرم
وحسبك ما أبدى بترتيب جنـده ... فـأنت تـراه مثـل عقـد منـظّم
فلا زال منصور الجنـاب متمّماً ... لأركـان نصر الـدّين خير متمّم

ثم ألحق بهذا الذّيل الأوّل ذيلاً ثانياً عند وفاة السّلطان محمود خان الثاني وجلوس السلطان عبد المجيد خان الأول على الأريكة العثمانية في سنة 1255[1] [1839] فقـال:

ولمّـا تناهى في الكمـال ونفسه ... تؤمّ المعالي من عظيم فـأعظم
تصـاعد في أفق الجـلال لجنّة ... شهيـد سقام أجـرها خيـر مغنم
فـأظلمت الدّنيـا بفقـد إمـامهـا ... وعمّ أولي الألباب أفضع مـأتم
وما عبس المحزون حتى تبسّمت ... ثغـور الليالي بـالسّعيد المعـظّم
إمام الورى عبد المجيد ومن غدا ... لبيعتـه الإذعـان من كـلّ مسلم
فما مات من أحيا الرّسوم بنجله ... وما فات من أبقى لنا خير ضيغم
فلا زال من ذا البيت تبدو أيمّة ... تضيء الدّجى نوراً إضاءة أنجم

إلى هنا انتهى ما ألحقه الشيخ الثالث بنظم الشيخ الثاني، ولم يكن له أن يزيد على ذلك لالتحاقه بربّه في سنة 1259 [1843] على عهد معاصره السّلطان عبد المجيد خان الأوّل، ولم نقف لابنه الشيخ محمد بيرم الرابع على شيء في هذا الموضوع رغم وفاة هذا السلطان في زمنه وقيام أخيه السلطان عبدالعزيز خان مقامه سنة (1287 [1870]) ولكنّ حفيدهم الشيخ

محمد بن مصطفى بيرم[4] صاحب كتاب صفوة الاعتبار نظم في سنة 1297 [1879] ذيلاً مستكملاً لعقد الدّرّ والمرجان ابتدأه من حيث انتهى جدّه صاحب النّظم الأصلي، وختمه بدولة معاصره السّلطان عبد الحميد خان الثاني، كما سبقت الإشارة لذلك.

هذا وعلاوة على ما تقدّم لنا نقله من هذه الآثار البيرمية الجليلة في هذا المقام، نضيف لذلك درراً أخرى لغيرهم من فضلاء التّونسيين تسنّى لنا الوقوف عليها بعنوان ملحق للقصيدة التي نحن بصددها، ضمّنها ناسج بردها ذكر سلاطين ثلاثة: عبد العزيز خان، ومراد خان الخامس، وعبد الحميد خان الثاني، ويلوح من طالعة هذا الملحق أنّه من بنات أفكار الأديب الشهير الشيخ محمد التّطاوني كما ستراه، على أنّ ديوان الأديب الفذّ والمؤرّخ الضّليع الشيخ الباجي المسعودي تضمّن نصّ هذا الملحق بحروفه في باب عنوانه: «وقال مخاطباً الأكتب الشيخ محمد التّطاوني لمّا ألحق بنظم الشّيخ بيرم الثاني أبياتاً في ذكر السّلطان» فعسى أنّ هذا الغموض يزول إشكاله بهمّة غيرنا من الإخوان الممتازين بالإحاطة بالأدب التونسي، والعاضين على دواوينه بالنّواجذ، وإليك نصّ هاتيك الأبيات[5]:

وقـد ألحق التّـطاوني محمّـد ... خلائف جاءت بعد هذا المعَظّم
فقال ولم يلحق بقوله شَأْوَ مَنْ ... مَقَالُهُ فيهم كالجُمَانِ المنظّم
أتى بعده عبد العزيز ويا له ... إمَاماً حوى بالعزّ فضل التّقدّم
أتى قبّة الإسلام وهي على شفا ... يقول ألا يا داراً لِمَيَّة فاسلم
بدا أمره من حيث ما كان صَنْوُهُ ... إليه انتهى بالحزم والعزم فاعلم
أعَدَّ من الأجناد والعُدَدِ التي ... تجرّع منها الرّوس كيسان علقم
ولكن لأمر شاءه الله خَلْقَهُ ... سرى له في جُنْحٍ من الليل مُظْلِمِ

---

(4) [محمد بن مصطفى المشهور باسم محمد بيرم الخامس صاحب كتاب «صفوة الاعتبار»].
(5) [«ديوان الباجي المسعودي» تحقيق عبد الفتّاح الزّيتوني (الدار التونسية للنشر ـ 1983) ص 82].

فساقوه سوقاً والسّماءُ تجوده بمنهل مزن والمحاجر بالدّم
وقام مُرَادُ الخلق بعده للتي مرامُها شأنُ كلّ خِرْقٍ مُعَمَّمِ
ولكن مراد الحقّ بيّن عجزه فعُوِّضَ من عبد الحميد بضيغم
بليث هصور لا يبالي بمن عوى حواليه من ذئب وكلب مُذَمَّمِ
فوجّه نحو الرّوس وجه اهتمامه يجرّ خضمّاً من خميس عرمرم
ولكن لِسوء الحظّ خانت ثقاته فأصبح صلح الرّوس أجْزَلَ مغنم
وَيَا رُبَّ صُلْح هو للحرب عُدّة كما اغترّ ذو ضغن ببادي التّبسّم
لأمر قصيّ ما تعمّد جَدْعه لأنف أشمّ لا يُسَامُ بِمَرْغَمِ
به استعزل الزّبّاء وهي أعزّ من أعزّ عزيز كان للعزّ ينتمي
فجرّعها كأس الرّدى فصّ خاتم ولم يغنها قرع لِسِنّ التندّم
كذاك نرى الرّوسي إن شاء ربّنا يَخِرّ صريعاً لليدين وللفم

قلت هذا منتهى ما وقفت عليه من أصل وفرع من منظومة عقد الدّرّ والمرجان في سلاطين آل عثمان من مبتدإ ظهورهم في سنة 699 إلى جلوس السّلطان عبد الحميد خان الثاني، ونظراً لكون دولتهم دامت بعد ذلك مدّة نصف قرن، فقد رأيت من الوفاء بالعهد ومن خدمة التّاريخ إضافة حلقات تكميلية لسلسلتهم الدّرّية من حيث انتهت الملاحق الأوّل في سنة 1293 [1876] كما تقدّم ذكره إلى انقراض دولتهم في سنة 1342 [1923] بخلع عبد المجيد خان الثاني الذي جلس على كرسي الخلافة في سنة 1341 [1922] بعد هروب ابن عمّه السّلطان وحيد الدين خان الوارث لها سنة 1336 [1917] عن أخيه السّلطان محمد رشاد خان الذي تولاّها في سنة 1327 [1909] بعد خلع أخيهما السّلطان عبد الحميد خان الثاني، وفي ذلك قلت:

إذا رمت إتماماً لذا العقد فانتبه وواصل بما قد قيل نظم المتمّم
محمد بن الخوجة المقتدي بمن تقدّمه في جمعهم بتنظّم
فقال بعون الله واعلمه أنّه تباعاً لما قال الحفيد ابن بيرم:
ولكنّ أمر الله لا بدّ حاصل فخاب الرّجا واختلّ حال المقدّم

لذا قام أهل الأمر والنّهي كلّهم وحلّوا جميعاً في سراية أنجم[6]
هنالك فكّـوا عقدة البيعـة التي بقت ثلث قرن في ولاء مطهّم
ونادوا بليل يا (رشاد) إليك هي بفرض ورد يا كـريم ابن أكرم
إليك الأولى يدعون طُرّاً وقلبهم يقول ألا هي أصلح الحال وأنعم
وفي عهده قامت قيامة كلّ من حوته بقاع الأرض من نسل آدم[7]
ودام على عرش الخلافة تسعة وبعضاً من العام المتابع فاعلم
(وحيد لدين) الله من بعده أتى وهـذا شقيق الـرّاحـل المتقـدّم
وكـانت بلاد التّـرك عند قيـامـه بضعف وحرب مع هموم وفي دم
فلم يستطع شيئاً من العمل الذي يداوي به أجـراحها قـدر درهم
وولّى فراراً نحو ملطة[8] خـائفاً جيوش كمال مصطفى المتهجّم
لـذاك أقـامــوا بعـده بخـلافـة (عبيد المجيد) بن العزيز المعظّم
ولـمّــا أراد الله إنفـاذ حكمـه قضى بزوال الأمر من يده افهم
فكـان ختـام البيت فيـه وكلّهم سلاطين للإسـلام أشبال ضيغم
فيـا دارهم نوحي بعين تـأسّف وقدّي ثياب الدّهر في كلّ موسم
وسبحان من لا ينقضي دوم ملكه ولا مهرب أيقن من قضاء محتّم
وصلّ على مسك الختام محمّد وشرّف وكرّم يا إلاهي وسلّم(*)

---

(6) هي قصر يلدز، ومعنى يلدز في العربية نجم.
(7) إشارة للحرب العالمية التي شارك فيها نحو ثلاثين دولة من دول المعمورة ودامت من أواسط سنة 1332 إلى أوائل سنة 1337 (1914 - 1918).
(8) أي مالطة، سقطت ألفها لضرورة الوزن.
(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 5 ـ الجزآن 1 و2 (فيفري 1942).

عود على بدء

بعد نشر النّبذة التي كتبتها تعليقاً على قصيدة عقد الدّرّ والمرجان بالجزء عدد 1 - 2 من المجلّد الخامس من هذه المجلّة، ورد عليّ كتاب كريم، والدّرّ من معدنه لا يستغرب، خاطبني به الأديب الفذّ العالم النّحرير المدرّس الشيخ علي النيفر، تضمّن وقوفه على أربعة أبيات من نظم العلامة الشيخ محمد بيرم الرابع، ذيّل بها قصيدة جدّه المشار إليه بمناسبة جلوس السّلطان عبد المجيد خان إثر وفاة والده السلطان محمود خان الثاني في سنة 1255[1839] فإتماماً لما سبق منّي نشره من الجواهر البيرمية أصلاً وفرعاً بخصوص تلك القصيدة التاريخية، بادرت لنقل الأبيات المشار إليها هنا شاكرين للفاضل النيفري والنابغة العبقري عنايته بالأدب التونسي إظهاراً لمفاخر جامع الزّيتونة بالكشف عن درره المكنونة، وهذا نصّ الأبيات:

ولمّا خبت أنوار محمود وانطوت ... محاسنه طيّ الـرّداء المقمقم
تعطّر نادي الملك من نشر نجله ... وورّثه عبد المجيد المعظّم
وأشرق في أفق الخلافة بدره ... وعمّر غاب الملك أشرف ضيغم
فلا برحت أغصان دولة ملكهم ... تغذّى بماء النّصر ذات تنعّم

فهل من سبيل لمعرفة هل أنّ الشيخ محمد بيرم الرابع اكتفى في تذييله لقصيدة جدّه بالإشارة فقط لدولة السلطان عبد المجيد خان، أم ألحق بالأبيات المتقدّمة غيرها عند قيام السلطان عبد العزيز خان مقام أخيه

عبد المجيد خان في سنة 1277 [1860] إذ من المعلوم أنّ النّاظم أدرك دولة عبد العزيز خان والتحق بربه في سنة 1278 [1861] وعنه ورث الشيخ الجدّ مسند المشيخة الإسلامية رحم الله الجميع(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلّد 5 ـ الجزآن 3 - 4 (مارس ـ إفريل 1942).

بايات الدولة المرادية

ظهر بتونس في بحر القرن الحادي عشر جماعة من الموالي تسمّوا كلّهم باسم مراد عند اعتناقهم للإسلام في عهود متقاربة، وقد اتّخذوا لهم يومئذٍ هذا الاسم لما فيه من معاني التّفاؤل بالخير والبشارة المقتبسة من اسمي سلطانين عثمانيين معاصرين لتلك الأزمنة، وهما السّلطان مراد خان الثالث الذي تولّى السلطنة من سنة 983 [1575] إلى سنة 1003 [1594]، والسّلطان مراد خان الرابع الذي تولّى السّلطنة من سنة 1032 [1622] إلى سنة 1049 [1639].

وأكثر أولئك المرادين مذ كانوا على دين النّصرانية كانوا من غزاة البحر، ومثل ذلك كان حالهم بعد دخولهم في حظيرة الإسلام، فكانوا يغالبون المنايا ويغلبونها لسعادة قدّرت لهم في عالم الأرواح، ولقد حفظ التّاريخ لبعضهم ذكراً محموداً وسمعة بعيدة في بطون الأوراق، وأبقى أسماء الآخرين منهم في صحيفة النّكرات. فأمّا الذين اشتهروا في معترك الحياة، فمن زعمائهم مراد بوشواطة، وهذا هو مّراد الأول رأس العائلة المرادية التي هي بيت القصيد من هذه النّبذة التاريخية. ومنهم مراد الثاني، حفيد مراد المتقدّم، وكان من رجالات عصرهما الزّعيم اصطا مراد المشهور بالقبدان (قبطان) الذي سيأتي الكلام عليه، يليهم في الشّهرة من معاصريهم مراد برتقيز، ومراد قريق، ومراد رايس، والقائد مراد، وغيرهم من المرادين الكثيرين الذين لعبوا دوراً بميدان البايليك في تونس بعد دخولها في طاعة آل عثمان.

والمقصود من هذه العجالة هو بيان كيف نشأت الدّولة المرادية، وهل يصح القول بما ذهب إليه المؤرّخ الثّبت البّحاثة الكبير (مسيو كرانشان)[1] من كتّاب هذا العصر، حيث يرى أنّ أصل الأسرة المرادية ما زال معتجراً بذيول الغموض، ومن العسير بزعمه معرفة من هو رأس هذا البيت من أولئك المرادين الكثيرين، لا سيما ثلاثة منهم، وهم مراد الأول، ومراد الثاني، واصطا مراد. ونقطة الشّكّ في معتقد صاحبنا المؤرّخ القائم بها، حصرها فيما ننقله عنه من تحريره المفيد في الموضوع الذي نشره بالجزء الأخير من المجلّة التونسية[2] لسان حال مشيخة قرطجنة ونص عبارته:

لا شيء أكثر اشتباكاً وغموضاً من تاريخ البايات المراديين الذين حكموا تونس مدّة قريبة من القرن ابتدأت نحو سنة 1610 وانتهت في عاشر يونية سنة 1702، وإنّ تشابه أسماء ثلاثة من أولئك الذّوات كلّ منهم كان اسمه مراداً مع وجود مراد آخر ارتدّ (عن النصرانية) أيضاً وصار دايا بعد أن كان قائد أسطول للقرصنة، بإضافة فقدان الضّبط والتّدقيق في عبارة الكتّاب من العرب الذين يسمّون في أغلب الأحوال الأمراء المراديين بأسماء غير التي سمّاهم بها المؤرّخون الفرنساويون، يتكوّن من مجموعه التباس وتشويش من شأنه تعسير الوقوف على الحقيقة، وإيجاد مجال فسيح للغلط المستمر ـ فأصطا مراد، ومراد الأوّل، ومراد الثاني، تناولهم الوقوع في الغلط المشار إليه حتّى بالنسبة للمؤرّخين القادرين على الكتابة بالمعنى الصحيح ا هـ.

لا جرم أنّ الالتباس الذي أشار إليه هذا الكاتب الضّليع، ليس له أساس صحيح فيما يلوح، لأنّ المؤرّخين التّونسيين ضبطوا بالتّدقيق بداية الدّولة المرادية[3]، كما ضبطوا أخبارها في التّالي مع بيان من عاصرهم من

---

(1) [(Pierre GRANDCHAMP) Inventaire des Archives du Consulat de France à Tunis de 1582 à 1705.

10 أجزاء ـ تونس 1920 - 1933].

(2) La Revue Tunisienne.

(3) ممّن قام بهذا الضّبط من الكتّاب التّونسيين، نذكر أسماء جماعة من الكتّاب الثّقاة، وهم: =

المرادين الآخرين، وهم متّفقون على أنّ رأس العائلة المرادية هو مراد الأوّل أصيل جزيرة كرسيكه، وفيما نعلم أنّه كان يدعى في النّصرانية باسم (جاك سانتي) فلمّا اعتنق الإسلام، وهو صغير السّنّ تمذهب بالمذهب الحنفي واتّخذ له من الأسماء مراداً، وبالتّالي اشتهر باسم مراد بوشواطة قياساً على أنّه كان لكلّ مراد من معاصريه نعت يميّزه عن غيره من المرادين الذين تقدّمت أسماؤهم آنفاء.

فمراد الأوّل رأس الدّولة المرادية ليس هو حفيده مراد الثاني الذي كان من الطّبقة الثالثة بالنّسبة لجدّه مراد الأوّل وكان الفاصل بينهما الأمير الشّهير حمودة باشا بن مراد الأوّل، واسمه الأصلي محمد، وكنيته أبو عبد الله، ولفظ حمودة تصغير في مقام تلطيف لاسم محمد، وليست كنيته من اسمه كما تبادر لفهم بعض مؤرّخي الإفرنج، فحسبوه رجلاً آخر، فأبو عبد الله محمد باشا هو نفسه عينه حمودة باشا بن مراد الأوّل. ولا شبهة بين مراد هذا وبين اصطا مراد الذي هو متأخّر عنه في الزّمان.

فمراد الأوّل تولّى باياً سنة 1022 [1613] وارتقى لمنصب الباشا ومات سنة 1041 [1631] وكان أصله كما أسلفنا من جزيرة كرسيكة، واسمه في النّصرانية (سانتي). واسطا مراد كان مثله من الموالي، ولكنّه كان أصيل بلد جنوة، وكان اسمه (بيزوزو) في النّصرانية، واعتنق الإسلام في كهولته، وضرب بسهم مصيب في دولة الأمير يوسف داي بن مصطفى التّركي، فكان هو خلفه في منصب الدّاي (لا الباي) عند انقضاء يوسف المذكور سنة 1047 [1637] ومات اصطا مراد بدوره سنة 1050 [1640] ولم يتحصّل على منصب الباي ولا على منصب الباشوية اللذين كانا إذ ذاك في قبضة حمودة باشا بن الباشا مراد

= الشّيخ ابن أبي دينار، والوزير السّرّاج، والشّيخ حسين خوجة، والشّيخ محمود مقديش، والشّيخ حسين ابن مصطفى التّرجمان، والشّيخ محمد بيرم الثاني، والشّيخ أحمد بن أبي الضّياف، والشّيخ الباجي المسعودي، والسّيّد حسن عبد الوهاب من مؤرّخي هذا العصر.

باي الأوّل، ولقد أثبت التّاريخ أنّ السّلطان خاطبه بالباشا ابن الباشا، وهذا اللّقب لم يقل أحد بأنّ الداي اصطا مراد كان محرزاً عليه.

على أنّ الداي اصطا مراد ترك بعده ذرّية معروفين لا زالت أعقابهم موجودين لهذا الزّمان، على عكس آل مراد، فإنّ ذرّيتهم انقطعت بإجماع المؤرّخين كما سيأتي بيانه، ولزيادة الإيضاح نقول:

إنّ لكلّ من مراد باي الأوّل والدّاي اصطا مراد قبر معروف، وكذلك لأعقابهم، وكلّ هذه القبور مفرّزة بأسمائهم وحيثياتهم وتواريخ وفياتهم، فقبر مراد باي الأوّل الذي تخلّى عن منصب البايليك لابنه حمودة عند ارتقائه لمسند الباشليك في سنة 1041 [1631] التي قضى فيها نحبه، اشتمل على اسمه وحيثيته وتاريخ وفاته بعبارة ننقلها هنا بحروفها على ما هي عليه من ضعف وتحريف:

بهجة الملك في المقام السّعيد ... عن ضريح الهمام ذا التّمجيد
مراد باشا أميرها والمفدّى ... كان فرداً من الزّمان الفريد
نخبة الدّهر في اكتساب المعالي ... عاش في العزّ والصّلاح السّديد
شيّد الفخر رفعه عن أساس ... في ذرى المجد والعلوّ الرّشيدي
رحم الله روحه وحباه ... بالرّضى والقبول يوم الوعيد
إنّ هذا الضّريح أرّخ بنور ... فبدار السّلام فيها مزيد[4]
سنة 1041 [1631]

وأمّا ضريح الدّاي اصطا مراد فالعبارة المنقوشة عليه هذا نصها:

هذا مقام حقّه الإسعاد ... فيه استقرّ القبدان مراد
داي العساكر ذو المعالي من له ... خضع العزيز وذلّت الآساد

(4) مصراع التّاريخ غير مطابق لعام الوفاة الذي هو صحيح بالإجماع، ولا تعجب لذلك فإنّ حالة العلم بتونس في العصر المرادي كانت أوهى من بيت العنكبوت، لأنّ أيّامهم كانت أيّام فتن ومحن وهموم وغموم.

كـان الجهـاد شعـاره ودثـاره ... حتى تـوفّي وهـو نعم الـزّاد
قهـر العـداة حيـاتـه لم يلهـه ... عـن حـربهـم مـال ولا أولاد
كانت به الخضراء تونس نـزهة ... أيّـامـهـا بـوجـوده أعـيـاد
لمّا تولّى الأمـر والنهّي اكتست ... حلل الجمـال وأمَّهَـا القُصّـاد
أيّـام دولتـه السّعيـدة عنـدنـا ... فتحت لسلطان الـورى بغـداد
يـا طالمـا ركب البحار وجـاءنا ... بغنـائم كمـدت بهـا الحسّـاد
روّى الإله ضريحه صوب الرّضا ... والعفـو فهـو المنعـم الجـوّاد
وأحـلّه دار السّـلام كـرامـة ... في يـوم هـول خـافـه الـزّهّـاد
لمّـا قضى نحباً عليـه تجـدّدت ... أحـزاننـا بـل ذابت الأكبـاد

توفي في 18 ربيع الأنور سنة 1050 [1640] رحمه الله، فتكون وفاته بعد مراد باي الأوّل بتسع سنين وقبل وفاة مراد باي الثاني الذي سيأتي الكلام عليه بخمس وثلاثين سنة، وقد ترك اصطا مراد بعده ابناً اسمه علي، وعلي هذا ترك بعده ولداً اسمه محمود، ومحمود ترك ابناً اسمه حمودة، وهو الذي قتله الباشا علي باي الأوّل ظلماً في حدود سنة 1148 [1735] ومن حمودة هذا تناسل عقب آل اصطا مراد الموجودين لهذا الزّمان.

أمّا سلسلة البايات المراديين، فقد وردت نظماً ونثراً بالضّبط الصّحيح في كتب التّاريخ التّونسي كما أسلفنا، وممّن عرف بهم من الكتّاب التّونسيين الشّيخ حسين بن مصطفى التّرجمان، فقد اشتمل ديوانه على ذكرهم حيث قال:

مراد باي أوّل ملوك الدّولة المرادية هو صاحب الدّار (يعني دار الباي المعروفة بسراية المملكة بتونس) والعلوّ والمخازن، ترك ولده المعظّم محمد باشا المدعو حمودة باشا، وهو الذي أحدث قرب الدّار حمّاماً (حمّام نهج دار الجلد) ودارين، واحدة لولده محمد الحفصي صاحب سوق الشّواشية (سوق الحفصي المعروف)، وواحدة لولده مراد باي الوسط (يعني مراد الثاني)، باني المدرسة المرادية، وهو الذي بنى المحكمة فوق القهوة (هذه القهوة أقيم

مكانها في أوائل هذا القرن أقسام إدارة المحافظة) وهو الذي تنسب إليه الدّار الآن (يعني دار الباي) وحمودة باشا ترك ولده مراداً، وولده محمد الحفصي، وولي بعده مراد (الثاني)، ولمّا مات مراد ترك محمد (بالفتح) صاحب جامع سيدي محرز، وعلي، ورمضان، فاستبدّ بالأمر بعده ولده محمد، وحاربه أخوه علي الحرب المشهورة إلى أن انجلى الأمر، وتمّ لمحمد، وبعده ولي أخوه رمضان وبعده ولي مراد (الثالث) بن علي، وهو آخرهم ومدّة دولتهم 83 سنة ا هـ.

قلت إنّ تربتهم الموجودة بصحن جامع حمودة باشا ضمّت أعظم مراد باي الأوّل، وابنه حمودة باشا، وابنه مراد باي الثاني، وأخيه محمد الحفصي (مات بجزيرة كندية أي كريت سنة 1097 [1685] وجيء برفاته لتونس ودفن جوار سلفه)، ومحمد (بالفتح) بن مراد الثاني، وأخيه علي، ولكلّ منهم قبر عليه عبارة ناطقة بنسبته لصاحبه، عدا علي المتوفى سنة 1097 [1685] فإنّه لم نقف له على حجارة بالكتابة خاصة به، وبعد انقراض دولتهم على يد إبراهيم الشّريف في سنة 1114 [1702] بقي من عقبهم أربعة ذكور، منهم صبيّ في الرّابعة من عمره، حكم إبراهيم المذكور بقطع رؤوسهم جميعاً لمحو ذكرهم من عالم الوجود، وهكذا كان[5].

أمّا رمضان باي بن مراد الثاني فلا قبر له، لأنّ حفيده للأخ مراد باي الثالث أخرجه من رمسه الذي قبر به في سوسة سنة 1109 [1697] وحرق رفاته ونسفها في اليمّ وبقي الظّالم مراد الثالث المذكور، فهو بدوره ليس له قبر معروف، لأنّه لمّا وقع الفتك به من يد الباي إبراهيم الشّريف، قطعوا رأسه، ودفعوه للصّبيان يلعبون به، ولا يدري أين جعلوا حفرته، ومثله جثث الأربعة

(5) قال المؤرّخ حسين خوجة: فقام عليه (أي على مراد الثالث) أحد خدّامه من أغوات جنده (إبراهيم الشريف) وغدر به وضربه ببندقته فأصابه وقتل وقطع رأسه وابني عمه (أي محمد بن مراد باي) وقتل بقية أولادهم، ولم يبق من ذرّية مراد باشا أحد ا هـ.
[ذيل بشائر أهل الإيمان ـ صفحة 15].

الذّكور الباقين منهم، الذين قطعت رؤوسهم صبراً، فكلّهم ليست لهم قبور معروفة، وغاية ما يعلم من أمرهم هو عرض رؤوسهم للإشهاد مع رأس مراد الثالث بالقصبة، ليرى مبصر ويسمع واعٍ.

والخلاصة إنّ جملة من تولّى الإمارة من آل مراد، ثمانية بايات، امتاز منهم ثلاثة بأفعال البرّ والمعروف، أوّلهم أشهرهم حمودة باشا صاحب الجامع المجاور لزاوية الشّيخ سيدي أحمد بن عروس[6] ومؤسّس مستشفى العزّافين الذي هو جدّ المستشفى الصّادقي الموجود بتونس لهذا الزّمان، وباني الحنايا المواجهة لباب أبي سعدون، ومشيّد معالم الزّاوية الصّحابية بالقيروان[7]،

---

(6) [جامع حمودّة باشا: انظر تاريخ هذا الجامع في كتاب «معالم التوحيد» ط 2 ـ دار الغرب الإسلامي - بيروت].

(7) يتوهّم الكثير من كتّاب الإفرنج أنّ هذه الزّاوية كان تأسيسها في عهد الصّدر الأوّل بعد الفتح الإسلامي، والحقيقة أنّها من مبرّات الباي صاحب الخيرات والقربات محمد حمودة باشا المرادي كما تشهد بذلك العبارة المنقوشة على باب مدرستها، ونصّها بحروفها:

بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله

أسّس هذه الزّاوية المباركة ومتّن قواعدها الملك الهمام صاحب الصّدقات والقربات أبو عبد الله محمد باشا صاحب كرسي مدينة تونس ابن الملك الهمام المرحوم برحمة الملك الجواد أبي الخيرات مراد باشا وجعل الزّاوية لصاحب رسول الله ﷺ أبي زمعة البلوي على يدي صانعها (كذا) الشقيقين البانيين لها أحمد ومصطفى أو لدي (كذا) أحمد الأندلسي دسم (كذا) تمّت بتاريخ أوائل شهر الله رجب عام اثنين سبعين (كذا) وألف ا هـ.

ويوجد بداخل قبّة الضّريح المبارك فوق الباب، الأبيات الآتية ننقلها بحروفها مع ما بها من غموض وتحريف وسقوط في الوزن:

أيـا زائـرا قبـر النّبي الـذي اعتلى	أبي زمعة من حاز مجـداً مكمّـلا
عـليـك إن رمت أمـراً تـنـل بـه	لأنّ بـه الـدّاعي يجـاب معجّـلا
وقـائـد أهـل القيـروان بمحـشـر	بـه قد حـوت فخراً كيثـرب وانجلا
محمـد بـاي نجـل كهف مـرادنـا	لمنشي ذا الحسنى يـزيـد تجمّـلا
فعـامله بـالإحسـان يـا خير نـاصـر	وبلّغـه مـا يـرجـوه منـك تفضّـلا
وفي عام ستّ مع تسعين بعـد ألف	لقـد تمّهـا واليمن قـد جـا وأقبـلا

وعبارة هذا التّاريخ تدلّ على أنّ قبّة الضّريح بنيت في عهد محمد (بالفتح) بن مراد الثاني لا في زمن مؤسّس الزّاوية محمد حمودة باشا الذي كانت وفاته سنة 1076 [1665].

وبقي بالزّاوية الصّحابية أثر تاريخي آخر وهو المزولة الموجودة بطاح الزّاوية ونصّ =

توفّي رحمه الله سنة 1076 هجرية (1666 للميلاد)، ثم ابنه مراد باي الثاني، ومن مآثره المدرسة المرادية المعروفة، وقنطرة وادي مجردة ببلد مجاز الباب، وجامع الحنفية بباجة، وجامع بلد جارة بقابس، وتوفّي سنة 1086 [1675] ثم ابنه محمد (بالفتح) ابن مراد الثاني صاحب الجامع العظيم المواجه لزاوية الشّيخ سيدي محرز بن خلف[8] وتوفّي سنة 1108 [1696] والخمسة الآخرون هم: مراد الأوّل، ومحمد الحفصي، ورمضان، وعلي، وابنه الظّالم مراد الثالث.

ويلوح أنّ الاشتباه الذي حصل لكتّاب الإفرنج في حقيقة نشأتهم، جاء من الغلط الذي تضمّنه كتاب مراسلات بايات تونس مع ملوك فرنسا للمؤرّخ (بلانطي)[9] فهذا الكتاب الذي جمع فأوعى اشتمل على غلط تاريخي واضح، لأنّ مؤلّفه ذكر فيه حمودة باشا المرادي بعنوان ابن للدّاي اصطا مراد أصيل بلد جنوة حالة كون حمودة باشا كان أبوه مراد الأوّل أصيل جزيرة كرسيكه، وكلّ من كتب في الدولة المرادية من الفرنساويين بعد (بلانطي) المذكور ارتكب الغلط الذي أشرنا إليه باعتماده عليه. ومن الغلط أيضاً الذي ارتكبه المؤرّخ (بلانطي) نعته للزّعيم اصطا مراد قبل ولايته خطّة الداي بلفظ «باي تونس» وهي خطّة لم يتولّها اسطا مراد قطّ، بدليل ما ذكره (بلانطي) نفسه بالصحيفة 123 من الجزء الأوّل من تاريخه، حيث نقل عبارة مكتوب

= العبارة المنقوشة على هذه الحجارة:

صنعة محمد بن فارس في عام طضش (يوافقه بحساب الجمل عام 1099 [1687])

ويستفاد من بعض محاريب صحن الضّريح أنّه تناوله التجديد في عام 1218 [1803] كما تدلّ عليه هذه العبارة المكتوبة بزليج تلك المحاريب ونصّها.

الملك لله عمل الأسط شنوف عام 1218 قلت هذا العام يوافق عصر المرحوم حمودة باشا ابن علي باي الثاني بن الباي حسين بن علي رحمه الله.

وآخر تجديد تناول عمارة الزّاوية الصحابية تمّ سنة 1360 [1941].

(8) [جامع محمد باي المرادي: المرجع السابق].

(9) [(Eugène PLANTET) «مراسلات بايات تونس وقناصل فرنسا» (3 أجزاء باريس: 1893-1899.
(Correspondance des Beys de Tunis et des Consuls de France. 1577 - 1830.]

صدر في شهر نوفمبر 1637 من ملك فرنسا لويس الرابع عشر خاطب به الزّعيم اصطا مراد، ونصّ محلّ الحاجة منه: إلى الشّهير السّعيد في مشاريعه السيد اصطا مراد جنرال قراصنة تونس وبنزرت بإفريقيا. من لويس الذي هو بنعمة الله ملك فرنسا ونفار السلام الخ».

فالدّاي اصطا مراد كان من معاصري مراد باي الأوّل وابنه حمودة باشا، ومن رجالات دولة يوسف داي بن مصطفى التّركي، وكان اصطا مراد يومئذٍ هو صاحب الحول والطّول في كلّ ما يرجع للغزو والقرصنة البحرية التي هي رأس مال الدّولة في هاتيك الأيّام المظلمة، ولكنّه لم يتولّ خطّة باي على رأس بايليك تونس، ولا باشا على رأس الباشليك بها، وهاتان الخطّتان تولاهّما مراد باي الأوّل، وابنه حمودة وأعقابه، والله يرث الأرض ومن عليها(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلّد 5 ـ الجزآن 3 - 4 ـ (مارس ـ افريل 1942).

الألقاب والنّعوت الملكية
في البيت الحسيني

اعلم أنّ أول الألقاب الملكية الحسينية هو لقب الباي، معرّب من لفظ بك في التّركية كما تراه بالطّابع السّعيد، ومعناه السّيّد العظيم، وهو في أصله عندهم - أي التّرك - من ألقاب رؤساء الجيش وأبناء الباشوات، كما أنّ لفظ باي برسمه هذا معناه أمير في اللغة الفارسية[1]، وأصل دخول هذا اللفظ في الاستعمال بتونس كان بإثر دخول الإيالة التونسية في طاعة السّلطان سليم خان الثاني سنة 981 [1573] فإنّ الوزير سنان باشا لمّا فرغ من الفتوح، باشر ترتيب الدّولة وجعل رئاستها في اثنين: الباي لضبط الوطن وتمهيد الراحة واستخلاص المجابي، والآغة للنّظر في أحوال الجند. وكان في الحملة أربعة آلاف عسكري على رأس كلّ مائة منهم أمير يلقّب بالداي، وأوّل من تولّى خطّة الباي بتونس هو رمضان باي في سنة 981 [1573] وتولاها بعده مراد باي في سنة 1022 [1613] وهو أوّل أمراء الدّولة المرادية، ثمّ ابنه محمد باي، وغلب عليه اسم حمودة باشا، وهو صاحب الجامع المنسوب له المجاور لزاوية سيدي أحمد بن عروس، تلقّب بالباي في سنة 1041 [1631] ثم ابنه مراد باي الثاني في سنة 1076 [1665] ثم أبناؤه الثّلاثة محمد باي صاحب الجامع

---

(1) هذا التّعريف في اللغتين التّركية والفارسية استفدته من صاحبنا المرحوم الوزير السيد الطاهر خير الدين، وحقّ عليّ تزويده بالرّحمة الواسعة في هذه الآونة لما كان أمدّني به من التّحقيقات والبيانات الشّافية في مجالس متكرّرة ببيته وببيتي أثناء أبحاثي التّاريخية لضبط كثير من الحوادث التونسية التي وقعت في عهد وزارة والده رحمهما الله.

الضّخم المواجه لزاوية سيدي محرز بن خلف، وعلي باي، ورمضان باي، بأخذ ورد بينهم في الولاية من سنة 1086 [1675] إلى سنة 1108 [1696] وتخلّلهم عمّهم محمد الحفصي باي في سنة 1086 [1675] وصهرهم محمد ابن شكر باي في سنة 1106 [1694] ثمّ مراد باي الثالث بن علي باي في سنة 1110 [1698] وهو آخر الأمراء المراديين، وقد حفظ له التّاريخ من سوء السّلوك ما يحمرّ له وجه السّماء، ثمّ إبراهيم الشّريف باي في سنة 1114 [1703] وقد تلقّب بالباشا باي داي، وهو آخر البايات قبل قيام الدولة الحسينية، فكانت جملة البايات في مدّة حكم التّرك أحد عشر باياً.

ولما دخلت الإيالة التونسية في حكم البيت الحسينى سنة 1117 [1705] بطلب من أهل تونس وعن طيب نفس منهم، أخذت سلطة الباي في النّموّ والظّهور، وأخذت سلطة الدّاي في التّراجع والتّضاؤل، بتغلب الأولى على الثّانية، إلى أن آل أمر هذه للاضمحلال والزّوال، وفيما بين ذلك رسخت قدم البيت الحسيني في الإمارة، فكان حبّهم متمكّناً في القلوب، وسلطانهم باسطاً جناحيه على كامل التّراب التونسي. وأوّل من تولّى الأمر منهم مؤسّس بيتهم ثابت الأركان، راسخ البنيان، المولى حسين باي بن علي تركي في سنة 1117 [1705] ثمّ حفيده للأخ المولى علي باي الأوّل بن محمد ابن علي تركي في سنة 1148 [1735]، ثمّ المولى محمد الرشيد باي بن حسين بن علي في سنة 1169 [1756] ثمّ أخوه المولى علي باي الثاني في سنة 1172 [1781] ثم ابنه المولى حمودة باي في سنة 1196 [1782] ثمّ أخوه المولى عثمان باي في سنة 1229 [1814] ثمّ ابن عمّه المولى محمود باي ابن محمد الرشيد باي في سنة 1230 [1814] ثم ابنه المولى حسين باي الثاني في سنة 1239 [1824] ثمّ أخوه المولى مصطفى باي في سنة 1251 [1835] ثمّ ابنه المولى أحمد باي الأوّل في سنة 1253 [1837] ثم ابن عمه المولى محمد باي بن حسين باي الثاني في سنة 1172 [1855] ثم أخوه المولى محمد الصادق باي في سنة 1276 [1859] ثم أخوه المولى علي باي الثالث في سنة 1299 [1882] ثمّ ابنه المولى محمد الهادي باي في سنة 1320[1902] ثمّ ابن

عمّه المولى محمد الناصر باي ابن محمد باي في سنة 1324 [1906] ثمّ ابن عمّه المولى محمد الحبيب باي بن محمد المأمون باي في سنة 1340 [1922] ثمّ ابن عمّه وليّ النّعم سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي الثّاني في سنة 1347 [1929] أعلى الله على الأقدار قدره، وأنفذ في العالمين نهيه وأمره.

هذا وقد نظم العلاّمة الشيخ محمد بيرم الثّاني(2) أبياتاً تضمّنت ذكر جميع البايات من تاريخ الفتح العثماني في سنة 981 [1573] إلى زمن أمير عصره المولى محمود باي متولّي كرسي الملك الحسيني في سنة 1230 [1814]. وهذه الأبيات ننقلها هنا إتماماً للفائدة، مذيّلة بأبيات على وزنها وقافيتها، نظمتها في ذكر بقيّة البايات الحسينيين من أين وقف النّاظم الأوّل إلى هذا الزمان.

قال الشيخ الثّاني قدّس سره:

(2) كان من أعلم فقهاء زمانه، ناهيك أنّهم سمّوه بأبي يوسف الثاني توفي سنة 1247 [1831] وقد نعتوه بالثاني عقب اسمه احترازاً من الالتباس بأبيه الشيخ محمد بن حسين بيرم المتوفى سنة 1214 [1799] وعلى قياسه أضافوا العدد (3) لابن الشيخ الثاني يعني الشيخ محمد بن محمد بن محمد بيرم المنعوت بالثالث المتوفى سنة 1259 [1843] ثم أضافوا العدد (4) لابن الشيخ الثالث وهو الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن محمد بيرم المنعوت بالرابع المتوفى سنة 1278 [1861] هذا هو السّبب في اشتهارهم دون غيرهم من بيوت العلم بالأوّل والثاني الخ. وبقي بمحفوظي من مجلس حضرته للوزير الأكبر السيد محمد الجلولي أنّه ورد عليه بمشاهدتي المرحوم الشيخ محمد (السلامي) بيرم ابن الشيخ الرابع في سلسلة مجدهم الأثيل إثر ولايته خطّة الفتوى سنة 1325 [1907] وطلب منه التّرخيص له بإضافة العدد (5) لاسمه، فأذن له بذلك ولكنّه لما سعى في نقش ذلك النّعت على خاتمه لم تحصل الموافقة عليه من المقدّس المولى محمد الناصر باي، اعتباراً لكون الأعداد التّمييزية المتحدّث عنها إنّما اتّخذها أسلافه بعد ولايتهم مشيخة الإسلام لا قبلها، على أنّ رئيس جمعية الأوقاف كان الشّيخ محمد بيرم ابن المحتسب الشيخ مصطفى بيرم ابن شيخ الإسلام الشيخ محمد بيرم الثالث المتقدم ذكره لمّا نشر كتابه صفوة الاعتبار في سنة 1302 [1884] رسم عليه اسمه ونعت نفسه باسم محمد بيرم الخامس، فيكون مبنى هذا النّعت فيما يلوح هو مجرّد التّسمية باسم محمد في عموم السّلسلة البيرمية لا باعتبار تسلسل اسم محمد في عقب فرع واحد من أب لقب بشيخ الإسلام لابن له ورث عنه مباشرة هذا اللقب الممتاز كما هو المفهوم من النّعوت العددية المضافة لأسماء الشّيوخ المحمّدين الأربعة الذين ورثوا بتتابع خطّة المشيخة الإسلامية خلفاً عن سلف.

بايات تونس إن ترم عَدّاً لهم ... فالسّتّ مع عشراهم[3] أعداد

رمضان أوّلهم وثانٍ بعده ... مولاه ذو الصّيت البعيد مراد

ثمّ ابنه حمّودة باشا الذي ... أيّامه بين الورى أعياد

ثمّ ابنه المبتزّ للدّايات ما ... لهم من الملك الكبير مراد

ثمّ الثّلاثة من بنيه محمد ... وعلي ورمضان[4] هم الأطواد

ولقد تخلّل بين ذلك عمّهم ... بمحمّد الحفصي الشّهير يراد

وكذا ابن شكر صهرهم وعتيقهم ... من حرّكته لحربها أعضاد

ومراد بن علي الآتي من الـ ... ـأسواء ما فتّت به الأكباد

ثم الشّريف إبراهيم وبه قد انـ ... ـقطعت على من قبله الإمداد

ثم استقرّ حسين بن علي الذي ... لم تعرفي أيّامه أنكاد

من بعد ذاك علي حسين عمّه ... وابن الحسين محمّد ويزاد

فيهم علي باي أخوه وبعده ... ابن له من سعده يزداد

حمّودة الباشا المعين على الذي ... فيه صلاح للورى وسداد

وأخوه عثمان تلاه ودون ار ... بعة الشّهور ضمّه الألحاد

فأتى ابن عمّهما أمير زماننا ... محمود مقروناً به الإسعاد

لا زال في حصن الحماية مرشداً ... والخير في أيّامه يزداد

هنا انتهى نظم الشيخ محمد بيرم الثاني، والأبيات التّالية هي التي نظمها هذا العبد المتطفّل على أبواب الأدب:

من بعد محمود حسين نجله ... وأخوه ذاك المصطفى المنجاد

(3) حصر الناظم عددهم في ستة عشر ولكنه أتى في الجملة على ذكر ثمانية عشر بايا صاغ عقدهم في أبيات عددها ستة عشر فليتأمّل القارىء.

(4) هذا رمضان باي هو صاحب البطحاء المنسوبة لاسمه بمدينة تونس، وهو لا قبر له حيث قتله حفيده مراد باي الثالث وأحرق جثمانه ونسف رماده في اليمّ. ورمضان هذا هو الذي أتمّ بناء الجامع الذي أحدثه أخوه محمد باي جوار زاوية سيدي محرز بن خلف كان ابتداء بنائه في سنة 1104 [1692] وتمامه في سنة 1109 [1697] وتاريخ التّمام مرسوم بأرقام ذهبية على واجهة المنبر.

ثمّ ابنــه لقب المشير شعــاره　　هــو أحمد والـوصف جا حمّـاد
وهم المتمّ لعشـرهم في بيتهم　　قـد كان حصناً حولـه الأجنـاد
ثمّ الثّــلاثــة من بني عمّ لــه　　ورثـوا العلا والكـلّ هم أمجـاد
منهم أبــو عبـد الإلّــه محمّـد　　وأبـو الوفـاء الصّـادق المسعـاد
وعلي أبو الحسن الذي به يقتدي　　فـي فضـله النُّسَّـاك والعُبَّـاد
ثمّ ابنه الهادي المليك المرتضى　　والنّـاصـر اللذ صنعــه الإرشـاد
من بعد ذا قام الحبيب المقتفي　　أسـلافـه الأقيـال ممّن بـادوا
ثمّ العنــايــة أقبلت من ربّنــا　　نحـو البـلاد فعمّهـا الإسعـاد
بـولاية المـولى الذي من أجله　　أمسى يجـرّ ذيـولـه الإمـداد
نعني به الباشا أبا العبّاس أحـ　　ـمـد نخبة الأمـراء ممّن سادوا
فـالله يحمي ملكــه ويــديمــه　　أبــداً وأزمــان لــه أعــيـاد
ثمّ الصّلاة على النّبي والآل والصّـ　　ـحب الـذين لدينـه قـد شـادوا

هذا وقد أخبرناك فيما تقدّم بتقاصر خطّة الدّاي، ثمّ انقراضها في العصر الحسيني، وصورة ذلك أنّ الدّاي أمست خطّته في الدولة الحسينية قاصرة على مباشرة النّوازل الجارية في الدريبة[5] بولاية من الباي، فلمّا تولّى

(5) في الدّور الأخير من مدّة الدّايات غلب عليهم لقب الدّولاتلي الذي هو مسمّى الدّاي نفسه، ولفظ دولاتلي في اللغة التّركية يقابله في الترجمة بالعربية عبارة صاحب الدولة، ولكن لا بالمعنى العمومي المتلبّس بهذه العبارة في زماننا هذا، بل بحصره في إدارة شؤون محكمة الدّريبة، وهذه قريبة عهد منّا بل ما زال اسمها موجوداً في الأنظمة العدلية الحالية بتوس، ووجه تسميتها بدريبة الدّولاتلي، لأنّها كانت مجاورة لدار الدّاي، وهذه هي دار الطّباعة الرسمية العربية في الزمن الحاضر، وكان انتصابها هنالك على يدي في سنة 1319 [1901] وكان سقيفها العمومي هو ساباط الدريبة حيث كان جلوس أعوان الدّولاتلي والخصوم وسجن المكان، وكانت وظيفة الدّاي في ذلك الدور قاصرة على مباشرة النّوازل الجارية كالسّرقات والضّرب والجنح، تشبه من قريب خطّة كميسار البوليس في هذا الزمان. وإليك ما جاء في حقّها بالجزء الرابع من كتاب إتحاف أبناء أهل الزمان عند الكلام على ترجمة الدّاي أحمد آغا، ونصّ محلّ الحاجة: «فأعطى الخطّة حقّها وضبط البلاد، وخافه أهل الشّرّ والفساد، وتأنّس به أهل الخير والعافية» ا هـ.

المشير أحمد باي، وقعت في عهده ولاية الدّاي كشك محمد[6]، وهو آخر الدّايات أعطاه التّقليد بسراية المحمدية، وأطلقت عند ولايته المدافع قياساً على الرّسوم المسنونة من قديم، ولكنّه لقبّه في آن واحد بوزير التّنفيذ، وبسط له يده فقبّلها، وأقرّه على فصل النّوازل الجارية بالدّريبة فباشرها إلى حين وفاته في سنة 1277 [1860] وبموته ماتت خطّة الدّاي بالإيالة التونسية.

وفي بحر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر، اشتهر أمر البيت الحسيني بالأقطار القاصية والدّانية، فكان الملوك الحسينيون يعقدون المعاهدات مباشرة مع دول أروبا بدون وساطة الباب العالي، والدّول الأروباوية معترفة لهم باستقلاليتهم الداخلية في بلادهم، بحيث أصبح لقب الباي في نظر الأمم عَلَماً على ملوك تونس، كلقب سلطان لآل عثمان، ولقب خديوي لولاة مصر، ولقب شاه، لملوك الفرس، ولقب خان، لأمراء التتار، إلى غير ذلك من الألقاب الخاصّة بملوك الإسلام في الشّرق والغرب.

---

(6) كان قبطاناً للبحرية بحلق الوادي، وكانت له شهرة بين أهل زمنه لما أظهره في سابق خدمته من الجسارة والإقدام في القرصنة البحرية، وهو الذي كان قائداً للأسطول التونسي الذي أرسله المرحوم حسين باي لمياه اليونان واحترق في جملة الأساطيل العثمانية في واقعة ناورين المشهورة، ولمّا توفّي الداي أحمد آغا دفين مقبرة الأشراف الواقعة ببطحاء القصبة، وتعرف اليوم بزاوية سيدي الشّريف وكان ذلك في سنة 1268 [1851] تقدّم كشك محمد لخطّة الدّاي ولكنه لم يقبلها إلاّ على شروط حيث قال للباي عند عرض الخطّة عليه حسبما حكاه الشيخ أحمد بن أبي الضياف: «نمتثل أمرك في كلّ خدمة ونعرف ما لهذه الخطّة من العادات والظّروف الفارغة التي منها أن تقوم إليّ ولا آتيك إلاّ بإذن وهو أشدّها عليّ وأن يكون التّرجمان هو الرّسول بيني وبينك وأن لا أتوجّه لموضع إلاّ بإذن خاصّ كالمسجون إلى غير ذلك فإن أعفتيني من هذه الأمور بأن أقْدِمَ إليك متى أردت وأقبّل يدك كسائر وزرائك وأقوم معهم بين يديك وأتوجّه حيث شئت فإني خادمك تضعني فيما تراه، وإلاّ فإنّي في خدمتي بحلق الوادي شاكراً لله، محسوباً من الأعيان» فقبل المشير (أحمد باي) منه ذلك بسرور وأذن له في التّوجّه حيث شاء بشرط أن لا يبيت خارج الحاضرة لأنّ حراستها في عهدته ا هـ وكان صادق اللهجة، محمود السّيرة، طيّب السريرة، عزيز النّفس، عالي الهمة، آية في النّصح والوفاء بالعهد وآداب المعاشرة وكان مشكور الخدمة موفور الحرمة إلى أن أدركه أجله في مدّة المشير محمد الصادق باي سنة 1277 [1860] ودفن بجوار القاضي الشيخ أحمد بن نفيس بمقبرة السّلسلة رحمه الله.

هذا تفسير معنى لقب الباي في الإصلاح السياسي، فهو مساوٍ للقب ملك، لا لقب بك، بالمعنى الشرقي:

وهل يتساوى سادة وعبيدهم   إذا كان أسماء الجميع موالي

واللّقب الثاني لسموّ الباي هو لفظ الباشا، لا بمعنى الباشوية الممنوحة في بعض الدّول بالمشرق والمغرب لأصحاب الوظائف العالية المدنية والعسكرية، بل هو لقب متلبّس بالصّبغة الملكية لانفراد صاحبه به في مملكته، وإضافته لنعته الأوّل أي للقب باي. نعم إنّ خطّة الباشوية في أصلها كان يأتيهم التّقليد بها من الباب العالي، ولكن بايات تونس استمرّوا على التلقّب بها في دور استقلالهم عن الدولة العثمانية، وقد كنّا لعهد قريب نسمع الخطباء في الجوامع عند صلاة الجمعة ينعتون سلطان آل عثمان «بسلطان البرّين، وخاقان البحرين، مصر والشّام والرّوم والعراقين» مع كون بعض تلك البلاد المذكورة خرجت عن حكم آل عثمان منذ زمن بعيد، وليست هذه الألقاب والنّعوت الإسمية من خصوصيات ملوك الإسلام فقط، بل هي تتناول أيضاً الكثير من ملوك أروبا، فإنّ ملك إيطاليا الحالي من جملة ألقابه السّيادة على بلاد (سافوايا) منشأ أسرته، وأنت تعلم أنّ هذه البلاد جزء متمّم لخريطة فرنسا، وقس عليه ما كان لأمبراطور النّمسا والمجر، وما كان لملوك إسبانيا من الألقاب والنّعوت المقتبسة ممّا كان لأسلافهم من قوّة السّلطان في القرون الوسطى، والتّاريخ يعيد نفسه، فإنّ بعض الألقاب ينشأ ضئيلاً ثم يتعاظم وينمو إلى أن يبلغ لقمّة المجد، وبعضها ينشأ فخيماً ثمّ يتضاءل ويتقاصر إلى أن يؤول للاضمحلال والزّوال، وهذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

واللقب الثالث لسموّ الباي هو «صاحب المملكة التونسية»[7] وهذا لقب

---

(7) رأيت في بعض الرسوم العقارية بتاريخ أواسط القرن الماضي أنّ عدول ذلك العصر كانوا يلقّبون باي زمنهم وهو المولى حسين باي الثاني بلقب «صاحب كرسي تونس».

حادث بالنّسبة للآخرين، وأوّل من اتّخذه بالصّفة الرّسمية بطريقة قارّة هو المشير الثّاني محمد باشا باي، كتبه تلو اسمه مسبوقاً بلقب الباشا باي يوم تأسيسه لقانون عهد الأمان. وقد ختم لائحة هذا القانون بخطّ يده بما نصّه «صح من كاتبه المشير محمد باشا باي صاحب المملكة التونسية والله على ما نقول وكيل». وكان سلفه المشير أحمد باي يصدر مناشيره مفتتحة بقوله «من عبد الله الخ المشير أحمد باشا باي أمير الإيالة التونسية» وأمّا البايات الأسبقون فإنّهم كانوا يختمون مراسيمهم بعبارة «والسّلام من الفقير إلى ربّه الباشا فلان[8] باي أو عبده فلان باشا باي» وكان المرحوم مصطفى باي يمضي أحياناً مكاتيبه بقوله: «مصطفى ميرميران تونس دار الجهاد» ورتبة (ميرميران) كانت تأتيهم من الباب العالي، وبعضهم قلّده السلطان رتبة بيلي بك ومعناه باي البايات، وممّن أحرز على هذه الدّرجة مفخرة الزّمان الباي حمودة باشا، وبالآخر جاءهم لقب المشير من الدولة العثمانية وهو أفخم الألقاب في أنظمة الجيش العثماني. وأوّل من تلقّب به من البايات المولى أحمد باي الأوّل، ثمّ المولى محمد باي، ثم المولى محمد الصادق باي، ولقد وقفت على بعض الأوامر العليّة الصّادرة أثناء الأيّام الأولى من ولاية المولى علي باي ختمها كتاب ديوان الإنشاء بالوزارة الكبرى بعبارة: «والسّلام من المشير الرابع عبده علي باشا باي صاحب المملكة التونسية» فأعيد النظر

(8) ننقل هنا وثيقة تاريخية مثبتة لما ذكرنا ونلفت نظر القارىء الكريم لغرابتها من حيث اعتبار ما ورد فيها من مقدار جراية العلماء في ذلك الزّمان، ونصها بالنّقل عن أصلها:

«تذكرتنا هذه بيد الفقيه الشيخ حمودة ابن الحاج علي خوجة الحنفي وإنّنا أنعمنا عليه بدرس المرحوم سي باكير الإمام الذي بجامع المرحوم سي يوسف داي ورجعنا له الثمانية نواصر التي كانت للمرحوم سي باكير من فاضل الأحباس على العادة تجري له من شهر التاريخ بحيث إنّه يقرىء ما شاء والسّلام من الفقير إلى ربّه الباشا علي باي بن حسين باي في أوائل رجب سنة 1183 [1769] اهـ» قلت لا جرم أنّ عبارة هذه الوثيقة التّاريخية الصّحيحة ممّا يحمل الكاتب على مجاراة فقهاء زمانه في تذمّرهم من انخفاض مقدار أرزاقهم بالنّسبة لغيرهم من أهل عصرهم وإن كانت الجرايات العلمية في هذا الزمان أوفر من الجراية الواردة في تلك الوثيقة التاريخية بالآف أضعافها، ولكنّ هذا التّذمّر سبقني إليه الشاعر بقوله:

ورزقـهـم مـرخّـم مـنـادى   كـيـا سعـا فـيـمـن دعـا سـعـادا

فيها وألغيت عبارة المشير الرابع حيث لم تكن من النّعوت الملكية الوراثية في البيت الحسيني[9]. فأنت ترى كيف تطوّرت الألقاب الملكية في العصر الحسيني إلى أن بلغت في ابتهاجها وانتهاجها لذروة العظمة والمجد والكمال، كما هو مشاهد للعيان، وما بعد العيان بيان[*].

---

(9) [إثر وفاة الأمير أحمد باي في 19 جوان 1942، ارتقى إلى العرش الحسيني المنعّم المبرور محمّد المنصف باشا باي. وبعد أقلّ من سنة خلعته السّلطة الفرنسية بسبب مساندته للحركة الوطنية التونسية. فخلفه الأمير محمد الأمين باي الذي بقي على العرش من 15 ماي 1943 إلى 25 جويلية 1957: تاريخ الإعلان عن الجمهورية وانقراض الدولة الحسينية].
(*) المجلة الزيتونية - المجلد 2 - الجزء 5 - (فيفري 1938).

محنة أهل القيروان
(1249 هـ - 1833 م)

لمدينة القيروان منذ القديم منزلة غبطة واعتبار في نظر عموم سكّان هذه الدّيار، وذلك لما امتازت به هذه المدينة المختارة من الوديعة النّبوية الشّريفة النّاشئة عن ضمّ تربتها الطّيّبة لهاتيك الشّعرات النّبويّة المطهّرة[1] التي اشتمل عليها قبر سيّدي أبي زمعة البلوي[2] صاحب رسول الله ﷺ. ويستفاد

---

(1) من المشهور أيضاً أنّ العاصمة التّونسية توجد بها شعرات نبوية، فقد ذكر الشّيخ محمد بن سالم الحمّامي الخلوتي عند شرحه لبيت من أبيات بردة الإمام البوصيري، وهو قوله: لا طيب يعدل تربا ضمّ أعظمه الخ.. عن الشيخ ابن الدباغ قوله: وقد تواتر الخبر لدينا أن بدار الأشياخ بتونس وهي المدرسة المرجانية المعروفة، شعَرَات من شَعَره عليه السّلام أرانيها حفيد الشّيخ المرجاني فتبرّكنا بها، وعنده بذلك براءة قديمة مكتوب فيها صحّة كونها من شَعَره ﷺ ا هـ. باختصار من كتابنا تاريخ معالم التّوحيد في القديم وفي الجديد.

ويستفاد ممّا ذكره الوزير السّرّاج في الحلل السندسية، أنّ هنالك شعرة أخرى من شعره عليه الصّلاة والسّلام ومقرّها مقبرة الزّلّاج دفنت مع الشّيخ الشهير بأبي شعرة، المزار ضريحه لهذا الزّمان بالمقبرة المذكورة، وقضيّة هذه الشّعرة هو أنّه كان لبعض الأكابر بناءات ضخمة تجمّع لمعلّم البناء الذي باشر تشييدها أجور وفيرة بذمّة صاحب تلك الدّور والقصور، وكان في ملكية هذا الرّجل المثري شعرة من شعر النّبيء ﷺ، فلّما أراد دفع الأجور التي بذمّته لمستحقّها، قال له معلّم البناء: اعطني الشّعرة النّبوّية التي عندك، وأنا أبرأك الله من جميع ما ترتّب لي بذمّتك، فأعطاه إيّاها فأوصى بدفنها معه، فدفنت معه. تواتر النّقل بذلك بين النّاس. وممّا يعجبني الإشارة إليه هنا أنّ الأقدار ساعدت على دفن صاحبنا المرحوم أبي الحسن علي بوشوشة مدير جريدة الحاضرة جوار قبّة الشيخ أبي شعرة رضي الله عنه:

وإذا سخّر الإله أناساً ... لسعيد فإنّهم سعداء

(2) اسمه عبد، وقيل عبيد بالتّصغير ابن أرقم البلوي، ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة، وابن الأثير في أسد الغابة في عبد وفي عبيد، قال: وهو مشهور بكنيته، وقيل اسمه عبيد ابن آدم =

ممّا نقله المؤرخون والكاتبون الثّقاة أنّ هذه الشّعرات أخذها أبو زمعة من الشَّعَر الشّريف يوم مِنًى في عام حجّة الوداع، لمّا حلّق رسول الله ﷺ رأسه، ووضعها أبو زمعة في قلنسوته إلى أن استشهد في القيروان، فدفنت معه[3]. قال في معالم الإيمان: إنّه أوصى رضي الله عنه أن تعمل شعرة على عينه اليمنى، وشعرة على عينه اليسرى، وشعرة على لسانه.

هذا هو السّبب الأصلي في تلبّس مدينة القيروان بالصّبغة المباركة التي ازدادت نوراً وحبوراً بما اشتملت عليه تربتها من قبور جماعة كثيرين آخرين من صحابة وتابعين وأولياء وأشراف وعلماء عاملين. أضف لذلك أنّ القيروان كانت في القرون الأولى هي أمّ العواصم الإفريقية، وناهيك بأمرائها من بني الأغلب الذين أخذوا حظّهم من استقلالية الحكم برضاء خلفاء بني العبّاس، وحكموا البلاد مدّة طويلة، وكانت لهم يد عاملة في تمصير مدينة تونس بما أحدثوا بها من المرافق والأسوار، وغير ذلك من دواعي العمران، فتكوّن من مجموع ما قدّمنا، مع تعاقب القرون، مركز خاصّ في النّفوس بين سكّان الدّيار التّونسية لمدينة القيروان وساكنيها، وتأصّل هذا الشعور في أذهان النّاس إلى العصور المتأخّرة، لا سيما بعد مناصرة أهل القيروان للمولى حسين باي بن علي تركي، رأس البيت الحسيني - خلد الله ملكه - وانضمامهم لحزبه ضد حزب الثّوار الملتفّين حول الباشا علي باي الأوّل أواسط القرن الثاني عشر للهجرة الشّريفة. واتّفق بعد نحو مائة عام من ذلك العهد، أنّ الوزير حسين باش مملوك أساء التّصرّف في أموال البايليك حيث حسن في نظر الباي ورجال الديوان المضاربة في الزّيت بطريقة السلم لفائدة صندوق الدّولة، فصارت الدولة تشتري الزّيوت من ملاّكة الزياتين قبل نضج الصّابة بأسعار بخسة، بقصد بيعها بعد ذلك للتّجّار بأثمان باهظة،

= والذي في معالم الإيمان، عبيد الله بن آدم، مات رضي الله عنه سنة 48 للهجرة [668] على أشهر الأقوال.

(3) [انظر: «كشف الذعرات بوصف الشّعرات» - تأليف المرحوم الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور - الدار التونسية للنشر (بدون تاريخ)].

فتسبّب عن ذلك إفلاس فلاحة الزّيتون في الأجل القريب، لأنّ من لم توفّ صابته بما تعهّد بدفعه من الزّيت للبايليك، يغصبه الوزير على اشتراء ما نقصه بالمال النّاض بأسعار مشطّة، ليتمكّن الوزير باش مملوك من تسديد ما عليه من مطالب الزّيت الذي تجمّل ببيعه بمقتضى اتّفاقات مع التّجّار الأجانب، وانتبه الباي لوخامة العاقبة، فعزل الوزير حسين باش مملوك، وأقام مقامه الوزير شاكير صاحب الطّابع، وفوّض له الأمر لتدارك تلك الحال، وشاكير هذا كان مشهوراً بالحذق وسداد التّدبير في شؤون الاقتصاد، فارتحل توّاً إلى السّاحل بنيّة تصفية الحسابات النّاتجة عن تصرّف سلفه، وأخصّ من ذلك بقصد جمع كمّية وافرة من الزّيوت من ملاّكة الزيتون بعنوان إعانة للدّولة لتدفعها للتّجّار الأجانب، فأنكر بعض أهل مساكن[4] سلوك الوزير ورفضوا دفع الإعانة المطلوبة منهم، ولاذوا بمقام الصّحابي سيّدي أبي زمعة البلوي بالقيروان، تفصّيا من الإعانة المذكورة، فأمر الوزير شاكير بإخراجهم من مأمنهم بالقوّة القاهرة، الأمر الذي أثار غضب لفيف أهل القيروان بمسعى من رجل اسمه سعد اللوز، الذي كان ينادي في النّاس: يا أهل القيروان! هكذا يهتك حرم السّيّد الصّاحب وحرم القيروان! قال المؤرخ الشّيخ أحمد ابن أبي الضّياف[5]: فلبّاه جمع من وغاوغ الرّعاع، وانضاف إليهم آخرون، واجتمعت العامّة وعجزت الخاصّة عن ردّهم، ومنعوا الهاربين قهراً، ثمّ حملوا السّلاح، وأتوا إلى الأعيان يشيرون للواحد منهم بالسّلاح، ويقولون له: ترضى هتك حرم السّيّد الصّاحب؟ ولا بدّ أن يقول لا، فإذا قالها، قالوا له أنت معنا، فيقول لهم وهو ينظر إلى السلاح الموجّه نحوه، نعم. ثم يأتون آخر، وهكذا تداس السّباع بأيدي الضّباع اهـ.

لمّا رأى أعوان الوزير شاكير القادمين على القيروان لإخراج الهاربين الملتجين بمقام أبي زمعة والتوجّه بهم لسوسة أنّ تنفيذ الإذن الوزيري الذي

---

(4) [مساكن - بلدة تقع في منطقة الساحل تابعة لولاية سوسة].

(5) [«الإتحاف» - ج 3 - ط 2 - ص. 240].

بيدهم يجعلهم عرضة للخطر، فازوا بالفرار وركبوا أدهم اللّيل إلى سوسة، وأخبروا الوزير شاكير بما رأوه من ضجيج العامّة، فاستفزّه الغضب، ورفع الأمر إلى مسامع المولى حسين باي الثاني. قالوا إنّ سلوك عامل القيروان يومئذٍ، وهو من آل المرابط المشهورين، كان مشبوهاً فيه، لأنّه هوّل الأمر عند إعلامه للوزير شاكير بالنّازلة، بحيث إنّ مكتوب الوزير للباي تضمّن عبارة «خروج أهل القيروان عن الطّاعة، وأنّه لا بدّ من تلافي الحال قبل سريانه». وبمقتضى هذه الإشارة، وجّه الباي عقداً من الخيل برئاسة صالح بن بلقاسم كاهية وجق الصّبايحية بتونس، وكان صاحب رأي وسياسة، فبعد أن اجتمع بالوزير شاكير بسوسة، سار إلى القيراون، وعند الوصول إليها تحقّق أنّ البلاد لم تخرج عن الطّاعة، لأنّ أهلها تلقّوه بصناجق الأولياء ورّحبوا بقدومه، فتمكّن من الجماعة المثيرين للهرج، وعاد لباردو مصحوباً بجمع من أعيان القيروان وأشرافها وعلمائها، منهم الباش مفتي الشيخ محمد بن بكّار صدّام، فلّما مثلوا بين يدي الباي، لامهم عمّا صدر من بعضهم من العقوق، ثمّ أمر بضرب جماعة من اللّفيف الذين شاركوا في الهرج بالسّياط. قال الشّيخ أحمد ابن أبي الضّياف[6]: ودام الضّرب فيهم من الضّحى إلى الظّهر، إلاّ أنّه كان ضرب هداية وتأديب، لا ضرب قتل بتعذيب، لأنّ الباي لمّا أمر بضربهم قام للخروج من المحكمة، وأمر الموكّل بالضّرب، وهو الرّجل الخيّر محمد الطبرقي أوضه باشي المماليك بالتّخفيف والرّفق وقال له: اضرب ضرب تربية لا ضرب انتقام ا هـ.

بعد هذا قال الباي لا بدّ من خطيئة[7]، يعني عقوبة مالية على عامّة أهل القيروان، وكان في حسبانه أن يخلّص شيئاً ويترك شيئاً. ثم أمر رجال الوفد القادمين عليه من القيروان بالرّجوع إلى سوسة لمقابلة الوزر شاكير، فلّما مثلوا لديه، خاطبهم بعنف وشدّة، وأهان عالمهم وإمام جامع عقبه بن

(6) [نفس المرجع].
(7) [الْخَطِيَّة: في الاصطلاح التّونسي معناها الغرامة المالية].

نافع، وإن هو ندم بعد حين عن صدور ذلك الشّذوذ منه، وفي ذلك المجلس أعلمهم بأنّه ضربت عليهم خطيئة قدرها خمسمائة ألف ريال، وأنّه قادم على الإثر لخلاصها، وفعلاً توجّه بوقته إلى القيروان وباشر استخلاص ما مكّنته سطوته من خلاصه بدون رفق ولا حنان. قالوا إنه ألزم مؤدّب صبيان على دفع حصّته في الخطيئة، وقدّرها له بخمسمائة ريال، والمؤدّب لا يكسب خمسة ريالات، فاضطرّه لبيع أثاث بيته وألواح مكتبه لدفع بعض ما ضرب عليه، وليقس ما لم يقل. فكان أهل القيروان يومئذٍ في زلزلة ساعة سكارى وما هم بسكارى، وهذه المصيبة التي حلّت بدارهم، دعت أحد أعيانهم، وهو الشّيخ محمد بن عطاء الله السّلمي[8] لنظم قصيدة فريدة في استرضاء الباي واستمناح شريف عواطفه نحو أهل القيروان وهذه القصيدة التّاريخية لم يسبق ظهورها في عالم الطّباعة، لذلك آثرت نقلها هنا برّمتها عن كنّاش للأديب الشّيخ حسين بن مصطفى التّرجمان، وهذه عبارتها بعد مقابلتها بنسخة ثانية منها سمحت بها مكارم أحد أحفاد النّاظم، رحم الله السّلف، وبارك في الخلف:

الصّبر للمرء خير يا ابن ذي كرم	فلازم الصّبر كي تشفى من الألم
لا تجز عنه وكن بالله معتصما	فخالق الخلق ذو فضل على الأمم
من كان مستنصراً يوماً بسيّده	نال المنى والرّضا من بارىء النّسم
يا صاح أنبيك عن ريب الزّمان وما	بالقيروان جرى للنّاس من عدم
لأجل أوباشها عتوا بفرعنة	فعمّ فيها القضا من كان في نعم
وكلّ من كان من أهل السّداد بها	ألفيته حائراً والدّمع كالدّيم
فما ترى واحداً إلاّ ويركض في	سعي الخلاص لنقد عنه مرتسم
يفرّ مجتهداً بالرّهن مغتبطاً	نحو النّصارى لجني الفلس مغتنم

(8) كان يقرىء السّيرة النّبوية بإحدى زوايا الحومة القبلية بالقيروان، وكان رخيم الصّوت يحرّك وجدان سامعيه، وكان مع ذلك صاحب إقدام وحميّة ونفس أبية، فصيح اللّسان، بليغ البيان، ثابت الجنان. توفي رحمه الله أواخر جمادى الأولى عام 1250 [1834]. وقد رثاه بعض الأفاضل من خلاّنه بقصيدة هذا بيت تاريخها:

فعندما أبصرت عيني الخليل ثوى	بقبره أرّخت: مات الذّكيّ الأدبي

كي يستريح من الأمر المهول وما ... أصابه من شديد السّبّ والنّقم

يا لهف نفسي على صبرى وزينتها ... وعن كرام بها من سادة الحرم

جار الزّمان عليها بالنّكال وقد ... أساءها بمزيد الضّرّ والسّقم

فأصبحت بلقعاً قفراً وليس بها ... شيء يناوله شخص لذي رحم

حكم الإلّه على المخلوق أبرمه ... فرضنا بالقضا يا واسع الكرم

ما كان في ظنّنا أنّ الأمير له ... حرص يؤول به للمحق والعدم

ويسمع النّقص من واش له غرض ... ووصفه الافترا والصّدق عنه عم

هذا من السّيّد المولى الجليل جرى ... فلا محيد على ما خطّ بالقلم

بالله يا ملكاً جاد الزّمان به ... رفقاً بقوم غدوا في غاية السّقم

أهملتنا بعد ما قد كان يألفنا ... من السّيادة حصن غير منهدم

لو كنت أمضيتنا بالسّيف أهون من ... مقت لنا من عدوّ غير محتشم

قد ادّعى أنّنا رمنا الشّقاق على ... مليكنا ورمى الأقوام في ضرم

لكنّه الصبر أولى فالرّحيم إذا ... ضجّت إليه عبيد جاد بالنّعم

فقد رجوناك يا فخر الملوك ويا ... نسل المليك لدفع الحادث العمم

الحلم عادتكم والعفو شيمتكم ... والصّفح زينتكم يا منتهى الكرم

حاشاك ترضى جلاء القيروان إذا ... ما كنت أنت لها يوماً فمن بهم

فنطلب الله ربّ العالمين بمن ... له الشّفاعة يوم الحشر في الأمم

أن يلهم السّيّد المولى الأمير لما ... فيه الرّضى والشّفا لكلّ ذي سقم

وأن يعطف وزيراً حاز مرتبة ... برأيه عند أهل المجد والشّيم

ليتبع الأمر ممّن كان ذا سبب ... ويذهب البأس عن حيران متّهم

بجاه خير نبيّ جاء مبعثه ... للعالمين هدى والنّاس في ظلم

محمد خاتم الرّسل الكرام ومن ... يكون يوم الجزا غوثاً لمنعدم

صلّى عليه إله العرش خالقنا ... ما قام ذو طرب يسعى إلى الحرم

فعدّة النّظم «لبّ» يا خليلي وقد ... أرّخت: والخلق في ضيق من الألم

1249 [1833](*)

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 4 ـ الجزء 3 (ديسمبر 1940).



منظر عام لمدينة القيروان وتتجلى فيه مئذنة جامع عقبة الشهيرة برونق شكلها.

كرسي الملك الحسيني
نشأته وتطوّره عبر العصور

اعلم أنّ كرسي الملك، ويطلق عليه لفظ تخت، وأريكة، وسرير، وغير ذلك سنّة قديمة من سنن الملوك قبل الإسلام، ناهيك أنّ سليمان صلوات الله عليه، كان له كرسيّ من عاج مغشّى بالذّهب، يجلس عليه، وكان عمرو بن العاص يجلس بقصره مع العرب، ويأتيه المقوقس عظيم القبط ومعه سرير من ذهب، محمول على الأيدي لجلوسه، شأن الملوك، فيجلس عليه وهو أمامه. قال ولي الدين ابن خلدون: ولا يغيرون عليه في ذلك وفاء له بما عقد معهم من الذّمّة. وأوّل من اتّخذ أريكة في الإسلام، معاوية بن أبي سفيان، واقتدى به الخلفاء والملوك والسّلاطين من بعده، وعلى قياسهم كان عمل ملوك تونس، ومنهم بنو الأغلب، وبنو حفص، إلاّ أنّهم كانوا أقرب إلى البساطة منها إلى الفخامة والظّهور. فقد كان الأمراء من بني الأغلب يجلسون على مصطبّة موقعها فوق صهاريج اختزان الأرزاق من حنطة وشعير وغير ذلك، ومنه جاء لفظ المخزن في الاصطلاح الدّولي بتونس. وكان بنو حفص يجلسون على البسط، واتّخذ بعضهم لنفسه تاجاً كان يظهر به بين النّاس وهو راكب بغلاً. هكذا حكاه في المؤنس، وقد أثبت التّاريخ أنّه كان للسّلطان محمد بن الحسن[1] في آخر دولتهم كرسيّ خاصّ بجلوسه للحكم بالقصبة، شاركه في الجلوس عليه الحاكم الإسباني، فكان

(1) [هو السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن الذي تولّى الإمارة من سنة 1493 إلى سنة 1526 م].



كرسي الملك ببيت المحكمة بباردو.

هذا يجلس يوماً، والسّلطان يوماً، وابتدأ ظهور فخامة الملك بأبّهته الشّرقية في عهد الدّولة التّركية، فقد كان لديهم في جملة الأنظمة التي سنّوها بتونس بعد الفتح العثماني في سنة 981[1573] كرسيّ خاصّ بجلوس الباشا بقصر باردو، وآخر لجلوس آغا القصبة، بل كانت لديهم في الجملة سبعة كراسي اشتهرت بها مدينة تونس بين العامّة في قولهم «بلاد السّبعة كراسي» منها كرسي الدّاي بديوان دار الشّريعة المطهّرة، وهذا الكرسي أمسى شاغراً من عهد وفاة كشك محمد، آخر دايات تونس، لقّبه المشير أحمد باي الأوّل بوزير التّنفيذ، لتجريده عن الصّبغة الملكيّة التي كانت بخطّة الدّاي متلبّسة.

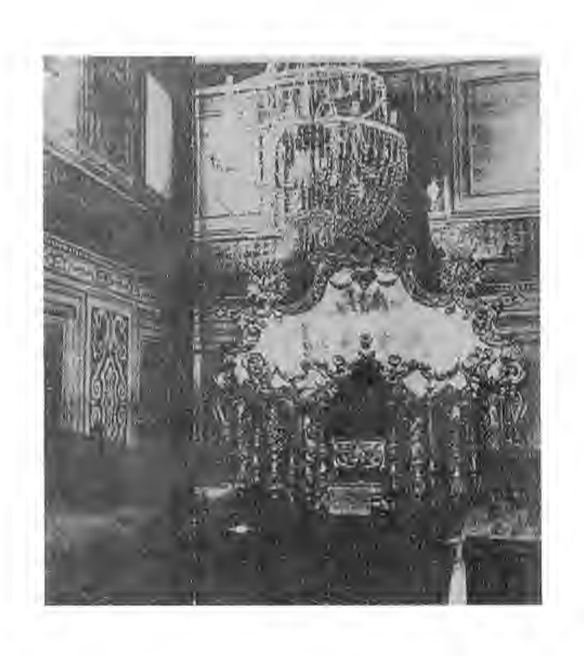
والكراسي المذكورة هي: كرسي الباي، وكرسي الـدّاي، وكرسي الباشا، وكرسي آغا الكرسي، وكرسي آغا القصبة، وكرسي كاهية دار الباشا، وكرسي آغا وجق الحوانب. هكذا ذكرها بعض المعمّرين من شيوخ الجيل الفائت.

وقد اتّفق لهم تربّع بعضهم على جملة تلك الكراسي في وقت واحد، كالأمير إبراهيم الشّريف قتيل غار الملح، فإنّه كان باشا باي داي، ترى ذلك عياناً بالوقوف على عبارة منقوشة فوق سبيل له يعرف بعين بيطار، على مقربة من مدينة بنزرت، ونصّها: (الحمد لله. أمر السّيّد الأمير الباشا الدّاي الباي إبراهيم الشّريف بإحياء هذه العين وإجرائها احتساباً لله تعلى سنة خمس عشرة ومائة وألف [1703] اهـ).

أمّا آل البيت الحسيني، خلد الله بقاءهم، فأوّل من اتّخذ منهم كرسيّاً فخماً لجلوسه بباردو، هو الباشا على بن محمد الأوّل[2] المتوفى سنة 1169 [1756]. قال الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضيّاف[3]: من آثار هذا الباشا محكمة باردو، وقد تأنّق في بنائها وجعل فيها كرسيّاً كسرويّاً يشعر بالعظمة،

---

(2) [هو الباي الحسيني الثاني علي باشا باي الأوّل (1735 - 1756)].
(3) [الإتحاف ج 2ـ ط 2ـ ص [illegible]].



كرسي الملك ببيت الباشا بباردو.

فلمّا خلفه في الملك ابن عمّه محمد الرّشيد باي[4] أزاله بدعوى أنّه من شعار الكبر، وأقام مكانه بمحكمة باردو كرسيّاً بسيطاً من عود الجوز وصنع البلاد، وجلس عليه مدّة حياته، ثمّ أخوه من بعده وأعقابهما حتّى الباي العاشر. وفي أيّام الباي علي الثّاني بن حسين بن علي، لفظ البحر حوتاً عظيماً من السّمك المسمّى حوت العنبر بشاطىء عوينة الساحلين من عمل السّاحل، فأخذوا سنّه وحملوه للباي، فصنع منه كرسيّاً ملكيّاً لجلوسه، وما زال هذا الكرسيّ قائم الذّات حتى الآن بسراية المرسى القديمة. وأمّا كرسي محمد الرشيد باي المصنوع من عود الجوز، فإنّ أحمد باي الأوّل لما أحدث البيت الكبير العلويّ بسراية باردو، ووافق ذلك تمييزه برتبة المشير من لدن الباب العالي في سنة 1256 [1840] اتّخذ لنفسه كرسيّاً أميرياً لجلوسه، وزهد في كرسي عود الجوز المشار إليه، ولم يدر كيف كان مصيره، والغالب على الظّنّ أنّه نفسه الكرسيّ الذي كان يجلس عليه الدّاي بديوان دار الشّريعة المطهّرة، ولم ينقل التّاريخ حصول تبديل بكرسي الملك الحسيني في عهد المشير الثاني محمد باي، وكانت مدّة ملكه قصيرة موسومة بالخصب في الزّرع والضّرع، فلّما آلت نوبة الملك لأخيه المشير الثالث محمد الصادق باي، جدّد عمارة السّرايات الملكية بأجمعها، فجعل كرسي بيت القبول الأكبر بباردو بشكل نصف دائرة، منمّق بالنّقش والتّذهيب، ومغشّى بالديباج، يعرج له بدرج مغطّاة بالْمُوَبَّرْ[5]، وحوله ستور حريرية، ورُسم برأس الكرسي الطُّغْرَاء الحُسَيْنِيَّة التي هي شعار النّسب الملوكي موشّحة بسلوك الذّهب والفضّة، وجعل تحتها بالطّرز العالي صورة نيشان آل البيت الحسيني، وفوقها شعاره الملوكي الذّاتي، وهو عبارة عن طُغْرَاء أخرى شكلها بيضيّ تحفّها غصون من شجر الزّيتون وسنابل الحنطة كما في سكّة الذّهب والفضّة كتب بقلبها (الله - محمد) وبطوقها (ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن) مذيّلة بتاريخ سنة 1277 [1860] التي وقع فيها إنجاز هذا النّظام الجديد الذي تمّ إيجاده بعد رجوع

(4) وإليه تنسب الجمعية الرّشيدية التي شنّفت نغماتها أسماع مدينة تونس في عهدنا الحاضر.

(5) [المُوَبَّر: بمعنى «المخمل» في الاستعمال التونسي].

الباي من سفره للسّلام على الأمبراطور نابليون الثالث بعاصمة الجزائر، وهو الذي أشار له شاعر تونس لعهده المفتي الشيخ محمود قابادو بقصيدته التي مطلعها:

ربيـع مع جبينـك قـد أطـلاّ   على أفق الجزائر فـاستهلاّ(6)

وأمّا كرسي بيت البلّور، فإنّه ـ وهذا البيت من محدثات الباشا محمود باي ـ قـد كان يذيب سكّة الذّهب البندقي لتمويه سقوفه ممّا لم يزل أثره جليّاً لهذا اليوم رغم مرور قرن ونيّف عليه: نعم إنّ المشير محمد الصادق باي جدّده بشكله الحاضر مع بقيّة كراسي الملك الموجودة بكّل السّرايات الملكية في سنة 1277 [1860] واتّخذ لنفسه لقب صاحب المملكة التونسية، وكان المشير أحمد باي يلقّب نفسه بأمير الإيالة التّونسية، وأسلافه يمضـون مناشيرهم بلفظ باشا باي فحسب. وعثر البحّاثة (هوكون) على مكتوب لوالد هذا المشير مذيّل بخطّ يده بقوله «مصطفى باي مير ميران تونس دار الجهاد».

واعلم أنّ بيت البلّور هذا هو الذي يقع به تنصيب سموّ الباي يوم أيلولة الملك إليه في عصر الحماية، وكان انتصابه عند الولاية في الدّور القديم يقع ببيت الباشا، عدا المشير محمد الصادق باي، فإنّ موكب جلوسه على العرش الحسيني أقيم بالبيت العلويّ الكبير، وفي أثنائه حلف اليمين القانونية بالامتثال لعهد الأمان. وببيت الباشا كان الأمراء الحسينيّون يرأسون المجلس الشّرعي لفصل النّوازل تحت أنظارهم يوم الأحد من كلّ أسبوع، ولم يكن هذا المجلس صورياً، بل كانت تقع فيه المباحثات الفقهية بالأخذ والرّدّ، والباي يصغي لذلك بكمال الاهتمام. ومن هذا القبيل نازلة الشيخ البحري، قاضي تونس، مع أستاذه الشيخ إبراهيم الرّياحي ـ قدّس سره ـ.

وكرسي بيت الباشا جدّده أيضاً الباي محمد الصادق، وبهذا البيت كانت خزانة الكتب المعتبرة التي أحدثها الباشا علي بن محمد بمسجده. أمّا

---

(6) [ديوان قابادو ـ ج 2 ـ ص 31 (الدار التونسية للنشر) 1972].

كرسي سراية المملكة بالحاضرة فهو من محدثات المشير محمد الصادق باي، أحدثه في سنة 1277[1860] عند تأثيثه لبيت المجلس الأكبر، وكانت كراسي أعضاء هذا المجلس موشّى عليها بأرقام عديدة مرسومة بالعاج، وقد تلاشت كلّها أو جلّها. ورأيت منها في هذه السّنوات بقيّة ببيت مدير أشغال البلد بالمجلس البلدي بتونس، فنّبهته وأنّ لها قيمة تاريخية توجب عليه الاحتفاظ بها، فابتسم، وقال: نعم.

هذا وقد كانت كراسي أخرى لديار الملك التي عفت رسومها ككرسي سراية المرناقية في عهد الباي حسين بن محمود باي، وكرسي سراية المحمّدية في عهد المشير أحمد باي، وكرسي سراية حلق الوادي في دولة المشيرين الثّلاثة ، وكلها تناولتها يد التّلاشي والضّياع. وأمّا كرسي بيت البحر بحلق الوادي فقد التهمته النّار في جملة الأثاث والرّياش التي دمّرها الحريق في سنة 1300 [1882].

ثم اعلم أنّ الكرسي الحسيني الرّفيع العماد لم يبت منذ تأسيسه ليلة واحدة بحال شغور، وقد اتّفق أنه عند وفاة المقدّس المولى علي باي الثالث في خامس ربيع الأنور 1320[1902] أشار بعض أهل النّظر بتأخير موكب تنصيب الباي الجديد لليوم التّالي، ريثما تقوم الدّولة بترتيب حفلة التّقليد وتنظيم أساليبها، فلم يوافق الشيخ محمد العزيز بوعتّور الوزير الأكبر لعهده على ذلك قائلاً: «إنّ كرسيّهم لم يبت ليلة شاغراً منذ تأسيسه»، وتمّت عقدة بيعة المولى محمد الهادي باي في نفس اليوم الذي ختمت فيه أنفاس والده المبرور، وعلى ذلك القياس جرى العمل عند أيلولة كرسي الملك للمولى محمد النّاصر باي، ولابن عمّه المولى محمد الحبيب باي، ولحضرة صاحب السموّ الملكي وليّ النّعم سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي الثاني، بلغه الله الأماني، ببركة السّبع المثاني. وهذه القاعدة الصّحيحة لها اعتبار عظيم في الأنظمة الحسينيّة تشهد بذلك حادثة وفاة المرحوم الباي حمودة باشا عند غروب موفّى رمضان سنة 1229 [1813] وولاية أخيه عثمان باي ليلة عيد الفطر،

فلمّا أصبح الصّباح بايعوه البيعة العامّة، وهنّوه بالعيد، وبالولايـة في آن واحد.

ونختم هذه النّبذة المباركة بالتّعريف بلفظ باردو الذي تكرّر ورود ذكره فيها. فإنّ كلمة (باردو) محرّفة عن لفظ (برادو) في اللغة الإسبانية، ومعناه مرج، والمرج في كتب اللغة هو الأرض الفسيحة ذات النّبات الكثير، ويجمع على مروج، ومنه كتاب مروج الذّهب للمسعودي. يؤيّد هذا الفهم أنّ بـاردو ـ وهو من محدثات بني حفص ـ كان عبارة عن حدائق ورياضات متّصلة ببعضها تتخلّلها البساتين والمساكن الحفصيّة، واتّفق ظهوره واشتهاره بهذا الاسم أيّام قدوم أهل الجالية الأولى الأندلسية حوالى المائة الثامنة. وفي الخلاصة النّقيّة[7] أنّ السّلطان محمد المنتصر الحفصي أدركه أجله بسانيته بباردو في سنة 839 [1435] وفي عهد الأتراك سكنه أمراء الدّولة المرادية. قال في المؤنس[8]. وفي سنة 1092 [1681] كان الختان في برج باردو لحفيد الباي (المرادي) وكانت تلك الأيّام تعدّ من الأعمار اهـ.

ولما آل أمر الإيالة التونسية لحكم البيت الحسيني اتّخذوا منازل لهم بباردو، ووسّعوا في أبراجه، والمسجد الجامع الموجود به من حسنات المولى حسين بـن علي طاب ثراه، والمحكمة التي بقصر الملك من محدثات حفيده الباشا علي بن محمد كما سبقت الإشارة لذلك. وممّن زاد في فخامته وعمارته المشير أحمد باي، وبه أسّس المشير الثاني محمد باي دار الحريم، التي تحاكي في جمالها حمراء غرناطة، وفيها انتصب المتحف العلوي[9] سنة 1305 [1887] وزيد في عمارته أثناء الدّولة الصادقية، من ذلك صرح على بابه أقيمت به منجانة[10] زمنية على شكل منجانة بطحاء القصبة بتونس مسحتها يد

---

(7) [الباجي المسعودي «الخلاصة النّقيّة في أمراء إفريقية» تونس 1866 ـ ص 81].

(8) [«المؤنس» لابن أبي دينار ـ ص 276].

(9) [بعد الاستقلال أطلق على هذا المتحف اسم «المتحف القومي بباردو»].

(10) [«منجانة» بمعنى «السّاعة» في الاستعمال التّونسي].

الأيّام مع السّوق الذي كان به، والدّور والدّكاكين الكثيرة التي أقيم مقامها الحديقة الجميلة الموجودة هنالك لعهدنا الحاضر.

والخلاصة أنّ باردو كان عبارة عن بلد جامع يأهله نحو الثّلاثة آلاف نفس، به دار الإمارة، ودواوين الوزارة التونسية بأجمعها، وكان انتقالها لسراية المملكة بالحاضرة في منتصف ربيع الآخر سنة 1300 [1882] وكان به قاضٍ على المذهب المالكي، وآخر من تولّى هذه الخطّة المفتي الشيّخ عمر بن الشيخ[11] المتوفّى سنة 1329 [1911] وكان لشيوخ البيت البارودي قدم السّبق بين الفقهاء في ملازمة الأمراء الحسينيين بباردو، وهم أوّل من صاهروهم من بيوت العلم وشاركوهم بالأنظار الفقهية أثناء الاجتماعات الشّرعية الأسبوعية للنّظر بحضرة الباي في مهمّات النّوازل والشّؤون، وسبحان من أمره بين الكاف والنّون(*).

(11) [الشيخ عمر بن الشيخ: انظر ترجمة حياته في «تراجم الأعلام» للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ص 161].

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلّد 1 ـ الجزء 4 ـ (ديسمبر 1936).

التّاج الملكي الحُسَيْني

قبل البحث في هذا الموضوع نلخّص للقارىء الكريم شيئاً ممّا وقفت عليه من حديث التّيجان[1]، وأين كان ظهورها في البداية. فقد حقّقوا أنّ أوّل من استعملها أمّة اليونان، وكانت عندهم في البدء من شعار الدّين، يتّخذونها في شكل ظفائر وعرائش يصنعونها من ورق الأشجار والأنوار، ومنها أكاليل الزّهر التي تلبسها العروس الأروباوية يوم زفافها، والأكاليـل التي تهدى لأموات النّصارى يوم الجنازة، وفي غرّة شهر نوفمبر الموافق لعيد جميع القدّيسين في اصطلاح الكنيسة، ثم توسّعوا فيها إلى أن أخذت صبغتها السّلطانية في عهد الأمبـراطور قسـطنطين مؤسّس القسـطنطينيـة العظمى (الأستانة)، فصاروا في عهده ومن بعده يميّزون كبار الرّجال من الفاتحين بأكاليل يجعلونها من عرائش الرّيحان، والرّند، ودوالي العنب. وعن اليونان اقتبس الرّومان شعار التّاج، فكان لهم تاج حبّ الوطن، يتّخذونه من ورق شجر العفص، يتوّجون به أهل الشّدّة والبأس في ميدان القتال، وتاج الزّيتون المختصّ بقواد الجيوش. وممّن تتوّج به يوليوس قيصر المشهور، وتاج التّكريم الخاصّ بالقواد المنصورين، وتاج الشّرف المجعول لتمييز أصحاب الأنساب، وغير ذلك، ثمّ انتشر شأن التّيجان عند بقيّة الأمم الأروباوية ومنها

---

(1) جمع تاج في العربية يقابله لفظ كورونة في اللغة اللاتينيـة وبهذا اللفظ ما زالوا ينعتونه بين الخاصّة والكافّة في أروبا.

فرنسا، فكان لأشراف القوم بها تيجان من الذّهب الوهّاج في القرون الوسطى، وكان تاج نابليون الأوّل مقاماً على ثمانية نسور مرصّعة، ومثله تاج حفيده للأخ نابليون الثالث، وهو آخر من تتوّج بفرنسا لقيام الحكم الجمهوري مقام الحكم الأمبراطوري في سنة 1870.

وأمّا في الدّول الإسلامية، فإنّ التّيجان لم تكن معروفة عندهم، لأنها ليست من أوضاعهم، وغاية ما عرف عندهم في هذا المقام، العمائم، وكانوا ينعتونها بتيجان العرب. وقد أثبت التّاريخ أنّ بعض خلفاء بني العبّاس اتّخذ له جوهرة بوجه عمامته، لكن لم نقف على ما يثبت صحّة اتّخاذهم لتيجان ملكية من ذهب أو غيره، وما ذلك إلّا لاتّصالهم بالقرون الأولى. وفي الحديث «خير القرون قرني ثم الذين يلونه ثم الذين يلونه» وإذا تنقّلنا بك للقرن الرابع فالخامس نجد أنّ بعض خلفاء الدولة الفاطمية بمصر كان لهم تاج ينعت بالشّريف يلبسونه في المواكب عوض العمامة، موشّى بجوهرة لا تقوم بمال لنفاستها وحولها جواهر أخرى دونها في الاعتبار[2].

ويستفاد من كتاب المؤنس للشيخ ابن أبي دينار، أنّ بعض سلاطين بني أبي حفص اتّخذوا لهم تاجاً كانوا يلبسونه عند ظهورهم بين النّاس، ولكنّ هذا المؤرّخ لم يبيّن لنا وصف هذا التّاج، وهل كان من ذهب أم فضّة. وعندي أنّه لم يكن من المعدن الذّهبي، بل كان من معدن الفّضة التي رغبّت فيها السّنّة. ومعلومك أنّ أهل الدولة الحفصية كانوا أقرب للبساطة والسّذاجة العربية منها للتّمدّن والحضارة، فإنّهم ورثوا الملك عن أسلافهم شيوخ الموحّدين، وهؤلاء لم تكن لهم علاقة بحضارة الملك التي من لوازمها البذخ المنهيّ عنه في الشريعة. وممّا نهت عنه الشّريعة لبس الذّهب على عكس الجواهر، فقد اتّفق جمهور العلماء على جواز استعمالها، لذلك قلنا إنّ التّاج

(2) بالنّقل عن تحرير نفيس لصاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر.

الحفصي الذي نحن بصدده يغلب على الظّنّ أنّه كان من فضّة. نعم إنّه وجد معدن آخر ليس بذهب ولا فضّة، ولكنّه يفوقهما في النّفاسة، وهو معدن البلاتين[3] الذي لم يكن معروفاً في زمنهم، وهذا المعدن لا يشمله المنع الشّرعي، لأنّ هذا المنع قاصر على الذّهب دون سواه، وزيادة البسط في حديث هذا المنع يبعدنا عن موضوع الحديث، فليرجع لذلك من شاء إلى كتب الفقه والسّيرة النّبوّية.

ويلوح أنّ اتّخاذ بعض السّلاطين الحفصيين لتاج ملوكي، إنّما انجرّ لهم من طريق المغرب والأندلس، لأنّ الحضارة الأندلسية انبعثت أشعّتها في ذلك الزّمان على كامل الشمال الإفريقي. ومن غريب الاتّفاق أنّ ظهور هذا التّاج الحفصي، وافق عصر المؤرخ ابن خلدون، وهو رجل كما علمت ركض في كل ميدان، وهبّ مع كلّ ريح، وهو من أبناء تونس، وباشر في الدولة الحفصية خطّة العلامة[4] على السلطان أبي إسحق، والصّحبة والكتابة على السلطان أبي العباس، فمن المحتمل القريب أنّه بعد أسفاره وتنقّلاته ذات الحركة السّياسية المدهشة بالأندلس والمغرب، ورجوعه لبلاد مسقط رأسه قبل التحاقه بالمشرق، واجتماعه بالطّاغية (تيمورلنك) واستقضائه بمصر، كان من المدبّرين في تهذيب أساليب الدولة الحفصية قياساً على ما شهد من فخامة الدولة وبذخها في بلاط السّلطان أبي عنان بالمغرب، وفي بلاط السّلطان ابن الأحمر بغرناطة، أثناء وزارة صاحبه لسان الدين ابن الخطيب.

---

(3) معدن أبيض كالفضّة وأرفع من الذّهب وقع الاكتشاف عليه بجبال كلونبيا بأمريكا الجنوبية في سنة 1735 (1147 هـ).

(4) العلامة هي عبارة «الحمد لله والشّكر لله» كانوا يكتبونها بالقلم الغليظ في طالعة المراسيم السّلطانية بين البسملة وما بعدها، وهي في نظامهم من الخطط العالية بالدولة، لها شبه من قريب بخطّة صاحب الطّابع في تونس، وكان لهم علامة أخرى خاصّة بالرّقاع ذات الأهميّة الثّانوية ممّا يكتبونه عن إذن السّلطان، ولا يعرضونه على أنظاره، وهذه العلامة الثّانية ترسم بذيل الرّقعة لا بطالعتها.

وبديهي أنّ أمراء الدّولة المرادية لم يكن لديهم شيء من مظاهر الملك والاستقلال بالولاية لقرب عهدهم بالفتح العثماني، ووجود رجال الباب العالي بينهم في مقدّمة وفود التّرك الواردين عليهم حيناً بعد حين، فلمّا دخلت الإيالة التّونسية في حكم البيت الحسيني، تدرّج آل هذا البيت ـ خلّد الله دولتهم ـ في سلّم الحكم المستقلّ، إلى أن تلبّسوا بالصّبغة الملوكية، فكانت في أجلى مظاهرها أيّام الباي حمودة باشا، وازداد ذلك رسوخاً في عهد الباشا حسين باي الثاني، ثمّ في عهد المشير أحمد باي الأول بترتيب الوزارات والوزراء، وكان لقب الوزير قبل ذلك نعتاً لا خطّة، وبإيجاد جيش نظامي عتيد، وإحداث خطط عالية في الدولة، كرتبة أمير الأمراء، تقلّدها الباي بالذّات، ولقب شيخ الإسلام، وكان قبل ذلك نعتاً لكلّ من ينتهي إليه العلم. وهذا الباي المشير هو أوّل من لبس الطُّغْرَاء بشاشيته في سنة 1254 [1838] أهداه إيّاها السّلطان محمود خان الثاني، قياساً على صنيعه مع غيره من أمراء البلاد الممتازة، فقد وقع بيدي رسوم كثيرة لولاّة مصر من آل محمد علي باشا، منهم عبّاس باشا الأوّل، معاصر المشير أحمد باي، وكذلك خلفه سعيد باشا، ومحمد علي نفسه، فقد كان لكلّ منهم بشاشيته طُغْرَاء عثمانية كالتي جاءت للمشير أحمد باي من الباب العالي.

وممّا يناسب ذكره في هذا المقام أنّ السّلطان العثماني نفسه كان يلبس بمقدم شاشيته ريشة مرصّعة كما يراه القارىء في بعض رسوم السّلطان محمود خان الثاني، وابنه السّلطان عبد المجيد خان، لذلك جاز للأمير عبد القادر الجزائري، فارس العلم والجهاد، اتّخاذ ريشة من فضّة لتمييز قوّاد جيشه في حروبه بالجزائر. وفي سنة 1258 [1842] أرسل السّلطان عبد المجيد خان للمشير أحمد باي شارة ثانية، وهي أخت الطّغراء الأولى. قال المؤرخ (هوكون) (HUGON) أنه وقع الوقوف على صورة للمشير أحمد باي، صنعها المهندس (جوردان) الذي باشر هندسة معبد قرطجنة تذكار للملك (سان لويز) (Saint-Louis) تمثّل الباي المذكور بشاشيته موشّحة بتينك الشّارتين معاً، وفي حقّ ورود الشّارة الثّانية منهما يقول المؤرخ الشيخ أحمد ابن أبي

الضّياف في جملة ما حكاه عن نفسه بمناسبة رحلته مع غيره للأستانة ورجوعه لتونس صحبة المبعوث العثماني الذي أتى بالشّارة المذكورة ونص عبارته: «فرجعنا ومعنا القابو كاهية واسمه عارف زكي من الكتاب في فرقاطة عثمانية ومعه نيشان يوضع في مقدّم الشّاشية زيادة على نيشانه الأول (الضمير في نيشانه عائد على الباي)[5] يلبسهما معاً وثوباً محلّى وهو السّتر (يعني كسبات الباي)». هذه عبارة ما جاء في تاريخه المعروف، ولديّ وثائق تاريخية أخرى منقولة من خطّ يده كاتب بها الوزير مصطفى خزندار من الأستانة أثناء قيامه بالمأمورية التي سافر من أجلها، تؤيّد ما حكاه في تاريخه مع زيادة بسط واشتمال لحديث تلك المأمورية ممّا لم يحكه ولا شيئاً منه في تاريخه، وهي تناقضه على خطّ مستقيم. ووهم الشّيخ محمد بيرم في صفوة الاعتبار حيث قال: إنّ الطغراءات الثّلاث ـ وسماها غلطاً نياشين ـ هي من رسوم المشير، بدليل أنّ إحداها لبسها المرحوم أحمد باي قبل تقليده رتبة المشيـرية، والأخرى لبسها بعد المشيرية بعامين، وأمّـا الشّارة الثّالثة المتمّمة للتّاج الحسيني، يعني الطّغراء الوسطى، فهي من حقوق المشير الثالث محمد الصادق باي. والشّارات الثّلاث كلّهـا من الذّهب المـرصّع بـاليـاقـوت، والوسطى أكبر حجماً من الأخريين، فيكون المشير محمد الصادق باي هو أوّل ملك تونسي لبس التّاج الحسيني في تركيبه من ثلاث طغراءات حسبما تراه ببعض صور فوتوغرافية قديمة لمواكب المرحوم محمد الصادق باي، وكذلك بصور المولى علي باي الثالث، والمـولى محمد الهـادي باي، والمولى محمد الناصر باي، والمولى محمد الحبيب باي، الموجودة بالدّهن بقصر باردو المعمور، وحسبما تشاهده عياناً في مواكب المولد والعيدين عند استضاءة الأفق بشموس طلعة وليّ النّعم سيدنا ومولانا أحمد باشا باي الثاني، بلغه الله الأماني، ببركة السبع المثاني(*).

---

(5) [الإتحاف ف. ج 4. صفحة 62].

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلّد 2 ـ الجزء 3. (ديسمبر 1937).



المشير محمد الصادق باي بالتاج الحسيني بثلاث طراءات.
(صورة تنشر لأوّل مرّة)

الطّابع الملوكي السّعيد

اعلم أنّ الطّابع الذي يُختم به على الأوراق مقتبس من خاتم الإصبع، والخاتم من الخطط السّلطانية والوظائف الملكية، والختم على الرّسائل والصّكوك معروف للملوك قبل الإسلام وبعده، وقد ثبت في الصّحيحين أنّ النّبيء ﷺ أراد أن يكتب إلى قيصر، فقيل له إنّ العجم[1] لا يقبلون كتاباً إلاّ أن يكون مختوماً، فاتّخذ خاتماً من فضّة ونقش فيه «محمّد رسول الله» ا هـ. من ابن خلدون. وفي السّيرة الحلبية، أنّه كتب ذلك في ثلاثة أسطر، محمّد سطر، ورسول سطر، والله سطر، وقراءتها من الأسفل، يعني محمد بآخر سطر، ورسول بالوسط، واسم الجلالة في السّطر الأعلى. وقد أجمع كتّاب التّاريخ وأصحاب السّير على أنّ الخاتم النّبويّ تختّم به أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ثم سقط من إصبع عثمان في بئر أريس، وكانت قليلة الماء، فلم يدرك قعرها بعد، هذا أصل الخاتم في الإسلام. وقد اقتدى

---

(1) ليس المقصود من لفظ العجم الجنس العجمي يعني الأمّة الفارسية، بل المراد منه عموم الأجناس غير العربية من أيّ أمّة كانوا، لأنّ العرب يطلقون لفظ العجم على كلّ من لم يكن من الجنس العربي، قال الإمام البوصيري:

محمّد سيّد الكونين والثّقلين　　والفريقين من عُرْب ومن عجم

أمّا قيصر الذي كاتبه رسول الله ﷺ يدعوه للإسلام فهو هرقل الأوّل أمبراطور بيزنطة، تولّى الملك من سنة 610 إلى سنة 641 للميلاد، والمبعوث الذي حمل له المكتوب النبوي هو دحية الكلبي رضي الله عنه، وعبارة المكتوب موجودة في الصّحاح، وفي كتب السّير، وهذه المراسلة وقعت في شهر ذي القعدة سنة 6 للهجرة يوافقها شهر إبريل سنة 628 للميلاد.

الخلفاء الرّاشدون ومن جاء بعدهم من الخلفاء والملوك والسّلاطين بتلك السّنّة النّبويّة، فكان لأبي بكر خاتم منقوش عليه «نعم القادر الله»، ولعمر خاتم منقوش عليه «كفى بالموت واعظاً»، وخاتم عثمان منقوش عليه «لتصبرن أو لتندمن»، وخاتم عليّ منقوش عليه «الملك لله»، ونقش معاوية على خاتمه «لكل عمل ثواب»، وعمر بن عبد العزيز كتب على خاتمه «الوفاء عزيز»، وهارون الرّشيد اتّخذ له خاتمين، كتب على أحدهما «لا إله إلاّ الله»، وعلى الآخر «كن من الله حذراً»، وابنه المأمون كتب «عبد الله يؤمن بالله مخلصاً»، ولعلّه اتّخذ هذا الرّمز لتبرئة نفسه ممّا رموه به من القول بخلق القرآن، إلى غير ذلك من العبارات والرموز التي اختار الخلفاء والملوك نقشها بخواتمهم وفقاً لمذاهبهم وأميالهم في سياسة الأمّة. وقد أفاد التّاريخ أنّ بعض ملوك الأندلس اتّخذ لخاتمه رمزاً بقي في عقبه كعبد الرحمن ابن الحكم، فقد نقش على خاتمه «عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ»، ومما نظمه الشّعراء في هذا الختم:

خاتم للنّاس أضحى حكمه في النّاس ماضي
عابد الرّحمن فيه بقضاء الله راضي

قال في نفح الطيب: «وهو أوّل من أحدث النّقش، وبقي وراثة لمن بعده من ولده» اهـ. قلت كما هو الحال في أبيات البُرْدَة المتوارث نقشها بالطّابع الملوكي في البيت الحسيني بتونس كما ستراه قريباً، والمقام يقتضي الإلمام والاختصار، لأنّ التّوسّع فيه لا طائل تحته، لا سيما وأنّ بابه طرقه الكثيرون من كُتّاب التّاريخ بيد أنّا نقول إنّ المؤتمن على الخاتم الملوكي في عهد الخلفاء كان هو الوزير، يدلّك عليه أنّ هارون الرشيد لمّا أراد أن يستوزر جعفر ويستبدل به من الفضل أخيه، قال لأبيهما يحيى بن خالد: «يا أبت إنّي أردت أن أحوّل الخاتم من يميني إلى شمالي» فكنّى له بالخاتم عن الوزارة، لأنّ وضعه على الرّسائل والصّكوك كان من وظائف الوزارة لعهدهم، وهكذا كان ختم السّلطنة العثمانية، فإنّه كان في أمانة الصّدر الأعظم حتّى إذا بعث

له السلطان في استرجاعه فهم وأنّه عزله من الصّدارة، ولذلك أطلق كُتّاب التّاريخ في العصر الحسيني لقب الوزير على صاحب الطّابع قبل إحداث الوزارات، لأنّه هو المكلّف بختم الأوراق المعروضة على إمضاء سمّـو الباي.

ولننتقل بك لحديث الطّابع السعيد في البيت الحسيني، فإنّ الباي حسين بن علي تركي جدّ هذه السّلالة الشّريفة اتّخذ لنفسه طابعاً بيضيّ الشّكل نقش حول طوقه الخارجي قوله:

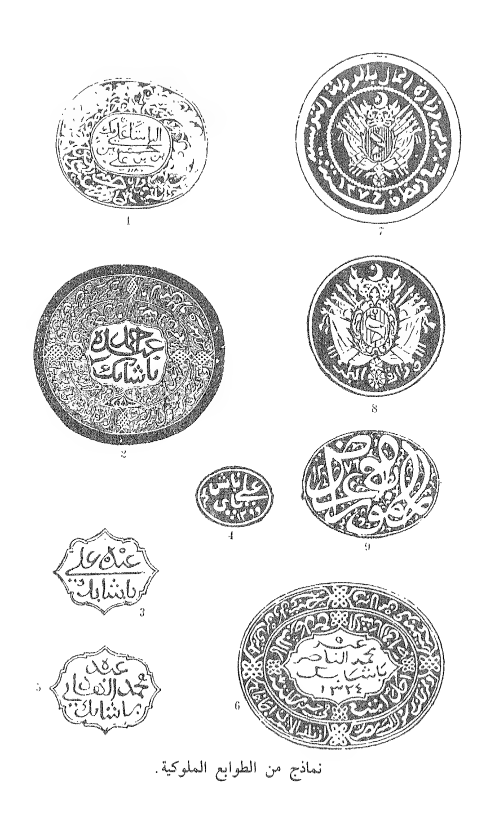
ختمت بـه والله أرجـو تفضّــلا ليسهل حسن الختم في القول والفعل

وحول طوقه الدّاخلي قوله «اللّهم بجاه حسين بن علي احفظ عبدك» وبالوسط اسمه «حسين بن علي بك» متبوعاً بتاريخ سنة 1117 [1705] التي هي سنة ولايته الملك، واتّخذ حفيده الباشا علي باي الأوّل[2] طوابع متعدّدة بين كبير وصغير أعظمها طابعه البيضيّ المنقوش عليه بالطّوق الخارجي قوله من بردة الشيخ البوصيري:

ومن تكن بـرسول الله نصـرتـه إن تلقه الأُسـدُ في آجامها تجم
ولن تـرى من وليّ غير منتصـر بـه ولا من عـدوّ غيـر منفصم

وبالطّوق الدّاخلي قوله: «راجي لطف الحيّ بعده» وبالوسط اسمه «علي باشا وبك» (بواو العطف) متبوعاً بسنة 1151 [1738] وترى أنّه عطف لفظ بك على لفظ باشا ممّا يدلّ على أنه كان محرزاً على رتبتين في النّظام العثماني، وفعلاً تولّى مسند الباشوية في أيّام عمّه المولى حسين بن علي باي، ثم تقلّد رتبة الباي عند تغلّبه على عمّه المشار إليه وكونه نقش بطابعه

(2) هو الذي غرس شجرة الفخامة الملكية بالبيت الحسيني حيث أسّس محكمة فخمة بقصر باردو وأقام بها كرسيّاً ملكياً لجلوسه ورتّب مجلساً للنّظر في النّوازل الشّرعية بحضور الفقهاء يجتمعون لديه مرّة في الأسبوع وأسّس حوله مكتبة جامعة لعيون التّصانيف بقصر باردو، وهو أوّل من اتّخذ شاوش السّلام الذي كان يتقدّم ركابه عند ظهور موكبه بين النّاس



نماذج من الطوابع الملوكية.

تاريخ العام 1151[1748] يدلّنا من ناحية أخرى على أنّه لم يقدم على اتّخاذ هذا الطابع الملوكي قبل ذلك لأنّه ربّما كان يحسّ وأنّ قدمه لم تكن راسخة بالملك الذي اغتصبه من عمّه في سنة 1148[1735] فلمّا أحسّ من نفسه قوّة، جهر به واتّخذ له الطّابع المتحدّث عنه، ثمّ اتّخذ في سنة 1157[1744] الطّابع المربّع المعروف بطابع الشّون، كتب بقلبه «علي باشا» وتحتها سنة 1157 [1744] وحول ذلك على التّربيع قوله من قصيدة البردة «يا أكرم الخلق مالي - من ألوذ به - سواك عند حلول - الحادث العمم»[3] ومذ كان باياً للأمحال في عهد عمّه اتّخذ له طابعاً بوسطه قوله «علي بك» وحوله على التّربيع «الواثق - بالملك - الحيّ الفقير - إلى الله» وتحتها سنة 1133 [1720]. ولم نقف على طابع المولى محمد الرشيد باي بن حسين بن علي ثالث الملوك الحسينيين، ولكنّه لا بدّ وأنّه كان بشكل طابع أبيه، لأنّ طابع أخيه علي باي الثاني رابع الملوك في السّلسلة الحسينية كان بيضيّ الشّكل كطابع أبيهما الذي تقدّم وصفه، وكان بقدر بيض الحمام، جدّده بطابع أكبر منه أثناء مدّته، وعبارة الختمين واحدة، وليس به إلّا طوق واحد، يحتوي على سطرين، ففي السّطر الخارجي عبارة البيت المنقوش بطابع أبيه «ختمت به والله أرجو الخ» وبالسّطر الدّاخلي قوله: «اللّهم بجاه علي وحسين بن علي احفظ عبدك، وبالوسط اسمه «الباشا علي بك بن حسين بن علي» وتحتها سنة 1195[1780] ولعلّها سنة تجديد الختم لأنّ ولايته كانت في سنة 1172[1758] وتولّى الملك بعده ابنه حمودة باشا فكان طابعه بيضياً أكبر من طابع أبيه بوسطه قوله: «حمودة باشا بك» متبوعاً بتاريخ 1196[1781] الذي هو عام ولايته الملك، وبالطّوق الداخلي بيت البردة «أحلّ أمّته في حرز ملّته * كاللّيث حلّ مع الأشبال في أجم»، وفي الطّوق الخارجي قوله منها أيضاً: «ومن تكن برسول الله نصرته إلى قوله منفصم في آخر البيت بعده»، والذي أشار عليه بنقش هذه الأبيات الثّلاثة من

---

(3) نقل حضرة الكاتب صورة ما هو مرسوم على اختام الملوك بالصورة التي هي مرسومة بها من وضع الفواصل بين الكلمات مع عدم مراعاة المعنى وليتنبه لمثل ذلك فيما بعد (المجلة).

البردة هو صهره المفتي الشيخ أحمد البارودي، وممّا يستحبّ التّعريف به هنا أنّ الأبيات المشار إليها اتّخذها أيضاً محمد علي باشا والي مصر رمزاً لطابعه، ولكنّ أفضلية السّبق بها كانت من نصيب باي تونس. هذا وقد أتيح لي الوقوف بإحدى المكاتب العمومية بباريس على صورة من طابع آخر للباي حمودة باشا بيضيّ الشّكل، كبير الحجم، نشر بأروبا لنحو مائة سنة ماضية ضمن كتاب في تاريخ تونس للحكيم (فرانك) طبيب الباي المشار إليه، وعبارته غير عبارة الطّابع السّابق، ففي الوسط قوله حمودة باشا مير ميران (يعني باي البايات)، وحوله في طوق واحد قوله: «اللهم دام (كذا) ملكه في دار الجهاد تونس ـ 1196 [1781]» وقد أشكل أمر هذا الطّابع على المؤرخ (هوكون) (HUGON) الذي تعرّض له في كتابه المسمى «شعائر بايات تونس» فقال إنّه لا يكون إلّا نتيجة خاطر خيالي سمح لبعضهم بصنع هذا الطّابع من حجارة ثمينة كاليماني أو شبهه تفخيماً وتكريماً لصاحبه، وهذا الفهم ربّما كان غير بعيد عن الحقيقة، فقد رأيت ضمن مجموعة نفائس تاريخية بمكتبة بعض أصحابنا من شيوخ العلم طابعاً للباي المذكور من حجارة يمانية مرّبعة الأضلاع بشكل طابع الشون، ولكن عبارته غير العبارة المتقدّمة ممّا يدلّ على أن المولى حمودة باشا كان لديه طوابع كثيرة بين كبير وصغير، ولكنّ طابعه المستعمل في الرّسميات هو ختمه الموشّح بأبيات البردة الذي تقدّم بسط حديثه في الأوّل. أمّا أخوه المولى عثمان باي الذي ورثه في ملكه ليلة عيد الفطر 1229 [1813] فإنّ مدّته كانت قصيرة (99 يوماً). وممّا لا ريب فيه أنّه اتّخذ له طابعاً لكنّني لم نتوفق للوقوف عليه. والأمير الحسيني الذي صعد بعده لكرسي الملك في المحرّم من العام التّالي هو ابن عمه المولى محمود باي وكان طابعه بيضيّ الشّكل رسم بوسطه قوله: «عبده محمود باشا بك» وحول اسمه الثّلاثة الأبيات المتقدّم ذكرها من بردة البوصيري وسنة التاريخ 1230 [1814] منقوشة بعد قوله: (أحلّ أمّته) وقبل قوله: (في حرز ملّته) ولكن اتّفق له تجديد طابعه أثناء ولايته بطابع بيضيّ أجمل من الذي اتّخذه في الأوّل، وهكذا استمرّ حال الطّابع الملوكي الحسيني من

حيث الشّكل البيضيّ والرّمز بالأبيات المتقدّمة من البردة في عهد ابنه المولى حسين باي الثاني، وأخيه المولى مصطفى باي، وابنه المشير أحمد باي، وابن عمّه المشير محمد باي، وأخيه المشير محمد الصادق باي، وأخيهما المولى علي باي الثالث، وابنه المولى الهادي باي، وابن عمّه المولى محمد النّاصر باي، وابن عمّه المولى محمد الحبيب باي، ويكون نقشه بحروف بارزة بالنّسبة لاسم الباي وبحروف محفرة بالنّسبة للأبيات التي بطوقي الطّابع حول الاسم الشّريف، بحيث إنّه عند الختم به يظهر الاسم الشريف بالمداد الأسود، وأبيات البردة تظهر بحروف بيضاء في محيط أسود، وقد وقفت للمشير محمد الصادق باي على إثر طابع له كالسّابق من حيث الشّكل والكتابة، إلاّ أنّ نقشه كلّه بالتّحفير بحيث إنّ عبارة «عبده محمد الصادق باشا بك» كانت كلّها بأحرف بيض كأبيات البردة الثّلاثة، رأيت ذلك بأمر صدر منه في الشّهر الثّاني من ولايته أي في شهر ربيع[4] الأوّل 1276 [1859] ممّا يدلّ على أنّه طابع وقتي ألغاه بعد تمام صنع طابعه الذّهبي، لأنّهم كانوا يصنعون لسموّ الباي بدار السّكّة يوم ولايته طابعاً وقتياً من شمع الشّهد للختم به ريثما يتمّ صنع طابعه من معدن الذّهب.

ورأيت في تقييد مؤرخ بعام 1290 [1873] اشتمل على بعض مصاريف هذا الباي أنّهم صنعوا له طابعاً مربّعاً لطبع الكتب التي قصد تحبيسها على الجامع، ولعلّ هذا الطّابع كان من معدن غير الذّهب، لأنّ ثمنه قدّروه

---

(4) فائدة من كتاب سمط اللآل للشيخ محمد بن علي قويسم المتوفى سنة 1114 [1702] قال رحمه الله: الشّهور كلّها مذكرة إلاّ جمادى، وليس منها شيء يضاف إليه شهر إلاّ شهرا ربيع ورمضان، قال الله تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وقال الراعي:

شهرا ربيع ما تذوق لبونهم   إلاّ حموصا وخمة ودويلا

فما كان من أسمائها اسماً للشّهر أو صفة قامت مقام الاسم فهو الذي لم يجز أن يضاف لفظ الشّهر إليه، ولا يذكر معه ورمضان وربيعان ليست بأسماء للشهور الثّلاثة ولا صفات لها فلا بدّ من إضافة شهر إليها. ورواة الحديث يرون أنّ رمضان اسم من أسماء الله تعالى، وربيع إنّما هو اسم للغيث وليس الغيث بالشهر ا هـ.

بخمسة وسبعين ريالاً في ذلك الزمان، ويلوح أنّهم فعلوا ذلك احتفاظاً بطابعه الذّهبي حتى لا يناله السّمول بتكرار الطّبع ألف مرّة أو أكثر. هذا ولما آل كرسي الملك لحضرة وليّ النّعم سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي الثّاني، بلّغه الله الأماني، رسم بوسط طابعه السّعيد اسمه الشّريف «عبده أحمد باشا بك» متبوعاً بسنة الولاية 1347 [1929] وكتب حوله بالطّوق الدّاخلي قوله:

«وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ   إنْ تَلقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ»

وبالطّوق الخارجي كتب من أعلى قوله:

«وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولُ اللَّهِ جَاهُكَ بِي   إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ»

ومن أسفل قوله:

«يَا أَكْرَمَ ٱلْخَلْقِ مَالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ   سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ»

وهذا الطّابع البيضي، هو الختم الكبير الذي تطبع به القوانين، والتّراتيب الدّولية، والولايات والمخاطبات الملكية، وشبه ذلك، ولسموّ الباي طابع آخر اسمه طابع الشّون، مربّع الشّكل بقلبه اسم الباي وتاريخ ولايته بالمداد الأسود، وحوله بالتّحفير قوله: «يا عالم الخفايا ـ يا رازق البرايا ـ من فضلك العطايا ـ اغفر لي الخطايا» وهذا الطّابع لم يطرأ عليه تطور بل هو بشكل واحد للجميع من تاريخ حدوثه إلى هذا الزّمان، وهو من معدن الذّهب كالطّابع الكبير، وإنّما كان حجمه في القديم دون حجمه في الوقت الحاضر، ويستعملونه لختم التّحابيس، والصّكوك، ودفاتر المحاسبات، والأمثلة الهندسية، وشبه ذلك، واتّخذ المقدّس المولى علي باي الثالث إثر ولايته الملك طابعاً صغيراً ذهبياً لطبع معاريض الأحكام، ومطالب الولايات، كتب به قوله: «علي باشا باي» وتحته سنة 1299 [1882] ثم جدّده أثناء مدّته وكتب به «عبده علي باشا بك» بدون تاريخ، وعلى قياسه جرى عمل أخلافه من بعده سوى أنّه زيد فيه لفظ «تونس» بعد لفظ بك في مدة المولى محمد الحبيب باي، وتحت لفظ تونس سنة 1341 [1923] وهذا التّاريخ هو العام الثاني من

ولايته لأنّه جلس رحمه الله على تخت الملك في 15 قعدة 1340 [1922] وأمّا طابع المعاريض في عهد سيدنا الملك الموجود، متّع الله ببقائه الوجود، فهو بيضيّ ذهبيّ صغير الشّكل، بسطره الأوّل قوله: «أحمد باشا» وبالسّطر الثّاني قوله: «بك تونس»، وبالسّطر الثالث سنة ولايته السعيدة 1347 [1929] وكان المشير محمد الصادق باي يمضي على المعاريض بخطّ يده بعبارة نصّها «صح ممّا ذكر». قالوا إنّ بعض الشّيوخ التمس وجهاً في سلامتها من التّحريف النّحوي، والكلام هنا مع سيبويه، والعهدة فيه عليه، وكان المولى حسين باي الثاني يوقّع على دفاتر حسابات بيت خزندار بعبارة «صح المبين أعلاه» بخطّ منشرح جميل. هذا ما تيسّر جمعه في هذا الباب، وفوق كل ذي علم عليم(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 2 ـ الجزء 6 (مارس 1938).

النّياشين التونسيّة

— 1 —

اعلم أنّ الأوسمة الافتخارية وعلامات الامتياز ليست من أوضاع الدّول الإسلامية، وإنّما هي من مبتكرات الأمم الأروباوية، كان ظهورها عندهم حوالي القرن الرابع عشر للميلاد، وبتوالي السّنين والأعوام، اتّسع نطاقها عندهم، فكان في مبادىء القرن التّاسع عشر لكلّ دولة نيشان أو اثنان أو أكثر. ومن أعرق تلك الدول في هذا النظام، الدّولة الفرنساوية صاحبة وسام (اللجيون دونور) اخترعه نابليون الأول في سنة 1802 لمكافأة أرباب الخصال الحميدة من العساكر وغيرهم. أمّا في الدول الإسلامية فإنّ أوسمة الامتياز لم تعرف عندهم إلاّ في خلال القرن الماضي، اقتبسوها عن الأمم الأروباوية بعد رسوخ قدمها وتدخلّها في أحوال الشّرق. ويلوح أنّ ظهورها في الأوّل كان ببلاد الفرس، وعن الفرس أخذ الأتراك هذه البدعة يدلّك عليه لفظ نيشان، الذي هو كلمة فارسية، معناها علامة. ومهما كان الحال فقد أفاد التّاريخ أنّ السّلطان سليم خان الثالث دّبر في إيجاد وسام عثماني أثناء حكمه، ولكنّه لم يجسر على الاستظهار بمشروعه مراعاة للفكر العام ببلاده التي كانت تنفر في زمنه التّشبّه بالأخلاق الأروباوية، فلمّا دالت دولة آل عثمان لحكم السّلطان محمود خان الثاني، اعتبر في جملة التّنظيمات التي أدخلها لممالكه خلال سنة1247[1831] إحداث وسام أسماه نيشان الافتخار، وتقلّده وقلّده لرجال دولته ولبعض أهل العلم، منهم الشيخ الألوسي صاحب

كتاب روح المعاني في تفسير القرآن الكريم، وعن هذا النّيشان العثماني اقتبس المرحوم مصطفى باي نيشان الافتخار التونسي في سنة 1252[1836].

نيشان الافتخار:

لمّا أحدث المولى مصطفى باي نيشان[1] الافتخار جعله في صنف وحيد، قلّدة في البداية لترجمانه ومستشاره في الشّؤون الخارجية الكونت (جوزافين رافو الطلياني)[2] مكتفياً بذلك حتى ينظر ماذا سيكون من التّأثير



نيشان الافتخار

(1) لفظ نيشان يجمع على نياشين ونواشين، وهذا الجمع الثّاني يستفاد منه بحساب الجمل عدد (1117) الذي هو موافق لتاريخ دخول ملك تونس في قبضة المولى حسين بن علي مؤسّس العائلة المالكة وهو اتّفاق غريب.

(2) ارتقى لرتبة أمير الأمراء مع الوزارة الخارجية في دولة المشير أحمد باي، ومات بباريس في سنة 1862 ونقل جثمانه لتونس وبها دفن.

لهذا الحادث بالبلاط الحسيني وبالمحافل التونسية، ولكون الظّروف أيضاً لم تسمح له يومئذٍ بتقليد متوظّف نصراني رتبة جهادية في النظام العسكري المحدث بتونس عن إذن الباب العالي في أواخر دولة أخيه المرحوم حسين باي، وإلى هذا النّظام الجديد يشير العلاّمة الشيخ محمد بيرم الرابع في قصيدته التي مطلعها:

نـظامك أيّهـا الملك الهمـام   بـه للدّين قـد ظهـر ابتسـام

ويستفاد مما كتبه المعلّم الأمير ألاي (كاليقارس) معين المشير أحمد باي والمدير الأوّل لمدرسة الضّبّاط بباردو[3]، أنّ النيشان الـذي أحدثـه مصطفى باي إنما هو نتيجة اختراع دبّره أخوه حسين باي وعاقه أجله عن إتمامه.

وكان شكل هذا النّيشان بيضياً، تعلوه نجمة وهلال، وبوسطه بالحجارة الكريمة اسم الباي «مصطفى». قال الشّيخ الباجي المسعودي في الخلاصة النقية[4] إنّ هذا الباي هو أوّل من لبس النّيشان (العثماني) من بني الحسين ابن علي، وهو أوّل من صاغ نيشان الافتخار (التونسي)، ونقش عليه اسمه بحجر الألماس، وألبسه وزير الأمور الخارجية (الكونت جوزافين رافو) ا هـ.

ويوجد لهذا اليوم بسراية باردو رسم بالـدّهن لذات هـذا المأمـور السّامي، يرى النّاظر فيه على صدر صاحبه صورة ذلك النّيشان مطرّزاً باسم «مصطفى» بأحرف جليّة. ولم ينقل لنا التّاريخ أكثر ممّا تقدم في حقّ نيشان الافتخار، على عهد مصطفى باي، لأنّ وفاته كانت في العام التّالي للعام الذي أحدث فيه نيشان الافتخار، فلمّا آلت نوبة الملك لابنه المشير أحمد باي، ابتدأ من حيث انتهى أبوه، فاتّخذ أوّلاً نيشان والده ولبسه بدون تغيير

(3) [المدرسة الحربية بباردو: أسّسها المشير أحمد باي الأوّل سنة 1840. انظر: «الإتحاف» ج 4 - ط 1 - ص 36].
(4) [الخلاصة النقيّة - ص 145].

سوى وضع اسمه «أحمد» مكان اسم «مصطفى»، ثمّ بدا له التّوسّع في ذلك المشروع مع تغيير شكل النّيشان المتحدّث عنه، بمعنى إنّه جعله مستديراً عوض شكله البيضي الأوّل، ورتّبه في أربعة أصناف: أوّل، يحمل على الصّدر للجهة اليمنى، وثانٍ، يلبس بالطّوق (كمندور)، وثالث ورابع، يحملان على الصّدر للجهة اليسرى، وجعل كلّ تلك الأصناف مرصّعة بالياقوت. وتقلّد هذا النيشان، وقلّده لوزرائه، ورجال دولته، ورؤساء عساكره، منهم الضّبّاط الفرنساويون الذين استحضرهم من فرنسا لتعليم الفنون العسكرية للجيوش التونسية، وكان عدد هذه الجنود في مدّته يتجاوز الثّلاثين ألف جندي.

ومن الغريب أنّ الشيخ أحمد بن أبي الضّياف مؤرّخ دولة المشير أحمد باي وكاتب سره، لم يتعرّض في تاريخه لنيشان الافتخار إلّا بالنّزر القليل. وعبارة ما جاء في تاريخه هي قوله: إنّ الباي المذكور هو الذي رتّب أصناف نيشان الافتخار، وقبلها منه ملوك وأعيان من الوزراء والكبراء وذوي الشّأن من غير المملكة، وبالغ في إعطائها للنّاس حتى قال له (ديقرانج) مترجم سلطان الفرنسيين: يا سيدي، إنّ النّيشان هو عمل السّلطان، وليس السلطان هو النيشان، وارتمض لسماعها ا هـ بلفظه[5].

قلت إنّ الشيخ ابن أبي الضياف يشير بكلامه هذا لما صرّح به غيره من المؤرّخين من أنّ المشير أحمد باي أفرط في البذخ والإسراف لمجاراة أهل الثّروة من الملوك أصحاب المدنيّة الرّاسخة، ناهيك أنّه لمّا زار فرنسا في أواخر سنة 1262 [1845] قلّد لرجال الدولة بها نحو الثّلاثين نيشاناً من أصناف مختلفة، تتراوح أثمانها بين العشرة آلاف والثّلاثين ألف فرنك، بما تكون جملته لا تقلّ عن ستّمائة ألف. هكذا نقل بعض رواة ذلك العصر والعهدة عليه.

(5) [الإتحاف - ج 4 - ص 167].

وقد اتّفق أثناء وجوده هنالك حصول طوفان بجهات نهر (لوار) أهلك الحرث والنّسل، فتبرّع على المصابين بخمسين ألف فرنك، حتّى اعتقد بعض أرباب الجرائد أنّه كان متربّعاً على خزائن قارون، والحال أنّ دولته في آخر مدّته أشرفت على الإفلاس، وجملة ميزانيتها السّنوية كانت مقدّرة إذ ذاك بأقلّ من عشرة ملايين. ولمّا عاد من تلك الرّحلة أضاف لأصناف نيشان الافتخار الصّنف الأكبر المصحوب بوشاح الشّريط الأخضر، اقتبس ذلك من نظام وسام اللجيون دونور (وسام الشرف الفرنساوي).

ولما التحق المشير أحمد باي بالدّار الآخرة في سنة 1271 [1855] لم يسلك وريثه في الملك المشير محمد باي مسلكه، فقد سعى لمجرّد جلوسه على العرش الحسيني لتدارك بعض التّفريط الواقع في عهد سلفه، من ذلك تسريح نحو الثّلثين من العساكر، وأبطال النياشين المرصّعة بالياقوت، وانتزاع جميع ما كان منها موجوداً بيد أصحابه، وبيعه لفائدة صندوق الدولة، عدا الصّنف الأكبر الخاصّ بذات الملك، وهو النّيشان الذي كان يلبسه المشير أحمد باي الأول، وهو الآن في نوبة وليّ النّعم سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي الثاني، أدام الله ملكه، وأجرى في بحر السّعادة فلكه. وفي الوقت الذي انتزع فيه المشير محمد باي النّياشين المرصّعة من حامليها، عوّضها لهم بنياشين افتخارية من الفضّة بالشكل الموجود لهذا الزمان.

ولمّا دالت الدولة للمشير الثالث محمد الصادق باي في سنة 1276 [1859] اكتفى بما وقع في عهد أخيه المشير الثاني محمد باي، ولم يدخل تغييراً جديداً على نيشان الافتخار سوى وضع ترتيب له في قانون مسطور، لأنّ المشير أحمد باي رتّب شعار النّيشان، وغفل عن تقنين أحواله. وكانت النّياشين قبل عصر الحماية تصنع بدار السّكّة بباردو حسبما تقتضيه الحاجة المتوقّعة. ورأيت في بعض التّقاييد أنّهم صنعوا في سنة 1290 [1873] خمسمائة نيشان من الصّنف الثّاني، ومثلها من الصّنف الثّالث، ومثلها من الصّنف الرّابع، بلغت قيمة مجموعها فضّة وصناعة، إلى ثلاثة وأربعين ألف ريال.

وكانت مراسيم النّياشين تكتب بخطّ اليد لا بورقة خاصّة للمثال المنعوت كما هو الآن، بل لم يكن لديهم ضوابط لحفظ النّيشان من الاتّجار فيه خلسة بالبيع والشّراء، كما وقع في مدّة وزارة مصطفى بن إسماعيل، فلما استهّل أفق الملك بطلوع شمس الدولة العلوية، كان في مقدّمة الإصلاحات التي أنجزها الدّور الجديد تنظيم أحوال نيشان الافتخار، ووضع تعريفة في ضبط المعاليم الموظّفة عليه، وممّا تضمّنه الأمر العليّ الصّادر في ذلك قوله: «وفقاً للحالة الجديدة التي ترتّبت عليها دولتنا» ا هـ. بلفظه ممّا يدلّ على الاختلال التي كانت عليه حالة نيشان الافتخار في الدّور القديم، وبالتّالي ألحقت زيادات كثيرة في أنظمة هذا الوسام، أهمّها تخصيص الأموال الواردة لصندوق الدّولة من المعاليم الموظّفة عليه لإسعاف المشاريع الخيرية، وهذه المبرّة من حسنات دولة الحماية التي تولّت بنفسها وعلى عهدتها مباشرة أحوال نيشان الافتخار.

وكانوا في القديم لا يمنحون نيشان الافتخار إلّا للرجال، وفي هذا الزّمان صاروا يمنحونه لشقائقهم النّساء على حد سواء. وممّن أتحفن به من السّيّدات المصونات، مدام (الابتيت)[6] زوجة الوزير المقيم الأسبق، ومدام (بلان BLANC) زوجة الكاتب العام الأسبق ومدام (ايجنشنك) مديرة مدرسة البنات المسلمات، ولهذه الآنسة فضل على أبناء هذه البلاد لما قامت به من تربية وتهذيب وتعليم بين عموم الأوساط التونسية. أمّا الرّجال الممتازون بنيشان الافتخار، فهم في هذا الزّمان الأغلبية السّاحقة بين الوجهاء والأعيان بتونس وأعمالها، وقلّ أن تجد ضابطاً أو متوظّفاً تونسياً أو فرنساوياً غير ممتاز بهذا النيشان. وكلّ من تدعوه المناسبة لحضور موكب العيد بسراية باردو، لا يسعه إلّا التّعجّب من كثرة أوشحة الصّنف الأكبر المحلاّة بها صدور أهل الدائرة والوافدين على سموّ الباي من المديرين والأعيان، ولم يكن يوجد من

(6) [زوجة المقيم العام الفرنسي (ALAPETITE) الذي بقي على رأس الإقامة العامة من 1907 إلى 1919].

ذلك مقدار ربعه أو ثلثه في عهد الدّور القديم. ومن أوفق المناسبات لمنح هذا الوسام الرّحلات الملكية لفرنسا، فإنّ المقدّس المولى محمد النّاصر باي تكرّم بنحو الأربعمائة نيشان من أصناف مختلفة بمناسبة زيارته لباريس في سنة 1330 [1911].

هذا وقد جرت العادة بتونس من قديم أنّ الفقهاء لا يلبسون النّياشين، ولم نسمع أنّ واحداً منهم طلب نيشاناً من الدّولة. والدولة بدورها لم تعرض عليهم أوسمتها ونياشينها، والسّبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ ظهور نيشان الافتخار بتونس وافق وجود طبقة صالحة من العلماء الأعلام، بلغوا المنتهى في الورع والتقوى، فلم يكن ليخطر ببال أحد من رجال الدولة في ذلك الزّمان، عرض افتخار أو امتياز على أحد منهم، وعلى تلك القاعدة درج أعقابهم من شيوخ الفتوى والقضاء إلى هذا الزّمان، اقتداء بذلك السّلف الصالح:

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ في الكَـرَمْ   وَمَنْ يُشَـابِـهْ أَبَـهُ فَمَـا ظَلَمْ

وهذه النّظرية تجرّنا للكلام على كون الأوسمة في بداية ظهـورها بالممالك الإسلامية كان بعض أهل الورع يراها من البدع التي ربّما ينكرها الشّرع، ناهيك أنّ المشير أحمد باي لمّا أهداه الملك (فيكتور عمانويل) الثاني نيشان تاج إيطاليا الملوكي الشبيه في شكله بالصّليب، لم يقدم على لبسه قبل معرفة النّظر الشرعي[7] فيه، ولمّا أفتاه أهل العلم بالجواز، لبسه في جملة نعوته وشاراته الملكية(*).

(7) أفتاه بذلك الشّيخ الجدّ، من الفقهاء الحنفية، والشيخ أحمد بن حسين القمّار، من الفقهاء المالكية، وللوزير الشيخ محمد العزيز بوعتّور تعليق نفيس على كلام الشيخين يدلّ على تضلّعه في العلم كتضلّعه في الكتابة والسّياسة.

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 2 ـ الجزء 2 ـ (أكتوبر 1937).


المملكة التونسية

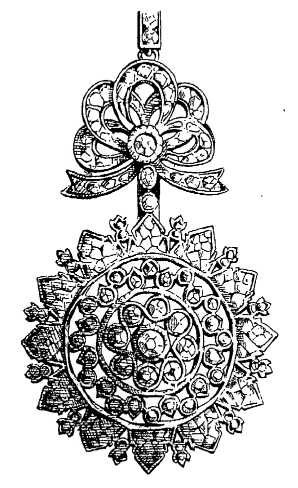
الحمد لله وحده

براءة لنيشان الافتخار

— 2 —

النّيشان الحسيني:

هذا النّيشان الخاصّ بآل البيت الحسيني هو ثاني النّياشين التّونسية وضعاً، ولكنّه أوّلها في الاعتبار، فهو أرفع الأوسمة التّونسية مقاماً، وأعلاها قدراً، وهو عبارة عن نيشان مستدير مرصّع بالياقوت، ليس به كتابة ولا شارة ولا علامة ولا تاريخ يشعر بزمن ظهوره في الوجود، يلبس حول الرّقبة بحاشية مماثلة لحاشية نيشان الافتخار، اخترعه المشير أحمد باي في حدود سنة 1256 الموافقة لسنة 1839 للميلاد، وكان ذلك لمقصد سياسي له يرمي



النّيشان الحسيني

لتحقيق وراثة ملك تونس في آل البيت الحسيني، وبادر لإهدائه لبعض الملوك والأمراء بأروبا، منهم أبناء حبيبه ونصيره الملك (لويز فيليب) ملك الفرنسيس حتى اشتهر أمره بين الدول بصفة نيشان ملوكي عائلي، وهي الحالة التي وجده عليها المشير الثاني محمد باي عند جلوسه على العرش الحسيني.

وهذا الباي هو أوّل من قلّد النّيشان الحسيني لغير أهل البيوت الملكية والأميرية حيث ألبسه لوزيره مصطفى خزندار في سنة 1273 [1856] وأصدر له في ذلك ظهيراً كريماً تضمّن عبارة صريحة في اعتباره كواحد من آل بيته، وكان هذا الوزير قبل ذلك على وجل من سيّده، وربّما كان لبعض أهل العلم يد عاملة في ذلك لعداوة بينه وبين الوزير. ولما آلت الدولة للمشير الثالث محمد الصادق باي أصدر في سنة 1277 [1860] قانوناً في ضبط أحوال نيشان آل البيت الحسيني، فكان هذا القانون هو أوّل نصّ رسمي في ضبط متعلّقات هذا الوسام، لأنّ مؤسّسه المشير الأوّل أحمد باي لم يعضّده عند إحداثه بقانون مسطور، وممّا اقتضاه التّرتيب الصّادقي، أنّ النّيشان الحسيني خاصّ بصاحب كرسي الملك وآل بيته، ولسموّ الباي الحقّ في إمناحه لنفر واحد من أعيان رعيته، واصطلحوا على أن يكون هذا الفرد هو الوزير الأكبر، ولسموّه أن يمنحه فوق ذلك للملوك والأمراء ومن نحا نحو أصحاب التّيجان كرؤساء الجمهورية الفرنسوية، وزيد على ذلك في الزّمن الحاضر إمناحه لوزراء الخارجية بفرنسا، وللوزراء المقيمين بتونس.

ومعلوم أنّ شعار هذا النّيشان من التّحف الثّمينة لما احتوى عليه من الحجارة الكريمة، فقد رأيت في بعض التّقاييد أنّ النّيشان الحسيني الذي صنع بعنوان الوزير خير الدين عند تصدّره بمسند الوزارة الكبرى، بلغت قيمته لثلاثين ألف ريال، وقدّروا ثمن نيشان صاحب التّاج الحسيني بخمسين ألف ريال في مدّة المولى علي باي، وكلّ وزير عند انفصاله عن الوزارة الكبرى بالوفاة أو بسبب آخر، يسترجع منه النّيشان الحسيني، ولم تشذّ هذه القاعدة

إلّا مرّة واحدة في ظروف استثنائية اقتضاها الحال لعهد قريب.

هنا ينتهي بنا الكلام في موضوع النّيشان الحسيني، ولكن قبل التّنقّل منه لحديث بقيّة الأوسمة التّونسية، نرى من الفائدة الإشارة لشيء عرضي له علاقة بنيشان آل البيت، وصورة ذلك أنّ الدولة التونسية لمّا خضعت في سنة 1286 [1869] للرّقابة الأجنبية على ماليتها من لدن دول فرنسا وإنكلتيرة وإيطاليا صيانة لحقوق أصحاب الدّيون التّونسية، كان في جملة الضّرائب التي تولّى الكمسيون المالي إدارة شؤونها الأداء الموظّف على التّانبر الخاصّ بالعقود والالتزامات، وكان التّانبر قبل ذلك عبارة عن ورقة لطيفة خضراء توضع بلصاق فوق الرّسوم، فاعتاضوا عنها بصنع كاغذ متنبر خاص لا يجوز كتب الصّكوك والعقود في غيره، وجعلوا لهذا الكاغذ علامة دولية بشكل النّيشان الحسيني، ودام ذلك مدّة من السّنين تناولت الأعوام الأولى من عصر الحماية، فلمّا تمّ استهلاك الأوراق الموجودة من ذلك، ووقع تعديل أداء التّانبر بتعريفة جديدة اقتضاها نظام المعلوم النّسبي على ما يكتب من الصّكوك، وضعوا أوراقاً متنبرة بطابع رسموا بوسطه شعار الملك، يعني الطُّغْرَاء الحسينية (خبشة) وحولها بالقلم الفرنساوي عبارة «العمالة التونسية - الحماية الفرنساوية» ولا عيب في هذه التّنابر الجديدة سوى خلوّها عن لغة أهل البلاد، وكان الشّأن تطريتها بكلمة أو كلمتين بالعربية قياساً على تنابر البوسطة المتضمّنة عبارة «البوسطة التونسية» بالقلم العربي، لأنّ التّونسي ليّن الجانب، رقيق الحاشية، يقنع حتى بالوصال الملفّق.

نيشان عهد الأمان:

هذا النّيشان العالي هو الثالث في الوضع وفي الاعتبار بعد النيشان الحسيني ونيشان العهد المرصع الذي سيأتي ذكره، أحدثه المشير محمد الصادق باي في سنة 1276 [1859] تذكاراً لتراتيب عهد الأمان التي سنّها أخوه المشير محمد باي وعاقه الأجل عن تنفيذها. وهذا الوسام كان يلبس بالطّوق



نيشان عهد الأمان

كما ترى ذلك بأحد رسوم صاحبه بالقاعة الكبرى بباردو المعمور، ثمّ جعل لبسه فوق الصّدر لجهة اليسار ومعه شريط من المرعـز الأبيض، موشّى الحواشي، يلبس فوق الكتف الأيمن متدلّياً نحو الخاصرة اليسرى، وكتب فوق شعار النّيشان بالتّرصيع لفظ «محمد» وحوله عبارة «عـرض الصادق أمانة»[8]. ولقد استفرغ هذا الرمز مداد المحابر، وحفت من أجله أسنّة

(8) عملاً بالقاعدة التي سنّها المشير أحمد باي من أنّ صاحب الكرسي الحسيني يرسم اسمه الشّريف مكان اسم سلفه فوق نيشان الافتخار جرى العمل بمثل ذلك فيما يخصّ بقية النّياشين التونسية بحيث إنّ العبارة المرموز بها لعهد الأمان لم تبق كما وضعها مبتكرها المشير محمد الصادق باي حيث صاروا يضعون بقلب الدّائرة اسم الباي المتولي مكان لفظ «محمد» ويكتبون حوله عبارة «عرض الباي أمانة» عوض العبارة الأصلية التي هي «عرض الصادق أمانة» ومن الجدير بلفت النظر رجاء أن يتداركه أهل النّظر التّحريف المشتملة عليه العبارة الجديدة فإن نياشين عهد الأمان والعهد المرصع المصنوعة في السّنين الأخيرة بمعمـل الصائـغ الإسرائيلي المكلّف بصوغها أسقط منها في لفظ الباي أداة التّعريف، والنّكرة لا تناسب المقام المنيف.

الأقلام في أوساط المستعربين الذين يدّعون معرفة القراءة فيما بين السطور، يعني فهم أسرار التّراكيب العربية، وذهبوا في تأويل تلك العبارة كلّ مذهب، ودار حديثها يوماً بحضوري في مجلس الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور منشىء ظهير نيشان عهد الأمان المشتمل على الرّمز المشار إليه، فقال: إنّه تورية وحسب، ولا يطوي من الغموض شيئاً.

ولمّا أحدث المشير محمد الصادق باي هذا الوسام، تقلّده وقلّده لوليّ عهده، ولوزيره الأكبر مصطفى خزندار، ثمّ للوزير خير الدين، ووضع له ترتيباً تضمّن حصره في عدد قليل من الذّوات، ولم يتكرّم به في سنته الأولى على غير من ذكر، لكنّه قلّده في العام التالي (1277 [1860]) في موكب حفيل للمستعرب مسيو (ليون روش) Léon Roches قنصل فرنسا بتونس بعد رجوع سموّه من رحلته للسّلام على الأمبراطور (نابليون) الثالث بعاصمة الجزائر، ثم منحه في سنة 1290 [1873] لبقيّة الوزراء التونسيين، ثمّ لبعض المستشارين بالدولة التونسية، وآخر من تقلّده في الدّولة الصّادقية قنصل فرنسا مسيو (رسطان) إثر إمضاء عقدة الحماية[9].

وفي الأزمنة المتأخّرة، وقع التّوسّع في إمناح عهد الأمان، حيث وقع تقليده للكاتب العام، ولكثير من المأمورين السّاميين عند مبارحتهم للخدمة، كالمديرين العموميين، والجنرالات، ووزراء الحرب بالدولة التونسية، وممن تقلّد هذا النّيشان العالي من مشاهير المسلمين غير التونسيين، الوزير السيد قدور بن غبريط رئيس جمعية أحباس الحرمين الشريفين ومدير المعهد الإسلامي بباريس، ألبسه إيّاه المولى محمد الحبيب باي تنشيطاً لعزائمه ومكافأة لنصحه وإخلاصه في سبيل ما انقطع إليه من المساعي الجليلة العائدة بالنّفع على مسلمي الشّمال الإفريقي، كتسهيل أسباب الحجّ، وإحداث المسجد والمعهد الإسلامي بباريس، ومستشفى ومقبرة إسلامية بها، وغير ذلك. وبديهي أنّ الوزراء المقيمين يتحفهم سموّ الباي بنيشان عهد الأمان،

(9) [أي معاهدة الحماية التي أبرمت بين الصادق باي والحكومة الفرنسية في 12 ماي 1881].

ويكون ذلك بعد انقضاء بعض شهور من تقليدهم الصّنف الأكبر من نيشان الافتخار، وهذا يمنحونه إياهم عند تقديم أوراق اعتماداتهم لسموّ الباي يوم قدومهم لتونس، وقد اتّفق تقليد النّيشانين معاً في آن واحد، كما جاد به سيّدنا ومولانا المعظم يوم انتصاب فخامة المقيم العام الحالي(10).

نيشان العهد المرصع :

هذا النّيشان فرع لعهد الأمان، ولكنّه فاق أصله، لأنّه أعلى منه منزلة، حيث كانت درجته في الاعتبار بعد النّيشان الحسيني، أحدثه المشير محمد



نيشان العهد المرصع.

(10) [أرمان ڤيون (GUILLON) (1936 - 1939)].

الصادق باي في ثاني شوّال 1291 [1874] والمشهور أنّ ذلك كان بمساعي وزير البحر مصطفى بن إسماعيل ليجعل نفسه في صعيد واحد مع الوزير خير الدين حيث كان لبس هذا النيشان خاصّاً بالوزراء بدون تمييز.

ويستفاد من الرّائد التونسي أنّ سموّ الباي تفضّل بهذا الوسام الرّفيع أثناء موكب يوم ثاني عيد الفطر، يعني يوم إحداثه على كلّ من الوزير الأكبر خير الدين، ووزير الحرب رستم، ووزير القلم الشيخ محمد العزيز بوعتّور، ووزير الاستشارة محمد خزندار، ووزير البحر مصطفى بن إسماعيل، والوزير حسين مستشار المعارف. وهذه النياشين السّتة تكلّفت يومئذٍ على خزينة الدولة بعشرين ألف ريال ومائة وخمسين ريالاً.

واعلم أنّ نيشان العهد المرصّع بيضي الشكل، يلبس بالطّوق، وهو أجمل النّياشين التّونسية باتّفاق أصحاب الذّوق السليم. وقد اقتضى ظهير تأسيسه تخصيصه بالوزراء كما سبقت الإشارة لذلك، ولكن لسموّ الباي تقليده لمن يشاء من آل بيته، ولا سيما وليّ العهد. وقد اتّفق تقليده لبعض الملوك، كملك إسبانيا (جلالة الفونس الثالث عشر) قبل خلعه، وتقليده للوزراء المقيمين أمر بديهي، لأنّ المقيم العام بتونس هو وزير للخارجية في تونس بطريق الأصالة، بل وقد تفضّل به المولى محمد الحبيب باي على زوجة الوزير المقيم مسيو (لوسيان سان)[11] عند مبارحتهما للملكة التونسية في 1347 [1929] ومن حسن عهدها وسلامة ذوقها أنّها تطوّقت به عند قبول زوجها لرجال البعثة التونسية التي يمّمت رباط الفتح في سنة 1349 [1930] وصرّحت بأنّها فعلت ذلك مجاملة وإكراماً لأهل ذلك الوفد التونسي، وكنت من أعضائه، فشكرت لها سعيها من أجل تلك العاطفة الشّريفة، ولا يجوز أن نغفل عن الإشارة لكون الوزير المفوّض مسيو (تياري) THIERRY كاتب الدولة العام ومعتمد السّفارة الفرنساوية بتونس سابقاً كان محرزاً على هذا الوسام العالي، ومثله أحد أسلافه بالكتابة العامة، ونعني به الوزير المفوّض

(11) [Lucien SAINT - 1929/1921].



براءة نيشان العهد المرصّع بخط اليد.

المستعرب مسيو (روا) Roy قلّده إيّاه المولى محمد النّاصر باي جـزاء إخلاصه وولائه للبيت الحسيني.

ومن أصول العهد المرصّع، أنّه لا يمنح إلاّ لمدة العمر، يلبسه صاحبه ما دام حيّاً، هكذا ينصّ بظهير تقليده، فإذا انقضى صاحبه استرجع النّيشان من ورثته.

ونختم حديث هذا الوسام، بالإشارة لما تناوله من عظيم الاعتبار ورفعة المقام، في نظر الخاص والعام، حيث كان كفؤاً لمجازاة المريشال (فوش) FOCHES قائد الجيوش المتحالفة في الحرب العالمية إثر يوم الهدنة.

هذه خلاصة حديث النّياشين التّونسية الأربعة، وهي حسب درجتها في الاعتبار:

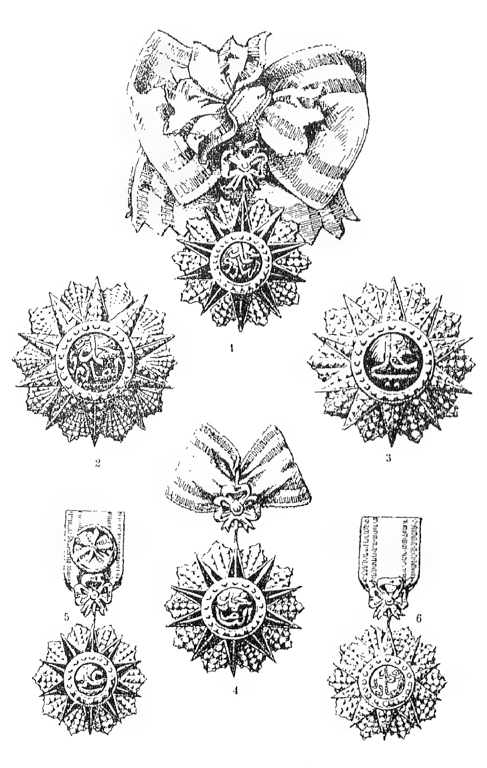
نيشان آل البيت الحسيني المحدث في سنة 1256 [1840].

نيشان العهد المرصّع المحدث في سنة 1291 [1874].

نيشان عهد الأمان المحدث في سنة 1276 [1859].

نيشان الافتخار المحدث في سنة 1252 [1836].

وبقي لنا كلام على علامات أخرى تذكارية أحدثها المشير محمد الصادق باي وتعرف باسم ميدالية في اللسان الدارج، واصطلحوا على نعتها بلفظ القونة في المشرق، وإن كان هذا اللفظ لا يؤدّي معناها بالتّدقيق، لأنّ الأيقونة هي النصمة في كتب اللغة، والنصمة هي الصورة التي تعبد كما في القاموس، والميدالية ليست ممّا يعبد، فالمشير محمد الصادق باي ضرب ميدالية أولى مستديرة بعنوان افتخار في سنة 1281 [1864] تذكاراً لثورة علي بن غذاهم، ثمّ ضرب ميدالية ثانية بشكل بيضي وبعنوان افتخار أيضاً في عام 1284 [1867] تذكاراً لواقعة الأمير العادل باي، وقد انتقد أهل العقول الرّاجحة، ومنهم المؤرخ الشيخ أحمد بن أبي الضّياف فكرة إحداث هاتين الميداليتين، لأنّهما جاءتا تذكاراً لحوادث أسيفة، كان من حقّها أن تحاط بسياج النّسيان، لا سيما وأنّ الميداليات إنّما جعلت تذكاراً للنّصر والرّقيّ في العلوم والصناعة والاختراع، لا لتخليد ذكرى الحوادث الموجعة. وقد جرّني البحث عن



أصناف نيشان الافتخار

أصول هذه المسألة للكشف عن أمور غريبة، منها أنّهم ضربوا كميّة وافرة من ميدالية عام 1281 [1864] بقي منها بدون استعمال أكثر من ثلاثة آلاف ميدالية فضّة استعملوها بعد زمان في ضرب سكة رأس العام الجديد سنة 1292 [1875] وقد انقرضت كافّة الطّبقات التي امتاز بعضها بحمل هذه الميدالية، وآخر من عرفنا من أصحابها أمير ألاي الخيالة أحمد سومر، فلّما التحق بالدّار الآخرة استرجعت من ورثته تلك الميدالية، وأضيفت للآثار العسكرية المحفوظة بقشلة باردو. هكذا سمعت من الكمندان (ده تورنمير) مدير الإدارة المركزية للجيوش التونسية سابقاً. .

ولمّا صعد المولى علي باي لكرسي أسلافه الأكرمين في منتصف حجة 1299 [1882] ضرب ميدالية بتاريخ هذا العام، وجعلها في درجتين ذهباً وفضّة، كتب بوجهها عبارة افتخار، وبقفاها اسمه الشّريف، متبوعاً بتاريخ عام 1299 [1882] وفيما يعتقد المؤرّخ (هوكون)[12] أنّ هذه الميدالية إنّما ضربت تذكاراً لإطفاء جذوة الهرج الذي أحدثه الثّائر علي بن عمار بجهات جلاص وحمادة أولاد عيار أثناء احتلال العساكر الفرنسوية لتونس في عام 1298 [1881] وزاد على ذلك قوله إنّ سموّ الباي لم يوزّع من هذه الميدالية إلاّ نحو العشرين نظيراً ذهبياً، ونحو المائتي نظير من الفضّة، ثم أمر بتعطيل ضرب البقية لأنّ الدولة الفرنسوية أحدثت يومئذٍ ميدالية استعمارية عنوانها «ميدالية الحملة العسكرية في عام 1881» وفيما أظنّ أنّ الميدالية التي ضربها المولى علي باي لم تكن تذكاراً لحركة شاركت فيها المحلّة التي خرج بها في سنة 1298 [1881] بصفته باي الأمحال لتمهيد الرّاحة، بل هي مجرّد تذكار لجلوسه على عرش الملك، بدليل ضربها بتاريخ عام 1299 الذي هو عام ولايته الملك، والمحلّة المشار إليها كان خروجها في العام قبله وحوادث عام 1298 [1881] كلّها تابعة لدولة سلفه الذي أدركه أجله في آخر شهور عام 1299 [1882] فلا يعقل أنّه

(12) صاحب كتاب رموز بايات تونس وهو تاريخ جمع فأوعى من أحسن ما صنّف في أحوال الدولة الحسينية ومسيو هوكون كان مديراً للفلاحة والتجارة والاستعمار بتونس.

[Hugon: «Emblêmes des Beys de Tunis»]

ينسب شيئاً إليه من دولة سلفه. وممّا أفاده المؤرّخ (هوكون) (HUGON) أيضاً أنّ المولى محمد الهادي باي ضرب ميدالية تذكارية لصعوده على كرسي الملك، وهذا دليل آخر على صحّة نظريتنا في خصوص الميدالية السّابقة، ولم نعلم أنّ المولى محمد النّاصر باي سلك في ذلك مسلك سلفه، وغاية ما سمعت منه أنّه اتّخذ لنفسه وهو وليّ العهد أمثلة مصغّرة من ميداليات عمّه المشير محمد الصادق باي. أمّا المولى محمد الحبيب باي فإنّه استنبط عند ولايته الملك في عام 1340 [1922] تحفة ظريفة مرصّعة بالياقوت الأحمر، قريبة من شكل النّيشان الحسيني، ميّز بها بعض برنسيسات البيت الملوكي، كما ميّز بها زوجة وزيره الأكبر أبي النّخبة مصطفى دنقزلي، ولكنّه لم يتماد في هذا السبيل، بحيث إنّ هذا الوسام الإناثي[13] لم يأخذ صبغة الأوسمة الرّسمية، ومات ذكره بموت صاحبه. وما عدا هذا فإنّ الدّولة التونسية ضربت ميداليات كثيرة في عصر الحماية لا سيما بمناسبة ترتيب المعارض الفنّية، وفتح المراسي، كميدالية فتح مرسى تونس لسير السفن في عام 1893. وآخر ميدالية اخترعتها إدارة الحماية كانت في عام 1936 بقصد تنشيط عزائم أعوان القوّة العامّة كأعوان البوليس، وحرّاس السجون، ومن كان على شاكلتهم.

ونختم هذه النبذة بالإشارة لبعض متعلّقات أصناف نيشان الافتخار، وأهمّها الكسبات التي يلبسها في الأعياد أرباب تلك النّياشين، وهذه الكسبات المطرّزة بسلوك الفضّة المموّهة بالذّهب في الطّوق وأطراف اليدين يزاد عليها توشية الصّدر والظّهر بالطّرز لأمير الأمراء، والظّهر فقط لأمير اللّواء، ويستوي كافّة أرباب الرّتب العسكرية في حمل المكتفيات المطرّزة بالعدس والكنتيل، وللجميع الحقّ في اتّخاذ سيف، ولا سيف إلا ذو الفقار ولا بطل إلاّ عليّ(*).

---

(13) لعلّه اقتبس هذه الفكرة من وسام الشّفقة الذي اخترعه السّلطان عبد الحميد خان الثاني لتمييز النّساء التّركيات وغيرهن.

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 2 ـ الجزء 3 (نوفمبر 1937).

الوزراء التونسيّون
قبل الحماية وبعدها

— 1 —

قبل التعريف بخطة الوزراء وألقابهم في نظام الدولة التونسية على عهد الحماية الفرنساوية وقبلها، يستحبّ التّعريف أولاً بمعنى الوزارة في اصطلاح أهل النظر قديماً وحديثاً. فالوزارة معتبرة عندهم كجزء متمّم للإمارة، لأنّ الأمير لا يقدر على مباشرة شؤون الأمّة وتدبير مصالحها بانفراده، فكان من المتعيّن أن يتّخذ له وزيراً يستنيبه في التّدبير، ويشاركه في إنفاذ أوامره ونواهيه. وكانت الوزارة في البدء وزارة تفويض، ووزارة تنفيذ، لا ثالث لهما. قال في الأحكام السلطانية: وكانوا يشترطون في الوزارة أن يكون صاحبها من أهل الكفاءة فيما وكل إليه من أَمْرَيْ الحرب والخَراج، له خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما. وحكي أنّ الخليفة المأمون، كتب في اختيار وزير فقال: إنّي التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفّة في خلائقه، واستقامة في طرائقه، قد هذّبته الآداب، وأحكمته التّجارب، إن اِئْتُمِنَ على الأسرار قام بها، وإن قلّد مهمّات الأمور نهض فيها، يسكته الحلم، وينطقه العلم، وتكفيه اللّحظة، وتغنيه اللّمحة، له صولة الأمراء، وإناءة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، إن أحسن إليه شكر، وإن ابتلي بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترقّ قلوب الرّجال بخلابة لسانه وحسن بيانه ا هـ. قال الإمام الماوردي: إذا كملت هذه الأوصاف في الزّعيم المدبّر ـ وقلّ ما تكمل ـ فالصّلاح بنظره عام، وما يناط برأيه وتدبيره تام، وإن

اختلّت فالصلاح بحسبها يختل، والتّدبير على قدرها يعتل ا هـ.

هذا وقد جرى عمل أمراء تونس منذ القديم باتّخاذ وزراء لهم قياساً على غيرهم من ملوك الإسلام في الشّرق والغرب، فمن مشاهير وزراء الدولة الأغلبية، نصر بن الصّمصامة، حاجب الأمير إبراهيم بن الأغلب الثّاني، واشتهر في الدّولة الحفصية، الوزير البربري أحمد بن تفراجين في المائة الثامنة، وكان من أدهى أهل زمانه. وفي عهد حكم الأتراك، اشتهر الوزير الحاج علي ثابت في أيام يوسف داي، كاشتهار الوزير يوسف خوجة صاحب الطّابع في دولة الباي حمودة باشا الحسيني، والوزير خير الدّين في عهد المشير محمد الصادق باي. ثمّ اعلم أن للدّولة التّونسية في الزّمن الحاضر، ثلاثة وزراء من التّونسيين، وثلاثة وزراء من الفرنسويين، وهؤلاء الثّلاثة يتولّون خطّة الوزارة بطريق الأصالـة، وهم: المقيم العام، بصفـة وزير للخارجية، والجنرال القائد الأعلى للجيوش الفرنسوية، بصفة وزير للحربية، والأميرال الوالي البحري ببنزرت، بصفة وزير للبحرية. وقبل التعريف بخطة وزراء كلا الشّقيّن، نتكلّم على أصل خطّة الوزارة بالبلاط الحسيني، ومتى كان ظهورها بين الناس. فالبايات الأوّلون لم يكن لديهم في البداية متوظّفون بلقب الوزراء، بل كان لكلّ واحد من أصحاب الوظائف العالية بالبلاط الملوكي لقب خاصّ به، فكان المأمور الأسمى على رأس طائفة المأمورين السّاميين بالدّولة، هو صاحب الطّابع، يليه الباش كاتب، فالخزندار، فالباش مملوك. وقد اتّفق لهم الجمع بين خطّتي صاحب الطابع والخزندار في شخص واحد، كما كان الحال في زمن الوزير شاكير، فقد كان قابضاً على تينك الخطّتين بيد من حديد، وقد حفظ له التاريخ ذكراً خالداً في مقام الاقتصاد والاحتفاظ بمداخيل الدولة، رغم دسائس أعدائه ومكائد أضداده، وهو أوّل من وضع ميزانية قارّة للدّخل والخرج، تضمّنت جراية ملكية للمولى حسين باشا باي، قدرها خمسة آلاف ريال في الشّهر، وإليه ترجع مزيّة دفع الدَّيْن الذي ترتّب يومئذٍ على الدّولة بسبب سوء تصرّف الوزير حسين خوجه باش مملوك، وقدره ثلاثة ملايين، الأمر الذي آل بهذا الوزير للسّجن، وبيع

مكاسبه لفائدة الدّولة، ومن ذلك خزانة كتبه المشهورة التي صارت بالتّالي وقفاً على طلبة العلم بجامع الزّيتونة.

فأرباب الوظائف العالية التي ذكرناها، كانوا في الحقيقة هم الوزراء، لأنّ البايات، لقرب عهدهم بحكم الدايات، ونظام حكومتهم هو الدّيوان المركّب من الباشا، والباي، والدّاي، والآغة، والكاهية، كانوا يتحاشون عن اتّخاذ أعوان لهم بعنوان وزراء بالعنوان الرّسمي في أواسط القرن الماضي، لسياسة لهم في ذلك نحو سلاطين آل عثمان، ولما تأتّى لهم اتّخاذ الوزراء بالعنوان الرّسمي في أواسط القرن الماضي، كانوا لا يتجاهرون بذلك في مخاطبتهم مع الباب العالي. وأوّل من خلع هذا القيد هو المشير محمد الصادق باي عند توجيهه للوزير خير الدين في طلب فرمان الولاية إثر صعوده على العرش الحسيني في سنة 1276[1859] قال المؤرّخ الشّيخ أحمد بن أبي الضياف عند ذكر هذا الحادث: قال لي (الباي) نقصت من مقام خير الدين حيث لم تصفه بوزير البحر، فقلت له هذه عادتنا في مكاتيب الدولة العليّة، فقال لي إنّه لم يتقدّم إرسال وزير، فقلت إنّي سلكت طريق الأدب مع الحضرة السّلطانية، لأن السّلطنة تخاطب سيادتكم بالوزير، وأنّى للوزير أن يكون له وزير، وفي مجاري العرف أنّ الوزير من خواصّ سلطنة الاستقلال، فقال لي لم نحقر أنفسنا ونحن في أعين النّاس عظماء، وأنّ قنصل الفرنسيس يسلّم لي الاستقلال، إلى أن قال: وأمرني بإعادة المكاتيب فأعدتها بزيادة لفظ الوزير ا هـ.

واعلم أنّ أوّل وزير سمّي رسمياً بهذا اللّقب، هو وزير العمالة مصطفى خزندار في عهد المشير أحمد باي الأول، ولكنّ المؤرّخين ومن حذا حذوهم من الكُتّاب، وخاصّة أهل الدولة وأهل العلم، كانوا يطلقون لقب الوزير على رجال البلاط، وينعتونهم بذلك، لأنّ الوظائف المباشرين لها كانت مطابقة لخطّة الوزارة في العرف بين النّاس. وممّن اشتهر بذلك اللقب في أوائل العصر الحسيني على عهد المولى محمد الرشيد باي، وأخيه المولى علي

باي، الوزير إسماعيل كاهية، والوزير رجب خزندار، والوزير مصطفى حفصة، كاشتهار الوزير يوسف خوجة صاحب الطابع في أيّام الباي حمودة باشا، والوزير العربي زرّوق، والوزير حسين باش مملوك، والوزير شاكير صاحب الطّابع، والوزير سليمان كاهية، والوزيرين الأخوين محمد ومحمود ابني محمد الأصرم في دولة الباي حسين باشا بن محمود باي، وآخر تلك الطّبقة من الوزراء بالأسماء التي قرّرناها، الوزير مصطفى صاحب الطابع صهر الباشا مصطفى باي. فلما آلت الدّولة لنوبة المشير أحمد باي، وهو من علمت في حبّ الظهور والتّعالي والتدرّج في الحكم المطلق، مع التّغالي والطّموح في مجاراة الدّول ذات الرّسوخ في المدنيّة، وذلك رغم فقر هذه البلاد وعجزها في زمنه عن مذاهب الإسراف والتّبذير، الأمر الذي آل بها إلى الإفلاس، في آخر أيّامه، رتّب خطط الوزراء التي دخل عليها، وأضاف لها وزراء آخرين، منهم وزير العمالة الذي تقدم ذكره، وهذه الخطّة تقابلها خطّة وزير الداخلية في الاصطلاح الأروباوي، ووزير البحر، وكان يلقّب قبل ذلك بأمين التّرسخانة، ووزير الحرب، وكان هو صاحب الزّغاية، ووزير الخارجية، وكان هو ترجمانه والواسطة بينه وبين القناصل المنتصبين بتونس، ومن هذه الخطّة تولّدت خطّة مدير التّشريفات في الدّولة الصّادقية، ولكن بعنوان آخر قاصر على الترجمة وترتيب أساليب القبول في بعض المواكب، ثم عزّز طائفة الوزراء بالوزير الأكبر، وأبقاه على وزارة العمالة، وألحق بهم الدّولاتلي، وهو نفسه الدّاي، ولقّبه بوزير التّنفيذ، فكان أصحاب الخطط الوزيرية في دولة المشير أحمد باي هم:

الوزير الأكبر، وزير العمالة، الخزندار، الباش كاتب، وزير الحرب، وزير البحر، وزير الخارجية، وزير التّنفيذ.

وانتزعت من يومئذٍ الصّبغة الوزيرية من خطّة صاحب الطّابع، ومن خطّة الباش مملوك.

واعلم أنّ أولئك الوزراء، كانوا كلّهم من طبقة المماليك، حاشا الباش

كاتب، فإنّه كان من أهل العلم ومن أبناء البيوت التّونسية[1].

(1) كانوا ينتخبون صاحب هذه الخطّة في الدّور القديم من بين أهل العلم، وكان الباش كاتب هو الواسطة بين العلماء وبين الدولة، وهذه الخطّة عريقة في الدّولة الحسينية، وكانت موجودة أيضاً في الدّول التي تقدّمتها، ولكنّها تختلف عنها في التّسمية فقط، فكان الباش كاتب في عهد الدّولة الحفصية هو رئيس ديوان الإنشاء، وهذا اللّقب كانوا ينعتونه في الدّولة المرادية، وفي أوائل الدّولة الحسينية أيضاً، وكان من وظائفه الرّقابة على ضبط المجابي، وحسابات الدّولة، وهذا هو الأصل في إقامة نائب عن وزير القلم في هذا الزّمان بإدارة المال، لتعقّب حسابات العمّال. أما الفضلاء الذين تولّوا هذه الخطّة في الدولة الحسينية من أوّلها إلى هذا الزّمان، فقد يسّر الله لي جمع أسمائهم بعد عناء البحث الطّويل وإليك البيان:

ففي دولة المولى حسين بن علي تركي كان رئيس ديوان الإنشاء والكتابة هو الشيخ الحاج بلحسن السهيلي.

وفي دولة الباشا علي باي الأوّل تولّى تلك الخطّة الشّيخ عبد اللّطيف السهيلي، وقتل، فتولاّها الشيخ عبد الرحمن البقلوطي.

وفي دولة المولى محمد الرشيد باي تولاّها الشّيخ أحمد بن محمد الأصرم.

وفي دولة أخيه المولى علي باي الثاني، عاد لها الشيخ عبد الرحمن البقلوطي.

وفي دولة ابنه الباي حمودة باشا باشرها الشّيخ عبد الرحمن المذكور، وخلفه في الخطّة الشّيخ الحاج حمودة بن عبد العزيز، فالشّيخ محمد بن حسين الدّرناوي، فالشّيخ محمد بن محمد الأصرم، واستمرّ على مباشرتها إلى أن تولّى مكانه أخوه الشيخ محمود الأصرم، فكان هو الباش كاتب في دولة المولى حسين باي الثّاني.

وفي دولة أخيه المولى مصطفى باي، كان صاحب خطّة الباش كاتب هو الشّيخ محمد ابن محمد الأصرم، وباشرها أيضاً في أوائل دولة ابنه المشير الأوّل أحمد باي، وبقي على خطّته مع الانقطاع عن مباشرتها في بقيّة الدّولة المذكورة، وكذلك في مدّة المشير الثّاني محمد باي، وتوفي في صدر دولة المشير الثّالث محمد الصادق باي سنة 1277 [1860] وهذا الفاضل جمع بين عزّة النّفس، وبين فصاحة القلم، ورقّة الأدب، ومن شعره قصيدة فريدة تضمّنت كثيراً من الرّموز والإشارات لأحوال دولة متبوعه المشير أحمد باي، وهي إحدى خرائده الكثيرة التي نسجت عليها عناكب النّسيان، لأنّها لم تخرج من بطون الدّواوين لعالم النّشر، نقتطف منها ما به الحاجة هنا نقلاً عن كنّاش للكاتب الأديب المرحوم الشّيخ حمودة تاج، ومطلعها:

الصّبر مفتاح لكلّ إياس ... فاصبر ولا تك للنّصيحة ناسي

ومنها:

لهفي على ترشيش حتّى قيل لي ... وان الضنين بها وبالإيناس

ما في وقوفك ساعة من باس ... تقضي زمام الأربع الأدراس

فانقضّ صبري والتجلّد مطمعي ... جرياً على حال بغير قياس =

ووزير الخارجية الذي كان من أبناء الجنس الطّلياني، ولكنّه كان في حكم المماليك(1). ومن ذلك العهد أخذت تلك الخطط في التّدرّج نحو

فانجاب جنح اللّيل عن صبح الهدى ... عن وجه أحمد طيّب الأنفاس
أحيى السرور وزال وجه الباس ... وغدا الهناء لكلّ ناد كاسي
وتتوّجت ترشيشنا بمليكها ... وازدانت الدّنيا بحسن لباس
واسودّ وجه عدوّها حسداً لها ... وابيضّ وجه صديقها الونّاس

إلى أن قال:

يا أحمد الميمون في حركاته ... يا ابن المكارم يا أبا العبّاس
العدل أسّ للدّوام مصيره ... والظّلم بنيان بغير أساس
والنّفس تأبى أن تضام جبلّة ... فاكتل لها ما كلته للنّاس
والبيت لا يرسو بغير عماده ... فاجمع إذاً أوتاده بقياس
لا تصلح الدّنيا ولا أحوالها ... ما لم تكن أنت الطبيب الآسي
واحذر مكائد كلّ من صاحبته ... واعمل بما قد قيل في الخنّاس
إنّي سبرت الخلق طرّاً أصبحوا ... فوضى بلا كيل ولا مقياس

ولما التحق الشّيخ محمد الأصرم بالدّار الآخرة في سنة 1277 [1860] كما سلف ذكره، بقيت خطّة الباش كاتب بحال شغور إلى سنة 1281 [1864] وفيها تقدّم للخطّة عن جدارة واستحقاق العلاّمة الشّيخ محمد العزيز بوعتّور من خرّيجي جامع الزّيتونة، ومن بيوت المجد، وهو أوّل من تولّى خطّة وزير القلم في السّنة المذكورة، أحدثها لأجله المشير محمد الصادق باي لجعله في منزلة واحدة مع بقيّة وزرائه، لأنّ خطّة الباش كاتب أدركها يومئذٍ الوهن والضعف بسبب ابتعاد صاحبها عن ساحة الدّولة مدّة تقرب من عشرين سنة، فأصدر له الباي أمراً بولايته باش كاتب، وأمراً آخر بولاياته وزيراً للقلم، ثمّ أضاف له وزارة المال، ولقبّه بعد ذلك بوزير الاستشارة. ويعتقد كثير من أهل هذا العصر أنّ الشيخ أحمد بن أبي الضّياف، تولّى خطّة الباش كاتب ووزارة القلم، والحقيقة أنّه لم يتولّ الواحدة ولا الأخرى. نعم إنّه ترجع له مزيّة تهذيب أساليب ديوان الإنشاء بالدّولة، لأنّه أوّل من امتلك بتونس كتاب نفح الطيب، قالوا. إنه ابتاعه يومئذٍ بألف ريال ومائة ريال، واستفاد منه وأفاد، وكان لقبه الرّسمي كاتب سرّ الدّولة، واتّفق له مباشرة خطّة الباش كاتب بالنيابة في كامل المدّة التي احتجب فيها صاحبها الشّيخ محمد الأصرم لما كان عليه من حدّة الطّبع، الأمر الذي دعا سموّ الباي للإعراض عنه، ولكنّ المشير محمد الصادق باي تفضّل عليه بلقب وزير، وهذا اللّقب بقي اسمه مقروناً به إلى هذا الزّمان. وأمّا الأعيان الذين تقدّموا لخطّة الباش كاتب ووزارة القلم بعد الشّيخ محمد العزيز بوعتّور، فقد ذكرنا أسماءهم بقائمة الوزراء في عصر الحماية.

(1) هو أمير الأمراء الكونت (جوزابين رافو) من بيوت المجد الطّلياني، التحق بالبلاط الحسيني في عهد المولى مصطفى باي، وتدرّج في المناصب العالية وقام بالمأموريات الهامّة في دولة المشير أحمد باي، فكان وزيره للخارجية، توفّي بباريس في 2 أكتوبر 1862، ونقل جثمانه =

الصّبغة الوزيرية الحقيقية، تبعاً لناموس التّطوّر الطّبيعي المستمدّ من التّمدّن الأروباوي الذي كان يزداد يوماً فيوماً بهذه الدّيار من وقت استيلاء فرنسا على الجزائر في سنة 1246 [1830] فكانت الدّولة التّونسية في عهد المشير محمد الصادق باي، قائمة على أركان متينة، لها شبه من قريب بالوزارات في الدّول المتمدّنة، حيث أقاموا لجانب كلّ وزير مستشاراً يعضده في المباشرة، ورتّبوا أقسام الخدمة، وأحدثوا خطّة وزير القلم في سنة 1281 [1864] أضيفت للباش كاتب ليكون في صعيد واحد مع وزراء الدولة، فهما خطّتان اثنتان لا خطّة واحدة، جمعهما سموّ الباي محمد الصادق لأوّل مرّة في شخص كاتب سرّه الشّيخ محمد العزيز بوعتّور، وأضاف له في سنة 1290 [1873] لقب وزير الاستشارة، وفيما بين ذلك قلّده خطّة وزير المالية في سنة 1283 [1866] فكان وزيراً للمال بلا مال، لأنّ صناديق الدّولة كانت يومئذٍ أفرغ من فؤاد أمّ موسى، كما تفضّل بلقب الوزير على كاتب سرّ الدّولة الشّيخ أحمد بن أبي الضّياف، ومات هذا اللقب مع صاحبه في سنة 1291 [1874] وأحدثوا تبعاً لذلك خطّة كاتب سرّ الوزير الأكبر[2]، نيطت بعهدة أمير الأمراء الشّيخ محمد البكّوش وفي سنة 1286 [1869] أحدث الباي خطّة الوزير المباشر، وهي خطّة لها شبه من قريب بخطّة الكاتب العام في عهد الحماية، وسنعود للكلام عليها قريباً، ثمّ أحدث الباي لقب وزير الشّورى بعنوان الوزير محمد خزندار، وأضاف لقب وزير استشارة لمستشار المعارف حسين المملوك، وكلّفه مع ذلك بالنّافعة، وهي الأشغال العامّة، وجعل للوزير المباشر المتقدّم

= ودفن بتونس، وخلفه في خطّة التّرجمة ابنه أمير الأمراء الكونت (فيليكس رافو) وتوفي في 19 اشتنبر 1872.

(2) خطّة كاتب سرّ الوزير الأكبر في الدور القديم وقع إلغاؤها عندما نفض الوزير مصطفى خزندار يده من الوزارة الكبرى، لأنّ خلفه في الخطّة الوزير خير الدين أعاد ترتيب الوزارات على قواعد جديدة في سنة 1292 [1875] وجعل كتابة السّرّ من مشمولات خطّة رئيس القسم الأوّل، وهكذا استرسل الأمر في مدّة الوزراء الأوّلين في عهد الحماية إلى أن تولّى الوزارة الكبرى المرحوم أبو النّخبة مصطفى دنقزلي فأحيا تلك الخطّة وأسندها لكاهية رئيس القسم الأوّل وهو السيد مصطفى صفر شيخ المدينة الحالي.

ذكره وهو المرحوم خير الدين حقّ النّظر على كافّة الوزارات، وإليك نصّ الأمر العليّ[3] الصّادر في تسميته، مع بيان سلطته ووظائفه:

«من عبد الله سبحانه المتوكّل عليه، المفوّض جميع الأمور إليه، المشير محمد الصادق باشا باي صاحب المملكة التونسية سدد الله تعالى أعماله، وبلّغه من ثمرات النّجاح آماله، إلى من يقف على أمرنا هذا من أبنائنا أمراء الأمراء أعيان الوزراء، وأمراء الألوية، وأمراء الألايات، وقائمي المقامات، وأمناء الألايات، والبنباشية، وكافّة الجنود العسكرية، والقوّاد والمخازنية، وسائر أولي الولايات، فيما لنا من الجهات، أصلح الله أحوال جميعهم، وأجرى على نهج السّداد جميع صنيعهم. أما بعد، فإنّنا بمقتضى أمرنا المؤرّخ بيوم التّاريخ، المتضمّن ما ظهر لنا من المصلحة، وهي جعل الوزارة الكبرى مركّبة من وزارة العمالة، والخارجية، والمال، والنّظارة على وزارتي الحرب والبحر، أولينا الهمام المفخّم، نخبة الأعيان، وعمدة أهل المجد والشّأن، أمير الأمراء الوزير ابننا خير الدين، يباشر خدمة الوزارة الكبرى تحت رئاسة جناب وزيرنا الأكبر، ويلقّب في خطابه ومخاطباته بالوزير المباشر، فليقم بخطّته عالماً بمقدارها، متّصفاً بما يحمد من جميل آثارها، وعلى سائر رجال دولتنا إعانة ابننا المذكور على خدمته، وتيسير أسباب نجاحها، والله وليّ إعانته وتوفيقه، إلى نهج النّجاح وطريقه. وكتب في 15 شوّال المبارك سنة 1286 [1869] اهـ.

فكان للدّولة التونسية في سنة 1286 [1869] ثماني وُزارات منوطة بمن يأتي ذكرهم:

الوزير الأكبر، الوزير المباشر، وزير العمالة، وزير الخارجية، وزير القلم وباش كاتب، وزير المال، وزير الحرب، وزير البحر.

---

(3) احتوت مكتبتنا ضمن ما لدينا من الوثائق التّاريخية على عين المرسوم الملوكي الصّادر بولاية الوزير خير الدين خطّة الوزير المباشر.



[خير الدين باشا الوزير الأكبر (1873)]

ويستفاد من كتاب صفوة الاعتبار[4] أنّ أربعة من هذه الوزارات كانت يومئذٍ بيد الوزير مصطفى خزندار، قال في صفحة 23 من الجزء الثاني عند التّعرّض لذكر مرتّبات هذا الوزير:

140.000	مرتّبه على الوزارة الكبرى
60.000	مرتّبه على وزارة العمالة
60.000	مرتّبه على وزارة الخارجية
60.000	مرتّبه على وزارة المال
60.000	مرتّبه على نيشان آل البيت الحسيني الذي هو حامل له
380.000	الجملة ريالات

وهذا المقدار يساوي نحو المليونين ونصف من الفرنكات بصرف هذا الزمان. ثم ألغيت خطّة الوزير المباشر بدسائس من كادهم أمره بالبلاط الصّادقي.

هذا ما يتعلّق بنظام الوزراء قبل الحماية، وسنتحدّث في العدد الآتي إن شاء الله عن نظام الوزراء من عهد الحماية إلى اليوم[*].

— 2 —

تكلّمنا في القسم الأوّل على نظام الوزراء قبل الحماية، وأمّا الوزراء يوم انتصاب الحماية في 12 ماي 1881 (13 جمادى الآخرة 1298) فهم:

أمير الأمراء مصطفى بن إسماعيل	الوزير الأكبر ووزير الخارجية ورئيس الكمسيون المالي
أمير الأمراء محمد خزندار	وزير الشّورى

(4) [محمد بيرم الخامس - صفوة الاعتبار - ج 2 - ص 23 -].

(*) المجلة الزيتونية - المجلّد 3 - الجزء 1 (جانفي 1939).

أمير الأمراء الشّيخ محمد العزيز بوعتّور	وزير القلم وباش كاتب ووزير الاستشارة
أمير الأمراء سليم	وزير الحرب
أمير الأمراء أحمد زرّوق	وزير البحر
أمير الأمراء حسين	وزير الاستشارة ومستشار المعارف والنّافعة
الشّيخ محمود بوخريص	كاهية الباش كاتب[5]

ثمّ ظهرت في تلك الأثناء أحوال أوجبت إعفاء الوزير حسين من خطّة وزير الاستشارة، ومن مستشار قسم العلوم والمعارف، ومن المأمورية المنوطة بعهدته بإيطاليا، وهي محاسبة ورثة القائد (نسيم شمامة) عن تصرّف مورّثهم في مالية الدّولة التونسية[6] بصفة قابض عام، وكان ذلك في 21 رمضان 1298 [1880]وزيد في النّكاية به بعد ذلك، فجرّدوه عن رتبة أمير الأمراء في 29 صفر 1299 [1881] ولكنّ التّونسيين من الخاصّة والكافّة ما زالوا ينعتونه بالوزير في محرّراتهم ومحادثاتهم، وبعضهم يجهل وقوع فصله عن خططه وامتيازاته بالدّولة. وكان حسين هذا من المماليك القليلين الذين كانت لهم بضاعة في العلم[7] اكتسبها من مزاولته لعلوم العربية بمدرسة الهندسة الحربية بباردو، ثمّ بملازمة أستاذه وصاحبه الشّيخ محمود قابادو، وبمجالسة العلماء من أصدقائه كالمرحوم الشّيخ أحمد بن الخوجة، والمرحوم الشّيخ سالم بوحاجب. وقد تضمّن أحد كنّاشات أوّل هذين الشّيخين قصيدة من إنشائه في امتداح الوزير حسين عند رجوعه والوزير خير الدين من الأستانة مع الخلعة السّلطانية المهداة لسموّ الباي إثر ولايته الملك في سنة 1276 [1859] وممّا جاء فيها قوله:

(5) هذه الخطّة أحدثت لأجله ولم تمنح لغيره قبله وبعده، قالوا إنّه وقع إحداثها لإغلاق باب المطامع في وجه من كان يتوقّع منه المزاحمة للباش كاتب وتوفّي الشّيخ محمود بوخريص في سنة 1301 [1883].

(6) يستفاد من عبارة مفكّرات الوزير خير الدين التي قامت بنشرها في هذه الأثناء مجلّة مشيخة قرطجنّة أنّ المال المتخلّد بذمّة القائد نسيم للدّولة التّونسية يبلغ العشرين مليوناً.

(7) لدينا بعض وثائق تاريخية من إنشائه وبخطّ يده تشهد برسوخ قدمه في الكتابة والخطّ.

علم تجمّل بالدّيانة والتّقى وسداد رأي باهر برهانا
يسقي السّلافة في كؤوس بيانه سحبان منها لم يزل نشوانا
ما تونس الخضراء إلاّ روضة قد كان منها الرّوح والرّيحانا

وفي مستهلّ الدّولة العلوية وقع ترتيب الخطط الوزيرية على أسلوب جديد، موافق لقاعدة الاحتساب والرّقابة من السّلطة العليا الفرنساوية في تصرّفات الوزراء التّونسيين بالدولة، فألغيت خطّة وزير الشّورى، كما ألغيت وزارة الحرب، ووزارة البحر القديمتين، وأبقيت خطّة الوزير الأكبر، وخطّة الباش كاتب وزير القلم والاستشارة، وأسندت الوزارة الخارجية للوزير المقيم، وفقاً لنصّ معاهدة باردو، وتقلّد الجنرال قائد الجيوش الفرنساوية بالعمالة خطّة وزير للحربية بالدولة التونسية. وفي مدة الوزير المقيم م. (فلاندان) FLANDIN أعطي لقب وزير البحر بالدّولة التونسية للأميرال الوالي البحري ببنزرت. ثم في سنة 1338 [1921] وقع إحداث خطّة وزير العدلية التونسية[8] بمساعي الوزير المقيم م. (لوسيان سان) LUCIEN SAINT دبّر ذلك سياسة منه على وجه التّرضية للفكر العام التونسي الذي كان متطلّباً للتّفريق بين السّلط، فكان الوزراء التّونسيين من يومئذٍ ثلاثة: الوزير الأكبر، وزير العدلية، الباش كاتب وزير القلم والاستشارة.

وبالتّالي، وجد للمرّة الأولى في التاريخ التونسي لقب الوزير بالعنوان الشرفي، فكان أمير الأمراء السيد الطّيّب الجلّولي وزيراً أكبر شرفياً عند استعفائه من الوزارة الكبرى في سنة 1340 [1921] وتكرر هذا اللّقب بإمناحه لغيره من الوزراء المحالين على التقاعد في هذه السّنين القريبة. وبديهيّ أنّ للوزير الأكبر حقّ الرّئاسة على زميليه التّونسيين، مع الامتياز بحمل نيشان البيت الحسيني، وليس لغيره من أبناء البلاد أن يطمع في مدّ عنقه لذلك النّيشان الرّفيع الشّأن، وشذّ إمناح غيره من الوزراء التّونسيين نيشان العهد

(8) [أول من تقلد وزارة العدل هو المرحوم طاهر خير الدين ابن الوزير الأكبر الجنرال خير الدين وذلك من سنة 1921 إلى سنة 1934].

المرصّع. وهذه القاعدة لم تتخلّف في عصر الحماية إلاّ مرّتين، مرّة في مدّة المولى علي باي، ومرّة في سنة 1345 [1926] على عهد المولى محمد الحبيب باي، فقد تفضّل به على صاحبنا المرحوم أمير الأمراء السيد الطاهر خير الدين في السّنة المذكورة، وبعد أن صار هذا الوزير الفقيد وزيراً شرفياً، أحسنت له الدّولة الفرنساوية بالصّنف الأوّل من (اللجيون دونور)، وكان من القدر المقدور أنّ وصول هذا الوسام العالي لتونس، وافق يوم التحاق صاحبه بالدّار الآخرة.

هذا وللوزراء التّونسيين على السواء، حقّ العضوية بمجلس الوزراء، وهذا المجلس ليس له قانون صدر بتأسيسه، وإنّما وجوده مستفاد من أمر ترتيب الميزانية التّونسية الأولى في عهد الحماية، جمعه الوزير المقيم (م. كمبون)[9] برئاسته لأوّل مرة في سنة 1300 [1882] ولم يكن للدّولة التّونسية مجلس وزراء في عهد الدّور القديم، وغاية ما هنالك أنّ سموّ الباي كان يجمع مجلساً من أهل شورته في الأمور الهامّة، وربّما أضاف لهم بعض أهل العلم، فقد أتيح للشّيخ أحمد بن الخوجة، وللشّيخ مصطفى رضوان، الحضور في مناسبات كثيرة بمجلس مشورة المشير محمد الصادق باي، وكان المشير محمد باي لا يبتّ أمراً عظيماً في الشّؤون الخاصّة بأهل العلم وما التحق بها، إلاّ بعد مراجعة صهره الشّيخ محمد بيرم الرابع، وهو الذي أشار عليه بجعل نظام للمحاكم الشرعية، ومنشور ترتيبها المعلّق بديوان دار الشّريعة من إنشائه. وبديهيّ أنّ أهل مشورة سموّ الباي هم الوزراء، ولكنّ الوزير الأكبر هو لسان صاحب العرش الحسيني، وهو الواسطة بين سموّه وبين الدّولة، وهو الذي بعهدته عرض الأوراق الرّسمية على الطّابع السعيد، وقراءتها من حقوق الباش كاتب، وإليك أسماء الذّوات الذين باشروا الوزارة الكبرى، ووزارة العدلية، ووزارة القلم في عصر الحماية من البداية إلى هذا اليوم:

(9) [المقيم العام بول كمبون (CAMBON) هو الذي ركز نظم الحماية الفرنسية بتونس من سنة 1882 إلى سنة 1886].

الوزارة الكبرى	سنة الولاية	وزارة العدلية	سنة الولاية	وزارة القلم	سنة الولاية
السّادة		السّادة		السّادة	
محمد خزندار	1298 [1881]	الطاهر خير الدين	1338 [1921]	محمد العزيز بوعتّور	1281 [1864]
محمد العزيز بوعتّور	1300 [1882]	علي السّقّاط	1353 [1934]	محمد الجلّولي (10)	1300 [1882]
مُحمد الجلّولي	1325 [1907]	سالم الصّنادلي	1354 [1935]	يوسف جعيط	1325 [1907]
يوسف جعيط	1326 [1908]	عبد الجليل الزّاوش	1355 [1936]	الطيب الجلّولي	1326 [1908]
الطيب الجلّولي	1333 [1914]			مصطفى دنقزلي (11)	1333 [1914]
مصطفى دنقزلي	1340 [1921]			خليل بوحاجب	1340 [1921]
خليل بوحاجب	1345 [1926]			الهادي الأخوة	1345 [1926]
الهادي الأخوة	1350 [1931]			يونس حجّوج	1350 [1931]
(13)				على السّقّاط	1354 [1935]
				عبد الجليل الزّاوش (12)	1354 [1935]
				أحمد بن الرّايس	1355 [1936]

(10) هو أوّل من تولّى خطّة الباش كاتب من غير أهل الطّبقة العلمية، وقع اختياره من طبقة كبار العمّال لأنه أبلى البلاء الحسن بالإعانة على تمهيد الرّاحة بجهة صفاقس أثناء احتلال عساكر فرنسا لتونس، ومن مزاياه السّعي والحصول على تخفيض الغرامة الحربية المضروبة على صفاقس من عشرة إلى ستّة ملايين، وعلى قياسه استمرّ في هذا الزّمان انتخاب وزير القلم من طبقة كبار أصحاب الوظائف المخزنية.

(11) محرز على شهادة العالمية في اللّغة الفرنسوية.

(12) محرز على شهادة الإجازة في الحقوق.

(13) [بقية من تقلدوا منصب الوزارة الكبرى إلى آخر عهد الحماية: —

واعلم أنّ الأعيان الذين تقدّموا لخطّة الوزارة ابتداء من سنة 1236 [1908] كلّهم من خرّيجي المدارس العصرية، وأغلبهم من قدماء تلامذة المدرسة الصّادقية. ولقد صرّح الوزير المقيم (م. الابتيت) (ALAPETITE) عند حضور السيد مصطفى دنقزلي لأوّل مرّة بمجلس الوزراء، أنّ معرفة اللّغة الفرنساوية ستكون في المستقبل هي القاعدة عند تسمية الوزراء التّونسيين، وهذا القيد هو الذي منع بعض كبار المتوظّفين ممّن لا يحسنون الفرنساوية من التّقدّم لخطّة الوزارة، وكلّ ميسّر لما خلق له.

ثم اعلم أنّ الوزير محمد خزندار الذي هو أوّل من تولّى الوزارة الكبرى بعد نصب الحماية، لم يتقلّب أحد أكثر منه في الوزارات بالدولة الحسينية منذ بدايتها إلى هذا اليوم، فقد باشر كلّ الوزارات، عدا وزارة القلم، فكان في أوقات مختلفة وزيراً أكبر، ووزيراً للعمالة، ووزيراً للخارجية، ووزيراً للحربية، ووزيراً للبحرية، ووزيراً للشّورى، وسفيراً في مأموريات جليلة لدى الباب العالي وبعض الدّول الأروباوية، وباشر مع ذلك رئاسة كمسيون المالية، واشتهر بين أهل عصره بلقب قائد سوسة لما أبقى ببلاد السّاحل من الذّكر الجميل أثناء ولايته عليها بعد الأيام المظلمة التي عرفها أهل السّاحل أثناء نزول محلّة أحمد زرّوق بديارهم، وأمّا لقب الخزندار المضاف لاسمه فإنّه انجرّ له من متبوعه الوزير شاكير صاحب الطّابع

= - مَحمد شنيق: جانفي - ماي 1943

- صلاح الدين البكّوش: 1943 - 1947.
- مصطفى الكعّاك: 1947 - 1950.
- مَحمد شنيق: 1950 - 1952
- صلاح الدين البكّوش. 1952 - 1954.
- محمد الصالح مزالي: مارس - ماي 1954.
- الطاهر بن عمّار. أوت 1954 - مارس 1956.

وتكوّنت أوّل وزارة تونسية في عهد الاستقلال في 14 أفريل 1956 برئاسة الرئيس الحبيب بورقيبة].



المرحوم محمّد الجلولي الوزير الأكبر (1907)

المباشر إذ ذاك لخطّة خزندار، فغلب عليه لقب سيّده شاكير، ولقد داخله الحسد ضدّ تابعه، وهو من صنائعه، فحاول الفتك به، لولا تأخير أجله، وذلك هو سبب سقوط إحدى رجليه، وكان محبّاً في آل البيت الأطهار، وتشرّف بمصاهرتهم، وخدم من الملوك المولى حسين باي الثّاني، والمولى مصطفى باي، والمشير أحمد باي، والمشير محمد باي، والمشير محمد الصادق باي، والمولى علي باي، ومات في سنة 1306 [1888] من دون عقب بعد أن أطلّ على التّسعين، ودفن بمقابر الأشراف بوصاية منه، ولولا ذلك لكان مثواه بالتّربة الملكية كأسلافه السّابقين واللاّحقين. ولمّا تخلّى عن الوزراة الكبرى في سنة 1295 [1878] بعد ولايته الأولى[14] منحه سموّ الباي جراية عمريّة قدرها ستّون ألف ريال في العام ولم يعط سلفه الوزير خير الدين أكثر من خمسين ألف ريال في السّنة كانت جارية له إلى حضور أجله بالأستانة في سنة 1307 [1889][15].

---

(14) ننقل هنا نصّ الظّهير الصّادر بولايته الوزارة الكبرى، وهذا النّصّ بعينه هو المعمول به نحو كلّ من يتولّى الصّدارة بتونس:

«من عبد الله سبحانه المتوكّل عليه، المفوّض جميع الأمور إليه، المشير محمد الصادق باشا باي صاحب المملكة التونسية، سدّد الله أعماله، وبلّغه من غاية الخير آماله، أمّا بعد، فإنّنا أصدرنا هذا الظّهير، والخطاب الذي هو بكلّ مكرمة أثير، إلى الخاصّة والجمهور، ليعلموا أنّ الصّدر الهمام، عضد دولتنا، ويمين مملكتنا، أمير الأمراء ابننا محمد، لما تحققناه بالعيان، من أمانته وإصابته الغنيّتين عن البرهان، ونصيحته المعتدّ بها في هذا الشأن، قدّمناه على بركة الله تعالى وأوليناه وزيراً أكبر بدولتنا التونسية، يباشر سائر شؤونها المعتادة، وأمورها على العادة، وعلى من يقف على هذا الظّهير الجليل من أهل مجلسنا العليّ بالشّريعة المحمّدية، وأنائنا أمراء الأمراء أعيان الكبراء، وأمراء الألوية، وأمـراء الآلايات، وقائمي المقامات، وأمناء الآلايات، والبينباشية، وكافّة الجنود العسكرية، والقوّاد والمخازنية، أن يعلموا ما لابننا المذكور من المفاخر التي هو بها حقيق، والمعالي التي هو بنيلها خليق، ونستوهب له من الله كمال الإعانة والتوفيق، إلى مناهج الرّشاد ومحاسن كلّ طريق. وكتب بسراية حلق الوادي في 11 رجب 1294 [1877].

(15) عند ارتقائه لمسند الصّدارة العظمى بالدّولة العثمانية، وجّه تلغرافاً لسموّ الباي في الإعلام بذلك وفي طلب إبقاء جرايته العمرية، ونصّ التّلغراف: «قد شملتني عواطف الحضرة السّلطانية بإحالة رتبة الصّدارة إلى هذا العبد العاجز، وبتوفيقه تعلى وقعت المباشرة لإجراء =

وأمّا طريقة تعيين من يدعوه حسن الحظّ لخطّة الوزارة، فإنّ ذلك يقع باتّفاق بين سموّ الباي المعظّم وبين دولة الحماية، واختيارهما في ذلك يكون رهين الظّروف والأحوال، ولقد اتّفق مرّة تكرّر المراجعة أيّاماً عند اختيار بعض الوزراء في عهد المولى محمد الناصر باي، فتدخّل مسيو (روا) (Roy) كاتب الدّولة العام، وحصل الوفاق، واتّفق لبعضهم مدّ أعناقهم للوزراة وأطلّوا عليها من نافذة السّياسة، فخابت آمالهم وذهبت مساعيهم أدراج الرّياح، وآخرون سعوا لنوالها، وتهافتوا وطاروا حول فانوسها كالفراش، فاحترقت أجنحتهم، ووقعوا في الحضيض، ولله درّ الشّاعر حيث قال:

على قدر الكساء أمدّ رجلي وإن طال الكساء أمدّ أخرى

وبديهيّ أنّ خطّة الوزير التّونسي في عصر الحماية لا شبه لها بخطّة سلفه في زمن الدّور القديم، فوزراء الدّور الماضي كانوا خاضعين للحكم المطلق، وكان أكثرهم مفقود التّربية العلمية، ووزراء هذا العصر أكثرهم من أهل الثّقافة العصرية، ونشأوا تحت جناح الحكم القانوني في دائرة العدالة والنّظام، والذي رسم لهم خطّ السّير هو الوزير الشّيخ محمد العزيز بوعتّور، صاحب المواهب النّادرة، والرّأي الحصيف. فقد بقي متربّعاً على منصّة الوزارة الكبرى مدّة ربع قرن، وكان مع ذلك محرزاً على صفتين حميدتين، قلّ أن يجتمعا في رأس واحد، وهما ذكاء إياس، وصبر أيّوب. قال (م. ماز) من أعضاء مجلس الشّيوخ في خطاب تاريخي ألقاه بتونس سنة 1890: «إنّ هذا الوزير جدير بالتّرأس على أيّة وزارة أروباوية» ناهيك أنّه قضى خمسة وعشرين عاماً في الصّدارة كان أثناءها من أنصار أهل العلم، ومثال الفضل

= أمورها التي نحن موكّلون عليها، ونرجو من الله تعالى الإعانة في الأمور كلّها، كما نطلب من مكارم أخلاقكم إبقاء توجيهاتكم السّنيّة حيث إنّي نعدّها من أهمّ الأمور، وعلى كلّ حال النّظر لسيّدي وكتب في 10 حجة 1295[1878]اهـ.». قلت إنّ من أهمّ الأسباب في ولايته الصّدارة العظمى كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، لأنّ السلطان عبد الحميد خان لما وقف عليه أعجب به أيّما إعجاب.

والمروءة والحذق والاستقامة، وكان آخر عهده بالدّنيا شهادة إخلاص منه لصاحب العرش الحسيني خطّها بيده الفانية قبل وفاته بساعتين في غرة المحرم 1325 [1907][16] وبعث بها للمولى محمد الناصر باي، وكان مع ذلك صادق الولاء للحماية لعلمه أنّ من معانيها طاعة متبوعه المعظّم مع الإخلاص والرّسوخ فيه لسدّته العليّة، وللدّولة الفرنساوية، ومن عرف قدر النّاس، عرف النّاس قدره[*].

(16) [انظر ترجمته في آخر هذا الكتاب: صفحة 419].

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 3 الجزء 2 (فيفري 1939).

ممثّلو تونس بالخارج
قبل الحماية

اعلم أنّ النّواب الذين يمثّلون دولهم بالخارج هم القناصل في عرف أهل السياسة. والقناصل جمع قنصل، ومعنى هذا اللفظ نلخّصه لك ممّا جاء بحرف القاف في كتابنا «جيش الدّخيل في اللسان التّونسي الأصيل» وإليك ذلك: لفظ قنصل استعارته اللغة الفرنسوية من أمّها اللاّطينية، ونظامه في أصله يتّصل بأوائل التّاريخ المسيحي، بل كان موجوداً قبله عند الرّومان، وهم الذين ابتكروه. ووظيفة القنصل عندهم إذ ذاك هي الحكم المطلق، وتعيينه يكون بطريقة الانتخاب مع رفيق له بمثل لقبه ليباشر الشّؤون العامة مدّة عام، ويكون لهما من السّلطة ما للملوك المتوفّين، ومن هذا النّظام اقتبس الفرنسويون في أواخر القرن الثّامن عشر لقب قنصل لنابليون بونابرت قبل استبداده بالحكم فيهم. أمّا القنصل بالصّفة السّياسية المعروفة لعهدنا الحاضر، فإنّ خطّته تكوّنت بإيطاليا حوالي القرن الثاني عشر للميلاد ونحن اليوم في القرن العشرين. وإيطاليا هي أوّل دولة أقامت قناصل لها بالبلاد الشّرقية، ثمّ انتشر استعمال هذه الخطّة شيئاً فشيئاً بين بقية الدّول، فكان لفرنسا قناصل بالخارج في عهد الملك لويز التاسع، يعني سان لويز الذي غزا تونس على عهد المستنصر الحفصي، وهذه الغزوة هي آخرة الحروب الصّليبية، وهي الثالثة في العدد.

والرّتب القنصلية درجات في أعلاها القنصل جنرال، يتلوه القنصل، فالقنصل النّائب، فالنصف قنصل، وتلتحق بها خطّة مترجم القنصلية، وخطّة



عثمان هاشم مبعوث الدولة التونسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية (توفي سنة 1868).

الكنشلير. وللقنصل حقّ التّمتّع بما يسمونه «العصمة»[1] في الاصطلاح السياسي، يعني لا يجوز بحال مسّه بسوء وهو ملتبّس بخطّة القنصلية، لأن إهانته يعدّونها إهانة لمجموع الأمّة الممثّل لها بالبلاد المنتصب بها. ولولا اعتداء حسين داي صاحب الجزائر على قنصل فرنسا عند حضوره لديه للتّهنئة بيوم العيد وضربه إيّاه بمنشّة الذّباب التي كانت بيده، لما جاءت فرنسا بخيلها ورجلها لغزو عمالة الجزائر، والاستيلاء عليها بأجمعها من قاف إلى قاف. ولكن التّاريخ حفظ أيضاً اعتداء كهذا في عهد مولاي الحسن سلطان المغرب أوائل هذا القرن الهجري حيث أوفد بعثة رسمية لإسبانيا، فتقدم (الماريشال كمبوس) أحد عظماء إسبانيا نحو المبعوث السّلطاني في موكبه، وصفعه بكفّ يده على وجهه. ولقد اهتزّ العالم المتمدّن يومئذٍ لهذا الحادث الشّنيع المخلّ بشرف الأمّة الإسبانية، ولكنّ النّازلة انتهت بمجرّد اعتذار من دولة إسبانيا للدّولة المغربية، وإن شئت قلت تمّت القضية بتغلّب القويّ على الضّعيف، عملاً بالقاعدة البسماركية من أنّ (القوّة تغلب الحق) والليالي حبالى يلدن كلّ عجيبة.

واعلم أنّ القنصل لا تتمّ ولايته إلاّ بعد إعلام الدّولة المعيّن للنّيابة لديها، وموافقتها على ذلك، ولا يجوز بحال إرغام الغير على قبول قنصل لديه بدون رضاه. وقد اتّفق أنّ دولة النّمسا كانت بعثت لتونس قنصلاً على عهد المشير أحمد باي الأوّل قبل التّفاهم معه في شأنه، فرفض الباي قبوله، ورجع من حيث أتى.

ووظيفة القنصل هي المناضلة عن مصالح أمّته وبني جلدته القارّين بالبلاد المقيم بها، ولا سيما الوقوف على حركة التجارة بها ليسهل لأمّته الاستفادة من ذلك بالأخذ والعطاء. ومن أشهر قناصل أروبا بتونس في النّصف الثّاني من القرن الهجري الماضي، قنصل فرنسا المستعرب (ليون

---

(1) [أي الحصانة الدبلوماسية].

روش) وكان يعرف باسم الحاج بين التونسيين، لأنّه حجّ واعتكف وطاف بالبيت العتيق، وهو رجل سياسي حنّكته التّجارب، والاختلاط ببني الإسلام في الشرق والغرب. وصفه المؤرخ الشيخ أحمد بن أبي الضّياف، وكان من معاصريه بقوله: «ركض في كلّ ميدان وهبّ مع كلّ ريح». ومنهم أيضاً معاصره المستشرق (وود) قنصل انكلتيرة، ويعرف في تونس باسم (هود) وقد كانت له علاقة وداد مع بعض مشيخة العلم بجامع الزّيتونة كما يستفاد ذلك من رسالة له حرّرها بالقلم العربي لا تخلو عنها مكتبات بعض بيوت العلم بتونس، ومنهم القنصل (ماتشو) ممثّل دولة إيطاليا بالحاضرة في عهد انتصاب الحماية، وكان دائماً أبداً على نقيض مع زميله القنصل (تيودور رسطان) نائب الدّولة الجمهورية الفرنساوية، تعارفا أوّلاً بالشّام، ثم التحقا ببعضهما في تونس، واجتهدا في المنافسة السياسية، وكانت الغلبة بالآخرة لممثّل فرنسا، وعلى يده تمّت عقدة الحماية في 28 جمادى الآخرة 1298 (12 ماي 1881) وكان يوم خميس، وفي غده رقّته دولته لمنصب وزير مقيم بتونس وفقاً لنصّ معاهدة الحماية، فيكون هو آخر قنصل فرنساوي بقنصلات فرنسا بتونس قبل تحويلها لسفارة، وأوّل قنصل لفرنسا بها هو القبطان (لويز درياس) من أعيان مرسيليا تولاها في سنة 1577 وفيما بين ذلك أسندت الخطّة القنصلية الفرنساوية بتونس لثمانين رجلاً بين قنصل ونائب قنصل ونصف قنصل.

وفي الوقت الحاضر يوجد بتونس خمسة وعشرون قنصلاً أجنبياً معترف بهم كلهم من لدن الوزارة الخارجية بفرنسا وهم: 1 ـ فعن أروبا: قنصل انكلتيره، وقنصل إيطاليا، وقنصل ألمانيا، وقنصل البلجيك، وقنصل إسبانيا، وقنصل السّويد، وقنصل النّرويج، وقنصل هولاندة، وقنصل اليونان، وقنصل تشكوسلفاكيا، وقنصل البرتغال، وقنصل يغوسلافيا، وقنصل فنلاندة، وقنصل مونوكو، وقنصل بولونيا، وقنصل رومانيا، وقنصل النّمسا، وقنصل سويسرة، وهذا مركزه بالجزائر: 2 ـ وعن أمريكا: قنصل الولايات المتحدة، وقنصل هايتي، وقنصل البرازيل، قنصل شيلي، وقنصل أرجنتين، وعاصمتها بونس

إيرس حيث مركز السّفير مسيو (بيرطون)[2] المقيم العام السّـابق بتونس 3 ـ وعن آسيا: قنصل الجابون [اليابان]، وهو حبيبنا المستعـرب (برات) المراقب المدني كان بتونس 4 ـ وعن إفريقيا: قنصل مصر، ومركزه بمرسيليا واسمه حسن زكي أفندي، وهو الممثّل لدولته بالثّغر المذكور، ونظره شامل في آن واحد للمصالح المصرية بجهة مرسيليا وبالمملكة التونسية.

وكلّ هؤلاء القناصل لا علاقة لهم بالدولة التونسية إلاّ من طريق فخامة المقيم العام الجامع في شخصه بين خطّته الفرنساوية وبين خطّة الوزارة الخارجية التونسية، أمّا المملكة التونسية فليس لها نواب يمثّلونها بالذّات لدى هاتيك الدّول، لأنّ رعاياها ومصالحها بالخارج في كفالة الدّولة الفرنساوية طبقاً لنصّ صكّ الحماية على أنّها ـ أي تونس ـ لم يكن لها نواب أو قناصل بأروبا قبل عهد الحماية، فإنّ صبغتها الدولية في عهد استقلالها النّوعي لم تبلغ بها لدرجة الاستنابة السياسية في المجتمع الأروباوي، ضرورة أنها في حال تابعيتها للباب العالي مدى القرن الحادي عشر للهجرة كانت مكتنفة بالسّيادة العثمانية التي لها حقّ إيفاد السّفراء والقناصل لتمثيل كافّة الممالك العثمانية، وفي ضمنها الإيالة التونسية، وبالتّالي استمرّ الحال بمثله رغماً عن تدرّجها في مدارج الاستقلال الدّاخلي والخارجي، كاتّخاذ راية خصوصية غير الرّاية العثمانية في عهد حسين بن محمود باي، وكسفر المشير أحمد باي الأول لباريس وزيارته لحبيبه (لويز فيليب) ملك الفرنساويين بدون وساطة السّفير العثماني وكضرب السّكّة باسم الباي في عهد خلفه المشير الثاني، وكعقد المعاهدات العمومية مع الدول بدون مراجعة الباب العالي، إلى غير ذلك من دلائل الاستقلال ممّا يطول ذكره، والتوسّع في هذا الموضوع يجرّنا للكلام عمّا اصطلحت عليه بعض دول أروبا من نحو ثلاثة قرون من أنّ تونس ليس لها إنفاذ رسول للخارج بلقب سفير، وإنّما لها الحقّ بتوجيه رسل بعنوان مبعوثين عندما تدعوها الحاجة لذلك، تنتهي مأموريتهم بانتهاء النّازلة أو

(2) [المقيم العام بيروطون 1933 - 1936) (Peyrouton)].

النّوازل الموفدين من أجلها، حيث إنّ خطّة المبعوث في نظر أهل السياسة غير خطّة السّفير، لأنّ المبعوث خطّته في الغالب مؤقّتة كما سبقت الإشارة لذلك، وخطّة السّفير سياسية قارّة، وهذا الاصطلاح من قبيل الأفهام الدّقيقة، وأين هو من فهم شاعر تونس الشيخ محمود قابادو حيث يقول:

وأمضى وزير البحر لله درّه   سفيراً لأسلانبول يستحكم الرّبطا

فلفظ سفير في هذا البيت وإن كان صحيحاً بالوجه اللغوي، لا يؤدّي في عرف أهل السّياسة غير معنى مبعوث فحسب، على أنّ كتّاب العربيّة وشعراء الدّور القديم بتونس كانوا أكثر تشبّثاً ببلاغة التّركيب ورقّة الشعر منه بكنه الشيء المتحدّث عنه، على عكس أهل النّظم والنّثر في هذا الزمان الذي كثر فيه احتكاك الأفكار ونقدها، وأنت تعلم أنّ الحقيقة بنت النّقد.

بعد هذه المقدّمة نقول إنّ المملكة التونسية لم يكن لها كما رأيت نواب رسميون قارّون بالبلاد الأروباوية، ولكنّها كانت كما لم تزل توجّه المبعوثين بالمأموريات الهامّة لمختلف البلدان بأروبا وغيرها من الأقطار، ولقد تكلّفنا لضبط عدد المبعوثين التّونسيين الذين أوفدتهم تونس لفرنسا في عهد العصر الحسيني ابتداء من دولة المولى حسين بن علي تركي إلى انتهاء دولة المشير محمد الصادق باي، فكانوا اثنين وخمسين مبعوثاً بين أمراء، ووزراء، وكبراء في الدولة، منهم: المشير أحمد باي الأول، والمشير محمد الصادق باي (للجزائر)، والأمير الأمين باي، والأمير المأمون باي، والأمير الطيب باي (للجزائر)، ومن الوزراء يوسف خوجة صاحب الطابع، ومحمد خوجة، ومصطفى خزندار، وخير الدين ومصطفى آغة، ومصطفى بن إسماعيل، وحسين (للجزائر)، ومن الكبراء في الدولة محمود كاهية، ومحمد بن عياد، وجوزابين رافو، وابنه فليكس، ومحمود عزيز، وأمير الأمراء رشيد المملوك (للجزائر)، وحسونة متالي، وحسن المقرون، وغيرهم. وزيادة على ذلك فقد كان للملكة التونسية وكلاء بالخارج ولكنّهم غير معترف بهم رسمياً من لدن حكومات العواصم المستقرّين بها، بيد أنّه كان لهم الإذن من سموّ

الباي في إحاطته علماً بماجريات الأحوال التي تهمّ بلاده، فكان لتونس في عهد الدولة الصادقية وكيل بباريس، وهو البارون (جول دي لسابس) (Jules DE LESSEPS) وإليه ينسب الشّارع الجديد المحدث بحيّ البلفيدير الأعلى[3]، وهو أخو (فرديناند دي لسابس) مبتكر قنال السويس بمصر. كما كان لها وكيل بقسنطينة وعنّابة وهو يوسف الليقرو عامل الأعراض وأمير الأمراء فيما بعد، ووكلاء بإيطاليا في مدن نـابلي، وفرينسـة، والقرنـة، وكلياري، وبليرم، وطـرابنيـة، ووكيل بمالطة من أبناء هذه الجزيرة وقفت له على مكتوب من إنشائه بالقلم العـربي خاطب بـه الوزيـر مصطفى بن إسماعيل، عبارته تضحك الثّكلى، ووكيل بجبل طارق، وكان يهودياً، ووكيل بالمونكو، ولعمري ما هي المصالح التونسية التي استوجبت إذ ذاك إقامة وكيل بتلك النّاحية التي هي عبارة عن دار للمقامرة فحسب، ووكيل بلشبونة، ووكيل باصطخولم، كذلك كان لتونس في العصر المذكور عدّة وكلاء بالبلاد الشّرقية، فبالمدينة المنوّرة كان وكيلها الشيخ حمزة ظافر من أقارب الشيخ محمد ظافر المشهور معتقد السلطان عبد الحميد خان، وبالأستانة عمر أرواي أصيل جزيرة جربة، وبالقاهرة سعيد الشماخي الجربي أيضاً، وبالاسكندرية الحاج علي القيزاني، ثم صالح بن دحمان، وبطرابلس الغرب الحاج قاسم البقار، وببنغاري الحاج أحمد المهداوي. وفي صدر الدولة العلوية سمي عبد الرحمن برهان الزمزمي وكيلًا للتّوانسة (لا لتونـس) بمكّة المشرّفة وماتت هذه الخطّة بموت صاحبها، واتّفق أنه نقل عنه للشريف عون الرفيق أمير مكّة المكّرمة اتّخاذه للقب قنصل تونس، فلما حضر لديه في موسم الحجّ وتقدّم لتقبيل راحته، دفعه بجمع يده إنكاراً لما بلغه عنه. هكذا سمعت من بعض ثقاة الحجّاج ممّن حضر وقفة ذلك الموسم والعهدة عليه.

واعلم أنّ جميـع أولئك الـوكـلاء من أروبـاويين ومسلمين انتهت مأموريتهم يوم انتصاب الحماية، وكان من أشهرهم وأوفرهم إخلاصاً للملكة

(3) [بعد الاستقلال أصبح هذا الشّارع يسمّى «شارع بوغرطة»].

التونسية البارون (جول ده لسابس) وكيلها بباريس، والمرحوم عمر أرواي وكيلها بالأستانة، وهذا كان أبوه وكيلاً لها من قبله، والتحق عمر أرواي بالوزير خير الدين باشا أثناء إقامته بالأستانة، وكان يعرفه من قبل، ويعتمده في المهمّات، ناهيك أنّه جعله أحد أوصيائه على بنيه من بعده. ومات عمر أرواي عن تسعين سنة في عام 1335 [1916] ومن أحبابه بتونس المرحوم العربي بسيّس، وعنه أخذنا هذه الإفادات في حقّه مع كثير غيرها ممّا لا محلّ لذكره بهذه النّبذة.

ونختم هذا الباب بحديث غريب لم يتقدّم نشره باللغة العربية بتونس، وصورته ملخّصاً عما جاء في بعض أجزاء مجلّة المشيخة القرطاجنية[4]، أنّ الوزير مصطفى خزندار أقام في سنة 1277 [1860] وكيلاً لسموّ الباي بمدينة جنوة من أعمال إيطاليا وهو الكونت (فاندوني) وأعطاه لقب قنصل جنرال، فلم تعترف به الحكومة الطّليانية، ولكنّه لم يعبأ برفضها وتمادى على إحداثه المشاكل بين تونس وإيطاليا، وكتب في الجرائد فصولاً أثارت الخواطر بلندرة والأستانة كان يمضي عليها باسمه مذيّلاً بلقب «قنصل جنرال صاحب الجلالة باشا باي تونس» واستدرّ أموالاً طائلة من الوزارة التونسية في مقابلة ما يكتبه من الفصول، ولك أن تقول الفضول. ثمّ تدرّج في تهافته ومساعيه بإيهام الوزير المذكور أنّه سيحصّل له على العضوية بأحد المجامع العلمية بفضل ما ينشره في حقّه من الإطراء والثّناء بالجرائد الأروباوية، ويستزيد من استدرار الأموال مع الحصول على رتبة الكمندور في نيشان الافتخار، وفيما بين ذلك يختلق النّوازل، ويكاتب الوزير بما لا وجود له، ويستأذنه في القيام بالمأموريات التي يهيّىء أسبابها، ويتهافت بين البلدان، فبينما يكون بجنوه يكاتبه بأنّه على سفر لسويسرة، ثم يعلمه بأنّه انتقل لباريس، ومنها إلى لندرة لمصالح دولة جلالة الباشا باي، ثم يغرب عليه بالأخبار والحوادث المختلفة يستدرّ منه المال، وبالآخر اضطرّت

(4) [«المجلة التونسية» (La Revue Tunisienne)].

الحكومة الطليانية للتّحجير عليه بالإقامة في بلادها، فانتقل بقنصليته لمدينة لندرة، وطلب من الوزير (67000) فرنكاً عن مصاريف انتصابه في السنة الأولى، وكان يحيل سندات مطالبه المالية على البنوك، فعجزت الخزينة التونسية عن دفعها ومن ذلك مبلغ قدره (168138) فرنك دفعه له الوزير بسرايته بقرطجنة بتذاكر مالية تونسية بعنوان تصفية حساباته معه وانتهاء مأموريته، فقبض المال وسخر من البقية، واستمرّ على تقلّباته وأعماله بأروبا، ساعياً لعقد قروض باسم الدولة التونسية، وتعرّف ببعض قرابة الوزير بتونس وغيرهم، منهم الصّحافي علي فارس الشّدياق، وهذا الرّجل الذي عرفناه بالذّات في آخر عمره، كان يمثّل الفطنة الشّرقية بأكمل معانيها، وكان ملحقاً بقسم المترجمين بالوزارة الخارجية بحلق الوادي، وبهذا الثّغر أقام أبوه من قبله إثر اعتناقه للإسلام في سنة 1264 [1847] وكان إسلامه على يد الشيخ الجدّ ـ قدّس سرّه ـ والواسطة في ذلك الوزير حسين مستشار المعارف، ولكنّ الخطة التي نيطت بعهدته كانت دون مواهبه وأطماعه، فكتب في ذلك قصيدته التي يقول في مطلعها:

ماذا جنيت وما جنت أجدادي حتّى غدا حبسي بحلق الوادي

ويلوح أنّ مقامه بحلق الوادي لم يهنأ له فيه عيش، فقد قال في ذلك أيضاً:

مجاورة اليهود غدت نصيبي بحلق الوادي والسّكنى اضطرار
وقالوا هل ترى فينا خيارا فقلت خياركم فيه الخيار

وكان من حظّه الارتحال عن تونس، ومن حظّ ابنه التّرجمة بالوزارة الخارجية، ثمّ الالتحاق بأبيه بعد تأسيسه لجريدة الجوائب في عام 1277 [1860]. أما الكونت (فاندوني) موضوع الحديث، فإنّه لما أعيت مذاهبه وتحقّق غلق الأبواب الخزندارية دونه، فقد قام بقضيّة على الدولة التونسية، طالباً من خزينتها بقيّة أجوره في مقابلة خدماته. . . الجليلة التي أجهدته في سبيل مصالح البلاد التونسية بأروبا، وكانت تلك البقيّة مقدّرة في حسابه بثلاثة

ملايين، ولاذ بحكومة بلاده فتدخّلت الدولة الطليانية في النازلة، وركن الشّقّان لتشكيل لجنة من بعض حكّام محكمة النّقض والإبرام برومة لتصفية مطالب فاندوني، فحكمت هذه اللجنة برفض أكثر تلك المطالب، وبقبول البقيّة منها مرتبه عن خمس سنوات، واشترطوا على أن يكون الدّفع نقداً ذهباً برومة. فهذه القصّة الغريبة ليست هي بالأولى في بابها وضروب النّصب والاحتيال كانت كثيرة في الزّمن الماضي، والماضي وصفه الشّاعر الحكيم بقوله:

ما مضى فات والمؤمّل غيب ولك السّاعة التي أنت فيها(*)

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 1 ـ الجزء 7 (مارس 1937).

انتشار الشّرف بإفريقيّة
وظهور خطّة نقيب الأشراف
بتونس

اعلم أنّ الكلام على انتشار الشّرف بإفريقية، وهي البلاد التونسية، يدعو بادىء ذي بدء للتعريف كيف ظهر الشّرف بين النّاس من ذريّة الحسن والحسين ابني عليّ وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. ذلك أنّ الخليفة الرّابع عليّاً ابن أبي طالب، كرم الله وجهه، خرج بعد أن بويع له بالمدينة المنوّرة إلى الكوفة واتّخذها دار خلافته، وبها استشهد في سنة 40 للهجرة، ثم كان ما كان من تنازل ابنه سيّدنا الحسن عن الخلافة ورجوعه لسكنى المدينة، وظهور نسله هنالك بالحجاز، وكان تنازله مثيراً لسخط شيعته لأنّه قطع به أملهم، وسوّد وجوههم على ما حكاه أهل التاريخ. وأمّا أخوه سيّدنا الحسين، فقد خرج أيضاً بعد بيعة يزيد إلى العراق واستشهد هناك بكربلاء، وبمشهده عظم الخلاف واشتدّت الإحن والبغضاء بين العلويين والأمويين، فكان عمّال الأمويين ينقضون آثار العلويّين ويكيدون لهم حذراً من ثائرتهم، وكان العلويّون لا يجد أحد غفلة إلّا انقلب ملتحقاً بالبلاد التي بها أشياع أبويهم، وكان حينئذٍ ما يلي العراق، بل بلاد العجم، فجمع شيعة العلويّين لأسباب محلّها غير هذا الموضع، وأهمّها أسباب سياسية تنوسي الغرض منها بانقراض الأجيال، وإبهام المصطلحات والأقوال، فهنالك تكاثر ظهور العلويّين ونموّهم في أوائل القرن الثاني، ومن الجهات التي تكاثروا بها سجستان، وطبرستان، وجرجان، والبلخ، والري، والديلم، كما كان بعضهم يأوي إلى مصر، إذ لا يعدم هنالك طائفة من شيعتهم، وفي حلال ذلك كثر

ما ظهرت منه دعاة للمطالبة بحقّ الخلافة مطالبة عقيمة إلى أن قامت الدّولة العبّاسية، فبعثت روحاً جديدة في نفوس العلويّين، لأنّ الدّولة العبّاسية بنيت على الإمامة للرّضا من آل البيت، والعلويّين أعرق في النّسب، فأطلع بعضهم قرنه، وكشّر عن نابه، وشقّ عصا الطّاعة في وجه الدّولة العبّاسية، وكانت في بداية أمرها مضطرّة لمقاومة المنازعين، فحدث من سفك دماء العلويّين في صدر الدّولة العبّاسية ما حفظه التّاريخ وتلقاء اضطهادهم أخذوا ينزحون للبلاد البعيدة، فأمّا بنو سيّدنا الحسين فانكمشوا ببلاد العجم حول شيعة أبيهم، وكان العبّاسيون يغضّون عنهم بعض ذلك، ويصانعونهم تقرّباً لشيعتهم، وأمّا بنو سيّدنا الحسن فلم تكن شيعتهم قوية بين الأعاجم لغضبهم على جدّهم سيّدنا الحسن، من أجل تنازله عن الخلافة، فكانوا ينزحون إلى المغرب، وبذلك تكاثروا به كتكاثر أبناء سيّدنا الحسين بالمشرق، وكان مقصدهم للمغرب الأقصى، إذ كان سكّانه من محض البربر، غالبة عليهم السّذاجة، وليس فيهم متعصّب لدولة، فكان من رأي إدريس بن عبد الله بن الحسن المثني بن الحسن السّبط، اختيار الاستيطان بينهم في حدود سنة 172، كما تكاثر فريق منهم بالأندلس شيئاً فشيئاً مظهرين العداوة لبني العبّاس، فكانت سياسة الأمويّين أعدائهم الأقدمين قاضية بالتّساهل معهم لإساءة سمعة العبّاسيين، كأنّ لسان حالهم يقول: وكلّ غريب للغريب نسيب.

وأمّا البلاد المعبّر عنها يومئذٍ بإفريقية، فلم يعرف نزول العلويّين بها قبل ظهور الدّولة العبيّدية، والسّبب واضح، وهو أنّ قاعدتها وأهمّ بلدانها لم تكن تخلو من أمراء تابعين لبلاد الخلافة الأمويّة، فالعبّاسية، فلم يكن هنالك مطمع للعلويّين في ذينك العصرين بالظّهور بإفريقية إلى قيام دولة العبيديّين، وكانوا ينتسبون للعلويّين، فنزل يحيى بن إدريس من ملوك المغرب بعد أن زال ملكه ببلد المهدية مختفياً في سنة 310 [922] إلى أن توفّي سنة 332 [943] وقدم للقيروان القاسم بن محمد بن الحسن الحجّام الفقيه المشهور في سنة 350 [961] ولم يعرف غيرهما من العلويّين بإفريقية، وهل تركا عقبا أم لا.

ويلوح أن انتشارهم بها كان في خلال الدّولة الصّنهاجية وما بعدهم، وأكثرهم ممّن يفد إليها من المغرب الأقصى، والأندلس، وليس في تاريخ القيروان وتونس ما يدلّ على وجود عائلات معروفة بالشّرف فيما قبل أوائل القرن السّابع.

وممّا يذكر على الألسن ولم نقف عليه بالتواريخ، مع توفّر الدواعي على نقله، وجود بيوت تونسية قديمة منتسبة للشّرف، منها بيت العواني، أشراف القيروان. سمعت من بعض من أثق بهم أنّ بيدهم رسماً عتيقاً في ثبوت شرفهم ممّن شهد فيه من علماء القيروان الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد رحمه الله في أواسط القرن الرابع، فلعلّ جدّهم وفد لإفريقية في زمن العبيديّين، لأنّهم من الأشراف الحسينيين، والنّاس مصدّقون في أنسابهم فحسبنا الاكتفاء بذلك. هذا حديث انتشار الشّرف النّبوي بطريق البضعة المطهرة في الشّرق والغرب باختصار، ولو تكلّفنا الإطالة بأكثر من ذلك لضاق عنه مجال هذه النّبذة، فلنكتف بما قدّمنا.

ولننتقل منه للكلام عن نقابة الأشراف، وهي من الخطط الإسلامية ذات الشّأن، وصاحبها هو النّقيب أي العريف، تسند أليه أمورهم ويدير مصالحهم، وقد بوّب لها الإمام الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية. ونقول لك أنّ هذا الكتاب الجليل المحتوي على جميع الأنظمة الإسلامية التي كانت موجودة في القرن الأوّل ترجموه لأغلب اللّغات الأروباوية، وعلى اعتمادهم في مراجعة أحوال الإسلام، فقد قال حاصله في الموضوع الذي نحن بصدده: وهذه النّقابة موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشّريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النّسب حتى يكون الوالي عليهم أحنى، وأمره بينهم أمضى، وولاية هذه النّقابة تكون إمّا من جهة الخليفة أو ممّن فوّض إليه الخليفة كالأمير، وإمّا من نقيب عام الولاية، يستخلف نقيباً خاصّاً وقسّمها باعتبار متعلّقها إلى قسمين، معمّمة ومخصّصة، فالمعمّمة، وهي القليلة الوقوع في تاريخ الإسلام، يسند إلى صاحبها النّظر في جميع شؤون أهل

النّسب حتى الخصومات، وإقامة الحدود، وولاية أمور الأيتام، فيكون لهم كالقاضي لبقيّة النّاس[1]، وأمّا المخصّصة، وهي الأكثر استعمالاً فهي أن لا يجعل له من النّظر أكثر من سبعة أمور: **أوّلاً** ـ حفظ أنسابهم من دخول من ليس منهم أو خروج من هو منهم. **ثانياً** ـ ضبط مواليدهم ووفاياتهم. **ثالثاً** ـ تأديبهم بما يحملهم على الاستقامة المناسبة لشرف أنسابهم لئلا يستخفّ الناس بهم. **رابعاً** ـ نهيهم عن خبيث المكاسب. **خامساً** ـ منعهم من التّسلّط على العامّة لأنّ ذلك يدعو إلى نزع محبّتهم من قلوب النّاس. **سادساً** ـ إعانتهم على استيفاء حقوقهم. **سابعاً** ـ حفظ أعراضهم والنّظر في كفاءة أزواج نسائهم اهـ.

قلت إنّ هذه الأمور كلّها أو جلّها طوى الزّمان حديثها بالدّول الإسلامية لعهدنا الحاضر، اللّهم إلاّ الفقرة السّابعة منها فإنّها ما زالت ملحوظة نوعاً ما لدى بعض بيوت الأشراف، لا سيما بالمغرب الأقصى، وأقلّ منه بالقاهرة وبتونس. ففي أوائل هذا القرن قامت ضجّة صحافية مصرية ملأت الفضاء، بلغ صداها لهذه الدّيار التونسية إثر بناء أحد رجال السّياسة، وهو المرحوم الشيخ علي يوسف باشا صاحب جريدة المؤيّد على إحدى كرائم لبيت السّادات المشهورين بصحّة النسب الشريف، وأمّا بتونس فقد اتّفق لنحو مائة سنة فارطة زواج أحد الوزراء من الموالي بسّيدة من آل البيت الأطهار، وأنكر النّاس ذلك، وربّما كان وقوعه على كره من وليّها، والله متولّي السرائر.

هذا ويشترط في صاحب النّقابة العامّة ما يشترط في القاضي، ويشترط في صاحب النّقابة المخصّصة أن يكون من أهل ذلك النّسب، وأن يكون أكثرهم فضلاً، وأجزلهم رأياً، حاوياً لجميع المآثر والفضائل، جامعاً لأسباب الشّرف، سليماً من النّقائص، نجيباً، يقظاً، عالماً، نبيلاً، فهيماً، نقيّ

(1) إنّ هذه النّقابة المعمّمة اقتبسوا منها نظام آل البيت الحسيني بجعلهم جميعاً لنظر أكبرهم سنّاً وهو متولّي كرسي الملك، وهذه القاعدة هي التي انبنى عليها الفصل الثاني وما بعده من قانون عهد الأمان.



المرحوم الشيخ محمود محسن نقيب السادة الأشراف (1952)

العرض، حافظاً للمروءة، عارفاً بالأنساب، مميّزاً لأخلاطها، وبما يجب لأهل البيت، وهذه الشروط تتضمّنها غالباً تقاليد ولايتهم، ومن أراد الوقوف على ذلك فعليه بمراجعة كتاب روض البلاغة، وكتاب صبح الأعشى. وممّا لا خلاف فيه أنّ خطّة النّقابة لم تكن موجودة في القرون الثلاثة الأولى، وإنّما كان حدوثها أواسط المائة الرابعة في الدّولة العبّاسية للمحافظة على شعائر أهل النّسب الزّكيّ كما أشار له في كتاب الأحكام السّلطانية، ولكنّ المقصد الخفيّ الّذي دعا لوضع هاته الخطّة هو إرضاء العلويّين الذين كانوا يجدون في أنفسهم هزازة من استيثار العبّاسيين بأمر الخلافة، فلمّا ضعفت الدّولة العباسية، وتظاهر الأمراء المتوثّبون على الخلافة في الجهات، مثل بني بويه، وبني سامان بالتشيع للعوليين إرضاء لهم وتسكيناً لثائر خواطرهم، إذ قد تكاثر الخارجون منهم عن الخلافة في حدود سنة 350 [961] ليكون هذا النّقيب يداً للدولة وعوناً لها[2] على أضدادها السّياسيين كما وقع فعلاً في أيّام المطيع العبّاسي المؤيّد من الشّريف أبي أحمد الموسوي نقيب العلويّين في سنة 359 [969] وتعاظم أمر النّقابة وتطاولت نحوها الأعناق، بدخول السياسة فيها، فكثر خطّابها من بني هاشم، وهو الجدّ الثّالث للنّبيء ﷺ ومن عقبه بنو العباس فرأوا من المصلحة تجزئة خطّة النّقابة إلى خطّتين؛ خطّة نقيب النقباء، ولنظره أحوال بني هاشم المعبّر عنهم حينئذاك بالأسرة الشّريفة وبالأشراف، إذ كان الاصطلاح في القديم شمول لفظ الشّرف لكلّ بني هاشم، وهو مسمّى الآل عند جمهور الفقهاء، ثمّ وقع الاصطلاح في مصر على تخصيص الشّرف بآل

---

(2) كان أهمّ المقاصد من تقديم الشّريف الزواوي الشّيخ العربي البشيري لنقابة الأشراف بتونس في سنة 1284 [1867] هو الاستعانة بجاهه ونفوذه في قومه الدين منهم فريق عساكر زواوة للانتفاع بهم في تمهيد السّبل وتوطيد الرّاحة واستخلاص المجابي، وكانت حزينة الدولة يومئذٍ أفرغ من فؤاد أمّ موسى، فكان زعيمهم وسيّدهم النّقيب المشار إليه يرغمهم على الرّضا بالأجر القليل في مقابل العمل الجزيل قالوا إنّ الخزندار كان يعطيهم في تلك الأثناء مرتّب نصف شهر بعد مضيّ خمسة أشهر في الجهود الشاقّة، ومنه تفهم صحّة قولهم إنّ التاريخ يعيد نفسه إلى ما شاء الله.

سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، من سيّدتنا فاطمة ابنة رسول الله ﷺ؛ وبه استمرّ اصطلاح المتأخّرين، وكانت نقابة النّقباء في بيت الشريف الزينبي، والخطّة الثانية خطّة نقيب العلويّين، ويسمّى نقيب الطّالبيين، وجعلوا لنقيب النّقباء النظر العام في تولية نقباء البلدان، مثل نقيب البصرة، ونقيب الكوفة، ومقرّ نقيب النقباء ببغداد، ويختصّ بالخلعة السّلطانية من لدن الخليفة العباسي مع إعطائه لقباً تشريفياً، ولنقيب العلويّين ببغداد ما لنقيب النقباء، لأنّه يأخذ التّقليد من يد السّلطان أيضاً. هذا تاريخ نشأة نقابة الأشراف في الدّولة العباسية، ومنها انتشرت في الآفاق حتى دخلت الهند والبلاد القصيّة.

وأمّا ظهور هذه الخطّة بإفريقية، يعني تونس، فلم نتوصّل مع تشديد البحث عنها بمظانّه للوقوف على أخبار كثيرة في شأنها، وغاية ما وقفت عليه من أمر الأشراف في الدّولة الحفصية، أنّهم كانوا يكرمونهم ويغدقون عليهم بالإحسان ولا سيما في عهد السّلطان أبي عمرو وعثمان في المائة التاسعة. قال في المؤنس[3]: «إنّه كان يكرم أهل البيت النّبويّ ويحسن إليهم. وقال في الفصل الثالث فيما تميّزت به الدّيار التونسية عند كلامه على الاحتفال بالمولد الشريف[4]: إنّ لنقيب الأشراف عادة يأخذها من السّلطنة من زيت، وشمع، وما يحتاج إليه، وهذه العادة جارية من زمن بني أبي حفص. ودامت هذه الدولة (المرادية) عليها» اهـ. يستفاد من هذه العبارة أنّ خطّة نقيب الأشراف كانت موجودة في الدولة الحفصية، ولكنّ سمعتها ورسوخها إنّما كان في عصر الدّولة العثمانية بتونس ابتداء من أواخر المائة العاشرة، ناهيك أنّهم جعلوا لنقيب الأشراف مزيّة الجلوس مع شيوخ المجلس الشّرعي بمجلس الباشا عند حضورهم لفصل النّوازل بدار الباشا، تبرّكاً بالنّسب الشّريف. هكذا ذكر في المؤنس. قلت: وربّما كان حضور نقيب الأشراف

(3) [«المؤنس» (الطبعة الثانية) صفحة 157].

(4) [نفس المرجع - صفحة 307 -].

في زمرة الفقهاء لمقصد آخر أيضاً، وهو الاحتياط لما عسى أن تتعلّق بأحدهم نازلة يصدر فيها الحكم عليه لما تقدّم من المعنى الذي لاحظه العبّاسيون في جملة وظائف النّقابة العامّة. وأوّل من عثر على اسمه مذكوراً من نقباء الأشراف في بعض الرّسوم، هو الشّريف الشيخ حسن الهندي في سنة 1023 [1614] وهو الجدّ الجامع لآل بيتي الشّريف ومحسن الموجودين لهذا الزمان بتونس، بارك الله فيهم وفي عقبهم إلى قيام الساعة. وممّن وقع الوقوف على ذكره ممّن تولّى النّقابة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، الشّريف الشيخ الحاج أبو القاسم بن محمد القرشي، كان نقيباً للأشراف في سنة 1027 [1617]، ثم الشّريف الشّيخ محمد بن المختار في سنة 1100 [1688] ثمّ الشّريف الشّيخ أبو الفضل قاسم في سنة 1136 [1723] وأمّا في القرن الثالث عشر، فقد سهّل الله جمع أسمائهم بطريقة مطّردة من سنة 1206 [1791] إلى هذا اليوم، كما تراه من حلقات هذه السلسلة الذهبية:

الشيخ عبد لكبير الشريف	توفي سنة 1206 [1791]
الشيخ محمد بيرم الثاني	توفي سنة 1247 [1831]
الشيخ محمد بيرم الثالث	توفي سنة 1259 [1843]
الشيخ محمد بيرم الرابع	توفي سنة 1278 [1861]
الشيخ الطاهر بن عاشور الأوّل	توفي سنة 1284 [1867]
الشيخ العربي البشيري	توفي سنة 1304 [1886]
الشيخ محمد الشّريف	توفي سنة 1307 [1889]
الشيخ أحمد الشّريف	توفي سنة 1337 [1918]
الشّيخ محمّد حمدة الشّريف	بارك الله في أنفساه

وكان لسادسهم في تلك السّلسلة حظوة بين أهل الدولة مع عزّة وسطوة في قومه، إذ كان هو المهيمن على جميع من ضمّه التّراب التّونسي من أبناء بلاد القبائل الكثيرين الوافدين من جبال الأوراس للانخراط في صفوف عسكر زواوة المشهورين بالشجاعة والبأس، مع القناعة والاكتفاء بشظف العيش.

سمعت ممّن أثق بنقله من شيوخ الجيل الماضي، أنّ هذا النّقيب الجليل يعني الشيخ العربي البشيري، كان عند خروج ركابه للتّنقّل من جبل المنار لتونس يخفره طائفة من زواوة ركبانا، شاهري السّلاح، يسيرون مع عربته ذات اليمين وذات الشّمال، وكان أهل الدّولة يغضّون الطرف عنه مراعاة لخاطره، لأنّ عساكر زواوة الضّاربين بأطراف العمالة كانوا كلّهم يقومون لقيامه، ويقعدون لقعوده، فكانت الدّولة ممنونة له من أجل حمل أولئك العساكر على طاعتها، والانقياد لما تأمرهم به من الأعمال بجهات المملكة، مع الرّضى بالنّزر اليسير من الأرزاق التي تكاد أن لا تكون كافية للقوت، كما يشهد بذلك المثل الدّارج بين أهل تونس من قولهم: «كمثل عساكر زواوة مقدّمين في الشقاء، موخّرين في الرّاتب». وهذا النّقيب هو أوّل من أجرت له الدّولة جراية سنوية زيادة على مخصّصات نقابة الأشراف المستمدّة من جهات البرّ. وممّا خوّلهم الشّرع أخذه من أهل الذّمّة ممّا لم تزل منه بقية جارية لهذا الزّمان، وقد وقع تقدير تلك الجراية عند تأسيسها بثمانية آلاف ريال، قياساً على الجراية الممنوحة لشيخي الإسلام بصفتهما ناظرين للعلوم بجامع الزّيتونة.

ولمّا جلب ماء زغوان لتونس في أوائل دولة المشير محمد الصادق باي، وقع تزويد دار النّقيب المشار إليه مجاناً بينبوع من ذلك الماء الزّلال، وفي عهد وزارة خير الدّين خصّصت الدولة جراية قدرها 1200 ريال في العام لكلّ واحد من بنيه الأربعة، قياساً على ما جرى به العمل نحو غيرهم من أبناء الأشراف، ولمّا التحق بالدار الآخرة في سنة 1304 [1886] وقع التّردّد عند إسناد خطّة النّقابة بين تقديم الشيخ الشاذلي بن صالح، كبير أهل الشّورى المالكية كان، وبين تقديم المفتي الشيخ محمد الشريف، واختير تسليم أزمتها بيد ثانيهما لما كان له من الحظوة والاعتبار بالبلاط الصادقي، ثمّ البلاط العلوي، وبقي بمحفوظي أنّ الشيخ الوالد، رحمه الله، أخذني معه لزيارة هذا الشيخ بداره بجبل المنار، ولتهنئته بالنّقابة المباركة، ولمّا جلسنا حذوه فتح فنيقاً [5]

(5) شبهه في القاموس بالغرارة، وهذه هي الجولق المعروف

كان بين يديه وأخــرج منه حكة من الذّهب المرصّع، ثم أخرى، ثمّ أخرى، إلى نحو عشرة، مطرّز بعضها بصورة المشير محمد الصادق باي، وبعضها مكتوب عليه بالحجارة الكريمة اسم المولى علي باي، كانت كلّها مملوءة بدخان النّشوق، ليتناول منها الشيخ الوالد، وفيما بين ذلك دخـل عليه المرحوم السيد الصادق غيلب[6] مبعوثاً من طرف أمير العصر، يحمل هديّة سنيّة على وجه الملاطفة والمكارمة، فقال له الشيخ «يا صادق، قل لسيّدنا إنّ العشرة آلاف التي أعطانيها لبناء دار الشّطّ قد نفدت، فليزدني عشرة أخرى»، فقال له: يا سيدي، إنّ العطيّة الأولى ما زالت قريبة عهد، فكيف نجسر على طلب عطية ثانية بمقدارها؟ فراجعه الشّيخ قائلاً: أنا لم أطلب رأيك، وإنّما طلبت منك تبليغ رسالة، فلتقم بإتمامها، والمعطي هو الله»، وكان ذلك آخر العهد به، غير أنّي سمعت بعد ذلك ممّن أثق بروايته، أنّ سموّ الباي بعث للشيخ بالمال المطلوب، ثمّ زاده ما يلزمه لتأثيث الدّار المتحدّث عنها، ممّا يدلّ على ما لآل البيت من الودّ الرّاسخ في قلوب الملوك الحسينيين ـ أيّد الله دولتهم ـ وهذا السّيّد الشّريف، تقدّم للخطّة الشّرعية قبل ولايته خطّة النّقابة، وكتب على ختمه بيتين من نظمه، وهما قوله:

أدعوك ربّي باسمـك اللّطيف ومن أتى بـالشّـرع والتّكليف
امنن بـرشد عبـدك الضّعيف محمـد بن أحمـد الشـريف

ولما تقدّم للنّقابة[7] أصدر له سموّ الباي ظهيراً كريماً هذه عبارته «إلى من يقف على أمرنا هذا من أهل مجلسنا العليّ بالشّريعة المحمّدية، ونوابنا في القضايا الدّينية، وأبنائنا أمراء الأمراء، أعيان الوزراء، وأمراء الألوية وأمراء

(6) [شيخ المدينة ورئيس بلدية تونس].

(7) المدن التونسية التي بها نقابات للأشراف في هذا الزمان هي: تونس، والقيروان، وسوسة، وصفاقس، ونابل، وتوزر. وهذه النّقابة الأخيرة في الذّكر أحدثت في سنة 1348 [1929] مراعاة لأشراف الشّابّية، وأمّا نقابة نابل، فهم أشراف دخلة المعاويين، يقال إنّ جدّهم الشّريف الشيخ أبو محمد حسن العسكري قدم من مكّة المشرّفة في حدود سنة 430 1038 ونزلوا بالدّخلة، فنسبت بالتّالي لأحد أسلافهم الأوّلين، وهو الشيخ معاوية الشّارف، رضي الله عنه.

الألايات، وقائمي المقامات، وأمناء الألايات، والبنباشية، وكافة الجنود العسكرية، وسائر أولي الولايات، فيما لنا من الجهات، سدد الله تعالى أعمالهم، وأصلح بمنّة أحوالهم. أما بعد. فإنّ الهمام النّحرير صفوة الخيرة محبّنا الشيخ سي محمد الشريف المفتي المالكي والإمام الأكبر بالجامع الأعظم عمّره الله تعالى، جعلناه نقيب السّادة الأشراف بحاضرتنا المحروسة، فليقم بخطّته عالماً بمقدارها متّصفاً بما يحمد من آثارها، وأوصينا له بمزيد المبّرة والإجلال، والأمر لله الكبير المتعال. والسّلام من الفقير إلى ربه تعالى عبده علي باشا باي صاحب المملكة التونسية وفقه الله. وكتب في 25 ربيع الثاني سنة 1304 [1886] (8).

هذا وقد رأيت من تمام الفائدة أن نختم هذه النّبذة المباركة بسلسلة نسبه الشّريف تيمّناً بذكر جدّه ﷺ: هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الكبير بن أحمد بن محمد بن أحمد الشّريف المشهور بإمام مسجد دار الباشا ابن حسن بن علي بن حسن بن أحمد بن القاسم بن محمد بن قريش بن عيسى بن عبد الرحمن بن خلف بن علي بن فرج بن علي بن محمد المكتوم ابن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمدالباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ:

حبّذا عقد سؤدد وفخار   أنت فيه اليتيمة العصماء(*)

---

(8) [جرت العادة منذ ذلك التاريخ إلى الآن أن يتولّى خطّة نقابة الأشراف بتونس الإمام الأكبر بجامع الزيتونة المعمور. فقد تقلّد تلك الخطّة على التّوالي:
- الشيخ محمد الشريف (1886 - 1889).
- الشيخ أحمد الشريف (1889 - 1918).
- الشيخ حمدة الشريف (1918 - 1951).
- الشيخ محمود محسن (1951 - 1953).
- الشيخ مصطفى محسن (1951 - 1980).
- الشيخ عبد الكبير الشريف ـ النّقيب الحالي].

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 2 ـ الجزآن 8 و9 (ماي/ جوان 1938).

نشأة مصلحة البريد
بتونس

كان العرب يقدّرون المسافات بالبـريد، والبـريد عبـارة عن أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، قال النّاظم:

إنّ البريد من الفراسخ أربع   ولفرسخ فثلاث أميال ضعـوا

وأطلق لفظ البريد منذ القديم على نقل الرّسائل، قالوا: إنّ الخليفة عبد الله المأمون ابيضّ شعر رأسه قبل بلوغه الثّلاثين، ولمّا سئل في ذلك قال: إنّ الذي أشاب رأسه هو صلصلة البريد، لأنّهم كانوا في زمانه يحملون الرّسائل في قماطر[1] من الجلد كركاء الماء، ويضعونها فوق ظهور البغال، فكانت عند سيرها تحدث حركة تسمع من بعيد. واتّفق أن اتّساع ممالك الخلافة العبّاسية وتلاوح أطرافها، نشأ عنه مقدّمات ظهور الشّقاق ببعض جهاتها السّحيقة، فكان المأمون على وجل مما يحمله له البريد من ولاته بالآفاق، وهذا سبب شيب رأسه قبل الإبّان.

وكان نظام البريد في الدولة الحفصية شبيهاً به في الدولة العبـاسيـة، فإذا كتب السّلطان لأحد عمّاله بالآفاق يدفع الكتاب مشمّعاً عليه بلصاق بيد من يقع الاختيار على تجهيزه من النّقباء أو الوصفان من عبيد البلاط، فيركب ذلك المجهّز بَغْلاً له ويرتحل قاصداً الجهة الموفود لها، فإذا عيي بغله، تركه

(1) جمع قمطر، وهو محفظة الكتب. ويقال أيضاً قمطّر (بتشديد الطاء).

عند عامل الجهة، وأخذ منه بغلاً مكانه بطريق السخرة، وهكذا إلى أن يبلغ جهة مقصده، وليس لرسول السّلطان إكراه الغير على مؤونته وعلف دابّته اللّهم إلّا إذا كان ذلك عن طيب نفس منه عملاً بما توحيه قوانين الاستضافة. فالبريد هو مسمّى البوسطة في الاصطلاح العصري، وأمّا التّلغراف فقد ترجمه الشيخ أحمد فارس الشّدياق[2] ـ بالموحي ـ في كتابه (كشف المخبّا عن فنون أروبا) وهو استنباط لا بأس به، لأنّ صاحب القاموس عرّف الوحي بقوله: هو الإشارة والكتابة والرّسالة والإلهام والكلام الخفيّ. وترجموه بدواوين الدولة التونسية عند ظهوره بسلك الإشارة، واصطلحت الجرائد على تسميته بالبرق، وكلا التّعريفين يستفاد منه أيضاً المعنى المقصود من التّلغراف. أمّا معناه اللفظي، فإنّه مشتقّ من كلمتين في اللغة اليونانية وهما «تيلي» ومعناه بعيد و«غرافن» ومعناه كتب، فيكون معنى تلغراف: الكتابة من بعيد.

ويلوح أنَّ أحسن تعريف به هو لفظه الأصلي، ولا حاجة لنا للتكلّف بالبحث عن مرادف له في العربية، وهو لا وجود له بها بتاتاً، وغاية ما كان معروفاً عند العرب في تبليغ الأخبار بسرعة، هو الحمَام الزّاجل، كما وقع أثناء الحروب الصّليبية، والإشارات النّارية فوق رؤوس الجبال، وبالرّباطات التي كانت لديهم، كما كان بسواحل إفريقية، ومنها طرابلس، وقابس، والمنستير، وسوسة. قالوا: إنّ الخبر كان يصل من طرابلس الغرب لتونس في يوم واحد.

واعلم أنّ التّلغراف المعروف، كان ظهوره بأروبا في حدود سنة 1260 للهجرة (1844 للميلاد)، وكان ابتداء الانتفاع به في تونس أوائل دولة المشير محمد الصادق باي. نعم إنّه كان لديهم قبل ذلك نوع من التّلغراف بالعلامة الشّعاعية بدون سلوك، اتّخذه المشير أحمد باي الأوّل فيما بين تونس وحلق

(2) توفي سنة 1305 [1887].

الوادي مع مركز وسط بجزيرة شكلي، ولكنّ التّلغراف السّلكي نصب بتونس في سنة 1276 [1859] إثر ولاية المشير محمد الصادق باي، حيث أمضى اتّفاقاً مع الدولة الفرنساوية في تخويلها منحة إحداث التّلغراف من حلق الوادي إلى حدود الجزائر من جهة سوق إهراس، بشرط مروره على حاضرة تونس، وباردو، وباجة، والكاف، مع اعتباره ملكاً للدولة التونسية، ولها الحقّ باسترجاعه لمجرّد دفع مصاريف نصبه التي قدمتها الدولة الفرنساوية، والتزمت هذه الدولة من جهتها بتمرين من يعيّنهم سموّ الباي من المأمورين التونسيين لتعلّم الصناعة التّلغرافية، ولكن لم يقع السّعي بعد في تهيئة طبقة من الشّبّان التّونسيين لاقتناء التّعليم الصّالح بذلك ولو في هذا الزمان الذي تكرّر التّصريح فيه بسياسة التّشريك في المنافع بين الأمّتين الحامية والمحمية.

ثمّ إنّ سموّ الباي المشار إليه أمضى معاهدة أخرى مع الدولة الفرنساوية في شوّال 1277 [1860] تضمّنت اشتراء الدولة التونسية لأسلاك التّلغراف التي نصبتها الدولة الفرنساوية بتسعين ألف فرنك وتسعمائة وسبعة وتسعين فرنكاً، تدفعها الأولى للثّانية على أقساط منجّمة، وأبقت للدولة الفرنساوية بصفة مؤقّتة حقّ استخدام التّلغراف المتحدّث عنه مع الانتفاع بمداخيله لفائدتها إلى الوقت الذي يراه سموّ الباي مناسباً لتوليّ شؤونه مباشرة بواسطة الحكومة التونسية، وكان من شروط هذه المعاهدة الثانية أيضاً، تخويل الحكومة الفرنساوية، حقّ نصب الأسلاك التّلغرافية من تونس، لسوسة، وصفاقس، وجربة، ثم إلى حمّام الأنف، والمنستير، والمهدية، وقابس، إن اقتضى الحال، وأن تتولّى الدولة الفرنساوية إدارة شؤون جميعها بواسطة أعوانها إلى أن يتيسّر لسموّ الباي استرجاعها على شروط الاتّفاق الأوّل.

وكان مركز إدارة التّلغراف يومئذٍ بدار الكاهية بنهج المقطر على مقربة من قشلة سيدي عامر. وممن باشره في مبادىء انتصابه بباردو، المستعرب مسيو (روا) (Roy) فقد كان في شبابه مأموراً تلغرافياً، وفي كهولته مأموراً

قنصلياً، ومراقباً مدنياً ببلد الكاف، ثمّ في مشيبه كاتباً عامّاً بالدّولة التونسية مع وزارة التفويض من لدن الدولة الجمهورية. قال بعض أهل النّظر، إنّ المزايا التي قام بها مسيو (روا) لفائدة أمّته تقدّر بمزايا جيش ظافر، إن لم تكن أكثر من ذلك. هذا تاريخ نشأة التّلغراف بتونس، وعنه تفرّع التّلفون، والتّلغراف اللاّسلكي في عصر الحماية.

ولنرجع بك لخدمة البريد، يعني البوسطة بتونس، ففي الدّور القديم كانت الرّسائل الخصوصية بين الناس، يتولّى نقلها المسافرون، وأرباب عربات النّقل والسّيّارة، وكانوا يركبون الحمير السّاحلية المشهورة بسرعة العدو، وغير ذلك من الوسائل التي كان حكمها الصّدفة والاتّفاق، وكان قطع المراحل يتسغرق وقتاً طويلاً، فالمكتوب الذي يوجّه من تونس لسوسة لا يبلغها قبل اليوم الثّالث، والرّسائل الموجّهة للقيروان، تصلها في اليوم الرّابع، والموجّهة لقابس تستغرق ثمانية أيام في الطريق، وليقس ما لم يقل. وأمّا المكاتيب الرّسمية فكان المكلّفون بتبليغها إمّا أصحاب النّوازل الصّادرة تلك المكاتيب لفائدتهم، وإمّا صبايحية الأوجاق، والبوّابون، والمماليك بسراية باردو، ولا يكون ذلك إلاّ بأجور باهظة لها نظام مخصوص اسمه «التّعيين» يستخلصه حامل المكتوب من الخصم بدون رحمة ولا حنان، ولو كان ذلك قبل ثبوت الحقّ عليه. ولننقل لك هنا عبارة مكتوب من متعلّقات محلّة أحمد زرّوق المشهورة التي خرجت لتمهيد الرّاحة واسخلاص الغرائم أثناء ثورة علي بن غذاهم، ومنها يستفاد كيف كانوا يوجّهون المال من جهات العمالة لقائد المحلّة في ذلك الزّمان، ونص العبارة بحروفها:

«المقام الذي نطلب (له) من الله دوام البقاء، وزيادة العزّ والارتقاء، الأعزّ الهمام المفخّم أمير الأمراء سيدي أحمد زرّوق[3] أمير المحلّة المنصورة أبقاه الله. أمّا بعد إهداء السّلام التّام، وتقبيل أيديكم الكرام، يليه رعاكم

(3) من الوزراء المماليك، تولّى وزارة الحرب ووزراة البحر، ومات سنة 1306 [1888].

الله، هو أنه أخبرنا الأجلّ المرعي المحترم الموقّر سيدي محمود الجلّولي[4] عامل المهدية موجه لكم خمسون (كذا) ألف ريال صحبة تابعه علي الزوالي وحانبة[5] من الحوانب المتعيّن ودمتم ودامت لكم السعادة. والسّلام من مقبّل أيديكم الأضباشي[6] سليمان الفرجاوي ومحمود قرجي في 8 رمضان سنة 1281 [1864] اهـ.

وكان للقناصل بتونس سيّارون خصوصيون لنقل رسائلهم للبلاد السّاحلية، ينتخبونهم من بين الأفراد المستظلّين بجاههم، والمنقطعين إليهم، وإن شئت قلت إلى دراهمهم، ومن أشهر من عرف منهم بسرعة السّير وتبليغ الأمانة، رجل اسمه محمد جمل، كان يقطع المسافة الفاصلة بين تونس وبين سوسة (145 كيلو ميتر) في يوم وليلة، وكان أجر السّيار عن نقل المكتوب من الحاضرة لسوسة ربع الرّيال، وكان أخطر المسالك على السيّارين طريق (خنقة الحجاج) فكم من سيّار لاقى بها حتفه وذهبت حمولته طعمة لقطّاع الطّريق. وممن اشتهر بالجسارة ومغالبة الأخطار، السّيّار صالح غولة، فقد كان في مدّة ثورة علي بن غذاهم يتعهّد بتبليغ الرّسائل والأموال ذات البال خلال الجهات الثّائرة التي كانت تحرّكها يد السّياسة الأجنبية، ولم يتّفق له حصول ما يسوء. وممّن اشتهر يومئذٍ بسرعة العدو في مدينة تونس السّيّار بوراس، وكان يتقاضى نصف الرّيال عن كلّ رسالة يبلّغها من الحاضرة لصفاقس.

أمّا تبليغ الرّسائل على طريق البحر، فأوّل ما وقع ترتيبه بين تونس وبين ثغر مرسيليا في حدود سنة 1263 للهجرة (1847 للميلاد) في عهد المشير

---

(4) استشهد في سنة 1284 [1867].

(5) لفظ حانبة في اللسان التركي يقابله لفظ صبايحي، ولفظ مخازني في اصطلاح الأوجاق إنّما الحوانب (جمع حانبة) كانوا من نسل الأتراك، والآخرون من نسل العرب والبربر.

(6) ضابط بوجق الحوانب، وهو لفظ تركي مركب من أوضه ومعناه بيت وباشي ومعناه رئيس وجملة العبارة تدل على كبير جماعة.

أحمد باي بواسطة سفينة تجارية تقدم من فرنسا لمياه حلق الوادي مرّة في كلّ نصف شهر، وتمرّ في طريقها على بلد عنابة[7] ومنها يحملون الثلج الطّبيعي للمشير المشار إليه، وفي السّنين الأخيرة المتقدّمة على عصر الحماية، رتّبت بعض الشّركات البحرية الفرنساوية والطّليانية سير سفن أسبوعية لنقل الرّسائل والمسافرين والبضائع بين تونس وأعمالها الساحلية، وبينها وبين البلاد الأروباوية، وهذه الحالة هي التي دخلت عليها فرنسا لتونس في سنة 1298 (1881 للميلاد)، وكان في مقدّمة مساعي دولة الحماية إبطال البوسطات الأجنبية الموجودة يومئذٍ بالمملكة التونسية، وفي ضمنها الخطّ التّلغرافي الطّلياني التّابع لسكّة حديد حلق الوادي، لأنّ هذا الخطّ لعب دوراً سياسياً عنيفاً أثناء الحوادث التي أعقبها نصب الحماية على تونس.

ثم في سنة 1305 [1887] أحالت الدولة الفرنساوية للدولة التونسية حقوقها في البوسطة والتّلغراف، وصدر أمر المقدّس المولى علي باي الثالث في غرّة شوّال من العام المذكور، بتأسيس إدارة تونسية للبوسطة والتّلغراف والتّلفون، وهذه الإدارة هي الموجودة في عهدنا الحاضر. وغنيّ عن البيان أنّ هذه المصلحة الاجتماعية قامت في بحر هذه الخمسين سنة بوظائفها على أحسن أسلوب، وأتمّ مرغوب، وقد شملت منافعها الحاضر والبادي، من الشّرق إلى الغرب، ومن الشّمال إلى أقصى الجنوب، حتى الواحات الصحراوية إلى منتهى حصن (لوسيان سان)[8] المجاور لغدامس بعد المرور على برج الثّور[9] العصيب.

ونختم هذه النّبذة بالإشارة لنصب أسلاك التّلفون بتونس، وأوّل ما عرف من ذلك سلك التّلفون المتنقّل الذي كان في صحبة الجنرال (بريار)

(7) وتسمّى أيضاً بونة، وإليها ينسب صاحب كتاب شمس المعارف الشيخ أحمد بن علي البوني المتوفى سنة 622 [1225].

(8) [برج الخضراء الآن].

(9) له سمّي في السّماء [هو برج لوبوف (Le Boeuf) برج بورقيبة الآن].

(BREART) عند دخوله على المشير محمد الصادق باي في طلب إمضاء صكّ الحماية، وبإثر ذلك وقع نصب تلفون خصوصي بين السّفارة العامة، وبين الكتابة العامة، ثمّ وقع تعميمه على التّدريج لفائدة أفراد الناس ابتداء بمدينة سوسه في عام 1309 [1891] وأعقبه بعد مدّة ظهور التّلغراف اللاّسلكي. ولم يؤمن التونسيون بصدقه عند شيوع خبره لكن اتّفق في تلك الأثناء مجيء فخامة رئيس الجمهورية لزيارة تونس في سنة 1320 [1902] وأقيمت له بمدينة بنزرت مأدبة إكرام يوم ارتحاله، وممّن حضرها معه وزراء الحضرة العلية، وفي أثنائها عرض انحراف بمزاج المرحوم الوزير أمير الأمراء أبي عبد الله محمد الجلّولي، وركب فخامة الرئيس البحر عائداً لفرنسا، لكّنه في أثناء الطّريق بعث على جناح الغيب بتلغراف لاسلكي للحضرة العلية يستفسر فيه عن صحّة وزيرها من ذلك الانحراف الذي كانت عاقبته عافية وسلامة، وتناقلت ذلك الألسن القصار والطوال[10]، وعند ذلك رجع للنّاس رشدهم وآمنوا بالتّلغراف اللاّسلكي كإيمانهم في يومنا هذا بالرّاديو. قال أديب المغرب:

لا غرو إن كلّموا المريخ أو زُحلا   وأنت تسمع للرّاديو وما فعلا[*]

(10) الألسن القصار: هي الألسن البشرية، والألسن الطّوال هي الجرائد، وليس لطولها حدّ محدود.
(*) المجلة الزيتونية - المجلد 1 - الجزء 10 (جوان 1937).

ظهور الطّباعة
بالأحرف العربية في تونس

لمبتكر فنّ الطّباعة فضل على العالمين، لأنّها حفظت علوم الأقدمين وآثارهم من التّلاشي، وأعانت على توسيع ميادين الثّقافة ونشر نور العلم بين كافّة الشّعوب والأقوام، ولكن من هو الرّجل الأوّل الذي انتبه لإيجاد طريقة للكتابة بالطّباعة؟ لا جرم أنّ معرفة اسم ذلك الرّجل ليست بالشّيء الميسور لأنّ الطّباعة على الحجر كانت موجودة من عهد بابل وأشور، إنّما الشّيء الصّحيح الذي أثبته التّاريخ هو أنّ فضل تهذيب الطّباعة المعروفة بتمكين الطّابع من إخراج مطبوعات متعدّدة ومتماثلة من نصّ واحد في وقت واحد، ترجع مزيته لرجل أروباوي اسمه (يوحنّا كوتنبير)[1] من رجال القرن الخامس عشر للميلاد والتّاسع للهجرة الشّريفة، فهذا الرّجل توصّل بعد أبحاث وجهود للحصول على تلك الغاية، وما لبث مشروعه لعظيم فائدته أن صار عمومياً بين أهل أروبا، وتعلّمه النّاس في كلّ بلاد ونسجوا على منواله، وتوسّعوا في أساليب تحسينه وإتقانه، إلى أن بلغوا في فنّ الطّباعة منتهاه. وأوّل ما طبع بأروبا من الكتب أسفار التّوراة باللّغة اللاّطينية.

هذا هو أصل الطّباعة بأروبا، وأمّا الطّباعة بالأحرف العربية فهي وليدة المتقدّمة، ظهرت لعالم الوجود في أوائل القرن السّادس عشر للميلاد، ونحن في أواسط القرن العشرين، وأوّل ما طبع في ذلك كتاب مزامير داود عليه

---

(1) [Gutenberg هو أوّل من اكتشف طريقة الطّبع بالحروف المنضّدة حوالي سنة 1440 م.].

السّلام بمدينة جنوى عام 1516، ثم باشروا بإشارة البابا طبع كتب الحكمة عند العرب، من ذلك كتاب النّجاة للشّيخ الرّئيس ابن سينا[2] طبع بالأحرف المعدنية بمدينة رومة عام 1593[3]، ورغم تكرّر طبع الكتب باللغة العربية مدى القرنين السّابع عشر والثّامن عشر (الحادي عشر والثّاني عشر للهجرة) بباريس، ورومة، ولندرة، وليون، ولبزيغ، ومجريط، وغيرها من عواصم أروبا، فإنّ العالم الإسلامي لم يقبل يومذاك على الطّباعة[4]، ولعلّهم كانوا يتحاشون من ذلك اتّقاء تلاشي مسودّات الأوراق، وهي لا تخلو من آيات كريمة أو أحاديث شريفة، أو غير ذلك من الأسباب التي أساسها التورّع أو التّمسك بما كانت عليه صناعة الوراقة والنّسخ من الازدهار في عصر السّلف الصّالح، مع انتشار تآليفهم في كافّة البلاد، قبل أن يعمّ الطّبع جهات المعمورة[5]، وبالتالي لم يكن في وسعهم إلاّ الرّكون للاستفادة من محاسن الطّباعة، وكان بمقدّمة الأمم الإسلامية في ذلك السّبيل، البلاد المصرية، ومصر كانت ـ ولا زالت إن شاء الله ـ منبع النّور والعلم المضيء، فأحدثوا على عهد محمد علي باشا وبأمره، جريدة الوقائع المصرية، وطبعوا كتباً كثيرة لا سيما في التّاريخ والأدب وشبه ذلك، قبل الشّروع في طبع كتب

---

(2) هذه الطبعة النادرة توجد منها نسخة بخزانة جامع الزيتونية تحت عدد 5219 بدفتر الكتب

(3) طبع برومة أيضاً قبل كتاب النّحاة بعام أي في سة 1592 متن الأجرومية بالمطبعة الحجرية. وقفت على ذلك بإحدى خزائن الكتب بباريس، وهذه الطّبعة مقدّر ثمنها بفهرس صاحبها بثلاثمائة وخمسين فرنكاً فليتأمل.

(4) يبغي أن لا ننسى أن البدع من كلّ نوع كانت محظورة بين المسلمين، ناهيك أنّ قاضي مكّة المكرّمة كان يحكم في المائة العاشرة بجلد شارب قهوة البنّ، وكان المحتسب بتونس يعاقب النّسوة اللاتي يلبسن الجوارب في أواسط القرن الماضي.

(5) اعتنى بعضهم بضبط مؤلّفات جلال الدّين السّيوطي وقسّمها على عدد أيّام عمره، فأصاب كلّ يوم منها كراس ونيف، ولا ينبغي لمن لم يتأتّ له الوقوف على مؤلّفات السّيوطي أن ينكر صحة هده الإحصائية، فإنّ السّيوطي من أوفر العلماء تأليفاً في الإسلام، ليس فقط في زمنه، بل قبله وبعده أيضاً. ومثله وأكثر منه صلاح الدّين الصّفدي، فإنّه كتب أكثر من خمسمائة تأليف، منها كتاب الوافي بالوفيات ترجم فيه لأكثر من أربعة عشر ألف فاضل، ولا توجد منه نسخة كاملة بإحدى خزائن الكتب المعروفة بالعالم، ونسخة جامع الزيتونة أقلّها نقصاً حيث احتوت على واحد وعشرين جزءاً من السّتّة والعشرين التي كتبها المؤلّف رحمه الله.

الدّين وعلوم الشّريعة. وبمصر اقتدت تونس، وتونس هي بيت القصيد.

كانت الإيالة التّونسية عند وفاة المشير أحمد باي متهيّئة للسّير في مسالك التّمدّن العصري الذي شاهد سموّ الباي محاسنه مباشرة أثناء رحلته لباريس في أواخر عام 1262 [1845] واقتبس من عناصره الأسس الأولى لنظام دواليب الدّولة التّونسية، فلّما ارتقى بعده المشير الثّاني محمد باي لكرسي الإمارة، زاد خطوة في طريق الرّقيّ الكتابي بالإيالة، حيث قرّر في الأوّل اتّخاذ مطبعة حجرية لتعميم أوامره ونواهيه، استحضر آلاتها من باريس، وفقاً لما كان في عزم سلفه، وعاقه حضور أجله عن إنجازه.

وأوّل ما طبع بهذه المطبعة الحجرية لائحة تراتيب داخلية، ثمّ بدا له بعد حين، التّوسّع في هذا المشروع، فسعى لجلب أحرف معدنية مع الأجهزة التّابعة لها من دار الطّباعة بباريس، وفيما بين ذلك أدركه أجله المحتوم، وصعد إثره الكرسي الحسيني أخوه المشير الثالث محمد الصادق باي، فأحدث جريدة الرّائد التونسي[6] التي أعطى امتيازها لأحد تجّار الأجانب، ولكنّه خصّ قسماً منها بنشر الأمور الرّسمية وجعلها لنظر رئيس المجلس البلدي، وناط رئاسة تحريرها بلياقة الأستاذ الشيخ محمود قابادو، ثمّ بعد صدور بضعة أعداد منها أبطل منحة الامتياز المشار إليه، وجعلها والمطبعة الرسمية بما اشتملت عليه من الأجهزة والأحرف المعدنية من حقوق الدّولة التّونسية وحدها، وكانت المطبعة يومئذٍ بالحفصية[7] وأقلام إدارتها بدار

(6) صدر أوّل عدد من الرّائد التونسي يوم الأحد في 4 محرم 1277 [1860].

(7) دار الحفصية المنتصبة بقسم منها إدارة الغابة في هذا الزّمان، كانت مصنعاً للمدافع في العصر الحفصي، وفي عهد الدّولة المرادية والدولة الحسينية إلى مدّة المشير أحمد باي، كما كانت تحتوي على معمل لضرب السّكّة في الزّمن القديم، وكما كانت أيضاً محجراً صحّياً أثناء ظهور الطّاعون بتونس في القرن الماضي، وبعد أن انتصبت بها المطبعة الرّسمية نحو ربع قرن، انتقلت هذه المطبعة للمحلّ الذي كان اصطبلاً لسموّ الباي ببطحاء القصبة (حيث خزنة المكاتيب العامّة في هذا الزّمان)، ومنه انتقلت في عام 1319 [1901] لدار الدّاي الملاصقة لدريبة الدّولاتلي، وما زالت بها إلى هذا اليوم.

العشرة[8] حيث مقر المجلس البلدي في ذلك الزّمان، ولم يمضِ غير زمن قصير حتّى أقبل النّاس على هذا المشروع الجديد، وتسابقوا للاستفادة من النّتائج النّاشئة عن الصّحافة والطّباعة، وسعوا لنشر بعض الكتب في الأدب والتّاريخ واللغة، ثم طرقوا باب الحديث والتّوحيد والتّصوّف والفقه الخ، وأوّل ما طبع من ذلك مجموعة قوانين دولية، ثم جدول في المقابلة بين التّواريخ للشيخ حسن لازاغلي البوني أسماه البهجة الحسينية في التّواريخ الحالية[9]، ثم كتاب سلوان المطاع لابن ظفر، وكتاب واسطة السّلوك في سياسة الملوك لابن زيان، ثم تسلسل الطّبع والنّشر للكتب من كلّ علم وفنّ، ولكنه لم يقع طبع جريدة عربية أخرى في مطبعة الرّائد قبل سنة 1305[10]،

---

(8) دار العشرة هي الدار المعروفة لهذا الزّمان باسم «دار حسين» (هو الوزير أمير الأمراء حسين، المملوك مستشار المعارف كان ـ توفي سنة 1304 [1886]) وبها مساكن ودواوين الجنرال القائد الأعلى للجيوش الفرنسوية بتونس، وانتسابها قدماً لعدد العشرة يشير لعدد أعضاء المجلس البلدي الذين كانوا يجتمعون بها تحت رئاسة المرحوم حسين المذكور أعلاه، وكانت هذه الدّار قبل ذلك من أملاك البائليك وتعرف إذ ذاك باسم دار إسماعيل كاهية من وزراء المولى علي باي الثاني المتوفى عام 1196 [1781] وكانت في الزّمن المتقدّم عن ذلك مسكناً لعثمان داي، وفي عهد الدّولة المرادية وقع تهذيبها بالنّقش حديدة البديعة المزدان بها صحنها وجدرانها، وكانت في مدّة الدولة الحفصية داراً للضّيوف فيما روته بعض الأخبار، وهي وما جاورها من الأبنية القديمة كانت قصوراً للأمراء من بني خراسان في المائة السادسة، وما زال بجوارها بقيّة من آثارهم، وكثير من الكتّاب يخبطون خبط عشواء عند التّعريف بتاريخ هذه الدار، والجرائد تنقل عنهم ما كتبوا بدون بحث ولا تعقيب، وهذا هو الذي دعاني لانتهاز هذه الفرصة لذكر خبرها الصّحيح باختصار، والله مقلّب الليل والنّهار.

(9) هو عبارة عن جدول للمقابلة بين التّواريخ الحالية أصدره واضعه في مفتتح كلّ سنة قمرية من تاريخ ظهوره في سنة 1278 [1861] إلى سنة 1290 [1873] وفي العام التّالي اعتنى صاحبه بتوسيعه وتهذيب أساليبه، ووافق ذلك ولاية الوزير خير الدين مسند الوزارة الكبرى فاتخذ المؤلّف لتأليفه اسماً جديداً مقتبساً من اسم الوزير خير الدين، حيث أسماه النّزهة الخيرية، وهذه استرسل ظهورها بانتظام من تاريخ نشأتها حتى عام 1318 [1900] وبعده انقطع طبعها لوفاة صاحبها في العام المذكور، فظهرت بإثرها في عام 1319 [1901] الرّزنامة التّونسية لكاتب الحروف، ودام صدورها حتى عام 1335 [1926].

(10) في عام 1305 [1888] ظهر العدد الأوّل من جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم «الحاضرة» لمديرها النّابغة المرحوم السيد علي بوشوشة (كان يحسن خمس لغات فهماً وتفهيماً وقراءة =

وإليك بإثر هذا قائمة ما تيسّر لي جمعه من أسماء الكتب العربية التي طبعت بالمطبعة الرّسمية التونسية من عام 1277 [1860] إلى عام 1300 [1882]، هذا ولم نسع للبحث عمّا طبع بعد ذلك لتعدّد المطابع العربية، واستغراق عدد ما طبع بها من الكتب في هذا القرن. وأنا على يقين أنّه فاتني الوقوف على كتب أخرى ممّا طبع بالمطبعة الرسمية في القرن الماضي، وعسى أن يكون هذا التّنبيه باعثاً للكشف عن أسماء تلك البقيّة بفضل من توفّرت لديهم الدّواعي في هذا المقام لإتحاف هذه المجلّة أو غيرها من الجرائد السّيّارة بتلك الضّالّة المنشودة قياماً بخدمة العلم والتاريخ.

(فمّما طبع في عام 1277 [1860]).

1 ـ مجموعة قوانين تونسية

(وممّا طبع في عام 1278 [1861]).

2 ـ البهجة الحسينية في التّواريخ الحالية، للشّيخ حسن لازاغلي البوني، توفّي عام 1318 [19900].

(وممّا طبع في عام 1279 [1862]).

3 ـ كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع، لأبي هاشم محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي، توفّي عام 598 [1201]).

4 ـ كتاب واسطة السّلوك في سياسة الملوك، للأمير موسى بن يوسف أبي حمو بن زيان العبد الوادي، توفّي عام 791 [1388]).

5 ـ مفاوضات المجلس الأكبر.

6 ـ ختم في الحديث للشيخ صالح النيفر، توفّي عام 1290 [1873].

(ومّما طبع في عام 1280 [1863]).

= وكتابة مع اللغة العربية) شارك في تأسيسها نحبة من الشّبّان منهم صاحبنا جميل الذّكر الذي مات شبحه ولم يمت ولن يموت اسمه السيد البشير صفر، والفقيه الحقوقي الضّليع الشيخ صالح عبّاس، وكاتب هذه الحروف، وغيرهم، وكان إنجاز ذلك المشروع بمساعدة جميل الذكّر العلاّمة (مسيو ريني ملي) الوزير المقيم وإلى حصافة رأيه وسداد تدبيره ترجع مزيّة تأسيس معهد ابن خلدون بتونس.

7 ـ مناقب الأيّمة الأربعة، للحريفيشي والشّعراني.

8 ـ لوعة الشّاكي ودمعة الباكي، لصلاح الدّين خليل بن أبيك الصّفدي، توفي عام 764 [1362].

9 ـ الواسطة إلى معرفة مالطة، وكشف المخبّا عن فنون أروبا، لأحمد فارس الشّدياق توفي عام 1305 [1887]).

10 ـ كتاب الموطّأ للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، توفّي عام 179 [795].

(وممّا طبع في عام 1281 [1864]).

11 ـ ديوان سيّدنا حسّان بن ثابت رضي الله عنه، توفّي عام 54 [673].

12 ـ حاشية علي قطر النّدا، للشّيخ حسن بن عبد الكبير الشّريف، توفّي عام 1233 [1817].

(وممّا طبع في عام 1282 [1865]).

13 ـ كتاب كنز فنون الضّبّاط الصّغار، لأحمد المورالي، توفّي عام 1319 [1901].

14 ـ كتاب خدمة ضبّاط عسكر التّريس مثله.

(وممّا طبع في عام 1283 [1866]).

15 ـ الخلاصة النّقيّة في أمراء إفريقية، للشّيخ محمد الباجي المسعودي، توفّي عام 1297 [1879].

16 ـ شرح الرّسالة السّمرقنديّة لأبي الليث السّمرقندي، توفّي عام 860 [1455].

(وممّا طبع في عام 1284 [1867]).

17 ـ كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، للوزير خير الدين، توفّي عام 1307 [1889].

18 ـ شرح متن الأجرومية، للشّيخ خالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري، توفّي عام 905 [1499].

19 ـ شرح المتن المذكور أيضاً للشّيخ محمد مجاهد الطنتدائي المشهور بأبي النّجا[11].

(وممّا طبع في عام 1285 [1868]).

20 ـ طبعة ثانية من مناقب الأيّمة الأربعة (انظر عدد 7).

(وممّا طبع في عام 1286 [1869]).

21 ـ كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، للشيخ محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، كان حيّاً في عام 1092 [1681].

22 ـ كتاب تعليم المتعلّم طريق التّعلّم لبرهان الدّين الزّرنوجي، من رجال القرن السادس[12].

23 ـ شرح وجيز لسكّة الحديد من الحاضرة إلى حلق الوادي وباردو لتيودوردة منتيس.

(وممّا طبع في عام 1287 [1870]).

24 ـ قطعة بها صفحات 368 ممّا نشر بالرّائد التّونسي من كتاب الحلل السّندسية في الأخبار التّونسية للشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن مصطفى الوزير السّرّاج، توفّي عام 1149 [1780].

(وممّا طبع في عام 1288 [1871]).

25 ـ جريدة عقد اللآل في التّوسّل للنّبيء بالآل، للشيخ محمود قابادو، توفّي عام 1288 [1871].

26 ـ طبعة ثانية من كتاب لوعة الشّاكي ودمعة الباكي، لصلاح الدّين خليل بن أيبك الصّفدي، توفّي عام 764 [1362].

(وممّا طبع في عام 1289 [1872]).

---

(11) جاء في معجم المطبوعات العربية والمعرّبة أنّ المؤلّف فرغ من تأليف هذه الحاشية سنة 1223 [1808] وضبط لقبه بلفظ الطنتداعي، ومثل ذلك في كتاب اكتشاف القنوع بما هو مطبوع.

(12) تكرّر طبعه بالرّوسيا وألمانيا والهند ومصر وتونس والأستانة، نقلاً عن طبعة تونس، وترجم للغة اللاطينية. والمؤلّف تلميذ صاحب الهداية برهان الدّين الفرغاني.

27 شرح على متن اليساغوجي[13] للشيخ محمد بيرم الثالث، توفّي عام 1259 [1843].

28 ـ تاريخ الدّولتين الموحّدية والحفصية، للشيخ محمد بن إبراهيم اللؤلؤي المعروف بالزّركشي، توفّي عام 932 [1525].

(وممّا طبع في عام 1290 [1873]).

29 ـ شرح العالم بستان للشيخ محمد بن الخوجة الأوّل، توفّي عام 1279 [1862].

30 ـ زواهر الكواكب لبواهر المواكب، للشيخ محمد بن علي بن سعيد، توفّي عام 1199 [1784].

(طبع بعضه عام 1290 [1873] وبعضه في عام 1293 [1876]).

31 ـ منهج السّالك إلى ألفية ابن مالك، للشيخ علي بن محمد الأشموني، توفّي عام 900 [1494].

32 ـ متن الأجرومية، للشيخ محمد بن محمد بن داود الصّنهاجي المعروف بالأجرومي، توفّي عام 722 [1322].

33 ـ منظومة في قواعد العربية للشيخ عبد الله الشّبراوي الشّافعي، توفّي عام 1172 [1758].

(وممّما طبع في عام 1291 [1874]).

34 ـ النّزهة الخيرية في التّواريخ الحالية للشيخ حسن لازاغلي البوني، توفّي عام 1318 [1900].

«انظر عدد 2 من هذا الفهرس والحاشية التّابعة له».

(وممّا طبع في عام 1292 [1875]).

35 ـ دفتر الكتب المحفوظة بخزانة المكتبة الصادقية المشهورة بالعبدلية بجامع الزّيتونة.

---

(13) اسمه بأكمله إيساغوجي بورفيريوس، من علماء اليونان الذين دوّنوا علم المنطق، ومنهم أيضاً المعلّم أرسطاطاليس صاحب حكم الحلقة المفرغة. العالم بستان

36 ـ عقيدة الإمام السّيوطي المتوفى عام 911 [1505] طبعت للحفظ بعنوان تلاميذ المدرسة الصادقية.

37 ـ مجموعة الأحاديث القضاعية مثله.

38 ـ باب ما يقال عند الكرب من الجامع الصحيح مثله.

(وممّا طبع في عام 1293 [1876]).

39 ـ كتاب خاصّ الخاصّ لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل بن محمد الثّعالبي توفّي عام 492 [1098].

40 ـ شرح الأجرومية لعبد الرحمن بن علي بن صالح الماكودي، توفّي عام 807 [1404].

41 ـ مولد خير الأنام للشيخ إبراهيم بن عبد القادر الرّياحي، توفّي عام 1266 [1849].

42 ـ شرح صغرى الصّغرى للشيخ محمد بن يوسف السّنوسي الحسني، توفّي عام 895 [1489].

43 ـ قصيدة بانت سعاد[14] لسيدنا كعب بن زهير رضي الله عنه، توفّي عام 24 [644].

44 ـ نظم المرشد المعين على الضّروري من علوم الدّين لأبي محمد عبد الواحد بن عاشر، توفّي عام 1040 [1630].

45 ـ متن الجزرية لشمس الدين محمد بن عمر الجزري، توفّي عام 833 [1429].

---

(14) هذه القصيدة طبعت مع ترجمتها لكثير من اللغات الأروباوية وتكرّر طبعها بهولاندة وفرنسا وألمانيا وإنكلتيره وإيطاليا ومصر والهند والشّام وتونس والجزائر، مع شروح وحواشي، ومعلوم أنّ النّبيء ﷺ خلع على قائلها بالبردة الشّريفة التي كانت فوقه، وفي كتب السّير ما يفيد أنّ معاوية بذل فيها لكعب عشرة آلاف درهم، فأبى كعب بيعها واحتفظ بها إلى أن مات، قالوا إنّها بيعت في أيّام أبي جعفر المنصور بأربعين ألف درهم وبقيت في خزائن بني العبّاس إلى زحفة المغول على بغداد، والله أعلم بما آلت إليه بعد ذلك:

إنّ الرّسول لسيف يستضاء به ... مهنّد من سيوف الله مسلول

46 ـ مختصر الدرّ الثّمين والمورد المعين للشيخ محمد بن أحمد بن محمد الفاسي الشّهير بميارة، توفّي عام 1048 [1638].
47 ـ طبعة ثانية[15] من كتاب مجموع الإفادة في علم الشّهادة للشيخ محمد البشير التّواتي، توفّي عام 1311 [1893].
48 ـ كتاب نور الإيضاح ونجاة الأرواح للشّيخ حسن الشّرنبلالي، توفّي عام 1139 [1726].

(وممّا طبع في عام 1294 [1877]).

49 ـ كتاب تعليم القارىء للشيخ محمد بن حسن البارودي، توفّي عام 1304 [1886].
50 ـ ديوان الشيخ محمود قابادو، توفّي عام 1288 [1871] (طبع بعضه في عام 1294 [1877] وبعضه في العام التالي).

(وممّا طبع في عام 1295 [1878]).

51 ـ شرح الأربعين النّووية لسعد الدين التّفتازاني، توفّي عام 792 [1389].
52 ـ القسطاس المستقيم في اختلال الحكم بنفي جنسية القائد نسيم، للوزير حسين مستشار المعارف كان بتونس ـ توفّي عام 1304 [1886].
53 ـ رسالة أخرى له في نازلة القائد نسيم قابض الدّولة التونسية كان (مات ببلد القرنة عام 1290 [1873]).
54 ـ مفاوضات مؤتمر القسطنطينية في المسألة الشّرقية لمردخاي شملة.
55 ـ أطلس في الجعرافية لمحمد بن حميدة الكاتب كان بالمطبعة الرّسمية.
56 ـ بلوغ الأماني في مناقب الشيخ أحمد التّجاني لأحمد أديب المكي، توفي عام 1352 [1933].

(وممّا طبع في عام 1296 [1878]).

(15) لم نقف على الطّبعة الأولى التي طبعت فيما يظنّ خلال العقد التّاسع من القرن الماضي حيث كان المؤلف وهو من أهل العلم، يباشر مهمّة التّصحيح بالمطبعة الرّسمية التّونسية مع تدريس فنّ القراءات بجامع الزّيتونة.

57 ـ الأجنّة الدّانية الأقطاف بمفاخر سلسلة السّادة الأشراف للشيخ محمد بن عثمان السّنوسي، توفّي عام 1318 [1900].

(وممّا طبع في عام 1297 [1879]).

58 ـ لقط الدّرر للقاضي الشيخ محمد السّنوسي بن مهنية الكافي، توفّي عام 1255 [1839].

59 ـ درر العروض لحفيده الشيخ محمد بن عثمان السّنوسي، توفي عام 1318 [1900].

(وممّا طبع في عام 1298 [1880]).

60 ـ البدرية للإمام جعفر البرزنجي، توفّي عام 1170 [1756].

61 ـ الدّرّ المنظوم في كيفية كتب الرّسوم للشيخ علي ابن الشيخ صالح النيفر، توفّي عام 1332 [1913].

62 ـ المواهب الصّمدية لكشف لثام السّمرقندية للشيخ الطاهر بن مسعود ـ توفي عام 1234 [1819].

63 ـ المطلع في الفلك للشيخ محمد بن سعيد السوسي ـ توفي سنة 1040 [1630].

64 ـ الدّرّ الثّمين والمورد المعين للشيخ محمد بن أحمد بن محمد الفاسي الشّهير بميارة توفّي عام 1048 [1638] (طبع بعضه في عـام 1298 [1880] وبعضه في العام التالي).

65 ـ الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب للشيخ محمد المكي بن عزوز، توفّي عام 1334 [1915].

66 ـ قطعة من النّصف الأول بها 296 صفحة ممّا نشره الرّائد التونسي في عام 1298 [1880] من كتاب مسامرات الظريف بحسن التعريف للشيخ محمد بن عثمان السنوسي ـ توفي عام 1318 [1900].

(وممّا طبع في عام 1299 [1881]).

66 ـ حاشية على قرّة العين لشرح ورقات إمام الحرمين للشيخ محمد بن حسن الهدّة، توفّي عام 1197 [1782] وبهامشه الشّرح المذكور للشيخ

محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب من رجال القرن الحادي عشر.

67 ـ مصرع أرباب العذر في التّوسّل بأهل بدر للشيخ أحمد أديب المكّي، توفّي عام 1352 [1933].

(وممّا طبع في عام 1300 [1882]).

68 ـ مجموعة القوانين التّونسية الأولى في عصر الحماية.

هذه جملة ما وقفت عليه في الموضوع الذي نحن بصدده، ويرى النّاظر أنّ أسماء المصنّفات التي بهذا الفهرس جاءت متبوعة بتاريخ وفيات المصنّفين، والقصد من ذلك زيادة التّوضيح وإلاّ فهو من باب لزوم ما لا يلزم، وفي هذا القدر كفاية لمن قرن البداية بالنّهاية(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 4 ـ الجرء 5 (فيفري 1941).

الباب الثاني

القضاء الشرعي وخطة شيخ الإسلام في تونس

القضاء الشّرعي

(1)

اعلم أنّ رأس الخطط الشّرعية في الإسلام هي القضاء، وأوّل من باشره معاذ بن جبل الذي كان بلسان النّبّوة أعلم النّاس بالحلال والحرام. فقد ثبت أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعثه قاضياً إلى الجند باليمن يعلّم النّاس القرآن، ويقضي بينهم بالحقّ، وكان ذلك عام فتح مكّة المكرّمة سنة ثمان للهجرة، وجاء في كتاب التّخريج والاستيعاب لابن عبد البرّ، أنّ الخليفة الأوّل سيّدنا أبا بكر الصّدّيق، عهد بالقضاء لسيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، وقال له: اقض بين النّاس، فإنّي في شغل. يعني في شغل بالنظر في مصالح المسلمين. والرّواية التي أجمع عليها المؤرّخون، هو أنّ أوّل قاض في الإسلام أولاه الخليفة الثّاني سيّدنا الفاروق. قال ابن خلدون في المقدّمة[1]: وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه «أي القضاء» بأنفسهم، ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم، وأوّل من دفعه إلى غيره وفوّضه فيه، عمر رضي الله عنه، فولّى أبا الدّرداء معه بالمدينة، وولّى شريحاً بالبصرة، وولّى أبا موسى الأشعري بالكوفة، وكتب له في ذلك ذلك كتابه المشهور[2] الذي يدور عليه

(1) [مقدمة ابن خلدون ـ طبعة مصر ص 220 ـ 221]

(2) اتّفق لي ترجمة هذا الكتاب للّسـان الفرنساوي في مدّة الوزير المقيم الأسبق مسيو ريني ملي اطّلع عليه هذا الوزير وكان من المجاهرين بحب الإسلام وأهله، أعجب به أيّما إعجاب وضمّه =

أحكام القضاة وهي مستوفاة فيه، يقول: أمّا بعد: فإنّ القضاء فريضة محكمة، وسنّة متّبعة، فافهم إذا أدّي إليك فإنّه لا ينفع تكلّم بحقّ لا نفاذ له، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك، حتّى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر، والصّلح جائز بين المسلمين، إلاّ صلحاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً، ولا يمنعك قضاء قضيّة أمس فراجعت اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحقّ، فإنّ الحقّ قديم ومراجعة الحقّ خير من التّمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ممّا ليس في كتاب ولا سنّة، ثم اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور بنظائرها، واجعل لمن ادّعى حقّاً غائباً أو بيّنة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنته أخذت له بحقّه، وإلاّ استحللت القضيّة عليه، فإنّ ذلك أنفى للشّكّ وأجلى للعماء، المسلمون عدول بعضهم على بعض، إلاّ مجلوداً في حدّ، أو مجرّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في نسب أو ولاء، فإنّ الله سبحانه عفا عن الإيمان ودرأ بالبيّنات، وإياك والقلق والضّجر والتأفّف بالخصوم، فإنّ استقرار الحقّ في مواطن الحقّ يعظّم الله به الأجر، ويحسن به الذّكر والسلام أ هـ.

وممّا تقدّم يتّضح أنّ ثاني الخلفاء الرّاشدين، ولّى معه قاضياً بالمدينة للنّظر في أحوال المسلمين، كما وجّه بقاضيين لأطراف المملكة الإسلامية إسوة بالنّبي صلّى الله عليه وسلّم. ويستفاد ممّا ذكرنا قاعدة شرعية أصلية، وهو جواز انتصاب قاض للحكم بين النّاس في نفس البلد الذي فيه الأمير، وقد جوّزوا ذلك لا ترفّعاً منهم عن مباشرة عامّة النّاس، بل لاشتغالهم بأمور السّياسة العامّة وما يلتحق بها من جهاد، وفتوحات، وسدّ الثّغور، وحماية البيضة، على أنّ إنابة الخليفة للقاضي كانت في بداية أمرها قاصرة على النّظر في بعض الأحوال دون سواها، حتّى إنه وجد في الدّولة العبّاسية قضاة يحكمون فيما دون المائتي درهم، بما يشابه خطّة قاضي الصّلح الفرنساوي، وحاكم النّاحية التونسي لهذا الزمان

= لمجموعة النّصوص الفقهية والوثائق التّاريخية والتّراتيب الإدارية التي نشرها في كتاب جامع اشتمل على سائر النّظم التونسية في عصر الحماية الفرانساوية.

من بعض الوجوه، وإنّما وقع التّوسّع في خطّة القاضي بعد ذلك على التّدريج بحسب اشتغال الأمراء والملوك بالمهام الكبرى إلى أن استقرّ القضاء آخر الأمر على الجمع بين السّلطة الشّرعية القضائية من فصل، وحكم، ونظر في أموال المحجور عليهم من مجانين ومفلسين ويتامى وسفهاء، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم، وتزويج الأيامى عند فقدان الأولياء، والنّظر في مصالح الطّرقات العّامة والأبنية، وتصفّح الشهود والأمناء والنّواب، وبين النّظر في المظالم التي هي وظيفة مستمدّة من سلطة الأمير. على أنّ خطّة القضاء لحقت شأواً أسمى وأبعد من ذلك على عهد الدّولة الأموية بالأندلس، والدّولة العبيدية بإفريقية، فقد أوكلوا لأمانة قضاتهم النّظر في شؤون الحسبة العامّة، وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بـأمور المسلمين، فيتّخذ أعواناً على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزّر، ويؤدّب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العّامة في المدينة، مثل منع المضايقة في الطّرقات، ومنع الجمالين، وأهل السفن، من الاجحاف في الحمل، والحكم على المباني المتداعية للسّقوط بهدمها وإزالة ما يتوقّع من ضررها على السّابلة، والضّرب على يد المعلّمين في المكاتب، ومعامل الصّنائع، في ضرب الصّبيان فوق التّربية المشروعة التي يحصل بها تأديبهم، وحماية الحيوانات الأهلية، وزجر أرباب الدواب عن تحميلها فوق طاقتها أو ضربها فوق اللازم، وبيعها عليهم قسراً إذا لم يتّقوا الحيوانية فيها، فجمعوا بذلك للقاضي القسم الثاني من مقصد الشريعة الذي هو حفظ الآداب، زيادة على القسم الأوّل الذي هو حماية الحقوق.

وكان العصر الحفصي بتونس أكثر العصور احترامـاً واعتباراً للسّلطة الشّرعية، حتّى إنهم أضافوا لخطة القاضي مهمّة النظر في شؤون السّكّة، واستخلاص عيار الذّهب والفضّة، فكـان لقضاتهم طـوابع يضعـونها على المصوغات علامة على سلامة ذوقها من الغشّ، وتقرير الغاية التي وقف عندها السّبك مثلما يفعل اليوم أهل البلاد المتمّدنة. وهذا زيادة على ما كان للقاضي من حق النّظر على الشّهود وتتبّع سيرتهم وتوقيفهم عند حدّ خطّة العدالة،

وتعزيرهم بالتّوقيف عن المباشرة مؤقّتاً أو نهائياً، وطلب معاقبتهم من السّلطان عند ارتكابهم للتّدليس والزور ـ وقد قال سيّدنا عمر: إنّ الله يزع بالسّلطان ما لا يزع بالقرآن، ولم يستثن على القضاة في كلّ الدّول الإسلامية إلا مسائل القصاص والقود وما أشبه فيحكمون فيها، ويتوقّف تنفيذ حكمهم على الأمير، وتلك سنّة عمرية تحفظاً على الدّماء.

وكانت علاقة القاضي بالدّولة شديدة كعلاقة الوزير، حتّى إن الملوك كانوا يتخيّرون قضاتهم إثر قبولهم للبيعة، ليكون القاضي علقاً بالأمير ومن أهل سياسته. وقد أولى المأمون القاضي أحمد بن داود الذي كان على رأيه في مسألة القول بخلق القرآن. وفي بعض الأحايين كان الملوك يجمعون لقضاتهم بين خطّة الوزارة وبين خطّة القضاء، بل وبينه وبين قيادة الجيش، فقد كان أسد بن الفرات من أيمّة المذهب الحنفي، قائداً للجيش الفاتح لصقلّية حيث جاهد ومات سنة 213 [828] وكان ابن عاصم من فقهاء المذهب المالكي قاضياً ووزيراً بغرناطة. على أنّ الملوك كانوا في الكثير يجدون في أنفسهم على القضاة فيسرّون لهم العداوة ويتربصون بهم الدائرة للإيقاع بهم، وربما استعانوا عليهم بالقوّة والمال لإسقاط منزلتهم واعتبارهم في عيون الأمّة، فيشيعون عليهم أخذ الرّشوة ليهيج غضب العامّة عليهم، فيتّخذونها فرصة للانتقام منهم، وهكذا فعل أسد الدولة ابن مرداس سنة 415[1024]، ولنا في حديث شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وامتهانه على يد الوزير الجديد، وفيما ارتكبه السّلطان الحفصي محمد المستنصر بن أبي زكرياء مع العالم المحدث أبي عبدالله محمد بن الأبّار القضاعي، حيث سجنه وعذّبه، ثم أمر بقتله قطعاً قطعاً وحرق جثته مع تآليفه وكتبه، ما يغني عن ذكر أمثلة أخرى في مقام انتقام الأمراء من العلماء.

أمّا القضاة بإفريقية ـ أي بالديار التونسية ـ فقد قال في معالم الإيمان: إنّ أوّل قاض بإفريقية هو أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التّنوخي، من فضلاء التّابعين، ولاّه موسى بن نصير قضاء القيروان سنة 80 للهجرة [699] وهو أحد العشرة من التّابعين الذين أوفدهم الخليفة عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل

الآفاق بإفريقية، ومنه تسلسل القضاء بالقيروان، إلى أن تولّاه الإمام سحنون، صاحب المدوّنة، وسحنون هو الذي أحدث مقصورة خاصّة بجلوس القاضي حال انتصابه للحكم، وهو أوّل من اتّخذ أعواناً وجعل جرايتهم من بيت مال المسلمين، وكان يستدعي المطلوب ببطاقة ولا يرسل له عوناً، واتّخذ كتبة في مجلس الحكم، وضبط أساليب المرافعة بما عليه عمل قضاة تونس في هذا الزّمان، ومن سحنون انتقل القضاء لأيمّة آخرين من فقهاء القيروان، فالمهدية، فتونس، فكان قاضي الجماعة مقرّه حاضرة تونس في أوائل المائة السّابعة لاستقرار الدّولة الحفصية بها، وكان القضاة بتونس قبل ذلك يرجع أمرهم لقاضي القضاة بالقيروان أوّلاً، ثمّ الحفصي في سنة 657 [1258] اعتنى بخطّة القضـاء اعتناء لم يعرف قبله، فجعل أربعة من القضاة بتونس: قاضي الأهلّة وقاضي الأنكحة، وقاضي المعاملات، وقاضي الجماعة، وهو المسمّى بقاضي القضاة، وزاد بعد ذلك قاض آخر يلقّب بقاضي الفريضة. وهذه الخطط الشّرعية التي عفت رسوم معظمها، كان انقراضها في أزمان مختلفة، فقاضي الأهلّة كان موجوداً في زمن الباي حمودة باشا الحسيني، وقاضيـا الأنكحة والمعاملات اندمجا ضمن خطّة قاضي الجماعة، وقاضي الفريضة ألغيت خطّته في أوائل هذا القرن، وآخر من تولّاها الشّيخ الطاهر القصّار المتوفّى سنة 1314 [1896].

وأوّل من تلقّب بقاضي القضاة في الإسلام، هو الإمام أبو يوسف، صاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان، قاله ابن الأثير في كتاب الأنساب.

ويستفاد من التّواريخ التّونسية، أنّ الدولة الحفصية كما أسلفنا، كان لها قدم سبق في الاهتمام بالقضاء، وإلى سلاطينها ترجع مزيّة تعزيز خطّة القاضي بالمفتي للمسترشدين، فنصّبوا من أهل العلم بالمسجد الجامع من يفتي الناس ويفقّههم في الدّين، فكان الإمام محمد بن عرفة الورغمّي مفتياً بجامع الزّيتونة في[3] المائة الثّامنة، وكانت الفتوى في الصّدر الأوّل يقوم بها كلّ من آنس من

(3) يسّر الله لي في هذه الأيّام إتمام تأليف أسميته تاريخ معالم التّوحيد في القديم وفي الجديد، تضمّن =

نفسه علماً وتقوى، وغلق هذا الباب سدّاً للذّريعة في المائة الرابعة، وصار الانتصاب للفتوى بين النّاس يتوقّف على تفويض من الأمير، وكان جلوس المفتي للإفتاء بالمسجد الجامع كما أسلفنا، ولم تنفصل الفتيا عن الجامع إلاّ في أواخر المائة الثّامنة، فكان رجال العلم في المائة التّاسعة في إدبار، والدّولة في تراجع، وشباب الحفصيين أفل نجمه، والهرم استحكم فيهم بتأصّل الفتنة في ربوعهم، وتوالي فتوحات العدوّ من الأسبانيول فيهم، وما أشرف القرن التّاسع على أعقابه، حتّى كاد أن ينقطع العلم من تونس، لولا أن تداركها الله بالفتح الإسلامي على يد الوزير سنان باشا في سنة 981 [1573] وكان المذهب المالكي يومئذ هو المذهب السّائد بإفريقية من عهد المعزّ ابن باديس الذي حمل النّاس على التّمذهب به وترك ما سواه من المذاهب، اتّقاء شرّ البدعة بظهور مذهب الشّيعة في المائة الخامسة، وكان المذهب الحنفي قبل ذلك هو أظهر المذاهب بإفريقية فيما حكاه القاضي ابن خلكان وغيره من المؤرخين. فلما انتصبت الدّولة العثمانية بتونس في أواخر المائة العاشرة، أقام التّرك بمنصب الأحكام الشّرعية قاضياً حنفياً يأتون به من بلادهم، ثم يبّدلونه بعد ثلاث سنين بقاض جديد من الأتراك. وكان سيّدنا عمر رضي الله عنه يبدّل قضاته بعد أجل معلوم، كعامين أو نحو ذلك. وقال في بعض التّواريخ التّونسية: إنّ متولّي القضاء في مدّة السلطان الحفصي أبي عمر وعثمان بن محمد ابن أبي فارس عبد العزيز، كان لا يبقي في خطّة القضاء بجهة أكثر من ثلاث سنين، ثم ينتقل بجهة أخرى إلى أن يتصدّى لقضاء الحاضرة، ثم يتصدّر للفتوى والشّورى بين النّاس. وعبارة الشّورى في استعمالهم إذ ذاك تدلّنا على وجه تسمية المفتي الأوّل المالكي بكبير أهل الشّورى إلى عهود متأخّرة.

إلى هنا انتهى بنا الكلام في هذا الدّور الأوّل من تاريخ القضاء الشّرعي بتونس، وسنتحدّث في الأعداد القابلة ـ إن شاء الله ـ على التطوّرات

= شتّى الأخبار في موضوع الكلام على أهل الفتوى بجوامع تونس على عهد الدّولة الحفصية، وهو الآن تحت الطّبع، وسيظهر قريباً إن شاء الله. [ظهر هذا الكتاب في سنة 1939].

التي تناولته بعد ازدواج السّلطة الشّرعية ابتداء من تاريخ قيام المذهب الحنفي إلى هذا الزّمان، وكلّ آت قريب(*).

(2)

نستأنف حديث القضاء الشّرعي بتونس من حيث انتهائه في العدد الماضي فنقول: لمّا دخلت الإيالة التونسية في طاعة آل عثمان أواخر المائة العاشرة، عاد المذهب الحنفي للظّهور، وأخذ مركزه في المقدمة لأنه كان مذهب ولاة الأمر، ولا زال كذلك إلى هذا الزّمان. فأمراء الدّولة المرادية كانوا من الأحناف وآل البيت الحسيني، خلّد الله ملكهم، من نسل التّرك، والتّرك أمّة حنفية حنيفية، وبديهي أنّ التّرك اتخذوا لهم قاضياً من أهل مذهبهم عند أخذهم مقاليد الأمور بأيديهم كانوا يأتون به من إسلامبول، ثم يبدلونه بعد ثلاث سنين بقاض آخر من بلادهم، وهلم جرّا. وكان سيّدنا عمر يبدّل قضاته بعد أجل معلوم كعامين أو نحو ذلك، وهكذا كانوا في الدّولة الحفصية، فإنّ متولّي القضاء في مدّة السّلطان أبي عمرو عثمان لا يبقي في خطّة القضاء بجهة معيّنة أكثر من ثلاث سنين، ثم ينتقل لغيرها، إلى أن يتصدّى لقضاء الحاضرة، ثم يتصدّى للفتوى والشّورى بين النّاس، وما أوقع لفظ الشّورى في الأسماع، ترتاح لذكره النّفوس، وتقول لا عطر بعد عروس.

قال الشيخ محمد بيرم الثاني في شرح رسالة المفتيين[4]: أوّل المفتيين بتونس على المذهب الحنفي هو الشّهير برمضان أفندي، وقد كان قدم إليها من الرّوم (أي بلاد الترك) بوظيفة القضاء عَلى العادة أيّام يوسف داي التي كان بدؤها عام تسعة عشر بعد الألف، فلمّا استوفى منه ورام العود إليها، منعه ذلك الدّاي، وقلّده الفتوى اهـ.

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 3 ـ الجزء 4 ـ (أفريل 1939)

(4) [شيخ الإسلام محمد بيرم الثاني (1748 ـ 1831) له ثلاثة تآليف هامّة هي:
1 ـ عقد الدّرّ والمرجان في سلاطين آل عثمان
2 ـ التّعريف بأجداد آلْبَيْرَمِيِّين.
3 ـ شرح رسالة المفتيين من الحنفية.
انظر ترجمة حياته في «الاتحاف» ج 7 ـ ص 158].

قلت: أوّل قاض حنفي انتصب عند الفتح العثماني حكاه المؤرخ حسين **خوجة في بشائر أهل الإيمان**[5] هو المولى حسين أفندي الحنفي، عيّنه لخطة القضاء الوزير سنان باشا في جملة الأنظمة التي وضعها عند ترتيب ديوان الحكم في سنة 981 [1573] وبعد أن أتمّ مّدته، قام مقامه قاض تركي آخر لمدّة ثلاثة سنين وهلمّ جرّا، إلى أن آلت خّطة القضاء للمولى علي أفندي من فقهاء التّرك، وكان أصله من الجزائر. **قال في بشائر أهل الإيمان**[6]: إنه جاء من إصطنبول إلى تونس بوظيفة القضاء فطلب نائباً (مالكياً) فلم تطب نفسه بنائب من علماء الوقت إلاّ بالشيخ ساسي نوينة (كان موجوداً على رأس الألف) فطلبه للنّيابة، فأبى، فراوده، فامتنع، فقال له آخر مرة أن تتولّ النيابة لأمتّين بقتلك على مذهبك، فلّما سمع مقالته لم يسعه إلا الامتثال، فتولىّ النّيابة المذكورة. وهكذا استرسل الحال بولاية قاض جديد من التّرك عند شغور الخطّة بانتهاء مدّة متولّيها إلى أن تولاّها **الشيخ محمد قارة خوجة**[7] المشهور ببرناز، ومعنى برناز ذو الأنف الطّويل في اللسان التركي (والعّامة يسمّونه خشمون في تونس)، وبرناز هذا كان من أبناء تونس، وأبوه من رجال الفتح العثماني، فكان هو أوّل قاض حنفي تونسي عدل به إذ ذاك عن استدعاء قاض من التّرك، ومات الشيخ برناز قتيلاً سنة 1084 [1673] فيما **حكاه صاحب كتاب بشائر أهل الإيمان**. على أنهّم لم يجعلوها قاعدة مطّردة، إلاّ ابتداءً من مدّة الباشا علي باي الأوّل باشا، فإنّه أنف أن تكون ولاية قاضي الحضرة بغير اختياره، وتعلّل بأنّ أغلب سكّان البلاد من العرب، لا يحسنون اللغة التركية، فهم لا يفهمون ما يقوله القاضي التّركي، ولا هو بدوره يفهم ما يقولون، ولا هو عليم بأخلاقهم وأحوالهم، ومعرفة ذلك من شروط القاضي، فعند ذلك فوّض له الباب العالي باختيار القاضي من العلماء الحنفية بتونس، فكان أوّل قاض حنفي تولّى القضاء

---

(5) [حسين خوجة «ذيل بشائر أهل الإيمان» ص 3].

(6) [نفس المرجع ص 74].

(7) [انظر ترجمة الشيخ محمد قارة خوجة في «ذيل بشائر أهل الإيمان» ص 78 ـ 79].

بها باختيار الباي، هو الفقيه الشّيخ أحمد الطرودي في سنة 1157 [1744]، ثم ألحق به قاض على المذهب المالكي الزّكيّ، ولم يكن قبل ذلك للجماعة المالكية سوى نائب قاض ينفّذ عنه أحكامه القاضي الحنفي، وأوّل من تولّى نيابة القضاء المالكي على عهد حكومة الأتراك هو الشيخ ساسي نوينة كما سبقت الإشارة لذلك، واسترسلت مباشرته لهذه النّيابة في الدّولة المرادية، وممّن تولّاها بعده في العصر الحسيني الشّيخ أحمد الرّصّاع، وابنه الشّيخ قاسم، وحفيده الشّيخ حمودة، باشروا نيابة القضاء المالكي على عهد المولى حسين بن علي، وباشرها بعدهم الشّيخ حمودة الرّيكلي، وكانت ولايته سنة 1155 [1742] وأوّل من تولّى قضاء المذهب المالكي بالاستقلال هو الشّيخ محمد سعادة[8]، كان قاضياً مالكياً بتونس في وقت واحد مع الشّيخ أحمد الطّرودي قاضي الحنفية على

(8) ترجم له في بشائر أهل الإيمان ونوّه بقدره، ونقل شيئاً كثيراً من أخباره ورحلته، وترجم له بأوسع من ذلك في كتاب مسامرات الظّريف، ونقل نتفاً من أدبه وقال: إنّه تقدّم للقضاء، ثمّ للفتوى، ثمّ لرئاسة أهل الشّورى، يعني كبيراً للمفتيين على المذهب المالكي، وقال: إن الباشا علي باي امتحنه بالعزل من جميع خططه، وسمّاها له واحدة واحدة، فقال له الشيخ سعادة: بقي عندي وظيف آخر لم تعزلني منه، فقال له الباشا ما هو؟ فقال له الشيخ: وظيفة العلم الذي في صدري. وبعد مدّة أعاد عليه جميع وظائفه. قلت: كان فقيها: أديباً، ناظماً، ناثراً، له باع طويل في التّاريخ، من ذلك أخبار دولة المولى حسين بن علي، وابنه المولى محمد الرشيد باي، ومن أجلهما وضع كتابه المسمّى «قرّة العين»، تضمّن أرجوزة تربو على المائتي بيت في معنى الصّادح والباغم في الحكم والأمثال، وكان مرجع أهل العلم في الفتوى، يدلّك عليه هذه الأبيات التي خاطبه بها العلاّمة الأديب الشيخ أحمد العصفوري في نازلة في العمري أفتى فيها شيوخ العلم، وطلب منه الإفتاء فيها:

أرى المفتين قد وضعوا خطوطاً ... بفتياهم لنا حصلت إفادة
وما زبرت يداه الشّيخ حتى ... نراها مثل واسطة القلادة
لقد سبقت سعادتنا يقينا ... إذا ختمت بخطّ من سعادة

وقد أجابه عن سؤاله بما يشفي الغليل، من ذلك قوله:

تأمّلت السؤال وما علاه ... من العمرى المسّطرة المفادة
وما زبر الشّيوخ أمام رقمي ... ويمناه لسائلهم إفادة
فألفيت الجميع أجاد فيما ... أجاب به وأغنى عن زيادة

له حاشية على شرح الأشموني، سمّاها تقرير المسالك، وله نظم بديع في مناسك الحجّ، وله غير ذلك توفي رحمه الله سنة 1171 [1757].

عهد الباشا علي باي الأوّل كما أسلفنا، فيكون النّظر الشّرعي المزدوج الموجود لهذا الزّمان ارتكز أساسه المتين في العقد السّادس من القرن الثّاني عشر ويكون قد انقضى عليه قرنان كاملان، فهو نظام باركت عليه يد الدّهر بمسحة الخلود. على أنّ وجود قاضيين من مذهبين مختلفين للحكم في وقت واحد، ببلد واحد، كان موجوداً بالقيروان في عصر الأغالبة فإنّ الأمير زيادة الله إبراهيم بن الأغلب، استقضى في وقت واحد أبا محرز الكناني، من أئمّة المالكية وأسد ابن الفرات من أيمّة الحنفية، وقد نقل القاضي الشيخ محمد سعادة المتقدّم ذكره، أنّ الإمام ابن عرفة أفتى بجواز تولية قاضيين ببلد واحد، على أن يخصّ كلّ واحد منهما بناحية من البلد، أو نوع من الحكم فيه، لأنّ هذه الولاية (أي القضاء) يصحّ فيها التّخصيص والتّحجير، ولو استثنى في ولايته أن لا يحكم على رجل معيّن، صحّ ذلك أهـ. قلت؛ وأزيدك أخرى، وهو أنّه وجد بمصر في سنة 663 [1235] على عهد الملك الظّاهر بيبرس أربعة قضاة كلاًّ منهم متمذهب بمذهب.

هذا وكان لجانب كلّ من القاضي الحنفي والقاضي المالكي، ولجانب نائب القضاة أيضاً، مفت من أهل مذهبه يرجع إليه عند الاقتضاء، فكان أوّل مفت على المذهب الحنفي بعد الفتح العثماني، الشّيخ رمضان أفندي وأوّل مفت مالكي، الشّيخ سالم النّفّاتي، مؤسس مجد البيت النّفّاتي[9]، وكان جلوسهم بدار الباشا التي أقام على أنقاضها الوزير مصطفى بن إسماعيل في سنة 1296 [1878] داره بتونس، وبمكانها اليوم مدرسة البنات المسلمات الواقعة بنهج الباشا، وهذا النّهج أطلق عليه المجلس البلدي إذ ذاك اسم نهج المصطفية نسبة لاسم الوزير السّالف الذكر، فذهبت هذه التّسمية الجائرة أدراج الرّياح، ولم يحفل بها أحد، وبقي نهج الباشا على تسميته كما كان، وكان انعقاد مجلس

(9) من أشهرهم وأوسعهم عارضة في العلم، المفتي الشّيخ علي النّفّاتي، قال في مسامرات الظريف إنه أتى بخطّ شريف من دار الخلافة في تنفيذ حكم كلّ من القاضي والمفتي من غير أن يسأل واحد منهما عن نصّ المسألة، بعد أن كانت العادة أنّ الخصم يسأل كلّ عالم ويطلعه على المسألة، وله أن يعارض بها القاضي أو المفتي في مجلس حكمه، وبذلك حصل للشّيخ صيت عظيم، وتوفي في طريق الحج سنة 1049 [1639] أهـ.

الشّيوخ للحكم صباح الخميس من كلّ أسبوع، وهي سنّة حفصية قرّرتها الدولة المرادية، وجرى بمثلها العمل في الدولة الحسينية إلى سنة 1251 [1835]، وفيها أقيم شيخ إسلام للجماعة المالكية، إتماماً للتّسوية المعنوية، بعد التّسوية الحسّية الموجودة من قبل بين علماء المذهبين الشّقيقين، وألغي لقب الباش مفتي بتونس، وبطل استعمال العنوان الجليل المتلبّس بلقب كبير أهل الشّورى الذي مضت عليه القرون، وإذ ذاك تقرّر انعقاد المجلسين، كلّ منهما بانفراده، فاحتفظوا بيوم الخميس للسّادة الحنفية كما في القديم، وعيّنوا يوم الإثنين لاجتماع السّادة المالكية. وأوّل عهد باجتماع القاضي والمفتي في مجلس واحد، وهو مجلس الحكم، كان في زمن الدّولة المرادية، وفي مدّة مراد باي الثالث الذي تولّى الحكم في سنة 1110 [1698]، أضافوا للمفتي الحنفي، وهو الشّيخ عبد الكريم درغوث، مفتياً ثانياً حنفياً، فكان هو الشّيخ علي الصّوفي، وسنعود للكلام عليه عند التّعريف بمسند مشيخة الإسلام الجليلة، ثمّ توسّعوا بالزّيادة في عدد المفتيين الحنفيين، فكانوا أربعة، ثمّ خمسة في أواسط القرن الماضي، وكانت الفتوى في الدّولة الحفصية بدرجتين، فتوى بالنّصّ والكتاب المسطور، وهي الدّرجة الأولى، وفتوى بالنّصّ والقول المنثور (الشّفاهي)، وهي الدّرجة الثّانية، فألغيت هذه، وأبقيت الأخرى للجميع[10]، وعلى ذلك القياس كان العمل بالنّسبة لأهل المذهب المالكي، فقد كان لهم من المفاتي مثنى وثلاث ورباع. **قال في مسامرات الظّريف**[11]: إنّهم كانوا ثمانية في الدّولة المرادية، وزيادة على ذلك فإنّ قاضي المحلّة في الدّولتين الحفصية والمرادية، كان من فقهاء المالكية، ومنهم أيضاً كان قاضي باردو في الدّولة الحسينية، وباردو كان موجوداً في المائة السابعة وما بعدها بعنوان دور وبساتين ومنتزهات لبني حفص، سكنه بعدهم المراديون بالعنوان المذكور، فلّما أفضت الولاية للمولى حسين بن

---

(10) هي الفتوى بمشهور المذهب، حتى إذا اختلف الشّيوخ في الرّأي، كان الأمير حكماً بينهم، يعني بترجيح شقّ على شقّ بصفته قاضي القضاة التي هي من حقوقه الشّرعية.

(11) [مسامرات الظريف «للشيخ محمد السنوسي»].

علي، اتّخذه دار ملك، ونصّب به قاضياً مالكياً كما أسلفنا. وكان هؤلاء القضاة هم المترشّحون لقضاء الجماعة بتونس، وتبعاً لذلك كان قاضي الفريضة من المالكية أيضاً، وكان يجلس ببيت المال. وبيت المال كانوا يسمّونه بيت الحساب على عهد الدّولة الحفصية فيما حكاه الفقيه الزّركشي، ممّا يدلّ وأنّه كان لهم ديوان منتظم الأحوال لضبط حساباتهم، وكان القائم على رأس هذا الديوان، وزير المال، ويسمّونه في مصطلحهم صاحب الأشغال، ويكتب عليه شاهد، لقبه شاهد التنفيذ. وفي كتاب ابتسام العروس، لمّا توفّي وليّ الله سيّدي أحمد بن عروس، تولّى جنازته صاحب الأشغال، بأمر السّلطان محمد المنتصر الحفصي. وعلى قياس قاضي الفريضة، كان قاضي الأهلّة، وما زالت أحكام الرّؤية حتى في هذا الزّمان جارية على قواعد مذهب إمام دار الهجرة رضي الله عنه، لأنّ ازدواج الحكم بما أنزل الله في حالة وجود مذهبين قائمين في وقت واحد ببلد واحد، قاد أهل الأمر والنّهي للبحث عن أيسر الطّرق لإقامة قسطاس الشّريعة بين النّاس:

وكلهم من رسول الله ملتمس　　　غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيَمِ

لذلك جعلوا النظر في بعض المسائل الشّرعية من علائق المذهب المالكي، كما جرى بمثله العمل في بعض المسائل الأخرى التي خصّوها بالمذهب الحنفي، كالتّحابيس التي يكفي في انعقادها قولك: حبّست على ما أفتى به الإمام أبو يوسف رضي الله عنه، وهذا أقصى درجات اليسر، إذ يتمّ المقصود منه بكلمة واحدة.

ولا يوجد في زماننا هذا أدنى ميز أو شبه ميز بين قاضي المذهبين، فهما إخوان في الله، شقيقان في العلم، مستويان في الحظوة والحظوظ، متّحدان في الحقوق والواجبات، حصل بينهما هذا التّساوي الحقّ كحصوله بين بقيّة شيوخ المذهبين في عهد المشير أحمد باي الأوّل سنة 1256 [1840]، وإلى ذلك يشير شيخ الشّيوخ، وطود الرّسوخ، أبو إسحاق إبراهيم الرّياحي بقوله:

جرى لبن من ثدي أحمد فارتوى　　　به حنفيّ في الإخاء ومالكي

وأكّد الباي هذه المنقبة الخالدة بالإذن لقاضي المالكية يومئذ، وهو صديقه الشّيخ محمد بن سلامة، باتّخاذ طابع له كقاضي الحنفّية. نعم إن الوزير خير الدّين أجرى في أواخر القرن الماضي جراية استثنائية لشيخ الإسلام، وأخرى بنحو نصفها للقاضي المالكي، ولكنّ ذلك كان في مقابلة مشاركتهما له في خدمات خصوصية أثناء إنجازه لمشروع الإصلاح الذي قام به يومئذ لفائدة البلاد التونسية، على أنّ كافّة شيوخ المجلسين، كانوا في ذلك الزمان وقبله، متمتّعين بمنح استثنائية كثيرة، منها تزويد من يتقدّم منهم للخطّة الشّريفة، بفرس، وسرج لركوبه. ولقد رأيت في كنّاش الشّيخ الجدّ، أنّ الباي بعث له «بفرس هشوش، وحكّة نشوق بعطر الفشوش»[12] ولما راج سوق العربات وهي الكَرُّوسَة[13] صارت الدّولة تسعفهم بعربة لركوبهم. فقد رأيت في بعض التّقاييد أنّ الباي أحسن بثلاثة آلاف وستّمائة ريال للقاضي الشّيخ الطاهر النيفر بعنوان كرّوسة لركوبه في عام 1291 [1874] وكانوا يعطونهم الجوخ (الملف) اللاّزم لكسائهم، والعلف اللاّزم لدوابّهم، وكان من يلتحق منهم بالدّار الآخرة، تتولّى الدّولة القيام بشؤون مأتمه، تنويهاً بشأنه واحتراماً لمنصبه الشّرعي، فكان مصروف جنازة المفتي الشّيخ علي العفيف في رجب 1292 [1875] ريالات (2480) على يد شيخ المدينة. فإن قلت إنّ سلطة القاضي الشّرعية كانت شاملة جامعة في القرون المتقدّمة، وها هي اليوم باتت منحصرة في قانون الأحوال الشّخصية، وفي نوازل الاستحقاق بين الرّعايا، قلنا إنّ هذا التّجريد لم يكن من عمل أهل جيل واحد، بل هو نتيجة تطوّرات كثيرة في أجيال متتابعة أفضت بنا لما نحن عليه، ومن المعلوم أنّ سفينة الدّهر تجري في مجاري المشيئة، فحسبنا الدّعاء بأن يكون مرساها على ساحل السّلامة.

---

(12) هذه الحكّة كانت مرصّعة بالحجارة الكريمة، والشّيخ الجدّ كان زاهداً في دنياه، وِرْدُهُ الحديث وأكله ما حضر، فدفعها لزوجته، وهذه باعتها واشترت بثمنها داراً بجبل المنار

(13) لفظ معرّب من Carrozza في اللغة الطليانية. قال في المؤنس: إنّ ظهور الكَرُّوسَة بتونس كان على عهد الدولة المرادية جيء بها (من أوروبا) لركوب حمودة باشا المرادي.

ومهما كان الحال، فقد بقي للقاضي الشّرعي ولشيوخ الفتوى زيادة على وظائفهم القضائية، مهمّتهم الدّينية، وهذه ولله الحمد، لا زالت في قرار مكين، واسعة المدى، سميعة النداء، ملتحفة برداء التّعظيم والإجلال، معتزّة بالسّؤدد والكمال، وسنوفيهـا حقّها إن شاء الله في العدد القابل، مع التعّريف بمسندي مشيخة الإسلام وعلاقة أهل العلم بأهل الدّولة، ونختم كلامي اليوم، بسرد أسماء مشائخ المذهبين الذين تسنّموا ذروة القضاء الشرعي بتونس في بحر المائتي سنة المتّصلتين بعامنا الحاضر، مع بيان تاريخ الولاية، والحمد لله في البداية والنّهاية:

القضاة الحنفية

الشيخ أحمد الطّرودي	تولّى سنة 1157 [1744]
الشيخ يوسف القفّال	تولّى سنة 1161 [1748]
الشيخ مصطفى الطّرودي	تولّى سنة 1167[1753]
الشيخ علي الجربي بن عمر	تولّى سنة 1171 [1757]
الشيخ عمر بوشناق	تولّى سنة 1172 [1758]
الشيخ خليل خوجة	تولّى سنة 1177[1763]
الشيخ مراد بوسيكة	تولّى سنة 1180 [1766]
الشيخ محمد قارة باطاق	تولّى سنة 1190 [1776]
الشيخ محمد بيرم الثلني	تولّى سنة 1192 [1778]
الشيخ حسونة التّرجمان	تولّى سنة 1193 [1779]
الشيخ محمد بيرم الثّاني (مرّة ثانية)	تولّى سنة 1194[1780]
الشيخ حسين برناز	تولّى سنة 1215[1800]
الشيخ أحمد بن الخوجة الأوّل	تولّى سنة 1219[1804]
الشيخ مصطفى دنقزلي	تولّى سنة 1229 [1813]
الشيخ علي الدرويش	تولّى سنة 1232[1816]
الشيخ محمد بن الخوجة	تولّى سنة 1251[1835]

الشيخ محمود بن باكير تولّى سنة 1259 [1843]

الشيخ مصطفى بيرم تولّى سنة 1262 [1845]

الشيخ أحمد بن الخوجة الثّاني تولّى سنة 1277 [1860]

الشيخ حسن بن الخوجة تولّى سنة 1279 [1862]

الشيخ محمد البارودي تولّى سنة 1285 [1868]

الشيخ محمد بن مصطفى بيرم تولّى سنة 1290 [1873]

الشيخ محمود بيرم تولّى سنة 1309[1891]

الشيخ إسماعيل الصفايحي تولّى سنة 1315 [1897]

الشيخ محمود بن محمود تولّى سنة 1325 [1907]

الشيخ محمد بن القاضي تولّى سنة 1331 [1912]

الشيخ محمد رضوان تولّى سنة 1335 [1916]

الشيخ الطيب بيرم تولّى سنة 349[1930]

الشيخ محمد دامرجي تولّى سنة 1351[1932]

القضاة المالكية

الشيخ محمد سعادة تولّى سنة 1157 [1744]

الشيخ محمد الوافي المثلوثي تولّى سنة 1170 [1756]

الشيخ محمد الكافي تولّى سنة 1171 [1757]

الشيخ إبراهيم المزاج تولّى سنة 1172 [1758]

الشيخ سعيد الشّيبوني تولّى سنة 1175 [1761]

الشيخ محمد سويسي تولّى سنة 1199[1784]

الشيخ محمد الطّويبي تولّى سنة 1204 [1789]

الشيخ عمر المحجوب] تولّى سنة 1217 [1802]

الشيخ إسماعيل التميمي تولّى سنة 1221 [1806]

الشيخ أحمد بو خريص تولّى سنة 1230 [1814]

الشيخ إسماعيل التميمي مرّة ثانية تولّى سنة 1230 [1814]

الشيخ سالم المحجوب — تولّى سنة 1234 [1818]
الشيخ الشاذلي بن المؤدّب — تولّى سنة 1241 [1825]
الشيخ البحري بن عبد السّتّار — تولّى سنة 1242 [1826]
الشيخ محمد السّنوسي بن منية — تولّى سنة 1254 [1838]
الشيخ محمد بن سلامة — تولّى سنة 1255 [1839]
الشيخ محمد البنّاء — تولّى سنة 1261 [1845]
الشيخ محمد النّيفر — تولّى سنة 1263 [1846]
الشيخ الطاهر بن عاشور الأوّل — تولّى سنة 1267 [1850]
الشيخ صالح النّيفر — تولّى سنة 1277 [1860]
الشيخ محمد النّيفر — تولّى سنة 1280 [1863]
الشيخ الطاهر النّيفر — تولّى سنة 1290 [1873]
الشيخ الطيب النّيفر — تولّى سنة 1311 [1893]
الشيخ محمد القصّار — تولّى سنة 1325 [1907]
الشيخ الطّاهر بن عاشور الثّاني — تولّى سنة 1331 [1912]
الشيخ الصّادق النيفر — تولّى سنة 1341 [1922]
الشيخ صالح المالقي — تولّى سنة 1347 [1928]
الشيخ الطيب سياله — تولّى سنة 1352 [1933](*)

(3)

قلنا في المقالة الثّانية من هذا المبحث، إنّ سفينة الدّهر تجري في بحار المشيئة، وأنّ انحصار سلطة القاضي الشّرعي في نوازل الاستحقاق بين الرّعايا وفي أحكام الأحوال الشّخصية من أنكحة، ومواريث، وشبه ذلك، إنّما هو ثمرة تطوّرات وفيرة في أجيال كثيرة، وحسب الإنسان الخبير بتقلّبات الزّمان، أن لا يستنتج من ذلك أكثر من العبرة التّاريخية التي يجد لها نظائر وأشباهاً كثيرة في بطون الدّفاتر والكتب، ففي عهد انحطاط الدّولة العبّاسية، كان القضاء يعطي

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 3 ـ الجزء 5 (ماي 1939).

التزاماً بالمقاولة (بالسّوق والدّلّال) على أن يستبدّ القاضي بفروض التّعيين ونحوها، في مقابلة مال سنوي يدفعه للحاكم، وأوّل من التزمه عبد الله بن الحسين بن أبي الشّوارب في بغداد سنة 350 [961] بمقدار مائتي ألف درهم، وكان ذلك مبدأ السّعي في طرق استنزاف أموال الخصوم وأرزاق اليتامى، ومن أجل ذلك وشبهه أحدثوا ديوان المظالم، للنّظر في ظلامات النّاس، من اعتداء العمّال والقضاة، وكان أوّل ظهوره بالدّولة الفاطمية بمصر، والحديث هنا قاصر على رجال الشّرع المطهّر بهذه الدّيار التونسية المختارة في هذا الزمان، وهم بفضل صبغتهم الدّينية المستمدة في أصلها من الانتساب لصاحب الشّريعة صلّى الله عليه وسلّم، أحرزوا بحقّ وجدارة على منزلة محطة بسياج المهابة والإجلال في نظر عامّة المسلمين، وهذه الحيثية الدّينية الشّريفة نراها نضجت وأخذت نصابا من الرّسوخ في الأذهان، بفضل ما توفّق له علماء العصور الماضية من مظاهر التّقوى، والانقطاع لجناب الأقدس، والسّير على سنن من سلفهم من أيمة الدّين وأقطاب الملّة بهذه الدّيار، وما زالوا بفضل الله وتوفيقه آخذين بذلك طبقة بعد طبقة، إلى هذا الزّمان، فالفقيه المتوفّرة فيه تلك الصّفات، صفات التّقوى والعلم والعمل، حقّ علينا أن نرعى له الذّمام، وأن نستمدّ من أنوار فضله، وأن نسعى إليه بتحيّة طيّبة وسلام، ولننتقل الآن للتّعريف بمنصب شيخ الإسلام بتونس، فهذا اللّقب الطّنّان العالي، كان في المائة السّابعة، وكثير غيره من أيمة الدّين قبله وبعده.

ويلوح أنّ ظهور الألقاب التّفخيمية في الإسلام، كان بظهور السّلطة الفارسية في جسم الخلافة العبّاسية، وأوّل بارقة ظهرت من ذلك التلقيب بمثل جلال الدّين، وشمس الدّين، وشهاب الدين في أهل العلم، وعضد الدّولة، ونظام الملك، ويمين الدّولة في رجال السياسة، حتى إذا استقرّت الخلافة في ظل عثمان، اتّخذوا لهم شيخاً للإسلام بالعنوان الرّسمي، له حقّ الإشراف على دواليب النّظام الشّرعي بأجمعه كما سيأتي بيانه، وبالتّالي راج استعمال لقب شيخ الإسلام بتونس بعد دخولها في طاعة آل عثمان فكانوا في سنة 1133 [1720] يلقّبون الفقيه الشّيخ علي الصّوفي، من أيمّة الحنفية، بشيخ الإسلام، ولم يكن

لهم يومئذ بتونس غير مفتيين وقضاة، بل كانوا يلقّبون معه في وقت واحد ثلاثة نفر آخرين من العلماء بلقب شيخ الإسلام. سأل بعض علماء الأزهر صاحب مجلّة المنار، أيّام كان يشارك في تحريرها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الدّيار المصرية عن تاريخ منصب شيخ الإسلام، فأجابه بما يأتي: هذا اللّقب من الألقاب الحادثة لمنصب حادث، ووظيفة شيخ الإسلام في الدّولة العثمانية، الفتوى الرسمية، فهو المفتي الأكبر في المملكة، وأحد أعضاء مجلس الوزراء، وقد وضع الملوك هذا المنصب بعدما صارت أمور المسلمين في أيدي الجاهلين بالشّرع من السلاطين، وأعوانهم الوزراء، فمن دونهم، وكانوا محتاجين إلى من يفيدهم حكم الشّرع في بعض ما يعرض لهم في سياستهم للأمّة، لا سيما قبل أن يستبدلوا القانون بالشّرع في كثير من أحكامهم، وكان اختراع هذا اللّقب في أوائل القرن التاسع زمن السّلطان مراد خان الثاني الذي ولي السلطنة في الثامنة عشر من عمره، وقد وليه في زمنه محمد شمس الدين سنة 828 [1424] وفخر الدين العجمي سنة 834 [1430]. وشيخ الإسلام في الدّولة هو الذي يولّي القضاة والمفتين في المملكة كلّها بإذن السلطان. هذا هو اللقب الرسمي، والعلماء كانوا يطلقونه على البارعين في علم السنة وفقه الدين، كابن تيمية، والعزّ بن عبد السلام، ويطلقونه في مصر على شيخ الجامع الأزهر اهـ.

أمّا في تونس، فقد اشتهر لقب شيخ الإسلام بها بعد سفر الشّيخ علي الصّوفي للآستانة في مأمورية رسمية وعوده منها لهذه الديار، فكان أهل العلم يطلقون هذا اللّقب على من ينفرد بالتّفوّق بينهم من شيوخهم سواء كان حنفياً أو مالكياً، ولكنّ ذلك لم يكن نعتاً رسمياً لهم في نظام الدّولة، بل كانوا الرّسميات يلقّبون كبير المفتين تارة بالمفتي الأوّل، وآونة بالمفتي الأكبر، إلى أن استقرّ عنوانه الرسميّ في لقب الباش مفتي. ومعنى «باش» في التّركية «رأس» فالباش مفتي، معناه رأس الفتوى، أو رأس المفتيين. وهكذا استرسل الأمر إلى دولة المشير أحمد باي الأول، ولمّا عاد في سنة 1263 [1846] من رحلته لفرنسا بعد أن شاهد هنالك فخامة الملك وقوة السّلطان، حدّثته نفسه بما طبع عليه من الجنوح للتّعالي في مذاهبه أن يجاري السّلاطين والملوك بالأبنية المشمخرّة،

كقصور المحمّدية، وبالمظاهر السلطانية في نظام الدّولة، فوضع ترتيباً لنيشان الافتخار الذي ابتكره أبوه، وهذّب أساليبه، وأحدث رتبة الفارق في الجيش، متخطّياً في ذلك الحدّ المضروب له في الولايات العسكرية من لدن الباب العالي، كما أنجز ما كان عزم عليه من قبل بسنوات(14) من إمناح لقب شيخ إسلام بالعنوان الرسمي لرئيس فقهاء الحنفية ولقّب به باش مفتي الحنفية العلاّمة الشّيخ محمد بيرم الرابع، ولكنّه اكتفى بإمناحه هذا اللّقب الديني بالقول الذّكري لا بالقول الكتابي، تحاشياً من مزاحمة الباب العالي في خطّة من الخطط الرّئيسية بالدّولة العثمانية، وبمقتضاه استمرّ إصدار مرسوم الولاية للباش مفتي الحنفي بعنوان كبير المفتين الحنفي، ولكنّهم كانوا يحلونه وينعتونه في غير مرسوم الولاية بشيخ الإسلام(15)، ويلوح أنّ أوّل من امتاز بلقب شيخ الإسلام بعنوان خطّة في مرسوم ولايته، هو العّلامة الشيخ أحمد ابن الخوجة حسبما يستفاد ذلك من هذه العبارة المدرجة بالقسم الرّسمي من الرائد التونسي. قال في عدد 9 المؤرخ في 29 صفر 1294 [1877].

«في صبيحة يوم السّبت السّادس والعشرين من شهر التّاريخ، أولى المعّظم الأرفع مولانا وسيّدنا أدام الله عزّه، الفاضل الهمام، وأحد علماء الإسلام، الجهبذ الشّيخ سيدي أحمد بن الخوجة مشيخة الإسلام بتونس، وذلك بالقصر السّعيد، جعلها الله ولاية سعيدة ميمونة حميدة أهـ.».

وهذا الشّيخ رحمه الله هو الذي ألبس في العهود المتأخرّة خطّة المشيخة ثوب الإجلال والإعظام، وكساها حلّة الفخر والإكرام، ولّما التحق بالدّار الآخرة في خامس حجة سنة 1313 [1896]، تقدّم مكانه العلاّمة الشّيخ أحمد

(14) ورد في ظهير عتق العبيد الصادر في محرم 1262 [1845] تلقيب الشيخ محمد بيرم شيخ الإسلام والشّيخ إبراهيم الرّياحي بباش مفتي المالكية

(15) مما يؤيد هذه الحقيقة عبارة الوثيقة التاريخية الآتي نصّها:

«من عبدالله سبحانه، الرّاجي عفوه وإحسانه، المشير محمد الصادق باشا باي، سدد الله أعماله، وبلّغه من إعزاز هذا القطر آماله، أمّا بعد: فإنّ العلم الهمام، الحجّة شيخ الإسلام، محبّنا الشيخ سي محمد بن الخوجة أوليناه نظارة دار الشّريعة، يتعاطى النّظر في ذلك كمن كان قبله، وأوصينا له بمزيد الإجلال والسلام. وكتب في 10 جمادى الأولى سنة 1278 [1861].

كريّم، فكان ظهير ولايته صريحاً بعنوان شيخ الإسلام، ننقل هنا عبارتـه بالوقوف عليه: «سبحان من جعل الحمد فاتحة القرآن، وخاتمة دعاء أهل الجنان، وشرّف نوع الإنسان بإرسال الرّسل، لتشريع الشّرائع وتوضيح السّبل، نشكرك على ما أوليت من مواهب الإحسان، حمداً وشكراً يسخدمان من الإنسان القلب واللسان، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد فائدة الكون ومعناه، الذي لا ينام قلبه إذا نامت عيناه، وعلى آله وأصحابه حفظة الدّين، وأيمّة المهتدين. أمّا بعد: فهذا ظهير عظيم، وكتاب كريم، يقابل بالإذعان والتّسليم، لنفعه العميم، أنتج الحق قياسه، وبني على الشّرع أساسه، أصدرناه إلى من يقف عليه من العلماء الأعلام، مشائخ الإسلام، وأبنائنا أمراء الأمراء أعيان الوزراء، وأمراء الألوية، وأمراء الألايات، وقائمي المقامات، وأمناء الألايات، والبنباشية، وكافّة الجنود العسكرية، وسائر أولي الولايات، فيما لنا من الجهات، شرح الله تعالى للحقّ صدورهم، واستعمل في رضاه أميرهم ومأمورهم، ليعلموا أنّ الهمام النّحرير، العالم العلاّمة الشيخ سي أحمد كريم، قدّمناه على بركة الله تعالى، وجعلناه شيخ الإسلام بمملكتنا التونسية، يفتي ويحكم بمشهور مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان رضي الله تعلى عنه وعن بقية الأيمّة المهتدين، وما جرى به العمل مع مراعاة ترتيب دار الشّريعة المعمورة، موصى في الإبرام والنّقض بتقوى من يعلم خفيّـات السّماوات والأرض، وصيّة صدرت مصدر الذّكرى التي تنفع، ويعلي الله بها الدّرجات ويرفع، كما أوصينا له بمزيد التّعظيم والإجلال، ومعرفة ما له من الكمال، وصون منصبه الشّرعي عن الإخلال، والأمر لله وحده الكبير المتعال، والسّلام من الفقير إلى ربّه تعلى عبده علي باشا باي صاحب المملكة التونسية وفقه الله، وكتب في 8 يوم الأربعاء من ذي الحّجة الحرام سنة 1313، الموافق للّتاسع عشر من ماي سنة 1896أهـ».

واسترسلت ولاية المشيخة بنظامها المتقدّم في فقهاء الحنفية إلى محرم 1351[1932] وفيه شغرت الخطّة فوقع ازدواجها بإحداث أخت لها على مذهب

إمام دار الهجرة رضي الله عنه، وإسنادها لكبير **أهل الشّورى المالكية**[16]، وألغي عندئذ لقب الباش مفتي المالكي بتونس، كما ألغي قبله بزمن طويل لقب باش مفتي الحنفية، وبهذا الازدواج الذي كان متوقّعاً من قبل، حصل التّساوي الحقّ بين قطبي الشّريعة صاحبي الفضيلة إمامي المذهبين الزّكيّين، وأعلن ذلك بمنشور وزيري صدر للعمّال لإذاعته في آفاق المملكة التونسية.

ولننتقل الآن للكلام على علاقة أهل العلم بأهل الدّولة، ففي البداية نقول: إن أهل العلم كانوا في القرون الأولى يتحرّجون من الالتحام والانتساب لأهل الدّولة اتقاء الزّيغ عن الصّراط المستقيم وإليك نموذج في صحّة ذلك. قال القاضي أبو الفضل عياض في كتاب المدارك: لمّا ثار القوبيع على محمد بن الأغلب، قال بعض القواد: اليوم سيتمكّن من سحنون إمّا يخسر دينه أو دنياه، فقالوا للأمير سحنون داعية مطاع فأمره بنصرك على هذا الخارجي، فبعث فيه الأمير وأعلمه بالأمر واستشاره في قتاله، وأن يعلم النّاس بعرض ذلك عليهم، فقال له سحنون: غشّك من دلّك على هذا، متى كانت القضاة تشاورها الملوك في صلاح سلطانها، ونهض من عنده أهـ.

قلت هذا الإعراض الذي تلقى به سحنون دعوة الأمير الأغلبي لتأييده ومناصرته على عدوّه ربّما يقول قائل إنه لم يكن ذلك بالقاعدة المطّردة في علائق الملوك بأهل العلم، وهذه نظرية صحيحة لأنّ التّاريخ يثبت اختيار الملوك في مهمّة القضاء لمن يكون معاضداً لسياستهم، وموافقاً لمشربهم كما تقدّم بسطه في المقالة الأولى من هذا المبحث، ولكنّ التاريخ يرينا من ناحية أخرى، أنّ أهل العلم كانوا في كلّ عصر يمثّلون العنصر المغالب لذوي السّلطان على أمرهم، فالخليفة المستنصر بالله، ثاني سلاطين بني حفص، لمّا قال للفقيه ابن عصفور: قد أصبح اليوم ملكنا عظيماً، أجابه ابن عصفور بقوله: بنا وبأمثالنا فهذا الجواب - ولئن كان فيه حتف ابن عصفور - يرينا ثبات عزيمة هذا الفقيه،

---

(16) [أسندت خطة شيخ الإسلام المالكي للمرّة الأولى إلى المغفور له الإمام محمد الطاهر بن عاشور في سنة 1932].

ورسوخ قدمه في المجتمع التّونسي يومئذ. نعم إنّه أبان من ناحية أخرى أنّ الفقهاء أبعد الناس عن السّياسة، إذ كان عليه أن ينظر في ماذا سيكون صنيع الخليفة بعد سماعه لمثل تلك العبارة، وهو إنّما تفاخر بعظم سلطانه لاستطلاع رأيه فيه. وأمثال هذا التّناطح بين ولاة الأمور وبين أهل العلم كثيرة في كتب التاريخ، إلى عهود متأخّرة. فتدخّلات الشيخ إبراهيم الرّياحي رضي الله عنه بالنّقد والتّفنيد، وعبارات الوعيد فيما كان يراه زيغاً من سلوك بعض أولي الحلّ والعقد عن منهاج الشّريعة، فيها الدّلالة الكافية على أنّ أهل الدولة كانوا في شقّ، وأهل العلم في شقّ آخر. وهذا الشّيخ الجدّ، وهو وسلفه وعقبه من صنيع البيت الحسيني، بعث له المشير أحمد باي ذات يوم معينه صالح شيبوب، لاستفسار خاطره وسؤاله عن صحّته، وفي أثناء الحديث قال المعين للشّيخ رحمه الله: إنّ سيّدنا بعثني معاتباً من أجل طول مغيبك عنه، فقال الشّيخ للمعين:

قـل لـلأمـير نـصـيـحـة لا تـركـنـنّ إلى فـقـيـه
إنّ الـفـقـيـه إذا أتى أبـوابـكـم لا خـير فـيـه

ثمّ بسط كفّيه لباري النّسمات، وباعث الرّفات، ودعا للمولى الأمير بسعادتي الدّنيا والآخرة، وقال لمبعوثه: أشهدك أنّي وهبت ثواب هذه السّلكة التي بين يدي من صحيح البخاري، لسيّدنا المشير، دامت معاليه، وسعدت أيّامه ولياليه أهـ.

ولنضرب لك مثالاً آخر في معنى تحرّج العلماء من الوزراء. ففي سنة 1287 [1870] شغرت بجامع الزّيتونة خطّة مدرّس من الطّبقة الأولى، وراج عند ذلك بين العلماء اسم المرحوم **الشّيخ أحمد الورتتاني**(17) واستحقاقه لتولّي التدريس من الرتبة الثّانية التي ستكون شاغرة بتقدّم صاحبها للخطّة المنحلّة بالطّبقة الأولى، فلمّا كلّموا في ذلك شيخ الإسلام الشيخ محمد معاوية، قال:

---

(17) [انظر ترجمة الشيخ أحمد الورتتاني في «تراجم الأعلام» للشيخ محمد الفاضل بن عاشور- ص 59].

ذلك رجل له صلة بأهل المخزن، يعني برجال الدّولة، ونقلت العبارة للوزير مصطفى خزندار، فاستصدر في الحال مكتوباً من سموّ الباي المعظّم للمشائخ النّظّار في اختيار الشّيخ الورتتاني للتّدريس بداية بالرّتبة الأولى، وهذه الولاية لها أختان شبيهتان بها في تاريخ جامع الزّيتونة، ولولا خوف الإطالة لذكرتها هنا، ولكنّ قراء المجلة سيجدون إن شاء الله ذلك بالتّفصيل في كتابي «معالم التّوحيد في القديم وفي الجديد» الممثّل الآن للطبع.

ولننظر الآن في علائق العلماء مع أهل الدّولة بحصر المعنى، أي من حيث الوضع الرّسمي الذي هو خطّ السير في هذا الزّمان فنقول: يظهر فيما يلوح أنّ مشروع عهد الأمان كان فاتحة عصر جديد في تلك العلائق، فإنّ فقهاء المذهبين أحضرهم المشير محمد باي يوم إعلانه بذلك المشروع في سنة 1274 [1857] وأحضر معهم في مجلس واحد أهل دولته، وقناصل الدّول، وكبار القسّيسين والرّهبان، وأحبار اليهود، فكان هذا أوّل اجتماع لأهل الشّريعة بأهل السّياسة في مجلس رسمي حفيل، لمصلحة عمومية تهمّ الإيالة التّونسية، وأوّل الغيث قطر ثم ينهمر، ومعلوم أنّ عصر المشير محمد باي، جاء متمّماً بطبيعة حاله لعصر سلفه المشير أحمد باي الذي أوجد كما أسلفنا تطوّراً عظيماً بنظم الدّولة، وسلطة الدّولة تشمل البرّ والفاجر، فكان لا محيص لأهل العلم من مسايرة تيّار المستجدّات العصرية التي قضى بها الزّمان في تلك الأثناء، ولا سيما في عصر الدولة الصادقية الذي هو عصر الاصلاحات الجامعة الشّاملة التي قام بها المصلح الكبير الوزير خير الدين في دواوين الدّولة، ودواليب الأعمال، ومجالس الأحكام من شرعية ووضعية وعرفية، وهنا نصل بالقارىء الكريم للعقد الأخير من القرن الهجري الماضي.

في هذا العقد امتاز جماعة من فقهاء المذهبين بفهم أسرار الشّريعة، ومعاضدة خير الدين بتأييده في سياسته، وإعانته على مشروع الإصلاح المشار إليه، وكان في مقدّمة هذه الطّائفة الصالحة من العلماء، شيخ الإسلام الشّيخ أحمد بن الخوجة، وبقية رجالها هم: الشّيخ مصطفى رضوان، والشّيخ محمد

بيرم، والشّيخ الطاهر النيفر، والشّيخ عمر بن الشّيخ، فهؤلاء الأعلام كانت لهم يد عاملة في مقام الإصلاح، وبمشاركتهم وقع تأسيس المدرسة الصّادقية التي كان القصد من إحداثها إيجاد طائفة من أبناء البلاد، جديرة بالمشاركة في تسيير سفينة الأحوال بهذه الدّيار، ولم يمرّ غير زمن قليل حتّى ظهرت نتائج مشروع الوزير خير الدين فيما توخّاه من النّهوض بالبلاد في طرق الإصلاح، وانشرحت الصّدور، واستبشر النّاس، وقالوا حيّ على الفلاح.

ولما استهلّ عصر الحماية، كان أهل العلم بحالة فهم لتلك المقدّمات، وعلى تهيّؤ واستعداد لمجاراة الحالة الجديدة، ولكنّ كثيرهم كانوا يخشون الفكر العام، لأن لفيف الأمّة كانوا في مدارك الجهالة بالحالة السّياسية الحادثة، لأنّه مرّت عليهم القرون وهم لا يرون الضّوء، إلاّ من سَمِّ الخِيَاط، ناهيك أنّ الشّيوخ تحاشوا عن المشاركة في عيد الجمهورية عند إقامة موسمه الأوّل بتونس، فكان ذلك حاملاً للوزير المقيم مسيو (كمبون) على إلزامهم بالحضور في موسم العام التالي[18]، ولمّا وجّهت دولة الحماية عنايتها نحو تدوين القانون العقاري، عقد مسيو (كمبون) لذلك مجلساً من أهل الدّولة، ومن علماء الحقوق،

---

(18) هذا الحادث نقلته مجلة العالمين بأوضح بيان ضمن مجموعة رسائل صدرت من الوزير مسيو كمبون لزوجته في سنة 1884 نشرتها المجلّة المذكورة بعد وفاة هذا الوزير الخطير في سنة 1924 ومما تضمنته تلك الرسائل تصريح مسيو كمبون بأنّ الكردينال لافيجري كان في مقدّمة المعاضدين له على إنجاز مشروع الحماية وعلى تأييد شوكة فرنسا بتونس نتقل هذا الاعتراف هنا ليتدبّر القارىء الكريم الفرق بين حيثية العالم الديني في بلاد الإسلام وبين حيثية العالم النّصراني بأوروبا والكردينال لافيجري كان محرزاً على خمس دكتوريات. كان دكتوراً في العلوم، ودكتوراً في الآداب، ودكتوراً في الفلسفة، ودكتوراً في الحقوق، ودكتوراً في علوم اللاهوت. ونحن ما زلنا نقوم ونقعد إذا رأينا فقيهاً امتاز بين أقرانه بالتّفوّق بفضل علمه ونشاطه وذكائه الفطري، ووقوفه على أسرار الشّريعة بما لا مانع فيه من حضور مظهر سياسي أو احتفال أو سعي لزيارة أو ردّها لبعض أهل الحلّ والعقد أو شبه ذلك، ولانعدم عند ذلك قيام بعض المتبرّئين من دم البراغيث بدسّ السّمّ في الدّسم، والقول بأنّ ذلك السّلوك من متعلّقات أهل الدّولة لا من متعلّقات أهل العلم، وحسب هؤلاء الإعراض عن السّياسة والاكتفاء بالتّطيلس والرئاسة.

وعلمـاء الشّريعـة، فكان هـذا المجلس فاتحـة مستقبل سعيـد، ومنهـج قويم سلكه الفقهاء في علائقهم مع الدّولة، وطبعاً وقع التّوسّع بالتالي في هاتيك العلائق لمصلحة الجانبين، ولّما اعتدت يد أثيمة على جميل الذّكر صاحب الفخامة مسيو (سعدي كارنو) (SADI CARNOT) رئيس الجمهورية في سنة 1311 [1893] بمعرض ليون، كتب بعض أهل العلم من ذوي الشّخصيات البارزة تعزية في ذلك لجناب الوزير المقيم، فلّما شاع خبر هذه التّعزية بين النّاس، قام بعض المذبذبين يقول إنّ مثل هذا السّعي من علائق أهل السياسة لا من وظائف أهل العلم، وكأنّه تعامى أو تجاهل بما ورد في الصّحيح من أنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم، سعى بذاته الشّريفة لعيادة جار له من اليهود. واتّفق أنّ الدّولة عزمت يومئذ على تشريك معالم الدّين في مظاهر الحداد بنشر الرّاية التونسية معصّبة بالسّواد فوق واجهات بيوت العبادة قياساً على العادة الجاري بها العمل بأوروبا، فاستدعى الكاتب العام معتمد الجمعية صاحبنا السيد البشير صفر ليأذنه بإتمام ما استقرّ عليه الرأي، وعندها لاحظ المعتمد بأنّ أيمّة الدّين الإسلامي أعربوا عن شواهد أسفهم بالمكتوب الذي أرسله زعيمهم لجناب المقيم، ويظهر أنّ في ذلك كفاية، لأنّ المساجد عندنا لا علاقة لها بالسّياسة، بل هي بيوت للعبادة وحسب، وإن كان ولا بدّ من مظهر علني في ذلك، فليكن نشر الرّاية التّونسية فوق أبواب أمّهات المدارس،كمدرسة حوانيت عاشور وغيرها، فاستحسن الكاتب العام هذا الجواب المقنع، وكان العمل بمقتضاه، وفي هذا السّلوك دليل قاطع بصحّة ما هو متعلّق بالأذهان من احترام الأمّة الحامية لعقائد ومعابد الأمّة المحمية.

وكان الشّيخ أحمد بن الخوجة رحمه الله، يحضر حفلة التّكريم التي يقيمها المجلس البلدي للمقدّس المولى علي باي ليلة المولد الشّريف، بحضور رجال الحماية، وسموّ الباي يجلسه ليمينه بذلك المقام، واتّفق له أيضاً حضور حفلات توزيع المكارم على التلامذة المبرّزين بالمدرسة العلوية مع المقيم العام (م. كمبون)، وبمدرسة كارنو مع (م. ماز) من أعضاء مجلس الشّيوخ بفرنسا، ولقد

حضرت مرّة بدار السّفارة في جملة من شرّفهم الوزير المقيم (م. ريني ميلي)[19] بالاستدعاء لمشاهدة مناظر حيّة من معمل خالد الذّكر الأستاذ (باستور) منقذ الجنس البشري من داء الكلب[20]، فكان في مقدّمة الحضور العلاّمة الشّيخ أحمد كريم شيخ الإسلام، والمفتي الثّاني الشّيخ محمود ابن الخوجة، ولّما قدم فخامة (مسيو لوبي) (EMILE LOUBET) رئيس الجمهورية لزيارة تونس وملكها المقدّس المولى محمد الهادي باي، سعى شيوخ المذهبين للسّلام عليه بالسّفارة العامةّ، وحضر شيخا الإسلام الشّيخ محمود بن الخوجة، والشّيخ أحمد الشريف مع فخامته بميدان الملاّسين لاستعراض مشائخ الطّرق ومريديها، وهكذا كان صنيعهم عند زيارة أخلافه بمسند الرّئاسة الجمهورية: فخامة (مسيو فليار) FALLIERES وفخامة (مسيو ميلران) MILLERAN وفخامة (مسيو دومرق) DOUMERGUE وكلّما تكرّر قدوم مقيم جديد، سعى الشّيوخ للسّلام عليه، وعرض شواهد الصّفاء والوفاء، واعتمادهم على الدّولة الحامية في مقام مناصرة الشّريعة وصونها ورجالها من طوارق الحدثان، الأمر الذي وفّت به فرنسا شبراً بشبر في بحر هذه السّتّين سنة، ليرى مبصر ويسمع واع، وأنا بنفسي صاحبت شيوخ المذهبين للتّرجمة بينهم وبن الفقيد الوزير (مسيو ألابتيت ALAPETITE) يـوم الإعلان بالهدنة عند انتهاء الحرب العالمية، وكانوا كلهم ألسنة ناطقة بالحمد لله والشّكر لله، ثمّ بالدعاء وبشواهد الثّناء والامتنان لذلك الرّجل العظيم الذي قال لهم في جملة ما أفضى به إليهم من الحديث، إنّه لمغبوط ومفتخر بوجود أقطاب الشّرع الإسلامي حوله، وإنّه لمبتهج بسماع شواهد الودّ وعرائض التّهاني من أفواه أهل هذه الطّبقة الشّـريفة المّمثلين للسّؤدد كله، ولجميع صفات الفضل والعلم، فهو يستبشر بحلول طالع سعيد

(19) [المقيم العام الفرنسي ريني ميلي (L.R MILLET): 1894 ـ 1900، معروف بتعاطفه مـع المسلمين].

(20) يستفاد من إحصائية رسمية نشرتها جرائد هذا الشّهر، أنّ عدد المصابين الذين وقع علاجهم بمعهد باستور بتونس في عام 1938 بلغ إلى (1079) نسمة.

من أجل هذه الزّيارة المباركة في مثل هذا اليوم، يوم الظّفر والنّصر العائد فخره على الأمّتين الحامية والمحمية معاً، وبقي بمحفوظي أنّني ترجمت ذات مرّة أخرى بين حضرات الشّيوخ وبين جناب الوزير (**مسيو بيشون**)[21] المقيم الأسق في مناسبة هامّة دلّت على رسوخ ما هو متعلّق بالأذهان من أنّ رجال الشّريعة هم في مقدّمة قادة الأمّة، وهم المثل الأعلى الذي عليه الاعتماد، وإليه الرّجوع وعليه الاستناد:

وكيف يصحّ في الأذهان شيء   إذا احتاج النّهار إلى دليل

إنّما الشّيء الذي لا يناسب كرامة الفقيه، هو التّرامي على الأبواب والاشتغال بما لا يعنيه، أو كان خالياً عن فائدة لجماعة المسلمين، وهذه النّقائص لم ينسبها أحد حتّى الآن لأهل العلم والحمد لله.

بقي عليّ استدراك شيء فاتني التّعليق عليه بمقالتي الأولى في مبحث القضاء من وجود مذهبين قائمين بالحكم في عصر واحد بهذه الدّيار الإفريقية، قال عياض في المدارك: وكان سحنون يجلس في بيت بالجامع، بناه لنفسه إذا رأى كثرة النّاس وكثرة كلامهم، فكان لا يحضر عنده الخصمين ومن يشهد بينهما في دعواهما وسائر النّاس عنه بمعزل لا يراهم ولا يسمع لغطهم ولا يشغل باله أمرهم، فصار الجلوس في ذلك البيت سنّة لقضاة المالكية، فإذا ولي عراقي (أي حنفي) هدّمه، وإذا ولي مدني (أي مالكي) بناه وحكم فيه أهـ.

كذلك سبقت منّي الإشارة في مقالة القضاء الثّانية لأحكام رؤية الهلال، وأنّها من متعلّقات قاضي المالكية، فوقفت بعد ذلك على ما يؤيّد أنّ النّظر في ثبوت الهلال كان من حقوق الجماعة الحنفية في أواخر القرن الثاني عشر حسبما يستفاد ذلك من وثيقة تاريخية، وهي عبارة عن مكتوب في ثبوت هلال رمضان عام 1194 [1780]، بعث به قاضي الجماعة الشّيخ محمد بيرم الثاني للمولى علي باي الثاني، ونصّه: «أما بعد السلام التّام، فلتهن مولانا بالهلال الجديد،

---

(21) [تولّى ستيفان بيشون (S PICHON) خطة مقيم عام بتونس من 1900 إلى 1907]

والطّالع السّعيد، والمقدّمة التي نتيجتها العيد، فلقد ثبت لدينا الثبوت الشّرعي، المحرّر المرعي، أهلّه الله تعلى عليكم وعلى المسلمين باليمن والبركة، وقران الخير في حال السّكون والحركة، فليأذن مولانا بإطلاق البشير والسلام أهـ». من رسالة التعّريف بالبيارمة.

وهنا انتهى بنا الكلام في مبحث القضاء الشّرعي، وسيكون عنوان مقالتي الآتية: أسد بن الفرات، وفيها نأتي على تاريخ انتشار المذهبين الحنفي والمالكي بإفريقية، وكل آت قريب(*).

(4)

قلت في خاتمة مقالي الثّالث المدرج بالعدد السّادس من هذه المجلة المباركة: «وسيكون عنوان مقالتي الآتية: أسد بن الفرات، وفيها نأتي على تاريخ انتشار المذهبين الحنفي والمالكي بإفريقية، والله تعلى يقول: ﴿ولا تقولن لشيء إنّي فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله﴾، فلمّا قصدت في هذه الأثناء استئناف بحوثي لاستكمال المادّة التي بين يدي لتحرير ترجمة أسد، وأهمّها كتاب المدارك للقاضي أبي الفضل عياض، وكتاب معالم الإيمان للدّبّاغ، مع ذيله لابن ناجي، وقفت على نبذة مهمّة بكتاب فتوح العرب لصقلّية للمؤرخ (أماري) من كبار المستشرقين في القرن الماضي، استغرقت نحو اثني عشرة صحيفة في تاريخ حياة أسد، عزى بعضها المستشرق المذكور **لكتاب رياض النّفوس**[22] للمؤرّخ أبي بكر عبدالله بن محمد بن عبدالله المشهور بالمالكي، وهذا الفاضل من رجال المائة الخامسة، فكتابه متقدّم على كتاب المدارك، وهذا بدوره متقدّم على كتاب معالم الإيمان، وهذان الكتابان هما عمدتنا في التراجم، وعند ذلك لاح لي أنّ ترجمة أسد لا يصحّ تحريرها بوجه مفيد، إلاّ بعد النّظر في أقدم كتب التّراجم الإفريقية عهداً، يعني كتاب رياض النّفوس، ولكّنه لسوء

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلّد 3 ـ الجزء 6 ـ (جوان 1939).

(22) توجد منه نسخة مخطوطة تعتورها أنقاص كثيرة، تمّ نسخها في سنة 729 [1328] محفوظة بالمكتبة العمومية بباريس مرسّمة تحت عدد (2153) بفهرس التآليف العربية بالمكتبة المذكورة.

الحظّ من الكتب المفقودة أو ما في معناها[23]، فلزم بحكم الضّرورة زيادة البحث عنه، أو التّصدي على الأقلّ لترجمة ما نقل عنه المستشرق (أماري) وهذا يستدعي لا محالة أكثر من الأيّام المعدودات الفاصلة بيني وبين بزوغ قمر هذا العدد من المجلّة الزّيتونية، فلسدّ هذا الفراغ، أرجأت تحرير ترجمة أسد مع ما يتبعها من تاريخ انتشار المذاهب السّنيّة بإفريقية إلى فرصة قابلة، يساعدنا عليها طقس رحيم ينسينا جهنّمية هذه السّبعة والأربعين درجة ظلّية التي نشفت دونها المحابر، وتصدّعت أسنّة الأقلام، وهناك باعث آخر على هذا الإرجاء، وهو وجوب السّعي للوقوف ولو على قطعة من المدوّنة الأسدية، وهي من الكتب المفقودة بتونس، لكنّ بعض الشّيوخ يقول إنّه ربّما بقيت منها بقيّة مشتّتة بخزانة جامع القيروان، لأنّ الكلام على أسد من النّاحية الشّرعية أي بصفته فقيهاً قبل أن نتكلّم عليه من النّاحية الاجتماعية، أي بصفته قائداً فاتحاً لصقلّيـة، سيجرّني للكلام على أخذه عن الإمام أبي يوسف، ولا سيما عن الإمام محمد بن الحسن، فلو تهيـىء لنا الأقدار الوقوف على بعض أوراق الأسدية لما صعب على أهل العلم تحليلها تحليلاً فقهياً، يرينا على ضوء الهداية والتّسامح هل كانت الأسدية كلّها من إملاء عبد الرحمن بن القاسم تلميذ إمام دار البحر مالك بن أنس، رضي الله عنه، أم أنّ أسداً في دائرة اجتهاده، وهو من كبار المجتهدين بما لا ريب فيه، شحنها بشيء كثير من مروياته عن شيخه محمد بن الحسن صاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه، إذ من المعلوم أنّ أسداً أخذ في مبادىء أمره عن المدنيّين وهم أهل الرواية، ولكنّه أظهر بعد ذلك ميله بأجمعه للعراقيين، وهم أهل الرّأي، إلى غير ذلك ممّا سنبحث فيه إن شاء الله عند توفّر المادة، بالحصول على شيء من كتاب رياض النّفوس، ومن كتاب الأسدية بخزانة القيروان.

(23) [صدرت الطبعة الأولى من «رياض النّفوس (الجزء الأول) سنة 1951 بعناية الدكتور حسين مؤنس، ولم تظهر الطبعة الثانية (ثلاثة أجزاء) إلّا في سنة 1983، تحقيق بشير البكوش ومراجعة محمد العروسي المطوي (دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر- بيروت)].

بقي لي استدراك على ما ورد بآخر المقالة الثانية من مبحث القضاء الشرعي بالصفحة 248 من المجّلة، حيث أشرت لما حصل لبعضهم من الشّكّ في اسم القاضي الشّيخ محمد الكافي، ففي هذا المعنى نقول: إنّ اسمه صحيح برسمه الوارد في قائمة القضاة المالكية بالصفحة 247 من المجلة[24]. قال الشيخ محمد بيرم الرابع في رسالة التّراجم المهّمة للخطباء والأيمّة، عند الكلام على القاضي الشيخ مصطفى بن القاضي الشّيخ أحمد الطرودي الحنفي، ومن خطّه ننقل هنا ما نصّه: «واجتمع به (أي الشّيخ مصطفى) في القضاء من المالكية الشيخ إبراهيم المزاج، ومن قبله القاضي الكافي، الذي هو آخر قضاة علي باشا، وعزله المولى محمد باي (الرّشيد)» أهـ.

وهذه وثيقة أخرى غريبة في نوعها، لأنّها عبارة عن تفويض من المشير أحمد باي لشيوخ المذهب الحنفي بالنّظر والتّرجيح بين آراء شيوخ المذهب المالكي في نازلة من أنظارهم، وهي تدلّنا من ناحية على سعة أنظار سموّ الباي المووما إليه، وتحرّيه في النّوازل الشّرعية، وترينا من ناحية أخرى درجة التّسامح والتّكاتف المغبوط بين فقهاء المذهبين الشّقيقين، ومحصل النّازلة، أنّ جندياً دمى عليه جريح بشهادة عدلين، فجاء الجندي بشهادة تثبت أنّه كان ساعة القتل في بلد الكاف حاضراً بحفلة عرس، وهو غير البلد الذي وقع فيه الاعتداء على الهالك، فاختلف يومئذ الشّيخ إبراهيم الرّياحي كبير أهل الشورى المالكية، وكاهيته المفتي الشّيخ محمد بن سلامة، وقاضي الجماعة الشّيخ محمد النّيفر الأكبر، وأصرّ كلٌّ على ما رأى، فلّما عرضوا آراءهم على سمّو الباي للتّرجيح، أمر بإحالة القضيّة على الجماعة الحنفية، وكتب بذلك مكتوباً للشّيخين أبي عبدالله محمد بيرم الرّابع، وأبي عبدالله محمد بن الخوجة، وهذا نصّ المكتوب بحروفه:

«حفظكم الله تعلى ورعاكم، ونوّر العلم بتقواكم، الفاضلين الخيّرين، العالمين العاملين، قطبي مذهب النّعمان، والقدوة في فهم الشّريعة الوثيقة

(24) [الصفحة 193 من هذا الكتاب].

الأركان، أحبابنا الصّدر شيخ الإسلام سي محمد بيرم، وكاهيته الشّيخ سي محمد بن الخوجة سدد الله أنظارهما. أمّا بعد السلام عليكم ورحمة الله، فإنّ جريحاً دمى على رجل بشهادة عدلين، وشهدا بموته، فوجّهنا النّازلة لعلماء المالكية كما هو الحكم الجاري بقطرنا في نوازل الدّماء، ثم إنّ المدعى عليه استظهر بشهادة تنافي رسم التّدمية، وطال الخصام في النّازلة، فأنتج قياسها خلافاً بين علمائنا المالكية، وتحرّجت من تنفيذ ما يقتضيه الاجتهاد في السّياسة، لأنّها كانت على بساط الحكم الشّرعي، وجالت فيها أنظار نوابنا في ذلك، فظهر لي أنّ أوجّه لأمانتكما حجج الفريقين، ومكاتيب علماء المالكية، لأعتمد على ترجيحكما، فانظرا فيها كأنّكما مالكيين (كذا) من اعتبار إقرار القتيل وأنّ القتل بغير محدّد كما هو المذهب المالكي، وليكن مناط نظركما كلام المشائخ المالكية الذي أنهوه إلينا، وكاتباني بما ينثلج إليه صدركما من التّرجيح، وبما تدينان الله به يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً، فإنّكما بحمد الله ممّن لا تأخذه في الله لومة لائم، والدّين واحـد، واختلاف الأيمّة الذي هو رحمة، لا يمنع المخالف من النّظر بالعلم في قول غيره، فإنّ تطبيق النّصوص والقواعد على النّوازل ليس من شرطه اتّحاد المذهب، إنّما شرطه الفهم والعلم، وهذا دم مسلم يلزمنا في إراقته التّحرّي، والله يقول ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ فعنايتنا بالحيّ مثل عنايتنا بالقتيل، والله يقول الحقّ، وهو يهدي السبيل، والسّلام من الفقير ألى رَبّه تعالى عبده المشير أحمد باشا باي، وفقه الله آمين. وكتب في 27 رجب سنة 1265 [1848]أهـ.

هذا ولإتمام ما تقدّم نشره بالعدد الأخير من المجلّة بخصوص علاقة أهل العلم بأهل السّياسة في مقام الأمور الرّسمية، نلحق بذلك هنا وثيقة تاريخية في مقام العلائق الأدبية بين العلماء وأهل السّياسة من الأوروبيين بتونس، وهي عبارة عن تقريظ لرسالة كتبها المستشرق (ريشار وود) قنصل انكلتيرة بتونس، أسماها (الأدلّة الجليّة في موافقة شريعة الإسلام للقواعد الإنسانيـة) فهذه الرّسالة أهداها صاحبها للعلاّمة الشّيخ أحمد بن الخوجة، ولّما قرأها الشّيخ رحمه الله قرضها بالمكتوب الآتي نصّه:

«جناب البارع الحاذق الماهر المجرّب البصير بالسياسة المدنية، والتّهاذيب الإنسانية، الموقّر سيادة (ريشار وود) نائب وقنصل جنرال بريطانيا بالمملكة التونسية حرسه الله تعلى، بعد الدّعاء لجنابكم بالسّعادة ودوام العافية، فقد وصلتني هديتكم السّنية، كتابكم الذي سمّيتموه الأدلة الجليّة، فسررنا به سروراً عظيماً، وزاد في إيضاح الدّلالة على امتداد باعكم في المعارف، وكمال إنصافكم ومفاخركم المقتضية لتقدمكم في المناصب العالية، وشريعة الإسلام واردة على الميزان الأعدل، مؤسّسة على الرّفق والرّحمة، حافظة لمصالح الخلق على النّظام المحكم، الذي يشهد بفضله العيان، فإن صدر من بعض المتوحّشين خلاف ذلك، فهو خروج عن قواعدها ونظامها، وقد أوضحتم في كتابكم من هذا الغرض إيضاحاً جميلاً، والوقائع التّاريخية تشهد بأنّ المتوحّشين يفعلون ذلك البغي مع بني دينهم من المسلمين ويعوقونهم عن إقامة قواعد ملّتهم كما في حروب القرامطة في البصرة والكوفة، وما فعلوه مع الحجّاج من نهب الأموال، وسبي النّساء والصبيان، والقتل والإفساد، وبقي الحجّاج كما قال الفاضل ابن خلدون في تاريخه كتاب العبر، ضاحين إلى أن هلكوا، إلى غير ذلك ممّا هو مسطور في كتب التّاريخ، فنحن ندعو الله تعلى بدوام العافية في ذاتكم وأنجالكم وأهلكم مع سعادتكم أجمعين على ملاحظتكم الجلية، وكمال إنصافكم وصدعكم بالحق. حرّره الفقير إلى ربّه أحمد بن الخوجة شيخ الإسلام بالمملكة التونسية كان الله له في 1 ربيع الأنور سنة 1296 [1878] أهـ(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 3 ـ الجزآن 7 و3 (جويلية / أوت 1939).

رئاسة المذهب الحنفي
في الدّولتين المراديّة والحسينيّة

نظراً لكون هذا العدد من المجلّة الزّيتونية هو أوّل عدد يصدر من المجلّة بعد وفاة شيخ الشّيوخ، وطود الرّسوخ، العلاّمة الإمام شيخ الإسلام والمسلمين مولانا الشّيخ محمد بن يوسف، طاب ثراه، أحببت أن تكون مشاركتي في هذا العدد من المجلـة قاصرة على ذكر أسلافه، قدس الله أرواحهم، بمسند رئاسة الفتوى الحنفية في الدولة المرادية، ولا سيما في العصر الحسيني السعيد، وذلك بدون مراعاة لألقابهم المختلفة في رسوم الدّولتين.

مسند الفتوى الشّرعية هو الرّكن الأصلي للرّئاسة المذهبية بدار الشّريعة، ففي بداية الأمر كانت الفتوى فردية، وأوّل من تولاّها الشّيخ رمضان أفندي بعد انتهاء مدّته في منصب القضاء الشّرعي وعزمه على الرّجوع إلى الأستانة، فرغّبه الأمير يوسف داي في الإقامة بتونس، وقدّمه لمنصب الفتوى، فكان هو أوّل مفت حنفي بتونس بعد دخولها في طاعة آل عثمان، ثمّ بالتّبعية للتّطوّرات الزّمانية ونزولاً عند حكم النّواميس الطبيعية القاضية بارتقاء كلّ حيّ نام، امتاز المفتي في تونس بلقب المفتي الأكبر عند ازدواج خطّته بإضافة مفت ثان له، وذلك ابتداءً من دولة مراد باي الثالث التي كان مفتتحها في عام 1110 [1698] فكان الشّيخ عبد الكبير درغوث[1] مفتياً أكبر، وجليسه المفتي الثاني ثان له،

(1) تقدّم من بينهم أربعة لمنصب الفتوى، منهم الشّيخ يوسف درغوث الأصغر، الذي كان من أوّل البيوت العلمية مصاهرة للبيت الحسيني، حيث عقد الأمير المولى علي باي الثاني في حياة والده المولى حسين بن علي لابنه سليمان باي على ابنة هذا الشيخ وقفت على رسم صداقها فإذا هو =

واسترسل الأمر كذلك في الدّولة الحسينية حتى مع ارتفاع عدد المفتين لثلاث، فكان الشّيخ علي الصّوفي هو المفتي الأكبر[2] في دولة المولى حسين بن علي، طاب ثراه، وأخلافه على قياسه إلى منتهى مدّة الباي الرّابع في السّلك الحسيني النّفيس، فلما آلت الإمارة للمقدّس المولى حمودة باشا، وهو خامسهم في الملك، ظهر لقب الباش مفتي بين النّاس تبعاً لقاعدة النّمو النّاشئة عن استكمال الأحوال واستقرار السّلطان، اقتبسوا ذلك فيما يلوح بالقياس عمّا حصل في هاتيك الأيّام من اشتهار الكاتب الأكبر الذي هو رئيس ديوان الإنشاء بلقب باش كاتب، وهي ألقاب تفخيمية اقتضاها تطوّر الدّولة وتدرّجها في مراقي الظّهور والاستقلال النّوعي الذي ما برح يومئذ في ازدياد، بحيث جعلوا على رأس كلّ هيئة منتظمة رئيساً لأهلها، لقّبوه بالباش، منهم الباش كاتب، والباش مفتي المشار إليهما، ومنهم الباش حانبة، والباش بوّاب، والباش آغة، والباش شاطر، والباش عشي، والباش طبجي، والباش بلهوان، والباش قزق، وهذا من النّصارى[3] إلى غير ذلك ممّا لا يدخل تحت حصر. فكان المفتي الأكبر

= مصدّر بخطبة جليلة، تمّ عقده في أوائل شعبان عام 1050 [1640] وإليك تفصيل ما جاء فيه من المهر ـ قال:

«فزوّجه إيّاها على صداق نقده قبل البناء وإرخاء السّتر عليها ألف ريال واحدة (بسكّة ذلك الزّمان، فما بالك بمصارفتها من عملة هذا الزّمان) ونصف رطل من الجوهر النّفيس، وثمانية قفاطن مختلفات الألوان، اثنان من المذهّب، ومثلهما من الموبّر، ومثلهما من الكمخة، ومثلهما من الأملس، وثمانية فرامل مع كلّ قفطان منها فرملة، وثمانية أحزمة حريراً مثقّلة الأطراف بالفضّة مختلفات الألوان، وعلجية ورومية، وستّ إماء من جنس السّودان، وأعدلهنّ في القيم والأسنان أهـ».

(2) يستفاد من رسالة المفتي للشيخ محمد بيرم الثاني أن المفتي الشيخ علي الصوفي كان النّاس ينعتونه في زمنه بشيخ الإسلام مع ثلاثة آخرين من معاصريه، وهم الشيخ يوسف درغوث الأكبر، والشيخ مصطفى بن عبد الكريم من أيمّة الحنفية، والشيخ محمد فتاتة من أيمّة المالكية، وهذا فيه دلالة كافية على أنّ لقب شيخ الإسلام إنّما هو في أصله من أوصاف التّعظيم والتّفخيم التي كانوا يحلّون بها كلّ من ينتهي إليه العلم، كما كانوا يلقّبون به الشيخ أحمد بن تيمية من أيمّة الحنابلة في المائة السابعة، وأمثال ذلك كثيرة في كلّ زمان ومكان.

(3) هو المكلّف بالمهّمات في البلاط الملكي، ويعرف أيضاً بوكيل الغرفة، كانوا ينتخبونه من أبناء العنصر الأروباوي النّاشئين بالسّراية الملكية، ومنهم من بلغ في المجد لرتبة أمير الأمراء ولدرجة المستشار بالوزارة الخارجية كما حصل في عهد الدّولة الصادقية.

الشّيخ محمد البارودي هو أوّل من غلب عليه يومئذ لقب الباش مفتي في مدّة صهره المولى حمودة باشا السّالف الذّكر، وكان هذا الشّيخ بحراً زاخراً في علوم الشّريعة، وآية في الصّوت الرّخيم، كأنه أوتي مزماراً من مزامير آل داود، يقصده النّاس من بعيد لسماع ترتيله آي الذّكر الحكيم في الصّلاة. وارتسم بعده هذا اللقب في الأذهان باستقرار الرّئاسة الشّرعية في السّلالة الطّاهرة البيرمية من عقب الشّيخ محمد بيرم الأوّل الذي سيأتي ذكره في سلسلة الشّيوخ التي سنختم بها هذه النّبذة المباركة، فكان ابنه كبير المفتين الشيخ محمد بيرم الثاني باش مفتي الحنفية، ومثله بعده ابنه الشيخ محمد بيرم الثالث، فولده الشيخ محمد بيرم الرابع، إلى أن جلس على كرسي الملك الحسيني المشير أحمد باي الأوّل، ففي أواسط دولته اتّفق له تلقيب هذا الشيخ الرابع بشيخ الإسلام، وهذا أفخم الألقاب التي تداولتها الرئاسة الشّرعية بتونس منذ المائة العاشرة فما دون، ولكنّ هذا اللقب الجليل لم يتغلّب يومذاك تماماً على اللّقب السّابق، بل بقي رئيس المذهب ينعته الكثيرون مع لقب شيخ الإسلام بلقب الباش مفتي الذي ارتسم في الأذهان من قبل.

والحقيقة أنّ ألقاب الرّئاسة الشّرعية في الأزمان الماضية لم تكن مقيّدة بالضّبط المدّقق المحيط بهيكلها في الزّمن الحاضر[4] ولم يكن لتلك الألقاب رواج

---

(4) تأييداً لهذه النّظرية نقول: إنه يستفاد من بعض المراسيم الدولية التي وقعت بيدي أنّ الشيخ إبراهيم الرّياحي كانوا يلقّبونه تارة بكبير أهل الشورى من المفتين المالكيين كما ورد في ظهير ولايته، وطوراً بباش مفتي المالكية كما ورد في منشور عتق العبيد الصادر في عام 1262[1845]. أمّا ظهير ولاية الشيخ المشار إليه الذي هو عبارة عن وثيقة تاريخية مباركة، فقد آثرت نقل عبارته هنا لأنّها غير معروفة بين علماء هذا الجيل لكونها لم يتقدّم نشرها بمكان، ولأنّها أيضاً جاءت بغير أسلوب المراسيم الملكية المعروفة لهذا الزّمان، وإليك هي نقلاً عن كنّاش الشيخ الوالد ومن خطّ يده:

«الحمد لله الذي جعل الشّريعة قسطاساً وميزاناً، وجعل الأعمال الصّالحة على الرّضا عنواناً، وخصّ بالسّعادة من شاء من عباده تفضلاً وامتناناً، فأطلق بالخير منهم يداً وأنطق بالحقّ منهم لساناً، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد أرفع الأنبياء شأناً، خاطب الأمم فوسعهم تبياناً، وشّيد بأحكامه في الخلق بنياناً، ليرتاب الذين في قلوبهم مرض ويزداد الذين آمنوا إيماناً، وعلى آله الذين كانوا في معاضدته إخواناً، ولأمّته في الهداية شهباناً، بلغوا سيره وأحاديثه صحاحاً حساناً، =

بين أهل العلم قبل انتشار مبادىء النّظم العصرية بالدّيار التونسية، لإعراضهم فيما يلوح عمّا كانوا يرونه من قبيل القشور، واكتفائهم بلقب اللباب الذي هو الكتاب والسّنّة، فإنّ الشيخ إبراهيم الرّياحي خلع كساء التّقليد عند خروجه من حضرة الباي يوم ولايته رئاسة المذهب المالكي، لأنّه كان محلّى بالديباج، ولقد وقفت على محرّرات كثيرة رسمية وغير رسمية لجملة من الشيوخ، منهم الشيخ إبراهيم، والشيخ إسماعيل التميمي، والشيخ الجدّ، والمشايخ البيارمة، وغيرهم من أقطاب القرن الأخير، وأحرى أسلافهم علماء الأجيال السّابقة، فلم نر فيها من عقب منهم اسمه بذكر خطّته تصريحاً أو تلميحاً، خلافاً للقاعدة الجاري بها العمل في الأزمان المتأخرة والحاضرة، وأوّل ما رأيت ذكر الخطّة تلو

= أمّا بعد: فهذا كتاب كريم، وظهير عظيم، يقابل بالإذعان والتسليم، لنفعه العميم، أنتج الحقّ قياسه، وبنى على الشّرع أساسه، صدر من مولانا الهمام، نخبة الملوك العظام، الجامع لما تفرّق من محاسن الدّهر، كفوء الخلافة الملبّي لها بالمهر، من دأب على حوطة المجد وجدّ، وورث الملك من أب وجدّ، مولانا حسين باشا باي أمير القطر الإفريقي أصلح الله حاله، وبلّغه من إحياء السّنّة آماله، إلى كلّ من يقف عليه، ويتدبّر ما لديه، من العلماء الأعلام، ومشائخ الإسلام، المفتين والقضاة، والكواهي والأغوات، والمشائخ والرّعية، وسائر أولي الولايات السياسية، شرح للحقّ صدر الجميع، ووفّق الكلّ لصالح العمل وحسن الصّنيع، معلناً بأنّه قدّم الحبر الحجّة، الثّقة صدر الأجلة، (كذا) وعلم الملّة الذي استمدّت من نوره البدور والأهلة، تاج العصر، وإمام هذا المصر، الذي ملأ علمه النّواحي، محبّنا الشّيخ سي إبراهيم الرّياحي، وجعله كبير أهل الشورى من المفتين المالكيين بدار المملكة تونس حاطها الله زين جبين وجهه بتاج هذه الولاية، وصرف له وجوه البرّ وعيون العناية، بعد أن أجال قداح الاختيار فبلغ الغاية وأقامه يفتي المسترشدين بمذهب امام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه وعن سائر الأيمّة الثّابت لديه من أعلام مذهبه الثقـاة، الذين أحيوا من أرض العلم الموات، فليتولّ هذه الخطّة عالماً بمقدارها، متّصفاً بما يحمد من آثارها، مهيباً بالدّين، رؤوفاً بالمؤمنين، قادحاً بالمشورة زند التّوفيق، عادلاً إلى سعة الأقوال عن المضيق، متثبّتاً حتى يظهر صبح التّحقيق، وأوصاه في الإبرام والنّقض بتقوى من يعلم خفيات السّماء والأرض فإنّ الله يراه، والهدى هدى الله، وصيّة صدرت مصدر الذكرى التي تنفع، ويعلي الله بها الدّرجات ويرفع، كما أوصى له بالإجلال، وحفظ منصبه عن الإخلال، فإنّه أقطعه جانب الإنعام الجسيم، وزاده في مراقي التّنويه والتّكريم، إجلالاً لخطّته التي لا يلقاها إلا ذو حظّ عظيم، وعلى الواقف على هذا المقال، أن يبادر بالامتثال، ويعلم قدر هذا الإجلال، والأمر لمولانا الكبير المتعال. وكتب لخمس عشرة خلون من جمادى الأولى عام 1248 [1832] ثمانية وأربعين ومائتين وألف اهـ».

اسم صاحبها كان تاريخه حوالي سنة 1290 [1873] على عهد الشيخ محمد معاوية، فقد وقفت له على مكتوب من خطّ يده مختتم بقوله: محمد معاوية شيخ الإسلام. ومعلوم أنّ خلفه في الرئاسة الشّرعية هو الشيخ أحمد بن الخوجة الذي بلغت المشيخة الإسلامية في مّدته لقمّة مجدها الرّسيخ بفضل توسّعه في العلم ومشاركته مع غيره من شيوخ المذهبين في مشروع الإصلاح الذي انتهجه الوزير خير الدين بالبلاد التونسية من الوجهتين العلمية والاجتماعية، فكان لقبه المشهور بين الخاصّة والكافّة هو شيخ الإسلام بالمملكة التونسية، وبهذه التّسمية جاءت مراسيم ولاية أخلافه بمسند المشيخة إلى مفتتح عام 1351 [1932] وفيه وقع تفريعها لمشيختين، مشيخة إسلام حنفية بالتّخصيص، ومشيخة إسلام مالكية بالتّخصيص، وهي الحالة التي آلت فيها رئاسة المحكمة الشّرعية الحنفية لنوبة الشيخ محمد بن يوسف رحمه الله.

ولنختم الآن هذه النّبذة التّاريخية بذكر أسماء كافّة الشيوخ الماضين الذين توارثوا رئاسة المذهب الحنفي من البداية إلى النّهاية، بقطع النّظر عن ألقابهم التي قدّمنا بيان تطوّراتها حول السّنين، وإليك ذلك:

في مدة الدولة المرادية

1 ـ الشيخ رمضان أفندي	تولّى سنة 1020 [1611]
2 ـ الشيخ أحمد الشّريف الحنفي	تولّى سنة 1044 [1634]
3 ـ الشيخ أحمد الشّريف الأندلسي	تولّى سنة 1051 [1641]
4 ـ الشيخ محمد بن مصطفى الأزهري	تولّى سنة 1061 [1650]
5 ـ الشيخ مصطفى بن عبد الكريم	تولّى سنة 1067 [1656]
6 ـ الشيخ يوسف درغوث الأكبر	تولّى سنة 1075 [1664]
7 ـ الشيخ عبد الكبير درغوث	تولّى سنة 1076 [1665]

في العصر الحسيني

8 ـ الشيخ علي الصّوفي	تولّى سنة 1133 [1720]

9 ـ الشيخ يوسف درغوث الأصغر تولّى سنة 1143 [1730]
10 ـ الشيخ محمد أرناؤوط تولّى سنة 1156 [1743]
11 ـ الشيخ الشيخ حسين البارودي تولّى سنة 1169 [1755]
12 ـ الشيخ محمد بيرم الأوّل تولّى سنة 1186 [1772]
13 ـ الشيخ محمد البارودي تولّى سنة 1214 [1799]
14 ـ الشيخ محمد بيرم الثاني تولّى سنة 1215 [1800]
15 ـ الشيخ محمد بيرم الثالث تولّى سنة 1247 [1831]
16 ـ الشيخ محمد بيرم الرابع تولّى سنة 1259 [1843]
17 ـ الشيخ محمد بن الخوجة تولّى سنة 1278 [1861]
18 ـ الشيخ محمد معاوية تولّى سنة 1279 [1862]
19 الشيخ أحمد بن الخوجة تولّى سنة 1294 [1877]
20 ـ الشيخ أحمد كريم تولّى سنة 1313 [1895]
21 ـ الشيخ محمد بن مصطفى بيرم تولّى سنة 1315 [1897]
22 ـ الشيخ محمود بن الخوجة تولّى سنة 1318 [1900]
23 ـ الشيخ أحمد بيرم تولّى سنة 1329 [1911]
24 ـ الشيخ محمد بن يوسف[5] تولّى سنة 1351 [1932]

(5) [بقيّة من تولّوا رئاسة المذهب الحنفي.
ـ الشيخ الطيّب بيرم: (1939 ـ 1942).
ـ الشيخ محمد الصالح بن مراد: (1942 ـ 1947).
ـ الشيخ محمد دامرجي: 1947.
ـ الشيخ محمّد عباس: (1948-1956) وهو آخر من تولّى هذه الخطة. فبعد الاستقلال وتوحيد القضاء، حذفت خطة مشيخة الإسلام الحنفية والمالكية، وعوضتها خطّة مفتي الدّيار التونسية (1956)، ثم مفتي الجمهورية التونسية (من سنة 1957 إلى الآن)، بدون تخصيص بمذهب. وقد تقلّد هذه الخطة الجديدة على التّوالي:
1 ـ الشيخ محمد العزيز جعيط (1956-1960).
2 ـ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور (1960-1970).
3 ـ الشيخ محمد الهادي بن القاضي (1970-1975).
4 ـ الشيخ الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة (1975-1983).
5 ـ الشيخ محمد المختار السّلاّمي (مفتي الجمهورية الحالي)

هؤلاء الأشياخ الأفذاذ مضوا كلّهم، فسبعة عشر قطباً منهم أجابوا داعي الله في العصر الحسيني، وسبعة سبقوهم لدار النّعيم في الدّولة المرادية. ولكن فضيلة العلم مسحت على وجوه جميعهم بيد الخلود، فبقي ذكرهم حيّاً وسيكون كذلك إلى ما شاء الله(*).

البَابُ الثَالِثْ

العَادَاتُ وَالتقَالِيدُ التونِسِّيَة

عناصر الشّعب التّونسي
وامتزاجها

قلّ أن تجد أمّة يكون الدّم السّاري في شرايينها من دماء عناصر شتّى كالأمّة التّونسية[1]، فالعنصر التّونسي الأصلي الذي هو من جنس البربر، اختلط دمه في البداية بدماء العناصر النّازحة لإفريقية على عهد دولة قرطجنة وهم أهل سواحل الشّام من فينيقيا وكثير من يهودها، وأكثر منهم الزّنوج الذين كان القرطجنيون يستجلبونهم من دواخل السّودان ومن الأحباش، يأتون بهم على طريق جربة ونفزاوة للانتفاع بيدهم العاملة في الأشغال الشّاقّة، وهذا هو السّبب الأصلي في انتشار اللون الأسود بالجهات الجنوبية من الإيالة التّونسية. ولمّا هجم الأمبراطور طيطش [TITUS] الرّوماني في عهد أبيه على بيت المقدس، وخرّب هيكل داود عليه السّلام، وأطرد اليهود من فلسطين وشرّدهم في بقاع الأرض، وفد منهم يومئذ على إفريقية جموع كثيرة انضمّوا لإخوانهم الإسرائيليين السّابقين بها واختلطوا بالبربر، ولقّنوهم تعاليمهم، فاعتنق كثير من البربر الدّيانة الإسرائيلية، ومن أعقابهم يهود جهة السّرس، وتستور، وباجة في الشّمال، ويهود الأعراض في الجنوب، وما زالوا محتفظين بالعوائد والأخلاق المتلبّسة بإخوانهم من البربر الذين اعتنقوا الإسلام إلى هذا الزّمان، ولا ندري هل أنّ البرابرة الذين دخلوا في الإسرائيلية ارتدّوا عنها ثمّ عادوا إليها كما فعلوا عند اعتناقهم للإسلام، فقد ذكر المؤرّخون أنّهم أسلموا، ثمّ ارتدّوا، ثم أسلموا، ثمّ ارتدّوا، ثمّ أسلموا مراراً كثيرة، وكانوا يعتنقون الإسلام فيما يلوح

(1) [انظر حول نفس الموضوع: حسن حسني عبد الوهاب «ورقات» ج 3 ـ ص 241 ـ 278]

لأجل صيانة أرزاقهم، فإذا آنسوا من المسلمين ضعفاً، نبذوهم، وعادوا للكفر، وهلمّ جرّا.

ولمّا دخلت إفريقية في حكم الرّومان اختلط الدّم البربري بالدّم الرّوماني، لأنّ الرّومان لمّا قضوا على دولة قرطجنة، استحضروا من البلاد الطّليانية طائفة من أبناء عمومتهم انضمّوا لرجال الجيش بنيّة استعمار البلاد، وبلا شكّ كان هجوم الفندال على تونس في المائة الخامسة للميلاد أثر امتزاج دموي مع الدّم البربري، رغم كون تلك الأمّة المتوحّشة كان مرورها بإفريقية كمرّ السّحاب، وعلى قياسه كان الامتزاج بين البرابرة والرّوم الذين احتلّوا البلاد التّونسية في القرن السّادس بعد المسيح، فقد جاء في رحلة الشيخ التّجاني المتوفّى سنة 720 للهجرة [1320] قوله: وأهل توزر من بقايا الرّوم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامي، وكذلك أكثر بلاد الجريد، لأنّهم حين دخول المسلمين أسلموا على أموالهم، وفيهم من العرب الذين سكنوها بعد الفتح، وفيهم أيضاً من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان أهـ[2].

ولمّا أشرقت شمس الإسلام على تونس في خلافة سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه، على يد أخيه من الرّضاع عبدالله بن سعد بن أبي سرح (سنة 29 للهجرة) [649] توالت عليها وفود العرب إلى أن قدم عليها حسّان بن النّعمان الغسّاني في أيّام بني أميّة، وكان من خبره ما قصّه علينا التّاريخ من الغارات التي قام بها الرّوم من البحر على جماعة المسلمين الفاتحين، فطلب حسّان المدد من عبد الملك بن مروان. قال في المؤنس[3]: وكان إذ ذاك التّابعون متوافرين وفيهم اثنان من الصّحابة، أنس بن مالك، وزيد بن ثابت، فقالا لعبد الملك: أدرك هذه البلاد وانصر أهلها ليكون لك ثوابها فإنّها من البلاد المقدّسة. فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز، وهو وال على مصر، أن يوجّه

---

(2) [رحلة التّجاني ـ تونس 1958 ص 159].

(3) [ابن أبي دينار «المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس»، تحقيق محمد شمّام ـ ص 15].

لتونس ألف قبطي بأهلهم وولدهم، وأن يحملهم من مصر، ويحسن عونهم، حتّى يصلوا إلى ترشيش[4]، وهي تونس، وكتب إلى حسّان بن النّعمان يأمره أن يبني لهم دار صناعة تكون قوّة وعدّة للمسلمين إلى آخر الدّهر، وأن يصنع بها المراكب، ويغير منها على سواحل الرّوم، فوصل القبط إلى حسّان، وهو مقيم بتونس، فأجرى البحر من مرسى رادس إلى دار الصّناعة، وجعل فيها المراكب الكثيرة، وأمر القبط بعمارتها أهـ. فكان أولئك الأقباط عنصراً جديداً امتزج دمه بالدّم التّونسي ممّا لا ريب فيه.

وبالتّالي اشتهر ذكر تونس، وهي البلاد المباركة المختارة بين المسلمين بعد مصر، فقصدها القاصي والدّاني من أقوام مختلفة جاءوها من كلّ حدب ينسلون، كان منهم الفارسي، والمصري، والسّوري، والطّرابلسي، وغيرهم، وتهيّأ يومئذ فتح إسبانيا لموسى بن نصير على يد مولاه طارق[5] بن زياد. قال الشيخ ابن الشّبّاط: وكتب الوليد إلى عمّه عبد العزيز بمصر يأمره أن يوجّه إلى إفريقية موسى بن نصير، وكان ذلك في سنة ثمان وثمانين [706] فوجد موسى أكثر مدائنهم خالية من العرب لاختلاف أمر البربر عليها، فكان ينقل العرب والعجم من الأقاصي إلى الأداني اهـ[6] ومن منازلهم في ذلك الزّمان القيروان، وزرود، والمنية، والأنصارين، وغير ذلك. وتقوّى ساعد العنصر العربي، وساد على البربري، بفضل وفود الأعراب الواردين على إفريقية إلى قيام دولة بني الأغلب، وهم من بني تميم، من أصل عربي صميم. قال ولي الدين ابن خلدون: وفي أيّامهم انخضدت شوكة البربر، واستكانوا للغلب، وأطاعوا الدّين، فضرب الإسلام بجرانه، وألقت الدّولة المضرية على البربر بكلكلها إلى أن انقرضت سنة 296 [908] على يد الصّنعاني الدّاعي أهـ.

---

(4) معرّب عن طرشيش في العبرية.

(5) إليه ينسب جبل طارق، وقد حرفه الإفرنج فجعلوه (جبرلطار) [GIBRALTAR]، وبعض جهلة المسلمين الذين لا يحسنون معرفة تاريخ أسلافهم، يقولون (جبل الطّار).

(6) [ابن الشّبّاط «شرح الشّقراطسية» (مخطوط)].

وتقاصر أمر العرب في المائة الرّابعة بإفريقية لسبب ظهور الشّيعة وتزاحم المذاهب في الدولة العبيدية. قال في معالم الإيمان[7]: وذلك أنّ بني عبيد لمّا ملكوا القيروان، أظهروا تبديل مذهب أهل البلد، وجبروا النّاس على مذهبهم بطريق المناظرة وإقامة الحجّة أهـ. وكان ما كان من حمل المعزّ النّاس على التّمسّك بمذهب مالك والإعراض عمّا سواه، على أنّ العبيديين كان لهم فائدة في تثبيط عزائم العرب عن المجيء لإفريقية، لأنّ ذلك كان يسّهل عليهم نشر بدعهم بين السّكّان، وأغلبهم من البربر لا عراقة لهم في الإسلام، فكان البرابرة يدخلون بكثرة في مذهب أهل الشّيعة لأنّهم حديثو عهد بالملّة، لا يميّزون بين العقيدة السّنّية وبين غيرها، ومن غريب ما حفظه التاريخ للشّيعة أنّ أهل الدّولة الصّنهاجية كانوا يتّخذون لهم مدداً من النّصارى في قضاء مصالحهم، فكانوا يستحضرون منهم العرفاء وأهل الخبرة لإعانتهم على تشييد قصورهم وأبنيتهم لما توفّر لديهم من دواعي العطف نحوهم لتكاثر الجواري النّصرانيات ببلاطهم، ومنهنّ أمّهات بعض أمرائهم، ولك حجّة في هذه الأبيات المنسوبة لأحد أمرائهم تميم بن المعزّ، قالها مخاطباً لإحدى النّصرانيات التي امتلكت لبّه:

ألـيس الله يعـلم أنّ قـلبـي ... يحبّـك أيّهـا الـوجـه المليـح
وأهوى لفظك العذب المفدّى ... إذا درس الـذي قال المسيـح
أظـاهر غيـركم بـالـودّ عمـداً ... وودّكم هـو الـودّ الصّحيـح
وفيكم أشتهي عيـد النصارى ... وأصـواتـاً لهـا لحن فصيـح

وهو القائل قبيل مماته، والحسنات يذهبن السّيئات:

فكّرت في نار الجحيم وحرّها ... يـا ويلتاه ولات حـين مناص
فدعوت ربّي أنّ خـير وسيلتي ... يـوم المعاد شهـادة الإخلاص

وحاضنة باديس المشهورة بفعل الخيرات، ومنها ذلك المصحف الكريم

(7) [ابن ناجي «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» ج 2 - ص 204].

المكتوب على الرّقّ في القالب الكبير الموجودة منه بقية لهذا الزّمان بجامع عقبة ابن نافع بالقيروان كانت نصرانية، وكان أهلها على دين النّصرانية يرفلون في نعمة باديس، وأهل قرابته.

وفي أواخر المائة الخامسة للهجرة وفد على تونس مهاجرو جزيرة صقلّية بعد خروجها من يد الأمراء الكلبيين، ودخلوها في حكم الدّولة النّرماندية المسيحية، وكان عددهم نحو الثّلاثين ألف مسلم، نزل بعضهم بدخلة المعاوين، وأكثرهم بالسّاحل على مقربة من المهدية دار ملك العبيديين، فكانوا لقاحاً جديداً للعنصر التونسي بعد الألقحة الكثيرة السّابقة، وهذه أعقابهم ما زالت موجودة لهذا الزّمان. وما أحفاد زاوية الصّقالبة المشهورين بشرف النّسب بالوطن القبلي غير أعقاب جدودهم الصّقلّيين الوافدين من بلد صقلب بصقلّية على دخلة المعاوين حيث استقروا وتناسلت فروعهم هناك.

وامتاز القرن الخامس للهجرة أيضاً بورود عنصر آخر جديد من الأعراب، وهم بنو هلال، أوفدهم الخليفة الفاطمي بمصر للانتقام من المعزّ بن باديس لخروجه عن طاعته، وكانت عساكر المعزّ ثلاثين ألف، والعرب ثلاثة آلاف، وهذه الفئة القليلة غلبت الفئة الكثيرة، وفي ذلك يقول شاعرهم:

وإنّ ابن باديس لا حزم مالك لعمري ولكن ما لديه رجال
ثلاثة آلاف لنا هزمت له ثلاثين ألفا إنّ ذا لنكال

ومن هؤلاء الهلاليين أعراب رياح، ودريد، وأولاد سعيد، وفي ذلك العهد ظهرت بتونس خطّة القائد، الملقّب في هذا الزمان بالعامل، لأنّ العرب أطردوا البربر من مواقعهم في الجهات الجوفية واتّخذوها لهم منازل، ورتّبوا حكمها حسب نظامهم من استبداد كلّ رئيس بقومه.

وفي المائة السّادسة للهجرة ابتدأ قدوم أهل الأندلس لتونس إمّا للتجارة، وإمّا فراراً بدينهم من الجهات التي افتكّها منهم العدوّ، وكان قدومهم في عدد الآلاف أثناء المائة الثّامنة بعد سقوط مدينة إشبيلية، وهم خليط من العرب،

والبربر، والقوط، والفندال. ومن لفظ الفندال جاء لفظ الأندلس، فكانوا عنصراً جديداً امتزج بالعنصر التّونسي. وما زالت وفود الأندلس يتواردون على شمال إفريقية ومنها تونس، إلى أن كان الجلاء الأخير لعامّة المسلمين بإسبانيا في سنة 1016 [1607] وفي السّنة بعدها، ومن بقي منهم هنالك جبروه على التّنصّر بالقوّة القاهرة، كما حكاه شاعرهم في قصيدته التي مطلعها:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

وكان عدد الوافدين منهم على تونس يبلغ لنحو مائة ألف، والنّساء أكثر من الرّجال، وقليلهم يتكّلم بالعربية، وأغلبهم لا يحسن غير اللغة الإسبانية، ولباسهم هو الزّيّ الإفرنجي، ولبس العمامة غير معروف بينهم، وكان في جملتهم عدد كثير من اليهود أعقبهم في الورود وفد آخر من الإسرائيليين جاءوا من نابلي بإيطاليا لضغط النّصارى عليهم، فكانوا يهربون من جورهم ويلتجئون للعيش الهني في ظلّ راية الإسلام. وبديهي أنّ أهل هذا الجلاء المتحدّث عنه من مسلمين ويهود كانوا لقاحاً مثمراً وخصيباً لهذه الدّيار، ووافق ذلك انتشار الأتراك بتونس وأعمالها إثر الفتح العثماني، وكان في جملتهم أربعة آلاف من العساكر الينكشارية تزوّجوا كلّهم أو أغلبهم بالتّونسيات، فنشأ عن ذلك وجود طبقة جديدة من الأهالي ينعتونهم بالكوالغلية[8]، وتوالى في تلك الأثناء دخول كثير من المماليك والأسارى في دين الإسلام، لا سيما على عهد الدّايات، ومنهم القهرمان الدّاي اسطا مراد المشهور بغزواته البحرية. قالوا إنّ الأندلسيين الوافدين على تونس في ذلك الزّمان كانوا من المدبّرين على أهل الدّولة بتشديد القرصنة البحرية انتقاماً وتشفّياً مما أصابهم في بلادهم من العذاب، وفي مدّة العصر الحسيني تجمّع بتونس من العبيد السّود خلائق لا تحصى، ناهيك أنّهم كانوا مائة ألف أو يزيدون عند تحريرهم من الرّقّ في دولة المشير أحمد باي الأوّل، ولا يخفاك أنّ دم هذا الفريق من السّكّان اختلط أيضاً بدم أبناء بيوت

(8) مفرده كولغلي، وهو الرّجل الذي أبوه تركي وأمّه ابنة البلاد.

تونسية كثيرة لا سيما بالجهات الجنوبية من المملكة، وعلى قياسه كان اختلاط الدّم التّونسي بالدّم القبائلي الذين منه عساكر زواوة الذين كانوا في خدمة الدّولة الحسينية، والقبايل هم البرابرة سكان جبال الأرويس، وفي أثناء القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر وفد على تونس جموع كثيرة من العلوج ذكراناً وإناثاً كان أكثرهم من الفرج والرّوم التحقوا بالبلاط الحسيني وبأهل الدولة وديار الأكابر، وأكثرهم اعتنق الإسلام وتصاهروا مع أهل تونس واختلط دمهم بدم العنصر الأهلي كدماء العناصر السّابقة.

ومن مجموع ما تقدّم يتّضح لك أنّ العنصر التّونسي عبارة عن مزيج مركّب من عناصر نشيطة مختلفة الأجناس، أكثرهم في العدد البربر، فالعرب، فالأندلس، فالتّرك، فالزّنوج، فالنّرمانـديون، فبقيـة عناصـر الأقلّيات التي اندمجت في عناصر الأكثريات، وبحكم الضّرورة لا بدّ وأنّ تلك العناصر تكون متباينة في القوّة والإدراك والأخلاق، ولكنّهم متّحدون كلّهم في حبّ بلادهم تونس على السّواء، ومن تلقاه منهم يقول لك مع الشاعر:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة   وقومي ولو ضنّوا عليّ كرام(*)

(*) مجلّة شمس الإسلام - ج 7 - 8 - المجلد 1 - سنة 1937

العمامة الخضراء

ظهر في عالم الطّبع لمدة قريبة رحلة بالقلم الفرنساوي قام بها لنحو مائة سنة فارطة رجل عسكري من ضباط بلاد سويسرة وفد على تونس في صدر دولة المشير أحمد باي الأوّل، تضمّنت شتّى الأخبار المفيدة من أحوال المملكة التونسية التي شاهدها ذلك السّائح الأروباوي أثناء زيارته لهذه الديار. ومن الأمور التي استلفتت نظر المؤلّف في جملة ما شاهده يومئذ من العوائد والأزياء التونسية، انتشار العمامة الخضراء المتوّجة لرؤوس الكثيرين من الشّيوخ، كناية على التحاقهم بالنّسب الزّكيّ، وعنواناً على ثبوت شرفهم في نظر العّامة. لذلك أحببنا في هذه المرّة تخصيص نبذتنا التّاريخية الشّهرية بحديث هذه العمامة، وهو حكمها في الشّريعة، ومتى كان ظهورها في الإسلام، لا سيما وأنّ اللّون الأخضر ممّا تنشرح له الصّدور، وهو في عرف أهل أروبا يرمز للرّجاء وآمال الخير، وعندنا معشر المسلمين أنّه من لبوس أهل الجنّان، قال تعلى: ﴿عليهم ثياب سندس خضر﴾. ولنشرع في المقصود فنقول:

ليس للعمامة الخضراء أصل في الشّرع الإسلامي، ولم تكن معروفة بين المسلمين في القرون الأولى، وأوّل ظهورها كان بمصر على عهد الملك الأشرف أبي المعالي زين الـديـن شعبان بن حسين بن حمد بن قلاوون، وكانت في البداية عبارة عن مجرّد علامة خضراء تضاف لعمائم الأشراف. قال في بدائع الزّهور للمؤرّخ محمد بن إياس: «ثمّ دخلت سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وفيها رسم السلطان (شعبان بن حسين) بأن السّادة الأشراف قاطبة يجعلون في عمائمهم

شطفات[1] خضر حتى يمتازوا عن غيرهم، وتعظيماً لقدرهم، فنودي لهم في القاهرة بذلك، فامتثلوا أمره المتدارك» أهـ. وفي ذلك يقول الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن المزبن الدّمشقي:

أطراف تيجان أتت من سندس   خضر كأعلام على الأشراف
والأشرف السّلطان خصّصهم بها   شرفاً لنعرفهم من الأطراف

وقال الشيخ بدر الدين بن حبيب:

عمائم الأشراف قد تميّزت   بخضرة رقّت وراقت منظرا
وهذه إشارة أنّ لهم   في جنّة الخلد لباسا أخضرا

وممّن لم يستحسن مشروعية هذه البدعة عند ظهورها الشيخ شهاب الدين بن جابر الأندلسي، وفي ذلك يقول:

جعلوا لأبناء النّبيء علامة   إنّ العلامة شأن من لم يشهر
نور النّبّوة في كريم وجوههم   يغني الشّريف عن الطّراز الأخضر

ويلوح أنّ الداعي لتمييز الأشراف بشطفة خضراء في عمائمهم إنّما اقتضته الظّروف في هاتيك الأزمان، لأنّ مدّة الملك الأشرف، شعبان بن حسين، الذي تولّى السّلطنة في الثّانية عشرة من عمره، تخلّلها هرج عظيم بين ولاة الأتراك بجهات المملكة، وكان زعيم تلك الحركة، الأتابكي يلبغا، القابض على رقبة ذلك السّلطان الفتى، فلعّله فعل ذلك سياسة منه لتنفيذ مقاصده باستمالة الأشراف لجانبه، فيلتفّ النّاس حوله لمناصرته على أعدائه، ولذلك ميّزهم باسم السّلطان بالعلامة الخضراء المتحدّث عنها، كي لا يمسّهم أحد بسوء وبالتّالي تطوّرت تلك العلامة، واستوعبت كامل العمامة، واستمرّ على اختصاصها بآل البيت، وانتشرت بين أشراف الآفاق في الشّرق والغرب، وإذا تدبّرنا ما كان للسّادة الأشراف من الحظوة والاعتبار[2] في أنظار عامّة

(1) قال في المنجد الشّطفة من الشّيء: القطعة.
(2) انظر عبارة التّوقيع بولاية نقيب الأشراف في صحيفة 163 بالجزء الحادي عشر من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي.

المسلمين، سهل علينا فهم السّرّ الجليل الذي كان مخبوءاً في طيّات العمائم الخضر المتوّجة بها رؤوس حامليها من الأشراف ثابتي النّسب.

هذا وقد اختلفت أنظار أهل الشّريعة في حكم هذه العمامة الخضراء، فبعض الفقهاء لم يرها بدعة مباحة ولم يمنع من أرادها من شريف وغيره، بناء على أنّ النّاس مضبوطون بأنسابهم الثّابتة، وبعضهم استروح استحسانها من كلام شيخ الإسلام أبي السعود العمادي، لأنّه يراها تمييزاً للشّريف عن غيره خوف الانتقاص وعدم الاحترام بين العامّـة، لأنّ الشريف قد يجهل، ولأنّ الأنساب لا يلزم أن تكون مشهورة بين النّاس، كما سيأتي بيانه بالفتوى الصّادرة منه في ذلك.

أمّا ظهور العمامة الخضراء بالديار التونسية، فيلوح أنّ ذلك كان حوالى المائة العاشرة، ولا سيما بعد استقرار حكم التّرك، وترتيب الدّواوين بها في القرن الحادي عشر، إذ التّرك كانوا أصحاب عقيدة صميمة، وحبّ رسيخ في آل البيت، فقد كانوا يغدقون عليهم بالإحسان والمنح والإقطاعات، وجعلوا لنقيب الأشراف حقّ الحضور مع أهل المجلس الشرعي عند اجتماع الفقهاء للنظر في النوازل بحضرة الباي. وممّا لا خلاف فيه أنّ العمامة الخضراء كانت كثيرة الانتشار بتونس وأعمالها في القرن الثاني عشر، ولا سيما بالمدن المعروفة بكثرة الأشراف، كبلد مساكن، وعلى قياسها بلد صفاقس التي لم يزل لها تعلّق وثيق بالعمامة الخضراء لهذا الزمان. أمّا في أواسط القرن الثالث عشر، فقد حكى لنا السّائح السّويسري المشار إليه في طليعة هذه النّبذة، أنّ العمامة الخضراء كانت بتونس من الأشياء المستلفتة للأنظار بكثرة انتشارها بين النّاس، وبالتّالي أخذ أمرها في التّقاصر والتّراجع إلى أن صارت من اللّبوس النّادرة حتى في الأوساط المعروفة بصحّة النسب الزّكيّ، بحيث إنّ حامليها بتونس كانوا يعدّون على الأصابع في مبادىء هذا القرن الرابع عشر. وممّن أدركنا من الشّيوخ المتوّجة رؤوسهم بالزّمالة الخضراء[3]، الشيخ الشاذلي بن صالح الجبالي، كبير أهل

(3) الزّمالة عبارة عن عمامة ذات لفّ وتركيب منتظم يدوم زمناً طويلاً، وهي في زماننا هذا من =

الشّورى المالكية المتوفى سنة 1308 [1890] فإنّه كان شريفاً من جهة أمّه بنت الشيخ الحاج علي دمدم المشهور الشرف بتونس، وكان الحافظ الشيخ أحمد بن عبد الكريم يؤمّ المصلين بجامع محمد باي المرادي وعلى رأسه زمالة خضراء تسرّ الناظرين، وهذا الفاضل من قرابة الشّريف الشيخ محمد بن عبد الكريم، الذي كان في جملة المحمّدين الأربعين من آل البيت الذين انتخبهم المشير أحمد باي الأوّل بإشارة القاضي الشيخ مصطفى بيرم للاجتماع بجامع الزّيتونة، والدّعاء بتفريج الكرب عند اشتداد الطاعون بتونس في سنة 1266 [1849]. وقد تضمّن تاريخ الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضّياف أسماء هؤلاء السّادة الأربعين، وكلّهم ممّن اشتهروا في تونس بالشّرف المطهّر، وكان أكثرهم يحمل العمامة الخضراء. وكان نقيب الأشراف يومئذ الشيخ محمد بيرم الرابع، ولكن لم يتّخذها شعاراً له فيما نعلم، ولقد تأصّل تعلّق بعض الأشراف بالعمامة الخضراء لحدّ تتويج ضريحه بعد موته بمشهد تعلوه زمالة موشّاة بالطّلاء الأخضر، كما لم تزل من ذلك بقيّة لهذا الزّمان بمقبرة الجلاّز التي ضمّت تربتها ألوفاً كثيرة من آل البيت، رحم الله الجميع.

واعلم أن أشهر بيوت الشّرف لهذا الزّمان بهذه الديار، هم آل بيتي الشّريف، ومحسن، أيمّة جامع الزّيتونة، وكان سلفهم ممّن يعتمّ بالعمامة الخضراء، وكلّهم من ذرّية الشّريف الشيخ حسن الهندي الذي كان نقيباً للأشراف بتونس في سنة 1023 [1614] كما استفيد ذلك من بعض الرّسوم القديمة، وفيهم يقول القاضي الشيخ أحمد بن الخوجة الأول، وفيه إشارة لأصلهم الهندي:

ألا إنّ نور الله بعد محمّد   بنو بنته الأطهار من وصمة الحقد

= خصوصيات الأيمّة وأهل العلم، وهي من أوضاع البلاد الشّرقية، وكانت معروفة بالفرس في الزّمن البعيد، فقد رأيت بمتحف مدينة بوردو رسماً بالدّهن يمثّل مجلساً فارسياً يرجع للمائة الأولى من التّاريخ المسيحي اشتمل على مشيحة من الفرس معتمّة رؤوسهم بزمالات كزمالات فقهاء تونس، نصّاً سواءً.

وكلّهم سيف فـرنـده لامـع ولكّنما الأسياف أشرفها الهندي

وأنت تعلم ما لسيوف الهند من الحدّ القاطع، ناهيك بما وصفها به كعب ابن زهير بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلم في مجلس حافل بالمهاجرين والأنصار في قصيدته الخالدة:

بانت سُعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثـرهـا لم يفـد مكبـول

إلى أن قال:

إنّ الرّسول لسيف يستضاء به[4] مُهَنَّدٌ من سيوف الهند مسلول

قال بعض شراحها إنّ النبي صلّى الله عليه وسلم قاطعه عند ذلك بقوله: «بل من سيوف الله» فأعاد كعب قراءتها قائلاً «مهند من سيوف الله مسلول»، وبهذا التّعديل النّبوي تناقلتها الألسن والأقلام في القرون السّابقة واللّاحقة.

ولنرجع بك لبيت القصيد، يعني العمامة الخضراء موضوع الحديث، فقد قدّمنا لك أنّ الإمام أبا السّعود العمادي ممّن استحسن ابتداعها، ولقد سئل في ذلك فأجاب بما يعتمد في الموضوع مع الفتوى بصحّة الشّرف من جهة الأمّ، وإليك نص السّؤال والجواب:

---

(4) قال الشيخ الباجوري لما وصل كعب في قراءة قصيدته إلى قوله «إن الرسول لسيف إلخ» رمى صلى الله عليه وسلّم بردته الشّريفة عليه وبذل له فيها معاوية عشرة آلاف درهم، فقال كعب ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلّى الله عليه وسلم أحداً، فلمّا مات كعب بعث معاوية إلى ورثته عشرين ألفاً وأخذها منهم أهـ. وبالتالي انتقلت هذه البردة الشّريفة من يد لأخرى إلى أن آلت إلى الشريف بركات، فلمّا استولى السّلطان سليم خان الأوّل على مصر، ودخلت بلاد الحجاز في طاعته، طلب من الشّريف بركات أن يوافيه بالآثار النّبويّة وفي جملتها البردة المتحدّث عنها، فأرسلها إليه مع ابنه الشّريف أبي نمي، فأمر بحفظها بسراية (طوب قبو) عدا البردة الشّريفة فقد وضعها بمكان قرب جامع السلطان محمد الفاتح، وما زالت هنالك إلى انقراض الخلافة من آل عثمان في سنة 1342 [1923] ويقال إنها لم تزل محفوظة حيث هي. هكذا أفادنيه المرحوم صاحبنا الوزير السيد الطاهر خير الدين.

السؤال ـ هل ثبوت الشّرف من جهة الأمّ صحيح أم لا؟ وهل هو بمنزلة الشّرف من جهة الأب أم لا؟ وهل لمن شرفه من جهة الأمّ أن يضع العلامة (العمامة الخضراء) التي يتميّز بها عن العامّة أم لا؟ وما دليله وما تعليله افتونا مأجورين؟.

الجواب ـ نعم ثبوت الشّرف من جهة الأمّ صحيح معتدّ به شرعاً، واجب قبوله شرعاً وعرفاً، فإن ثبت لامرأة أنّها شريفة صحيحة النّسب كان أولادها لبطنها ذكوراً أو إناثاً أشرافاً ثابتاً شرفهم من قبلها مع قطع النظر عن آبائهم وإن كانوا أرقّاء أو عتقاء لا يضرهم ولا يمنعهم من ثبوت سيادتهم من جهة والدتهم ويثبت لهم من السّيادة ما ثبت لها، وتعينّ تمييزهم على غيرهم ممّن لا شرف لهم بوضع العلامة خوفاً من انتقاصهم وعدم احترامهم بين العامّة. فمن كان أمه شريفة ثبت الشّرف له ولأولاده ونسله وعقبه، وانتظم في سلك الأشراف، والأدلّة على ذلك كثيرة يضيق عنها المقام ويكفي الإشارة إلى بعضها، وهو أنّ جميع الأشراف الموجودين الآن (المائة العاشرة) في مشارق الأرض ومغاربها إنّما ثبت لهم الشرف من جهة والدتهم فاطمة الزهراء من جهة السّيدين الجليلين، الحسن والحسين، وهما إنّما ثبت لهما الشرف من جهة والدتهما رضي الله عنها لا من جهة سيّدنا عليّ وإلا كان أولاده من غيرها كابن الحنفية أشرافاً، فليس خفيّاً أنّ علماءنا جعلوا في ذلك قياساً منطقياً من الضّرب الأوّل من الشّكل الأوّل مركّباً من صغرى وكبرى، وبيان صغراه من عشرة أوجه، وأما كبراه فلم تحتج إلى بيان وتحرير نظمه أنّ الولد بضعة من الأمّ والأمّ بضعة من أبيها، فكيف لا يثبت له ما ثبت لها، ولهذا حكمنا بشرف الحسن والحسين، وقد أفردت هذه المسألة بالتّصنيف وحظيتها بالتّأليف وفيه كفاية أهـ.

ولقد وقفت بكنّاش بعض الأفاضل على نادرة لطيفة مضمونها أن الشيخ إبراهيم الرّياحي، قال له ابنه: «يا أبَتِ لماذا لم تشهر نسبك الشّريف بين الناس كما فعل فلان وفلان؟ فأجابه: يا بنيّ لأن فاطمة البتول ستعرف وحدها أبناءها يوم القيامة» قلت هذا كلام صحيح لا غبار عليه، ولكنّه لا ينافي كون سيّدتنا

فاطمة ستعرف أيضاً في جملة أبنائها من يتحدّث بنعمة الله عليه بانستابه للعترة النبوية المطهرة. ولذلك نثبت هنا عبارة وثيقة تاريخية في ثبوت شرف أهل البيت الخوجي، منّة من الله وفضلاً، منقولة من خطّ نقيب الأشراف الشيخ محمد بيرم الثالث، ومختتمة بطابعه، ونصّها بحروفها:

«الحمد لله ثبت شرف الشّيخ العلاّمة السيد محمد بن الخوجة القاضي الحنفي بتونس وعملها في التّاريخ، وأعلم بذلك العبد الفقير إلى ربّه محمد بيرم الثالث نقيب الأشراف بتونس في التّاريخ الواضع ختمه بالمحول في 27 حجة الحرام متمّم شهور عام سبعة وخمسين ومائتين وألف أهـ [1841].

بقي علينا البحث في مسألة العمائم الخضر التي ليس لها من آثار الشّرف غير اللون الأخضر، وهذه ربّما كانت كثيرة في الزّمن الماضي، وإنّما قضت عليها الظّروف بالاحتجاب تبعاً لناموس التّطوّر الذي تناول العمائم من كلّ لون ورجع بها القهقري، وقد كان المتطفّلون عليها يتّخذونها ذريعة إمّا للتّمشيخ الفارغ، وإمّا للنّصب والاحتيال، فقد اتّفق أنّ رجلاً من اللّفيف أفضى به الحال للتّقدّم بصفة عكاشة[5] في صفّ إحدى الجماعات العيساوية، وعندها اتّخذ له عمامة خضراء فخيمة جسيمة ليست من الشّرف في شيء، وكنت سمعت من المرحوم السيّد العربي بسيّس، وهو ممّن طاف البلاد الشّرقية في

(5) لقب عكاشة المعروف بين أهل الطّريقة العيساوية مقتبس من الصّحابي سيّدنا عكاشة بن محصن، فإنّه لما بشّره النبي صلّى الله عليه وسلّم بالجنة رقص لذلك واهتزّ فرحاً، قالوا: إنّ اهتزازه في تلك الأونة هو الذي تشبّه به أهل الطّريقة العيساوية وأطلقوه على زعيم أهل الحضرة وسمّوه عكاشة. هكذا سمعت من بعض الشّيوخ الماضين والعهدة عليه. والشّيء الصحيح الوارد في كتب تراجم الأصحاب، ككتاب الاستيعاب، هو أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما قال لأصحابه «سبعون ألفاً من أمّتي يدخلون الجنّة بدون حساب» وهم الذين لا يسترقّون ولا يكتوون ولا يتطيّرون وعلى ربّهم يتوكّلون، قال له عكاشة بن محصن: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال أنت منهم ودعا له، فقام رجل آخر ـ وكان من المنافقين ـ وقال يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال له «سبقك بها عكاشة». ولولا نفاقه لدعا له لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان لا يكاد يمنع شيئاً يسأله إذا قدر عليه ومن هذه الحكاية الواقعية ترى أنّ عبارة «سبقك بها عكاشة» التي جرت مجرى الأمثال الخالدة هي من مبتكرات النّبوة، فما أحسن وقعها عند وضعها بمحلّها.

الطوّل والعرض، أنّ سائقي العيس لمّا يكتري الحاج منهم راحلة لقطع الدّرب الفاصل بين مكّة المشرّفة، والمدينة المنورة، يخفض صاحب الدابّة كتفه للحاج ليسهّل عليه مهمّة الصعود لذروة الجمل، فلمّا يضع الحاج قدمه على كتف الجمال، يرفع هذا صوته قائلاً: رفقاً بآل البيت يا أخي، فقد أوجعت عنقي. وبذلك يصبح الحاج في حيرة لاعتقاده أنّ صاحبه من آل البيت الأطهار، ويسترضيه بالزّيادة في أجرة الرّكوب، وليس هو غير نصّاب محتال من قطّاع الطرّيق، لا يملك من الشّرف مقدار حبّة من خردل بدمه. هذا ما كتبه القلم المحتار، وربك يخلق ما يشاء ويختار(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 2 ـ الجزء 7 ـ (أفريل 1938).

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في تونس

اعلم أنّ الاحتفال بالمولد الشّريف في تونس كان ظهوره لأوّل مرّة في المائة الثامنة على عهد أمراء الدولة الحفصية سلكوا في ذلك مسلك سلاطين بني مرين بالمغرب، وكان أكثرهم عناية بعيد الميلاد الأشرف السلطان أبو عنان فاقتدى بصنيعه السّلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز، فكان موسم المولد في زمنه مظهراً للزّينة والصّدقات، ولا سيما إحياء ليلته بالتّلاوة والأناشيد وقصائد المديح، وفي عهدهم على ما أفاده التّواتر كان ابتداءً جمع الصّبيان بالكتاتيب على قراءة قصيدة الإمام البصيري في أيّام المولد ورتّبوا لهم في مقابلة ذلك منحة نصف الرّيال التي ما زالت موجودة لهذا الزّمان، وأمّا منحة الخمسة ريالات التي تعطى للمؤدّبين بمناسبة المولد الشّريف، فإنّها حدثت في عصر الدّولة المرادية أسّسها المرحوم يوسف داي[1] **كما أفاده صاحب المؤنس**[2] وقال: إنّهم كانوا يعطونها إيّاهم ليلة المولد حتى أنّ الكُتَّاب الذي يكون معطّلاً مدّة العام يجيء صاحبه ليتقاضى ما هو معلوم، ومن الغريب أنّ هذه المنحة التي مرّ على إحداثها أكثر من ثلاثة قرون لم يتناولها التّطوّر الطبيعي في البشر، ويلوح أنّ كرامتها ظهرت في بقائها لهذا الزّمان، فلا تَمُدَّنَّ عينيك لما وراء ذلك، ولكن ليتصور القارىء مقدار أهمّيّتها في عصر ظهورها ننقل له هنا أسعار بعض المأكولات في الدولة المرادية وفي بداية العصر الحسيني، فرغيف القمح في أيّام

(1) توفّي سنة 1047 [1637].

(2) [«المؤنس» - ص 207].

الدّاي اسطا مراد[3] كان وزنه 36 أوقية وقيمته ناصري واحد، وقنطار اللحم البقري كان سعره ريالاً واحداً في الزمن المذكور، وفي عهد المولى حسين بن علي[4] كان ثمن القفيز قمحاً ثمانية ريالات، وثمن الكبش نصف ريال، والقنطار عسلاً بريالين اثنين، وقُلَّة السّمن بخمسة أرباع، ومطر الزّيت بثلاثة أرباع، والثّلاثة أرطال تمر بناصري واحد. قال في **المشرع الملكي**[5]: وكان ثمن فرس السّرج في تلك الأيام 20 ريالاً، وثمن فرس الخدمة 8 ريالات، وكسوة الرّجل المستكملة ومعها قفطان قيمتها ثلاثون ريالاً، وكسوة المرأة خمسة ريالات، ومنه يظهر أن منحة الخمسة ريالات التي تفضّل بها يوسف داي على المؤدّبين كانت تكفيهم يومئذ لمؤونة عام كامل، فإذا اشترى الواحد منهم مثلاً لمعاشه ربع قفيز قمحاً وكبشاً لجعله قديداً مع مطر زيت ونصف قُلَّة سمن وربع قنطار عسل يدخره لعصيد المولد الذي سيأتي ذكره في الختام، تبقى له بقية من الخمسة ريالات، اللهم بارك.

هذا وعلى قياس بني أبي حفص في الاعتناء بالمولد جرى عمل الأمراء المراديين، ولا سيما واسطة عقدهم محمد، ويدعى حمودة باشا صاحب الجامع المجاور للزاوية العروسية، ومثله حفيده محَمد باشا المرادي صاحب الجامع المواجه للزّاوية المحرزية، وقد حكى **المؤرخ ابن أبي دينار**[6] أنّ في زمنه (القرن الحادي عشر) كان الاحتفال بليلة المولد في تونس بالغاً حدّ الغاية لا سيما بدار نقيب الأشراف، ونصّ عبارته «وتكون ليلة عظمى بدار نقيب الأشراف يحضرها الجلّة من النّاس والقرّاء والفقهاء، ويقع فيها السّماع والأناشيد بالمدائح النّبوية، ويهرع النّاس إليها من أطراف البلد، وتكون عندهم من الليالي العقم[7]» أهـ. ثم ذكر الزّينة التي كانت تقوم بها بعض الزّوايا كالزّاوية

(3) توفّي سنة 1050 [1640].

(4) توفّي سنة 1153 [1740].

(5) [المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي - تأليف محمد الصغير بن يوسف. (مخطوط)].

(6) [«المؤنس» ص: 307]

(7) يعني الفريدة. يقال امرأة عقيم يعني لا تلد، وضده امرأة منتاق أي كثيرة الولد.

القشاشية نسبة لأبي الغيث القشّاش[8] ولا سيما الزاوية البكرية[9] بمناسبة المولد، وقال إنّها تدوم نصف شهر، ويهرع النّاس للتّفرّج والمبيت بالزّاوية البكرية المذكورة. وعلى قدم أمراء الدولة المرادية نسج ملوك الدولة الحسينية، وكانوا يكثرون الصّدقات في شهر المولد، ناهيك أنّ المولى حسين بن علي كانت صدقاته تتجاوز حدود بلاده، فإنّها كانت تصيب القريب والبعيد حتى أسارى المسلمين بمالطة وبغيرها من بلاد النّصارى، وكان يبعث لهم الزّيت لإنارة مساجدهم هنالك، ويزوّدهم بالأكفان لإدراج موتاهم.

وأوّل أمير حسيني رتب موكباً رسمياً للمولد الشريف بتونس هو المشير أحمد باي الأول، وكان ذلك في سنة 1257 [1841] ورتّب موكباً مثله بمدينة القيروان، وسيأتي وصف هذا الموكب، فيكون الاحتفال بموسم المولد في عامنا هذا جاء متمّماً لعدد المائة في صحيفة حسنات البيت الحسيني، خلد الله دوامه، وقد امتاز المشير محمد الصادق باي بالزّيادة في تفخيم هذا الموسم النبوي حيث عمم في سنة 1293 [1876] الاحتفال به في سائر عواصم المملكة التونسية، وخصّص لذلك اعتمادات مالية بميزانية الدولة ينفق منها القدر اللازم لإشهار المولد بجامع الزيتونة، وجوامع الحاضرة وزواياها، على يد شيخ المدينة، ويصرف الباقي على الحفلات المولدية التي تقام بجوامع البلدان، على يد العمّال، وبمثل هذا جرى العمل إلى هذا الزمان.

وقد اتّفق أن كانت ميزانية عام 1917 (في عصر الحماية) شاملة لمولدي عامين هجريين وهما عام 1335 [1916] وعام 1336[1917] ولم يكن طبعاً بتلك الميزانية إلّا المال الكافي لموسم عام واحد، فتداركت الدولة تلك الحال بأخذ المال اللّازم للمولد الثاني من فواضل الميزان.

---

(8) مشهور بالصلاح وإليه تنسب حومة القشّاشين على مقربة من جامع الزيتونة، كان معاصراً ليوسف داي، ومن أصهاره الشيخ تاج العارفين البكري توفي سنة 1030 [1620].

(9) نسبة لآل البكري من ذرّيّة سيدنا عثمان بن عفان رضوان الله عليه انحصرت إمامة جامع الزيتونة في بيتهم مدة 193 سنة.

وأمّا صورة الاحتفال المولدي الرسمي الذي رتّبه المشير أحمد باي وسار أخلافه بكرسي الملك على منهاجه، فحديثه طويل نلخّصه فيما يلي:

ففي ليلة ثاني عشر ربيع الأول على ما تثبته الرّؤية الشّرعية، يقدم سموّ الباي المعّظم في موكبه الفخيم لعاصمة مملكته بنيّة زيارة مقامات الصّالحين، وهي: ضريح سيدي علي بن زياد[10]، وضريح سيدي محرز بن خلف[11]، وضريح سيدي ابن عروس[12]، وضريح سيدي إبراهيم الرّياحي[13]، وضريح سيدي علي شيحة[14]، وضريح سيدي علي محسن[15]. وبعد هاته الزيارة وإفاضة الصّدقات، يعود الموكب لسراية المملكة حيث تقام مأدبة ملكية فاخرة يحضرها مع سموّ الباي، وليّ عهده، والوزراء، وأمراء الأمراء، وكبار أهل

(10) من أصحاب الإمام مالك. كان فقيهاً ورعاً، رفض خطّة القضاء بتونس يؤتى إليه من بعيد لأخذ الفتوى منه توفي سنة 183 [799].

(11) من ذرّية سيدنا أبي بكر الصّديق رضي الله عنه، ومن الصّالحين والعلماء العاملين، ينعت في عصره بالمعلّم محرز، لأنّه كان مؤدّباً مربياً يعلم الصّبيان القرآن والفقه، وهو عماد أهل تونس في القديم وفي الحديث، ينعتونه بسلطان المدينة، وآخر تجديد تناول زاويته كان في سنة 1279 [1862] على عهد المشير محمد الصادق باي. وتوفي رضي الله عنه سنة 413 [1022]

(12) صاحب الكرامات الباهرة، مات وهو ابن تسعين سنة عن دون عقب، والخلف المنسوب إليه من نسل أخيه، بورك فيه، وزاويته بناها له السلطان محمد المنتصر الحفصي في المائة الثامنة، وعلى واجهتها بالنقش في الحجر عبارة تشعر بذلك توفي رضي الله عنه سنة 868 [1463].

(13) من أهل الصلاح الشرعي ومن أقطاب العلم، وهو أشهر مشاهير علماء تونس في القرن الماضي، تخرجت عليه طبقات من كبار العلماء، تولّى رئاسة المذهب المالكي وإمامة جامع الزيتونة، وقام بسفارة لدى سلطان المغرب سنة 1218 [1803] في طلب الميرة وبتلك المناسبة اجتمع بالقطب سيدي أحمد التيجاني رضي الله عنه وأخذ عنه طريقته التي نشرها بتونس عند رجوعه إليها، كما قام بسفارة أخرى في عام 1254 [1838] لدى السلطان محمود خان الثاني في مهمة سياسية أوفده من أجلها المشير أحمد باي، وحجّ قبل ذلك عن والده الباشا مصطفى باي في سنة 1252 [1836] وزاويته من أشهر زوايا حاضرة تونس جددت عمارتها في سنة 1295 [1878] بعناية المشير محمد الصادق باي وبلغت نفقة قبّتها ذات النّقوش الجميلة لمائة ألف ريال. توفي رضي الله عنه في طاعون سنة 1266 [1849].

(14) من المشهورين بالصلاح، وبزاويته ينتصب ميعاد الطّريقة السُّلامية، وهذه الزّاوية بناها له الوزير مصطفى خزندار في سنة 1269 [1852] وبها دفن رضي الله عنه عند وفاته سنة 1271[1854].

(15) من آل البيت الأطهار وأصحاب الكرامات دفن بداره عند وفاته في سنة 1297 [1879].

الدّائرة السّنيّة، وطبيب القصر الملوكي. وقد حضرت مرة في جملة من شرّفهم بالاستدعاء المولى محمد الحبيب باي للعشاء مع سمّوه ليلة المولد، فكان معنا حول المائدة جميع أطبّاء حضرته الرّسميين وغير الرّسميين، وكانوا ستّة في العدد، فقلت له: يا مولاي، نتوكّل على الله في الأكل من كلّ هذه الألوان الشّهيّة ولا نخشى تخمة، لأنكّم جعلتم بيننا وبينها سدّاً منيعاً من الحكماء! فضحك وقال لأطبائه: علينا الأكل، وعليكم ردّ البال! ولولا أنّ هذه الحكاية جاءت بها القافية لما شغلت بها نظر القارىء، أما أصل هذه المأدبة المولدية فإنّها من محدثات المشير أحمد باي المتقدم ذكره، وكان الوزراء من أصهاره ومماليكه يترصّدون ليالي العام للّتقرّب إليه في ليلة المولد بصنع الأطعمة الشّهيّة في بيوتهم وإضافتها للمائدة المولدية.

وسمعت ممّن نقل عن نديمه الشّيخ مصطفى السّماتي أنّ سموّه كان بمعزل عن ذلك لأنّه كان متخوشناً في عيشه لا يميل للرّفاهية بحال، وكان لابن عمّه المشير محمد الصادق باي عناية عظيمة بالمولد الشريف، ويتغالى في ترتيب المأدبة المولدية ما تبلغ قيمته لنحو سبعة آلاف ريال، هكذا رأيت في مصروفاته عن عام 1289 [1872] وهو مبلغ وافر بالنّسبة لعصره ولخزينة دولته.

وقد جرت العادة في مدة البايات السّابقين أنّ عشاء المولد لا يحضره من رجال الدولة إلّا كبار متوظّفيها المسلمين، لكنّ هذه العادة تخلّفت لأوّل مرّة في سنة 1332 [1913] حيث استدعى أمير ذلك العصر بإشارة من أحد وزرائه لسياسة رآها في ذلك، خلافاً للعادة المألوفة، جميع أعضاء مجلس الوزراء الشّامل للوزراء، والمديرين الفرنساويين، والتونسيين. وهذه العادة الجديدة اختلّت في السنين التّالية لتعطيل المأدبة المولدية بسبب استعار نار الحرب العالمية، ثمّ أعيد ارتسامها بشكلها القديم مع تغيير قليل ولكن بدون تتابع على ممرّ السّنين.

هذا وبعد أن يستريح سمّو الباي المعظّم برهة من الزّمان بعد صلاة العشاء، يجلس بالمقعد المطلّ على سوق التّرك، وعندها ينتظم الموكب الملوكي،

فيخرج سمّوه من سراية المملكة في مظهر مهيب، ويسير على القدم لزيارة أسواق التّجارة الأهلية، بينما تكون البطاح والشوارع التي حول القصباء محتبكة كاحتباك الرُّمّانة بالمتفرّجين، والموسيقى الملكية تترنّم بألحانها المطربة بحديقة القصباء.

ومن عقائد العامّة بتونس أنّ إراقة قهوة البنّ من دلائل الخير المنتظر، لذلك اعتاد أصحاب القهاوي [المقاهي] العربية إراقة جزوات القهوة في ممرّ سموّ الباي المعظّم، وسموّه يحسن لهم في مقابلة ذلك. قالوا إنّ المرحوم حمودة باشا جاء مرّة للمشاركة في أفراح أقامها أهل تونس تكريماً لحضرته، فتقدّم نحوه بسوق العطّارين أحد القهواجية وأراق جزوتين من القهوة، فنهاه الباي عمّا رآه تبذيراً، ولكنّه فهم المقصود من صنيعه، فأحسن له بنصف محبوب. وعلى قياس جزوة القهوة، وعلى قاعدة التّنقّل من المهمّ إلى الأهمّ، يتسابق في زماننا هذا أعيان التّجّار في ميدان المجاملة والمكارمة لحدّ إراقة قوارير العطور عند قدمي سموّ ملكهم المحبوب، فيمتلىء الفضاء بالرائحة الزّكيّة، وبعضهم يفرش قطع الدّيباج ليمرّ عليها سموّه إلى غير ذلك من مظاهر الفرح والحفاوة بأمير البلاد.

وفي أثناء تجوله بالأسواق يشرّف سموّه بزيارته حانوت أمين **البِرْكَة**[16] فيعرض على أنظاره الشّريفة ما لديه من المجوهرات الفاخرة المعدّة للبيع، وقد يتّفق أنّ سموّه يرغب في بعضها بالشّراء. ومن سوق البِرْكَة يتقدّم سموّه لزيارة بقيّة الأسواق، وتكون بالغة حدّ الغاية في الزّينة والإسراج، فيدخل سوق الشَّوَّاشِيّة حيث يجلس بحانوت أمين الصّناعة، ويتناول قهوة الإكرام، وأهل هذا السّوق كلّهم من أبناء البلاد وأعيانهم.

ومعلوم أنّ صناعة الشّاشية هي أمّ الصنائع التونسية، والفضل في تهذيبها يرجع لأهل الجالية الأندلسية، ثمّ يزور حانوت أمين سوق الحرائرية، وحانوت

(16) [سوق البِرْكَة: كانت مخصّصة لبيع الرّقيق، وبعد إبطال الرّقّ في سنة 1846 خصّصت لبيع الحليّ والمجوهرات إلى يومنا هذا].

أمين سوق البلاغجية، ويختم سموّه زياراته بالدخول لسوق العطّارين الذي هو أشهر أسواق التّجارة وأقدمها أحدثه الأمير أبو زكرياء يحي الحفصي في النّصف الأوّل من المائة السابعة، وكان في القديم لجانب سوق العطّارين سوق آخر اسمه سوق الطّيبيين مواجه لصحن الجنائز، وبه كانت تباع الزّهور من ورد وياسمين وغير ذلك، يشتري منها أصحاب حوانيت سوق العطّارين ما يلزمهم من الزّهور الصالحة للّتقطير. ومن أهل سوق الطّيبيين في حال شبابه العلامة الشيخ محمد بن علي قويسم صاحب دائرة المعارف المسماة كتاب سمط اللآل، وتوفي سنة 1114 [1702] بعد أن باشر التّدريس بجامع محمد باشا المرادي. وعند دخول الباي لسوق العطّارين يشرّف بزيارته حانوت أمين الصّناعة، ويتناول من يده القهوة المسنونة. وفي زماننا هذا أضيف لذلك زيارة المغازة المنصورية التي اشتهر صاحبها بالاتّجار في الأقمشة البديعة، وفي صناعة العطور السّليمة وأدهان الشّنودة الذكية، ومياه الطّيب، ومنها ماء الكونجلو الذي انفرد بصنعه، وهذا اللفظ محرّف عن acqua angelo في اللغة الطّليانية، ومعناه ماء الملك. ولولا خوف الخروج عن الموضوع لبحثنا هنا عن ماهية هذا الماء وعن حسبه ونسبه، وربما عدنا له في مناسبة أخرى. وعلى ذكر سوق العطّارين نقول: إنّ لأهل تونس رغبة زائدة في أنواع الطّيب، وهي أحد الأمور الثّلاثة التي رغّبت فيها السّنة. وقد امتاز الملوك الحسينيون بالإكثار منها في المواسم والاحتفالات، ولا سيما في ليالي رمضان، وفي ليلة المولد. فقد وقفت على دفتر في بعض مصروفات الباشا محمد باي، وإذا به تفصيل ما أنفق بمناسبة الاحتفال بمبعوث عثماني وفد عليه مبشّراً بازدياد مولود للسلطان محمود خان الثاني، وكان في جملة مصاريف هذا الاحتفال جانب من البخور ضمنه أوقية عنبر خام للاستعمال ساعة قراءة الفرمان المبشّر بالمولود المذكور. ورأيت في تقييد آخر مؤرخ بعام 1254 [1838] أنّ المشير أحمد باي اشترى رطلاً من القماري عند دخول شهر المولد ذلك العام، ممّا يدلّ على أنّ عنايته بالمولد النبوي كانت متقدّمة على الاحتفال به بالطريقة الرسمية. ووقعت بيدي ورقة في بعض مصروفات المشير محمد الصادق باي عن عام 1290 [1873] فإذا بها (1748)

ريالاً ثمن مسك، وعنبر، وعود للبخور في ليالي رمضان. وخلال تجوّل سموّ الباي المعظّم بهاتيك الأسواق يكون سير الموكب بنظام حكيم، وفي مقدّمته شيخ المدينة، لأنّه هو الذي يمشي به في الناس.

وخطّة شيخ المدينة من أنظمة الدّولة الحفصية، وعنها ورثها المراديون، واستكمل نظامها في عهد الدولة الحسينية. وكان البايات يبيتون بسراية المملكة ليلة المولد، وبطلت هذه العادة لنحو أربعين سنة فارطة. وفي السّنين الأولى من عصر الحماية، كان المجلس البلدي يرتّب حفلة بلدية فخمة ليلة المولد بمناسبة قدوم سمّو الباي للحاضرة، فيشرّف سموّه الدار البلدية ويقدم لقدومه فخامة الوزير المقيم، والوزراء، وشيخ الإسلام، وأركان الدولة، وقواد الجيوش، وأصحاب الحيثيات من كبار الذوات التونسيين والفرنساويين، ثمّ انقطعت هذه العادة في حدود سنة 1312 [1894] لأسباب ليس هنا محلّ بسطها.

وفي صبيحة يوم المولد يعود سمّو الباي المعظّم لسراية المملكة للتّبرّك بحضور قراءة القصّة الشّريفة بجامع الزّيتونة، وهذا الاحتفال رتّبه المشير أحمد باي كما سبقت إليه الإشارة، وحفّه بمظاهر المهابة والجلال، حيث جعله احتفالاً عسكرياً بكلّ المعاني، ففي ساعة معلومة يعيّنها سموّ الباي يقدم للسراية آل البيت الحسيني، والوزراء، وأمراء الأمراء، وأمراء الألوية، وبقية الضباط من كافّة الطّبقات، ويكون جميعهم بكسوة التّشريفة الكبرى مع ما لهم من الأوسمة والنّعوت، وفي الوقت الذي يكون فيه حضرة الباي المعظّم على أهبة الخروج، يلتحق بسموّه فخامة المقيم العام بنيّة المشاركة في الاحتفال.

ولك أن تسألني عن أصل هذه المشاركة من الدّولة الحامية في هذا الموسم الإسلامي الصّميم، والجواب هو أنّ سراية المملكة كان نزل بها مؤقّتاً الجنرال (لامبير) حاكم قلعة تونس في شهر حجة 1298 [1881] فلّما حلّ يوم المولد الشريف من عام 1299 [1881] وقدم المشير محمد الصادق باي للاحتفال به حسب العادة المألوفة، استشاره الجنرال (لامبير) في ذلك وأعرب لحضرته عن رغبته بالمشاركة العسكرية الفرنساوية مع العساكر التونسية في تلك الحفلة

إظهاراً لما للدّولة الحامية من الاحترام والتّبجيل نحو الدّيانة الإسلامية، ونحو صاحب المملكة التونسية، فشكر الباي سعيه، وأجازه بذلك، وخرج سموّه من سراية المملكة في موكبه مصحوباً بالجنرال المذكور، وحوله آل بيته، ووزراؤه، ورجال دولته، مارّاً بين سمطين من العساكر الفرنساوية والتونسية من باب السّرايا إلى باب جامع الزّيتونة. وفي العام التّالي أي في مولد عام 1300 [1882] الذي هو أوّل مولد احتفل به المولى علي باي الثالث، كان المصاحب له في الاحتفال الوزير المقيم مسيو (كمبون) وعلى منواله نسج أخلافه إلى هذا اليوم. وقد احتوى العدد 11 من الرائد التونسي لعام 1300 [1882] على حديث ذلك الموكب ضمنه تفاصيل لا تخلو من فائدة للمولعين بالتاريخ. هذا هو أصل مشاركة دولة الحماية في موسم مولد النّبيء وهي سياسة لها معنى عميق في تودّد فرنسا للمسلمين، شهد التّاريخ برسوخها من عهد قديم، فإنّ (نابليون بونبارت) لما احتلّ بعساكره البلاد المصرية أوائل القرن الماضي، اختلط بالفقهاء وربمّا تزيّ بزيّهم في بعض الأحيان، وكان يشمل برعيه وعطفه نقيب الأشراف، ويستمدّ صالح الدعاء من الشّيخ خليل البكري، وبعث إليه ذات يوم بثلاثمائة محبوب على وجه المشاركة في الاحتفال بمولد عام 1213 [1798]. وفي تاريخ الجبرتي، أنه كان يستفتح رسائله لقاضي مصر مرة بعبارة «بسم الله الرّحمن الرحيم وبه نستعين» وتارة بكلمتي التوحيد، ويختم كتابه بالتاريخ الهجري، وهي سياسة رشيدة في مقام استمالة القلوب، فسياسة فرنسا الإسلامية الحالية بقيت محتفظة بشيء من سياسة نابليون الأول والتاريخ يعيد نفسه ما دام الفلك يدور.

ولنرجع بك لحديث المولد بالذات فنقول: عند وصول الموكب المولدي لباب البهور بجامع الزّيتونة، يتلقّى سمّو الباي عبارات التّهاني مكرّرة من فخامة المقيم العام، ثمّ يصافحه سموّه مودعاً إيّاه بأجمل شواهد الوداد، ويتقدّم نحو مدرج الجامع، متبوعاً بوزرائه وأهل دائرته، فيدخل لبيت الصّلاة قاصداً المحراب، وهنالك يستقبله المشائخ الأيمّة وشيوخ المجلس الشرعي بالمذهبين،

ويكون الجامع حينئذ آخذاً حظّه من الازدهاء والازدهار، تسرج فيه السّرج الكهربائية في رابعة النّهار، والنّاس في عدد الأولوف كـأنّما عـلى رؤوسهم الأطيار، وبالوقت يشرع فضيلة الإمام الأكبر من آل البيت الأطهار في قصّة ولادة النّبيء المختار، وهي من محررات شيخ الشّيوخ، وطود الرسوخ، سيدي إبراهيم الرّياحي، اختصرها من مولد شيخ الطّريقة الرّحمانية سيدي مصطفى البكري، فلمّا (كذا) ينتهي في قراءة الأبيات المعروفة إلى قوله:

فقم أيّها الرّاجي لنيل سعادة   قيام محبّ صادق الحبّ والأدب

يستوي المقام الملوكي قائماً، ويقف كلّ من بالجامع على قدميه، وتطلق المدافع من برج الزلاج، ثمّ يختم الإمام القّصة الشّريفة جالساً، ويتبعها بالدّعاء لسموّ المولى الأمير، وآل بيته، ورجال دولته، ولعامّة المسلمين. وبعد ذلك يقع تقديم كؤوس الحليب على وجه البركة لحضرة الباي المعّظم، ولآل بيته، ووزرائه، وأهل حاشيته، ولفضيلة الشّيوخ، ثم يطاف بكؤوس الشّربات المعطّر على عموم بقيّة الحاضرين بالجامع، وينتهي المجلس برشّ الجميع بماء الطّيب، ثمّ يخرج الموكب الملوكي من الجامع بقصد الرّجوع في أبّهة عزّه وإقباله لسراية المملكة.

هذا وقد جرت العادة في تونس وأعمالها أنّ كلّ أهل بيت يتبرّكون بصنع عصيد السّميد والسّمن والعسل يوم المولد، والموسرون يصنعون عصيداً من مزيج الحليب والفستق والسّكّر يسمونها الرغيدة، نعتوها بذلك تفاؤلا بالعيش الرّغيد، ومنهم من يتبادل فيما بينهم ذلك على وجه الهديّة والتّبرّك، وبعض الزّوايا يبعثون من عصيدتهم لدار الباي في مولد كلّ عام.

وقد وقعت بيدي قطعة من أزمة بيت الخزندار شاكير في عهد المرحومين محمود باي وابنه حسين باي فإذا بها كلام على عصيدة البركة التي جيء بها من زاوية الشيخ سيدي أبي الحسن الحلفاوي(17) لدار الباي في عام 1235 [1819]

(17) صاحب الزّاوية المعروفة بباب الخضراء كان معاصراً للدّاي اسطا مراد توفّيا سنة 1050 [1640] =

ومثل ذلك في عام 1244 [1828] بإضافة عصيدة أخرى مولدية جيء بها للدّار الكريمة من زاوية سيدي عبد المؤمن[18]، ومما تضمّنه ذلك التقييد أنهم أحسنوا لكلّ من نقيبي الزّاويتين بريالين، وعلى ذلك القياس جرى عمل بعض البيوت الشّريفة في الأعصر المتأخرة، فقد أدركنا من ذلك المشاركة الواسعة التي كان يقوم بها شيخ المحاسنة[19] من آل بيت الأطهار في الدولتين العلوية والنّاصرية بما يهديه على وجهه البركة من الأطعمة الفاخرة للمائدة المولدية، وامتاز عامل بنزرت بإهداء شيء ممّا تنتجه جهته من الثّمار الشّهيّة كعنب رفراف المشهور بحلاوته وطراوته.

هذا ما بلغه جهدي في هذا الموضوع وجهد المقلّ دموعه، فخذ منه ما بدا لك، ودع ما بقي[*].

= وإلى بيته نسبت حومة الحلفاوين، وصوابه الحلفاويين، والاشتقاق من نبت الحلفا المعروف.

(18) بنهج السّواحل، وصاحبها هو سيدي محمد بن عبد المؤمن السّاحلي من المشهورين بالصّلاح.

(19) هو الشيخ محمد بن الطاهر محسن إمام جامع الزّيتونة توفّي سنة 1329 [1911].

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 1 ـ الجزء 9 ـ (ماي 1937).



الاحتفال بالمولد النّبوي: انشاد المجموعة للمولدية أي لسيرة النبيء محمد صلى الله عليه وسلّم ليلة المولد وفي صبيحة يوم المولد، ينشد الحاضرون قاطبة القصيدة الهمزية للإمام البوصيري

عقود الأنكحة
في تونس

(1)

رغّبت السّنّة في إشهار عقد النّكاح احتفاظاً بالأنساب، فسار جماعة المسلمين على هذه القاعدة الأصلية في كلّ زمان ومكان، ولكنّهم اختلفوا في أساليبها حسب طقوسهم وأذواقهم ودرجة حضارتهم، وفي تونس امتاز أعيانها بالعناية التّامّة والمبالغة في تعميم الإعلام بالنّكاح، حيث لم تقرّر السّنّة حدّاً محدوداً لإشهاره، فبلغوا في ذلك لحدّ الإفراط، تفادياً من التّفريط، بحيث تراهم يستدعون لعقود أنكحتهم كلّ من يعرفون، بل وحتّى من لا يعرفون، يجمعون أسماء الوجهاء والأعيان من الرّزنامات، ومن جرائد الذّوات الموجودة بمكاتب بعض نبهاء المحرّكين، ويستدعونهم لموكب العقد كما سيأتي تفصيله. لكن قبل الإتيان ببيان ما عليه عملهم في هذا الزّمان، يستحبّ الإشارة لطريقتهم في ذلك في الأجيال المتأخّرة، فإنّ طريقة الاستدعاء بالمراسلة الكتابية لم تكن معروفة بين أهل القرون الماضية، وغاية أمرهم الاستدعاء الشّفوي، يقوم به والدا الزّوجين مباشرة أو من قام مقامهما، وكانوا يكتفون بتبليغ الدّعوة لأهل قرابتهم وسكّان الحومة دون سواهم، وكان محلّ الاحتفال بالعقد هو دار الزّوجة، وينكرون الاحتفال به في المساجد والزّوايا، خلافاً لما عمّ به العمل في هذا الزّمان، وفي ليلة الزّفاف يقيم والد الزّوج ببيت العريس مأدبة إكرام لأقاربه ولخاصّته، ومن عادتهم أنّهم لا يستدعون أقارب الزّوجة لهذه المأدبة، بل استدعاؤهم يكون لمأدبة ثانية في الليلة السّابعة من البناء، ومنهم من يتبّرك

باستدعاء بعض أهل العلم تيمّناً بحضورهم ساعتئذ، ويعقد لذلك جلسة أناشيد ومديح يقوم بها بعض أهل الطّريقة القادرية أو السُّلامية وشبه ذلك.

ولمّا ظهرت الطّباعة في تونس أوائل دولة المشير محمد الصادق باي، وابتدأ انتشار التّمدّن العصري في ربوع تونس، ابتكروا ترتيب موائد السّماط المعروف بالطّعمان، واعتاضوا تدريجياً عن طريقة الأناشيد والمدح بإقامة وجق تلحين، وآلات من كمنجة، وعود، وغير ذلك، وصاروا يستدعون الجمّ الغفير من النّاس لحضور ذلك السّماط الذي كانوا يقيمونه في وجه النّهار إلى ما بعد الزّوال، وتكون المأدبة عبارة عن طائفة من المعاجين المتنوّعة، ومن الحلاويات المعروفة في تونس باسم قهواطي[1]، ممّا يصنعونه في البيوت لأجل الوليمة قبل وقوعها بشهر أو شهرين، ويدّخرونه للوقت المناسب، من عادتهم أنّ ربّ الوليمة لا يحضر مع زائريه للمشاركة في الأكل، وهي عادة لا يبرّرها معقول ولا منقول، لأنّ حضور ربّ البيت مع ضيوفه من شأنه ترغيبهم في الأكل، وبعكسه تركهم وشأنهم، فحسبهم والحالة هذه مجرّد المواكلة ثمّ قراءة الفاتحة والخروج لتهنئة صاحب الدّعوة، نعم إنّهم يرشّونهم إذ ذاك بماء الطّيب، ويطوفون حولهم بمجامر العود. . .

ولنحو ربع قرن فائت، أخذ أمر سماط الأعراس في التّراجع، كما أخذ أمر الاستدعاء الكتابي لحضور مشاهد العقود في الانتشار، وإليك نموذج من استدعاء لطعمان وقع لأربعين سنة ماضية: «بحمدك يا فاتح أبواب المسرّة تنال الآمال، وبالصّلاة على نبيّك الذي أوجبت إجابة دعوته ترتاح نفوس ذوي الهمم العوال، أمّا بعد: فإن مجلّكم بغاية الاعتبار، الحقير الكيلاني بن عمّار، يستمنح من فضلكم أن تشرّفوه بالحضور لوليمة بناء ابنيه بداره الكائنة بنهج

(1) لفظ قهواطي محرّف عن قهوتي في اللغة التّركية، وهو عندهم عبارة عن أكل خفيف كفطور الصّباح مع القهوة، وتوسّعوا فيه بتونس فأطلقوه على الحلاويات اليابسة، كبقلاوة الباي، وطواحين الفتسق، والبندق، وكعب الغزال، وكعك الحمص، والتّمر المحشي، والملبّسات، إلى غير ذلك أهـ. باختصار من كتابنا جيش الدّخيل في اللسان التّونسي الأصيل.

بوخريص قرب المركاض القديم عدد 36 يوم الأربعاء الحادي عشر من رجب الجاري قبل الزّوال بأربع ساعات إلى مضيّ ساعتين منه. وكتب في يوم الأحد غرة رجب سنة 1319 [1901] اهـ».

وفي الزّمن الحاضر تنوسي الطّعمان تماماً بين النّاس، وصارت الاستدعاءات الكتابية قاصرة على عقود الأنكحة، كما تنوسيت إقامة حفلة العقد ببيت آل العروسة، بحيث صار الاجتماع لذلك محلّه المساجد الجامعة، كجامع حمودة باشا المرادي، أو الزّوايا الشّهيرة كزاوية وليّ الله سيّدي محرز بن خلف، ولا حاجة بنا لنقل عبارة شيء من هذه الاستدعاءات الموجودة لهذا الزّمان، لاشتهارها بين الخاصّة والكافّة[2].

بعد هذا الإلمام الوجيز بأحوال عقود الأنكحة التّونسية، ننتقل بالقرّاء الكرام لبيت القصيد من هذه النّبذة ألا وهو الخطب التي تتشنّف بها الأسماع أثناء تلك الاجتماعات، فهذه الخطب جرى عليها عمل السّلف، ودرج عليها الخلف. وبديهي أن كان لأقطاب الشّريعة ولأهل النّسب الزّكيّ قدم السّبق في إنشائها، والنّطق بها في تلك المواكب الموسومة باليمن والبركة، وإليك جملة صالحة من تلك الخطب من إنشاء جماعة من أهل العلم، نصدّرها بخطبة لإمام الفتوى المنعّم الشّيخ إسماعيل التّميمي، خطب بها في عقد حفيد العلاّمة الشّيخ محمد المحجوب رحمه الله، ننقلها من كنّاش الشّيخ الجدّ، ومن خطّ يده:
«الحمد لله الذي أنعم على عباده بانتظام الشّمل، وتفضّل عليهم من إمداده بجزيل النّعم وعميم الفضل، ويسّر لهم أسباب المرافقة، وألّف بين قلوب من شاء فحصلت الموافقة، وأوسع للجميع في الجود والطّول، وفتح لهم أبواب الإسعاد، ووضّح لهم طريق الرّشاد، فحصل لمن وفّقه لذلك المراد، والعطاء الجزل، فطر الأشياء متقنة الإبداع، بديعة الإتقان محكمة الإيجاد والاختراع،

(2) عنيت بجمع بعضها فتكوّن لدينا جزء ضخم أسميته كنّاش الأفراح، وهو من مشمولات مكتبتنا بقسم التّاريخ.

ونفّذ بقدرته إنشاء تركيبها وترتيب إنشائها في أكوان الأطوار وأطوار الأكوان، وأظهر آياته في تصوير أنواعها وتنويع صورها واختلاف الألسنة منها والألوان، وخصّ منها نوع الإنسان، بمزايا تفوت الحصر ويقصر عن التعبير عنها اللّسان، أمدّه بنور الفهم، وقبول العلم، وعلّمه البيان، فكان أهلاً لقبول التّكاليف الشّرعية، ومورداً للخطابات الإلّهية، فيا لها من منّة ومزيّة وإحسان، أنشأه في أحسن تقويم، وقوّمه في أحسن تكميل وتتميم، وكان له شأن من الشّان، فأورد عليه من التّكاليف ما تقوم به ضرورياته، وتندفع به حاجاته، على وجه مستقيم، يفضي به إلى الخلق العظيم، ويخرجه عن الهوى والهوان، وأرشدها إلى ما فيها من المصالح الدّينية، وتحصيل المنافع ودفع المضار الدّنيوية، ما يخفّ به عليها حملها، ولا يثني عزمه ثقلها، ويقوده إلى الامتثال والإذعان، ويفضل في كثير من مشروعاتها، فحظّ للنفس من شهواتها، على وجه تتمّ به النّعمة، ولا يخلّ بالحكمة، ولا يعود على المقصود بنقصان فمن ذلك النكاح، الذي تهتزّ إليه النفوس وترتاح، وهو مع ذلك حافظ لوجود هذا الجنس، فحصل للتّظاهر والتّناصر والسّكن والأنس، رافع للارتياب، مقرّب للمتباعدين مؤكّد للقرب بين الأقارب شرعه سبحانه وحصّنه بحدّ محدود، ووضع معهود، تحصل به المعاني الحكمية الأصلية، في ضمن تلك المعاني التّابعة الطّبيعية، فسبحانه من آله ما أحكمه، وعليم ما أتقنه وأحلمه، وقادر ما أرحمه، يعطي الجزيل، ويثيب على القليل، والكلّ واقع بقدرته، على وفق مشيئته، وأشهد أنّه الله الذي لا إله إلّا هو الرّبّ الكريم، البرّ الرّحيم، المنزّه عن الأنداد، المبرّأ من الاتصال والانفصال، والصّاحبة والأولاد، ونشهد أنّ سيّدنا ومولانا محمداً النّبيء الأميّ العربي الكريم عبده المختار من أشرف القبائل، ورسوله الذي أفرغ عليه من كلّ الفضائل، وأمينه الذي لم يلحق ثناؤه الآخرون والأوائل، أرسله بملّة حنيفية، وشرعة للحاكمين بها حفيّة، ينطق بلسان التّيسير بيانها، ويعرف أنّ الرفق خاصّيتها والسّماح شأنها، وينادي بحلّ الطّيّبات مناديها، وبتحريم الخبائث والحوم حول واديها، فأحلّ عليه السّلام النّكاح وشرعه، وحذّر من السّفاح ومنعه، فصلوات الله تعلى عليه وسلامه، وتحيّاته الزّكيّات وإكرامه،

صلاة لائقة بمقامه العظيم، وجنابه الكريم، نجدها وسيلة إليه في الموقف العظيم، ونلقاها من أشرف المكاسب فننال بها سنى الرّغائب، وعلى آله وأصحابه الرّاقين في مراقيه العالية للنّجاة، والعارجين في مدارج معارجه في حياته وبعد المماة، نجوم الاهتداء، وأيمّة الاقتداء، وحماة الإسلام، وخير أمّة أخرجت للأنام، وبعد: فإنّ للنّكاح فوائد نبهت الشّريعة عليها، وتقدّمت الإشارة هنا إليها، كيف لا وهو أوثق سبب للدّيانة، وأكمل معين على العفاف والصّيانة، وقد جعله الله سبحانه من آياته، الدّالّة على نفوذ قدرته في مصنوعاته، إذ قال سبحانه في كتابه المجيد، ﴿الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾، فنبّه سبحانه على بعض الفوائد المنبّه آنفاً عليها، وتمّم هذه النّعمة، ليترتّب عليها ما قصد من الحكمة، فقال سبحانه: ﴿وجعل بينكم مودّة ورحمة﴾، وقصّ علينا جلّ جلاله ما أفادنا أنه من سنن ساداتنا أنبيائه الكرام، عليهم أفضل الصّلاة وأزكى السلام، وقد وجّه سبحانه الأمر به تارة للرّجال كما قال مخيّراً لهم في العدد على ما تشتهيه الطّباع، ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النّساء مثنى وثلاث ورباع﴾، وتارة لأولياء المرأة مع الوعد على فعله، حيث قال: ﴿وانكحوا الأيامى منكم والصّالحين من عبادكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾، وعلى هذا المساق، وردت سنّة المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق، فنكح صلى الله عليه وسلّم وأنكح، وأعرب عن فضله وأفصح، فقد روي عنه أنّه مدحه بأنّ به يكمل نصف الدّين، وأنّه من سنّته وسنّة المرسلين، صلّى الله عليه وعليهم أجمعين، وأنه أمر به الشّباب إذا استطاعه، وأرشد إلى بدله عند فقد الاستطاعة، وأنّه حضّ على خصوص الأبكار، إلى غير ذلك ممّا ورد في الآثار والأخبار، ولمّا كان الخطاب به متوجّهاً إلى القبيلين، لا يختصّ به واحد من الزّوجين، فلا غنى لكلّ من أهله عن اكتسابه، والأخذ في مزاولة أسبابه. بادر إليه إلخ»(*).

(*) المجلة الزيتونية المجلد 4ـ الجزء 1 (أكتوبر 1940).

(2)

وهذه خطبة أُخرى من إنشاء شيخ الإسلام الشيخ محمد بيرم الرابع، خطب بها بمناسبة عقد نكاح الوزير خير الدين، بابنة الوزير مصطفى خزندار.
قال رحمه الله:

«الحمد لله مبيح النّكاح ومحلّله، وموفّر المنّ به على العباد ومكمّله، وجاعله مزرعة للذّرّية الصّالحة، وذريعة للوصول إلى الغرض الذي خلقت النّفس البشريّة إليه طامحة، ووسيلة إلى نموّ الخليقة، وسبباً لعمارة الأرض مع إمكان إبراز المخلوقات جملة ولكن اختار سبحانه بحكمته هاته الطّريقة، ليشاهد المشاهد تبدّل الأطوار، ويحصل الوقوف على سعة قدرة الفاعل المختار، ويعتبر المعتبر من أولي الأبصار، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له الذي خلق الزّوجين، وجعل التّوالد منوطاً بهما إناطة الطّيران بالجناحين، وننزّهه جلّ جلاله عن أن يكون إلى الزّوجة محتاجاً، ونسلك في وصفه بمخالفته للحوادث طريقاً واضحاً ومنهاجاً، ونشهد أنّ سيّدنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله الذي اختاره من أشرف عناصر عباده، وجعله مالكاً لطارف المجد وتلاده، وطهّر سلسلة نسبه الشّريف من دنس السّفاح، ونظّم جواهر أصوله كلّها في سلك مباح النّكاح، حتى أخرج جوهرة ذاته الكريمة يتيمة ذلك العقد المنضود، وأودعها من صفاء الباطن وأشراق الظّاهر ما هو مشهود به غير مجحود، صلّى الله عليه وسلّم ما تعلّقت بالنّكاح من راغب رغبه، وتقدمت على انعقاده من خطيب بليغ خطبه، وعلى آله وأصحابه المتمسّكين في جميع شؤونهم بما سنّه من السّنن، المحافظين على ما أرشدهم إليه من اتّباع السّمت الحسن، هذا وإنّ الإفصاح عن فضل النّكاح كاد أن يعجز البليغ، إذ قد سبق فيه البلاغ التّبليغ، لّما أنّه كسي حلّة الإشتهار، وأحيط بما نزل فيه من الآيات الكريمة وورد من الآثار، فتساوت الأقدام في علمها، وتشاركت الأحلام في فهمها، وقد علم أنّ التوجه إلى بيان الواضح، من الأمر الفاضح، وتقرّر ما بين المعادات، والنّفوس من المعادات، فمن البلاغة أن يسلك في مثل هاته المشاهد الحافلة، والمواكب التي بينها وبين الضّخامة كمال المحالفة، مسلك الإبانة عمّا وقع لأجله

الاجتماع، ويجال اللسان في ميدان الإفصاح عن حلى الزّوجيـن لتشنّف بالإصغاء إليه الأسماع، فنقول إنّ مولانا ملك هذا القطر المحروس، والرّبع المأنوس، وذا الفضل الذي هو بحاسّتي السّمع والبصر محسوس، وارث ملك سلفه، المتحامية شوارق الأفق مزاحمة كنفه، سيّدنا المشير محمد باشا، لا زال وارداً من الإصابة مناهلها، منزّلاً الأمور منازلها، ظهر له من الرّأي ما هو بالمبادرة إليه حريّ، وهو أن يجمع لفرط المناسبة بين الزُّهرة والمشتري، ويظهر في فلك ذويه المكلّل بنجوم أصهاره إشراق هذا الزّوج، ويرقّيه إلى رفيع ذلك الأوج، فأمر بالعقد على ذات الصّون والعفاف، والأصالة المحفوظ الإجماع عليها من طرق خلاف، المحمودة الذّكر والأثر، المتولّدة بين الشّمس والقمر، المكتنفة بالعزّ من جهتين، الحاملة من أبهة الملك والوزارة الرّايتين، التي كادت محاسنها أن تقضي على البنين بتفضيل البنات، الجليلة الطّاهرة الرّفيعة السّيدة جنّات، سليلة وزيـره الأفخم الشّامخ المقدار، وقطب دولته الذي عليه المدار، والملتحف من إقباله وكرامته بأفخر إزار، أمير الأمراء سيّدي مصطفى خزنه دار، للمتشرّف بخدمته، المعدود من رجال دولته، لابس رداء إقباله، المنخرط للملك المحمّدي في سلك رؤساء حماته وأبطاله، المشهود له بثقوب الذّهن وإصابته، المفروغ بعد السّبر من كفايته ونجابته، الأبيّة شمائله مشاركة قرين، أمير الأمراء السيد خير الدين، فالله تعلى نسأل أن يجعل ألفتهما من طوارق الدّهر سالمة، وثغور سعودهما على مرور الأيّام ضاحكة باسمه، ويطيل أمد معاشرتهما تحت جناح هاته الدّولة الرّفيعة، مارحين منها في رياض يانعة نضرة مريعة، حتّى تكبر في خدمة مولانا أبناؤهم، ويستعين على القيام بها آباؤهم، وفضله جلّ جلاله لا يؤوده إبلاغ هاته الآمال، وإبقاء السّتر الجميل على النّساء من هاته العصابة والرّجال، وقد آن أن نبرز هذا العقد المبارك في أفق هذا المجلس بدر تمام، ونجعل قران إيجابه بالقبول مسك ختام أهـ».

ثمّ هذه خطبة ثالثة من إنشاء شيخ الإسلام الشّيخ أحمد بن الخوجة، خطب بها بمناسبة زواج المرحوم الشّريف الشّيخ محمد محسن، بابنة الوزير العلاّمة الشّيخ محمد العزيز بو عتّور. وهذه الخطبة بالخصوص كثيرة التّناول في

أغلب عقود الأنكحة لهذا الزّمان:

«الحمد لله الذي أسعد بالبركة واليمن والتّوفيق، من اهتدى بمنار شرعه واعتصم بحبله الوثيق، فتح الله له أبواب الفوز بزواهر الآمال، تتجلّى عرائسها على منّصات النّجاح وتختال في مطارف الإقبال، وتبارك الله الذي أنعم بأسباب العمران والبقاء، وسفر عن وجوه السّعادة في الدّارين ومعـارج الارتقاء، وسبحانه من إلّه تهلّلت على وجنات الكائنات آيات توحيده وتمجيده، وافترّت رياض مصنوعاته المنضّدات عن أزهار تقديسه وتحميده، وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله الذي شرع الإسلام سبيلاً واضحاً، وأطلع لنا من مراشده الباهرة نوراً لائحاً، وأشهد أنّ سيّدنا ومولانا محمداً عبـده ورسوله فائدة الكون ومعناه، وصفيّ حضرة القدس الذي لا ينام قلبه إذا نامت عيناه، نبيّ الله المعرض عن العرض الفاني على دنّو قطافه ونضارة مجتلاه، بل إنّما حبّب إليه من الدّنيا الطّيب والنّساء وجعلت قرة عينه في الصّلاة، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين ركضوا في ميدان هديه وجلوا، وطلعوا بأفق شرعه نجوم هدى وتجلّوا، وأسفرت بنور صباح رشدهم على شرفات الشّرق، وانتشرت أشعّة تلك الأنوار على بساط البسيطة فعمّت سائر الخلق، صلاة وسـلاماً دائمـين ما أقبلت بالأسحار، زوار النّسائم ثغور الأزهار، أمّا بعد: فإنّ الله تعلى لما فتق رتق الأكوان، اقتضت حكمته البالغة ونعمته السابغة أن آثر للعمران نوع الإنان، وهذا لما أودع فيه سبحانه من الاستعدادات والأسباب، التي تسنّى له بها التّمكّن من الجلب والدّرء وسلوك سبل الاكتساب، وهداه عزّ اسمه إلى إصابة الغرض في الطّلاب، ولقد خطّت يد البرهان على صفحات القلوب، أنّ العقل لا يدرك القبيح المنهيّ عنه ولا الحسن المطلوب، فأرسل الله الرّسل، لتشريع الشّرائع وتوضيح السّبل، وجعل شريعة سيّدنا ومولانا محمد واسطة أسلاكها، والقطب الذي عليه مدار أفلاكها، فالعقل إن أبرم عقد جواز أو منع، لا يقبل منه حتّى يعرض توقيعه على سلطان الشّرع، فالحسن ما أنفذه ذلك المهيمن وأمضاه، وضدّه ما لم تلمحه عين رضاه، ومن المعلوم أنّ النّكاح ممّا شهد الشّرع بتحسينه، قال الله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النّساء﴾، وقال رسول الله صلّى

الله عليه وسلّم «من تزوّج فقد كمل نصف دينه»، لكنّما سلطان الشّرع لم يطلق العنان أن ينكح المرء على أيّ وجه كان، فيلتحق الإنسان في قضاء نهمته وضياع نسبه بعجم الحيوان، بل رسم لذلك رسوماً وحدّ حدوداً، أهمّها أن يكون الإيجاب بالقبول معقوداً، كما أنّ نصوص الشّرع بالتّرغيب في الكفاءة ناطقة، والعقد يزداد حسناً إذا كانت درره متناسبة متناسقة، وإنّ من لأجله انتظم عقد هذا العقد، الذي تهلّل له استبشاراً وجه البركة والسّعد، كريم الانتماء، فرع الشّجرة الشّمّاء، ما زال مسلسل مجده يروي عن بيتهم رفيع العماد برسول الله صلى الله عليه وسلم والعلم والتّقوى، فتخيّر لسيادته القعساء ونسبه الحرّ، ومحامدهم السائرة ومناقبهم الغُرّ، من البيت الأصيل المجد النّبيه الشّأن، حيث العلم والفضل والقلم المستعدّ لفتح الأقاليم بروائع البيان، والوزارة التي تشدّ أزر العدل والإحسان، إلى غير ذلك من المفاخر الزّاهرة وجميل الأوصاف، الدّرّة المكنونة في صدف الصّون والعفاف، وإذا ارتسمت على مرايا البصائر صور هاته المعاني فلنبادر بتوفيق الله إلى إبرام عقد ميمون الغرّة، متهلّل الأسرة، كفيل بحول الله ببلوغ الأماني، وبشائر التّهاني، معضود بقوة الله بمصاهرة السّعد، ومقارنة العيش الرّغد، تقرّ به العيون وترتاح له النّفوس، ويقول مجتلي يمنه ووفاقه لا عطر بعد عروس أهـ».

هذا وقد اتّفق لبعض الشّيوخ على عهد المشير أحمد باشا صوغ خطبته في سلك نظمي بديع الأسلوب، كهذه الخريدة التي جادت بها قريحة العلاّمة قاضي الجماعةالشيخ محمد بن سلامة بمناسبة بناء المرحوم رشيد بن الوزير مصطفى صاحب الطّابع على الأميرة المرحومة السّيّدة زبيدة ابنة المقدّس المبرور المولى مصطفى باي. وهذا القران المبارك كان في جمادى الأولى سنة 1254 [1838] أشرنا هنا لتاريخ وقوعه لمقصد سيأتي التّنبيه إليه. قال النّاظم رحمه الله:

حمداً لمن لم يزل بالحمد منفردا ... ثم الصّلاة على خير الورى أبدا
وآله الغُرّ والأصحاب قاطبة ... الطّالعين بأفق الهدى نجم هدى
هذا وإنّ الوزير المستجدّ علا ... أعني الرّشيد الرّضا وافى النّهى رشدا

تزوّج الدّرّة العذرا المصونة من | بنى لها المجد في بيت العلا عمدا
أعني زبيدة بنت المصطفى كرما | السّيّد المرتضى الباشا الكريم ندا
أخت المليك أبي العبّاس أحمد من | بحسن سيرته في الخلق قد حمدا
على صداق لها سمّى العداد له | مسكوك درهمنا والدّرّ والبردا
ألفاً من الدّرهم المسكوك يتبعه | رطل من الجوهر الصّافي البهي نقدا
من المذهّب قفطانان مثلهما | من الموبّر مثل ذا عددا
من المشجّر مع ستّ لها تبع | من الفرامل من أجناس ما عهدا
ستّ حسان من السّودان تخدمها | واثنان بيض من الأعلاج لم تلدا
وعشرة قد أتت في النّسج من حزم | ذي فضّة وجميع ما مضى نقدا
تاليه خمس من المئين يدفعها | بمنتهى العام منها تبلغ الأمدا
وكيله الصّدر خير الدين كاهية | وناب عنها بإشهاد الذي شهدا
أبو سليمان صهر الملك كاهية | الباذل الشّهم من ظهر الثّنا اقتعدا
فتمّ بالمجلس الأعلى مكمّله | وبالسّعادة عالي عقده انعقدا
بمحضر السّيّد الباشا الجليل ومن | مثاله فوق دست الملك ما قعدا
وحين نادى به ميمون طائره | في جدّه من معاني يمنه رصدا
رآه شاهده يسمو فأرّخه | عقد سعيد بيان السّعد قد عضدا[3]

[1828]1244

وختام القول، هو أنّ حفلة العقد بتونس تنتهي بالطّواف على الحاضرين بكؤوس الشَّرْبَات[4] المعطّر بعد سماعهم لخطبة النّكاح، ولقد رأيت بمناسبة

(3) تنبية: تاريخ هذا المصراع لا يوافق تاريخ العقد الذي هو عام 1254 كما سبقت الإشارة إليه.

(4) لفظ شَرْبَاتٌ، مشتقّ من مادّة ش ر ب، ولكنّ الأتراك يطلقون على الماء السّكّري لفظ شربت وهم في اصطلاحهم يكتبون هاء السكت تاء مفتوحة فيقولون دولت عوض دولة وسعادت عوض سعادة وهلمّ جرّا ويلوح أنّ اللفظ المذكور انجرّ لنا استعماله منهم، ونحن أشبعناه بألف بعد الباء، فصار شربات جمع مؤنّث لشربة كجرعة وجرعات وحسوة وحسوات، ولعلّ في ذلك إشارة لما ورد في الصّحيح من أنّ النّبيء صلّى الله عليه وسلّم كان يشرب الماء جرعة بعد جرعة لا دفعة واحدة، وعندي أنّ بدعة الشّربات بتونس لا بدّ وأنّها في أصلها مستمدّة ممّا ورد في بعض الأحاديث من أنّ النبيء صلّى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يفترقون إلاّ عن ذواق.

بعض الأصدقة في بلاد الآفاق تزويد الحضور بقطعة من البشكوطو (معروف) مع كأس الشّربات، واستنبط بعض الأعيان في هذه الأثناء تقديم كؤوس الرُّوزَاطَهْ[1] (معروف) لضيوفه بمناسبة حضورهم الإعلان بوقوع مراكنة شرعية وهي المعروفة بين العامة باسم الفاتحة، وبها الختام[*].

(1) [الرّوزاطة: شراب أبيض حلو يستخرج من اللوز].

(*) المجلة الزيتونية - المجلد 4 - الجزء 2 (نوفمبر 1940).

الصُّرَّة
الموجّهة من تونس إلى
الحرمين الشّريفين

اعلم أنّ الصُّرَّة في عرف المشارقة عبارة عن مال يتجمّع من التّجارة ونحوها بين شريكين يوجّه منه أحدهما للآخر، فيعبّر عنه تارة بالصّرّة، وتارة بالأمانة. ولما كان هذا الاستعمال ممّا اعتاده أهل المشرق، كانت تسمية المال الموجّه باسم صُرَّة من تونس للحجاز بمناسبة وقفة كلّ عام، لأهالي الحرمين الشّريفين، اعتباراً لذلك العرف بالمشرق. وغلب عليه هذا الاستعمال بالدّيار التّونسية حتّى صار لا يطلق إلاّ عليه، وقد تعرّض الشيخ ابن عابدين، من فقهاء الحنفية لحكم الأمانات الواصلة لأهل مكّة المشرّفة والمدينة المنوّرة على وجه الصّلة والمبرّة، ثمّ يموت المرسل إليه قبل بلوغها، فإنّها تكون إرثاً لولده. وسئل العلاّمة الشيخ فخر الدين بن ظهيرة القرشي، فيما إذا كان للميت شيء من الصر والحبّ، وورد إليه عن السّنين الماضية في حياته، هل يستحقّه بقسطه، فأفتى نعم. وجاء في البزازية من كتب المذهب عن الإمام محمد بن الحسن صاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان، قوم أمروا أن يكتبوا مساكين مسجدهم ويرفعوا أساميهم وأخرجوا الدّراهم على عددهم، فمات أحد المساكين، قال: يعطى لورّاثه بعد رفع اسمه. هذا كلّه في الصّلة، فأحرى أن يكون في مال الوقف الذي يستحقّه أهل البقاع الحجازية المباركة بالنّصّ الشّرعي منذ عشرات الأجيال. وقد أثبت التّاريخ أنّ الصّرّة كانت موجودة في الدّولة الحفصية، وأطول سلاطينها باعاً في ذلك السّبيل، السّلطان أبو فارس عبد العزيز، الذي تولّى ملك تونس سنة 796 [1393] فقد بلغ من أمره أنّه كان

يتنوّع في هاته الصّلة ويوشّحها بالحليّ والحلى تقرّباً لآل البيت الأطهار، وإكراماً لجيران النّبيء المختار، وجرى العمل بالدّولة المرادية على ما درج عليه أسلافهم الحفصيون، وكان من أكرمهم وأسبقهم في ذلك الميدان الأمير حمودة باشا المرادي صاحب الجامع المشهور باسمه، المجاور للزّاوية العروسية، ونسمّيه جامع الأفراح، لأنّه لو نطقت عرصاته، لأفادتنا بأنّها شهدت عقود أنكحة نصف أهل تونس، وأبقت النّصف الآخر لبقية المساجد والأضرحة والزّوايا بالمدينة والرُّبْضَيْنْ. هذا وقد نسج ملوك البيت الحسيني ـ خلد الله دولتهم ـ على منوال من تقدّمهم من الحفصيين والمراديين، وكان واسطة عقدهم الباي حمودة باشا بن علي باي الثاني، يتولّى بنفسه حفظ مال الوقف الرّاجع للحرمين الشّريفين، ويرى في ذلك خدمة لحرم الله ورسوله. روى المؤرّخ الشيخ أحمد بن أبي الضّياف أنه كان يؤتى له بفواضل دخل أوقافها فيحفظه بصندوق خاصّ بذلك في بيته، ويباشر بنفسه وضع المال وإخراجه منه، وقد اتّفق أنّ وزيره أبا المحاسن يوسف خوجة صاحب الطّابع لزمه صرف مال في مصلحة دولية ولم يكن بصندوق بيت الخزندار ما يكفي لذلك، فقال للباي نتسلّف ما يلزم من صندوق الحرمين ونرجعه لك بعد عشرة أيام، فاقشعرّ بدنه، وقال له: سألتك بالله أن تزيل هذا الخاطر من فكرك وارجع في هذه المصلحة الضّرورية التي أقدمتك على مدّ عينيك إلى مال الحرمين الشّريفين، وذلك أهون عليّ من مسّ أرزاق أهل مكّة والمدنية، وأنا أتحرّج من سكنى الدّاي بالدّريبة وهي من أوقاف الحرمين بأجر معين لا يزيد، وقد حالت الأسواق، وارتفعت أسعار الكراء، فكفّ الوزير عن ذلك أهـ.

هذا وقد كان لهم عناية في اختيار من يتوجّه بذلك المال لتوزيعه على مستحقّيه، فينتخبون لذلك الأفضل فالأفضل من أهل العلم، كشيخ الشّيوخ، وطود الرّسوخ، سيدي إبراهيم الرّياحي، أو من أعيان أهل البلاد المعروفين بالثّروة والعفّة والدّيانة، فقد حكوا أنّ المشير أحمد باي لمّا لم يجد في بعض السّنين من هو متوجّه للحجّ من أعيان الحاضرة بسبب وجود مرض عام ليصحبه بالصُّرّة، انتخب لذلك أحد أعيان التّجّار الموثوق بأمانته، وهو أبو

عبدالله محمد بن الأمين، ووجّه إليه يأذنه بالسّفر بالصّرّة للبقاع المباركة، وبذل له إعانة مالية معتبرة، فقبل منه تلك المأمورية الشّريفة، ولكنه رفض قبول الإعانة قائلاً: إنّه بفضل الله في غنى عنها، أللهم إلاّ أن يتصدّق بها هناك باسم الباي، فرآها منه حسنة وتحدّث بنعمة الله عليه، وأغدق عليه بالإحسان بعد إيّابه.

وممّن تبرّك بحمل الصّرّة للحجاز، العلاّمة البركة الشيخ محمد النيفر الأكبر، اختاره لذلك الباي المشير الموما إليه في سنة 1267 [1850] وفي الأعصر المتأخّرة تشرّف بحملها المدرّس الشيخ أحمد جمال الدين في سنة 1302 [1884] بأمر المرحوم المولى علي باي الثالث، وأهدى بتلك المناسبة كتابه مناهج التّعريف بأصول التّكليف، للشريف عون الرّفيق، أمير مكّة المكرّمة، ولسادن البيت الحرام، الشيخ عمر الشّيبي، كما نيط تبليغها بعهدة الفقيه الكاتب الشيخ أحمد زرّوق في عهد الدّولة العلوية أيضاً، واتّفق أن عهد بتبليغها فيما بعد ذلك لغير أهل العلم، فطرأ عليها في سنة 1310 [1892] ما استوجب جعل إرسالها بحوالة تجارية يقع تصريفها نقوداً ذهبية بمرسى جدّة على يد قنصلات فرنسا بها، تأميناً وتأكيداً لحفظها من التّلاشي والأطماع.

ولمّا وقع ترتيب ركب الحجّاج التّونسيين في عهد الدّولة النّاصرية، نيطت مأمورية تبليغ الصّرّة المباركة في سنة 1331[1912] بعهدة رئيس الرّكب، وهو المرحوم أمير الأمراء السيد العربي بسيّس أحد أعضاء جمعية الأوقاف إذ ذاك ثم في مدة الحرب العالمية ناطت الدولة التونسية مهمّة رئاسة ركب الحجّاج وتبليغ الصّرّة ببعض كبار العُمَّال، فكان رئيس الرّكب في سنة 1334 [1915] أمير الأمراء السيد الشاذلي العقبي، ومفتي الرّكب الفقيه الشيخ محمد الجودي مفتي القيروان، وكان يومئذ أمير مكّة المشرّفة هو المرحوم الشّريف الحسين بن علي، ولدينا نسخة حرفية من المكتوب الذي خاطب به الشّريف المذكور صاحب السّمّو المرحوم المولى محمد النّاصر باي بتلك المناسبة ننقله هنا إتماماً للفائدة ونصه:

«إلى المقام الذي تهتدي المعالي بطرقه، وقد باهى النّجوم ارتفاعاً وتقتدي المكارم بخلقه، وقد ضاهى الجو اتّساعاً ذي المجد الأثيل، والفضل الجزيل، أخينا في الله (سيّدي) محمد الناصر باشا باي صاحب المملكة التونسية المحروسة أيّد الله تعلى أعلامه، وأبّد بالسّؤدد أيّامه، وأنار بلاده بنجوم سموّه، وأعزّ أهلها بعزّه ومجده. السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: فقد وصل إلى هذا الجناب كتابكم الكريم، مفتتحاً بما هو أرقّ من النّسيم، فاتّصل به ما كان منفصلاً، وسفر به ما كان منسدلاً، فحمداً لله ثمّ حمداً له، وشكراً له ثمّ شكراً له، في الأولى والآخرة. هذا وقد رأى نائب الجناب العالي الفاضل النّبيل السيد الشاذلي العقبي ما بذله رجال دولتنا وكلّ سكّان هذه البقاع الطّاهرة من العناية الواجبة على أهل هذه البلاد الحجازية، لبني عمومتهم سكان المملكة التونسية، وإنّ العزيمة متّجهة إلى بذل كلّ ما في الوسع واتّخاذ كلّ ما يمكن من الوسائل لتسهيل طريق الحجّ لكافّة المسلمين مدى السّنين بحول الله وقوته حتى تكون هذه البلاد كما يجب أن تكون مثابة للناس وأمنا، وإنّي أسأل المولى جلّ وعلا أن يمدّكم بالعزّ والتّأييد، في ملككم السّعيد، لا زلتم من خير أنصار الحقّ وأعظم الفاعلين للخير والمعينين عليه. والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. وحرّر بمكّة المكرّمة في 16 ذي الحجة 1334 [1915].

شريف مكّة المكرّمة وأميرها
الحسين بن علي

ثمّ في وقفة عام 1336 [1917] كان تبليغ الصُّرَّة لمستحقّيها بواسطة المرحوم الأمير ألاي السيد المختار الجويني عامل تاجروين بصفته رئيساً للرّكب التّونسي، وكان في صحبته الفقيه المفتي الشيخ الطيب المرزوقي، وفي مدة سيّدنا ومولانا الملك الموجود، متّع الله ببقائه الوجود، كلّف أحد أبناء بيوت المجد من أهل ثقته، وهو الخيّر الشيخ عبد الرحمن بن زاكور من المتشرّفين بالانتساب للبلاط الملوكي بتبليغ الأمانة الحجازية لأصحابها بالحرم المكّي والحرم المدني، وتكرّر تكليفه بتلك المأمورية الشّريفة سنين متتابعة.

هذا ولتعلم أنّ مقدار الصُّرَّة في القديم كان يختلف بالزّيادة والنّقص حسب مداخيل أوقاف الحرمين الشريفين، فلمّا آلت وزارة تونس لعهدة المصلح الأمين، الوزير خير الدّين، سعى لدى المشير محمد الصادق باي بجعل مبلغها قارّاً حسب متوسّط تلك المداخيل، ووقع الاتّفاق على أن يكون ذلك ثمانون ألف ريال، أي خمسون ألف فرنك في السّنة، تقسم نصفين، أحدهما بعنوان أهالي الحرم المكّي، والآخر بعنوان أهالي الحرم المدني، وعلى هذا النظام جرى العمل حتى سنة 1353 [1934] وفي سنة 1354[1935] الفارطة زيد في مال الصّرّة بمقدار الخُمُس بعناية سيدنا ومولانا أحمد باشا باي، كما سيأتي الكلام على ذلك بمحلّه.

ومن عناية الملوك الحسينيين بأمرها أن يعقدوا لها موكباً فخماً يحضره سمو الباي، وآل بيته، والوزراء، ورجال الدائرة الملكية، وكبار متوظّفي الأوقاف، وفي ضمنهم وكيل الحرمين الشريفين، وبيده صندوق المال المقصود توجيهه للحجاز، فيأذن الباي بإحضار الرّسول المكلّف بتبليغ الأمانة، ويدفعها له بنفسه مصحوبة بمكتوب خطّي من سموّه لملك البلاد العربية المقدسة، قائلاً له: «هذه أمانة الله ورسوله تبلّغ لأهلها إن شاء الله بواسطتك»، فيتسلّمها الرّسول المذكور في ذلك المشهد العظيم، ويشكر الله على تلك النّعمة، ويرطّب لسانه بالدّعاء لسموّ المولى الأمير. هذا ملخّص حديث الصّرّة حسبما جرى عليه العمل في هذه الأزمان، أمّا حديثها في الماضي، فإنّ تبليغها كان من حقوق رئيس الرّكب، ويطلق عليه في التّاريخ التّونسي لقب شيخ الرّكب، كما يطلق عليه بمصر لقب أمير الحجّ.

وممّن تقدّم لهذه المأمورية الشّريفة في الدولة الحسينية، الشّريف الشيخ أبو عبدالله محمد بن عبد الملك العواني القيرواني، كلّفه بذلك الباي محمود بن الرشيد باي في سنة 1238 [1822] وسافر قبله بتلك الصّفة أبو الفلاح صالح زيد في عهد حمودة باشا وبصحبته الشيخ حمودة بن عبد العزيز بعنوان قاضي الرّكب، وقبلهما خرج الشيخ أبو حفص عمر المرابط شيخ ركب في سنة 1180

[1766] على عهد الباي علي بن حسين بن علي، وكانت أركاب الحجّ في القديم بالشّمال الإفريقي تنضمّ لبعضها بعضاً وتقصد الحجاز على طريق البرّ. قالوا: إنّ غدوّها عام، ورواحها عام، فيخرج الرّكب من طنجة إلى السوس الأقصى، فجهات توات، فالصّحراء الجزائرية، فواد ريغ، فنفزاوة، وكانت طافحة بالعمران على ما حكاه الشيخ العياشي في رحلته. وبعضهم يزعم أنّ اسمها محرّف عن ألف زاوية، ولكنّه كلام خال عن الصّحّة لأن لفظ نفزاوة بربري ومتقدم على دخول الإسلام لإفريقية، ولا عربية بإفريقية اتّفاقاً قبل انتشار نور الإسلام بها، ومن نفزاوة يسير الرّكب لقابس، وهنالك يلتحق به حجّاج الدّيار التونسية، ومن قابس يقصدون طرابلس، فبرقة، فالإسكندرية، فمصر، فالشّام، فالحجاز. وليتصوّر القارىء كيف كان تشكيل هاتيك الأركاب وكيف كان مسيرها ومصيرها عليه بمراجعة الرّحلات الجامعة كرحلة الشيخ العياشي السّالف الذّكر، ورحلة العبدري، ولا عيب فيها سوى تحرّشه بمدينة القيروان، لأنها كانت فيما يقول خلواً من العلم في زمنه، إلى غير ذلك من الرّحلات القيّمة التي يستفيد القارىء ضمن مطالعتها كيف كانت تنشر العلوم العربية بين المسلمين، فقد كان العالم من أهل أركاب الحجّ ينتصب أثناء ارتحاله لإقراء العالم هنا وهناك، ولا سيما علوم الدين كالفقه، والحديث، ويجيز غيره ويفيد ويستفيد، وهذا الشيخ الفقيه جوّاب الأرض، ومخترق الأقاليم بالطّول والعرض، أبو عبدالله محمد بن بطوطة يحدثنا في رحلته كيف خرج من بلده طنجة حاجّاً في سنة 725 [1324] وكيف وفد على تونس بعد مروره بتوات، والجهات الصحراوية، فتلمسان، فالجزائر، فقسنطينة. وكان الأمير بتونس يومئذ السلطان أبو يحيى بن أبي زكرياء الحفصي، وقاضي الجماعة بها الشيخ أبو العباس أحمد بن الغماز، وخطيبها الشيخ أبو إسحق إبراهيم بن عبد الرفيع، ثم يبسط لنا الكلام عن فخامة موكب السلطان عند خروجه لصلاة العيد، وكيف قدّموه قاضياً لركب الحجّاج التونسيين وكان شيخ الركب أبو يعقوب السوسي، فخرج وإيّاهم مارّين بسوسة ووصفها بالحسن، فصفاقس ونقل في وصفها أبياتاً بالمدح، وأخرى بضدّه، فقابس، وهي المركز الوسط

لملتقى الأركاب الوافدة من المغرب الأقصى، والمغرب الوسط مع الركب التونسي، وكان يومئذ لقابس شهرة مطبقة بالشّمال الإفريقي وفيها يقول بعضهم:

لهفي على طيب ليال خلت　　بجانب البطحاء من قابس
كأنّ قلبي عند تذكارها　　جذوة نار بيدي قابس

وبعد انضمام الأركاب بعضها لبعض في قابس، يتقدّم الرّكب العام نحو مدينة طرابلس، وينعتونها في الكتب الجغرافية بطرابلس الغرب، للميز بينها وبين طرابلس الشام. وفي كتب الجغرافيا الحديثة سمّوها ليبيا باسمها الروماني القديم، ولفظ ليبيا يدلّ في آن واحد على طرابلس وبرقة معاً، والله يحكم لا معقب لحكمه.

وفي ضمن الحديث يعرّفنا الشيخ ابن بطوطة بعقد نكاحه على ابنة أحد الأمناء بصفاقس، ثمّ بمفارقته إيّاها لمشاجرة حصلت بينه وبين أبيها بطريق الإسكندرية، على أنّه بنى هنالك على ابنة أخرى لبعض طلبة فاس، وزاد على ذلك قوله: «وأولمت وليمة حبست لها الركب يوماً وأطعمتهم»، فلله درّه ما أحزمه وما أكرمه!!.

ولنرجع بك لحديث الصّرّة بالذّات لإتمام التّعريف بتطوّراتها فنقول: إنّ توجيه مال الصّرّة للحرمين الشّريفين تناوله التّعطيل في القديم وفي الحديث، بحيث إنّ تبليغ أرياع أوقاف الحرمين لمستحقّيها بالحجاز طرأ عليه غير مرّة ما أوجب انقطاعه عن الموقوف عليهم، كوقت اختلال الأمن بالجزيرة العربية في أوائل القرن الثالث عشر، وكمدّة ثورة علي بن غذاهم حوالى سنة 1280 [1864] وما بعدها، ثم عادت لنظامها القديم بعد استتباب الرّاحة ورجوع الأمن لنصابه، وعاد انقطاعها في أواخر وزارة المرحوم مصطفى خزندار لاضطرار الحكومة وقتئذ بداعي العسر لإحالة التصرّف في أرياع الأوقاف العامّة، ومنها أحباس الحرمين الشريفين للقائد نسيم شمّامة قابض المالية بالدولة التونسية.

ولّما آلت الوزارة لنوبة الوزير المصلح خير الدين باشا تدارك ذلك الخلل، وعيّن مقدار الصّرّة بخمسين ألف فرنك في العام كما سبقت الإشارة لذلك، واستمرّ إرسالها واسترسالها إلى استعار نار الحرب العالمية، فتعطّل توجيهها لمستحقيها في عامي 1332 [1913] ـ 1333 [1914] ثمّ استؤنف إرسالها صحبة أركاب الحجّاج التي وقع ترتيبها في عام 1334 [1915] وما بعده، ثمّ عاد انقطاعها بعد انتهاء الحرب أثناء القلاقل التي حصلت بجزيرة العرب، ودام نحو الخمسة عشر عاماً، حتّى كاد أن ينسى ذكرها بين التونسيين، إلاّ أنّ المستحقّين لها بالحجاز لم ينسوها وكرّروا القول في طلبها، وما ضاع حقّ وراءه طالب، فتدخّل في النازلة ملك البلاد العربية جلالة عبد العزيز بن السعود، وأعارته الدّولة أذناً واعية، ورغم الضّائقة المالية المحيطة بجمعية الأوقاف منذ عشـر سنين، فقد حصل الاتّفاق بين الجانبين على نتيجة مرضية، وعاد توجيه الصّرّة المباركة على قاعدتها الأصلية إبتداءً من عام 1352 [1933] بل وقد تبرّع سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي، نضر الله وجهه، بزيادة عشرة آلاف فرنك علاوة على الخمسين ألف فرنك المعتادة اعتباراً من سنة 1354 [1935]. ولقد رمق جلالة الملك ابن السعود هذه العناية الشريفة بعين الاعتبار والشّكران، وأعرب لسموّ مولانا الباي المعظّم عن شواهد الامتنان، وأهدى لحضرته العليّة أثراً شريفاً لا يقدّر بمال، ألا وهو الحزام المصنوع من مقصب الذّهب الشّامل لأستار الكعبة المطهّرة، وقد تلقّى سيّدنا الملك المطاع هذه الهدّية المباركة بمظاهر الإجلال والإعظام، وأحلّها لديه بالمحلّ الأرفع، ممّا سيجده إن شاء الله يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً.

ونختم هذه النبذة بالإشارة لما أفاده التّاريخ من استنابة بعض الملوك الحسينيين لحاملي الصّرّة بالحجّ عنهم على ما جوّزه المذهب الحنفي الزكي[1]،

---

(1) المنصوص عليه في المذهب الحنفي أنّه لا تجوز الإنابة في الحجّ إلاّ بشرط أن يكون المحجوج عنه عاجزاً عجزاً مستمرّاً إلى وقت الوفاة. قال في الهداية: وتجزىء النّيابة في النّوع الثّالث وهو الحجّ عند العجز للمعنى الثاني وهو المشقّة بتنقيص المال ولا تجزي عند القدرة لعدم إتعاب النّفس. =

فالمقدّس الباي المولى حسين بن علي، استناب للحجّ عنه مفتي دولته، وبعضهم يزعم أنّه هو الشيخ حسن برناز، وعندي أنّ ذلك غير صحيح، لأنّ هذا الفقيه كانت ولادته سنة 1140 [1727] وكان مفتياً على عهد الباي حمودة باشا، وقد ترجم له الشيخ محمد بيرم الثاني في رسالة المفتيين ولم يذكر أنّه حجّ البيت الحرام لا لنفسه ولا بالنّيابة عن الباي حسين بن علي تركي، على أنّه كان عمره لا يزيد عن ثمان سنين عند اغتصاب الباشا علي باي الملك من يد عمّه حسين بن علي في سنة 1148 [1735] وفي ذلك دلالة على أنّ الفقيه الذي حجّ نيابة عن مؤسّس البيت الحسيني هو غير الشيخ حسن برناز، وإنّما الشّيء المشهور بين رواة الأخبار، هو أنّ الباي المشار إليه، تقبّل الله عمله، أُدِّيَتْ عنه فريضة الحجّ بطريقة النّيابة، وقياساً على صنيعه المشكور، وعمله المأثور، جرى عمل نسيله المرحوم مصطفى باي بن محمود باي، فإنّه استناب للحجّ عنه في سنة 1252 [1836] بركة القطر وإمامه الشيخ إبراهيم الرّياحي، قدّس سره، ووجّه معه مكتوباً بالتّوسّل للرّوضة الشّريفة وهو مكتوب في أعلى درجات البلاغة، ناطق بما للباي المشار إليه من صدق التوكّل والانقطاع، والتّعلّق بالجانب الأقدس، تقبل الله مسعاه، وقد نقل عبارته الوزير المؤرّخ الشيخ أحمد بن أبي الضّياف في تاريخه، وعنه نقله حفيد الشيخ، نفع الله به، في كتاب تعطير النواحي، فمن أراد زيادة البسط، فعليه بالرّجوع إليه. واستناب المقدّس المبرور المولى علي باي الثالث للحج عنه في سنة 1302 [1884] الفقيه المدرس الشيخ أحمد جمال الدين وحيث إن:

الابن ينشأ على ما كان والده إنّ العروق عليها ينبت الشّجر

فقد أضاف ابنه الكريم ملكنا الحالي، بهجة الأيّام والليالي، ولي النّعم

= والشّرط العجز الدّائم إلى وقت الموت لأنّ الحجّ فرض العمر اهـ صفحة 66 جزء 3 وقال في العناية: «فإن لم يكن العجز دائماً وقد احجّ عن نفسه ثم زال عنه العجز كان قادراً على أصله في وقته وذلك يبطل النيابة» اهـ. من الموضع المذكور «المجلة الزيتونية».

سيدنا ومولانا أحمد باشا باي، منقبة شريفة لصحيفة حسناته بالسّعي في أداء فريضة الحجّ كسلفه الصّالح، لذلك استناب الفقيه الخيّر الشيخ أحمد البنّاني للحجّ عنه في وقفة عام 1352 [1933]، تقبل الله سعيه، وأدام ملكه وعزه ورعيه(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 1 ـ الجزء 5 (جانفي 1937).

عادة تقبيل اليـد

كان المسلمون في القرون الأولى يحيّون بعضهم بعضاً بالمصافحة الواردة في السّنّة النّبوية، وهي أن يعقد المتصافحان يمينيهما واحدة مع الأخرى كأنّهما يتعاهدان على الصّفاء والوفاء، وهناك ساعة المغفرة التي يدعو بها المسلم لأخيه والله وليّ القبول. وجوّزوا تقبيل اليد عند البيعة، فإنّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه كان من السّتّة الذين رجّحهم عمر للخلافة لّما أحسّ بحضور أجله ليختاروا فيما بينهم واحداً منهم ليكون خليفة للمسلمين بعده، فلمّا التحق عمر بربه، تقدّم عبد الرحمن لأصحابه المرجّحين للخلافة معه وقال لهم ما معناه: إنّ الخليفة واحد، ونحن ستّة، فليتنازل منّا ثلاثة لفائدة الثّلاثة الباقين ليسهل الاختيار، وكان وجوه الصّحابة واقفين بالباب، فتنازل ثلاثة حسب إشارته لفائدة الثّلاثة الآخرين، وهم عثمان، وعليّ، وعبد الرّحمن نفسه، وإذ ذاك قال عبد الرحمن لصاحبيه: أنا أيضاً غير قابل للخلافة، ثمّ سارر عثمان بقوله: إذا اخترت لها عليّاً فهل أنت مبايع له؟ فأجابه عثمان: نعم. وقال بعد ذلك سرّاً لعليّ: إذا اخترت لها عثماناً فهل أنت مبايع له؟ فأجاب عليّ: نعم. وعندها التفت عبد الرحمن لعثمان وقال له: ابسط يدك لأبايعك يا عثمان! وتقدّم نحوه وبايعه، واقتدى به عليّ، فوجوه الصّحابة الحاضرين، وتمّت بذلك التّدبير الحكيم بيعة عثمان بن عفّان رضي الله عنه وعن الصّحابة أجمعين[1].

---

(1) حكيت هذه الواقعة ذات يوم للعلامة الأستاذ (شارليتي Charletty) مدير المعارف بتونس سابقاً =

ولما أصبحت مملكة الإسلام متلاوحة الأطراف بكثرة الفتوح، اختلط المسلمون بسكّان البلاد التي خضعت لحكمهم، واقتبسوا من أخلاقهم وأوضاعهم الشّي الكثير، وبتدرّجهم في مدارج الحضارة والتّرف والبذخ، كانوا يتباعدون شيئاً فشيئاً عن سيرة السّلف الصّالح، لأنّ الحضارة جعلتهم بحكم الضّرورة طبقات، طبقة العلماء، وطبقة سراة الأمّة، وطبقة العامّة، والله فضّل بعضكم على بعض. ومن مزالق الحضارة عجب الإنسان بنفسه وحبّه الإمارة ولو على الحجارة كما في المثال المعروف، وكان لبلاد فارس ذات التّمدّن القديم بعد دخولها في الإسلام التّأثير العميق في أخلاق العرب، وهم نشأوا على الفطرة والبساطة، وفي الحديث: (يولد المرء على الفطرة فأبواه ينصّرانه أو يهوّدانه أو يمجّسانه).

ومعلوم أنّ الناس طبقات كما قدّمنا، وأهل الرّعيل الأوّل في هذا المقام هم الأمراء والوزراء وأهل العلم. والشّرع لا يمنع تقبيل اليد في أحوال ثلاثة: يد الملك العادل، ويد العالم العامل من تلميذه، ويد الوالد من ولده. ولكنّ هذه المستثنيات تناولها التّدليس بتطاول أيدي غيرهم وبسطها للتّقبيل، وعمّت هذه العادة بلادنا في القرون الأخيرة، فصار تقبيل اليد حقّاً على التّابع نحو متبوعه، وصار المأمور الكبير لا يتحاشى عن بسط يده للمأمورين الذين حوله، وهؤلاء بدورهم يقبّل أيديهم من حولهم من أهل قرابتهم ومن لفيف النّاس الذين تدعوهم الحاجة للاختلاط بهم، وبلغ الحال ببعض الوزراء خلال القرن الماضي لقبول تقبيل يده من عموم مأموري وزارته كلّ صباح، كأنّه وليّ الأمر بالذّات، وبهذا الصّنيع اقتدى عموم المتوظفين، فكان لكلّ مأمور مخزني، قسم من الأعوان وكثير من العامّة لا يتخلّفون عن تقبيل يده أينما كان، ولو في الطّريق، والعّامة يتبعون بعضهم بعضا إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، ناهيك أنّ

= ثم قيدوم مشيخة العلوم بباريس، فأعجب بذكاء عبد الرحمن بن عوف، وقال إنّ هذا التدبير الحكيم لو حصل في الزّمن الحاضر، لعدّ النّاس صاحبه من أعظم أهل السياسة وأقدرهم على حلّ المشاكل الخطيرة.

كبير الخصيان بالبلاط أو بدار الوزير كان في الزّمن الماضي يجلس بدوره صباح كلّ يوم على كرسي بسقيف سراية سيّده، فيأتي لتقبيل يده بقية الطواشية وزمرة العبيد الملحقين بخدمة المكان(2).

هذا وبقدر تداعي هيكل الأخلاق الفاضلة بين النّاس، تكاثر يومئذ تفشّي النّقائص والعيوب في الأوساط التّونسية، فكان أغلب الناس لا يشعر بأنّها لا تغتفر في نظر الشّرع، بل وفي نظر أهل الأذواق السّلمية أيضاً، وكان من حسن الحظّ وزهاء الطّالع، انتباه المشير محمد الصادق باي لتلك الحالة، فسعى لتداركها إثر صعوده للعرش الحسيني، وجعل ترتيباً لضبط قواعد التّحيّة بين أهل الدّولة وبين النّاس، وحصر التّحيّة بتقبيل اليد في شخص الأمير الجالس على الكرسي الحسيني، وممّا تضمّنه هذا التّرتيب قوله: إن التّحيّة بتقبيل اليد للتّعظيم من خواصّ الملوك عرفاً، وقد توسّع النّاس فيها مع آلنا وغيرهم من رجال دولتنا توسّعاً أدّى إلى سآمة وتعطيل وغير ذلك، فحجّرنا ذلك عن غير المذكورين أعلاه (هم الملك، ووليّ العهد حال خروجه بالمحلّة، والوالد من ولده) كائناً من كان تحجيراً حكيماً، ولا عذر بعد هذا المنع لمن خالفه بمدّ يده للتّقبيل أو قبّل يد غيره، وإجلال أصحاب الرتب والمناصب ومعرفة الأدنى

---

(2) هؤلاء الخصيان كان لهم شأن في عهد الدور القديم، فلقد وقع بيدي أمر صدر من الخصيّ سرور آغة الخزندار على عهد المولى محمود باي في ولاية عريفة بدار المبعدين المحكوم عليهم بالنّفي، وعبارة هذا الأمر تضحك الثّكلى، لذلك آثرت نقلها هنا بحروفها تفكهة للقرّاء وإتماماً للمقصود ممّا نحن بصدده. قال الخصيّ المشار إليه:

الحمد لله، كتبنا أمرنا هذا على بركة الله تعلى وحسن عونه وتوفيقه بيد سي (كذا) سعادة عتيقة محبّنا الحاج عثمان أنّنا أوليناها على بركة الله تعلى وحسن عونه وتوفيقه عريفة دار نفي لتنظر على ذكورها وإناثها وكبارها وصغارها كلهما لنظرهما (كذا) من جميع أمورهما وشؤونهما وكافّة أسبابهما (كذا) العرفية كذلك العادية وكلّ ذلك تفضّلاً منّا إليها كتفضّل سيّدنا علينا بأمره المطاع الواجب إليه الاتّباع، فعلى الواقف على أمرنا هذا أن يعمل بمقتضاه ولا يخالف سبيله، ورفعنا يد من كانت قبلها وبحرمتها وعدم الجسارة عليه (كذا) ولا تقاس بما يقاس به غيرها. والسلام من الفقير إلى ربّه الغني سرور آغا خزنادار عفى الله عنه آمين في 1 أشرف الربيعين 1236 [1820] أهـ بحروفه وتحريفه مذيلاً بطابعه.

بحقوق من فوقه باق على حاله، والآداب الإنسانية لا تمسّ بهذا الأمر، بل يزيدها قوة أهـ.

ولّما صدر هذا التّرتيب، عمّم سموّ الباي نشره بتونس وبالآفاق، وحذّر العمّال من مخالفته لما اشتهر وأنّ بعض عمّال البوادي كانـوا يقبّلون من منظوريهم ليس تقبيل أيديهم فقط، بل وحتّى أرجلهم، وبعث سموّه بنصّ هذا التّرتيب لأهل المجلس الشرعي لإجراء العمل بمقتضاه في دار الشّريعة[3] وأكّد الوصاية لمشائخ المدينة والرُّبضين بأن يسهروا على تنفيذه بين النّاس[4]، إلا أنّ النّاس انتبهوا رغم ذلك من سباتهم العميق بفضل الإصلاحات الصّادقية الكثيرة التي منها تأسيس المدرسة الصّادقية، وضبط أحوال التّعليم بجامع الزّيتونة على يد المصلح الكبير الوزير خير الدين بحيث صار تقبيل اليد ممّا لا يتجاهر به عشّاقه ولا يقبلونه ممّن دونهم إلا في خفاء. بقي بمحفوظي أنّ المؤدّب الذي كان يعلّمنا القرآن بالمدرسة الصّادقية لّما يتقدّم له التّلاميذ لتقبيل يده يبسطها لهم ويقول لهم في آن واحد: السّماح السّماح! مكرّراً تبرئة لذّمته من لوم متوقّع، واتّفق ذات يوم أنّ الوزير محمد خزندار[5] فتح بابه لقبول التّهاني

---

(3) لّما اتّصل أهل المجلس الشرعي بالأمر العليّ القاضي بمنع تقبيل اليد قرأوه وتـدبّروا معانيه، وأجابوا عنه سموّ الباي بلسان شيخ الإسلام بالمكتوب الآتي نصّ عبارته:

«الدّولة الشّامخة الصّادقية المحمّدية، العريق في الملك أصلها، الكامل بغايات المفاخر وصلها، المنتشر ذكرها، المرفوع قدرها، لا زالت بالنّصر محفوفة، وبجميع المحاسن موصوفة، أمّا بعد سلام يؤدّى به من التّعظيم واجبها، ويكافي ما لها من الرّفعة ويناسبها، فالمنهيّ إلى الحضرة السّامية أنّه اجتمع بدار الشّريعة أهل مجلسها لتلقّي الكتاب الملكي المتعلّق بقانون التّحيّة ومقابلته بما يتعيّن من الاطّلاع المصحوب بالإجلال أوّلاً، والامتثال له والعمل به ثانياً، ووقعت الإحاطة بمضمونه والتّواصي بالجري على ما أمر به وإشاعته، والله تعلى نسأل أن يبقي مولانا في سماء المعالي بدراً طالعاً، وفي أفق المكارم فجراً ساطعاً، والسّلام من الدّاعي لمولانا الفقير إلى رحمة ربّه محمد بيرم، لطف الله تعلى به. وكتب في غرة ذي الحجة من عام 76 اهـ».

(4) سمعت من بعض ثقاة المعمّرين الماضين أن الإناث من العبيد المستخدمات بمطبخ بعض الأكابر من أهل المخزن كنّ يقبّلن يد سيّدتهنّ يوم العيد ويقبّلن عضائد باب بيتها في بقية أيّام العام، نعوذ بالله من هذا الجهل المركبّ.

(5) أصله يوناني من جزيرة ساقص، جيء به صغير السّنّ من مسقط رأسه فامتلكه الوزير شاكير

بعيد الفطر، فوفد عليه المتوظّفون والأعيان، وكان في جملتهم المرحوم السّيّد حسن ابن القائد أحمد[6]، فلمّا دخل بسقيف الدّار الوزيرية تلقّاه معين الوزير وبرّ به وأجلسه بقاعة الانتظار، ودخل بعده زائر آخر من أعيان التّونسيين، ففعل المعين معه كذلك وأجلسه حذوه، وجاء ثالث ورابع فتلقّاهما كذلك بالرّحب والقبول، فأعجب السّيّد حسن بكمال تربية المعين المشار إليه، وسأل جليسه من هو هذا الرجل الحسن التربية؟ فأجابه صاحبه بقوله هو فلان وهو مستكمل الصّفات الحسنة كما قلتم لا يعتوره إلا كونه ليس أصيل الحاضرة التونسية، فابتدره السيد حسن هازئاً به وقائلاً له: نعم إنّه ليس له عراقة في المجد التونسي كحضرة الوزير الذي جئتم لتقبيل يده، فبهت الذي كفر!.

ويلوح أنّ تقبيل اليد ما زال أمره في تقاصر إلى هذا الزّمان، لأنّ الخاصّة ـ وهم أهل العلم وأهل المخزن ـ أعرضوا عنه في غير الأحوال الاستثنائية، والعامّة لا مبدأ لهم اللّهم إلا التّطوّر السّريع والاقتداء بالخاصّة، أما ترى أنّ أهل الشّبيبة من طبقة العّامة صاروا يتجوّلون بالطّرقات مكشوفي الرؤوس اقتداء بأبناء سراة الأمة، بحيث يعسر عليك التّمييز اليوم بين الشاب المسلم وبين الشاب الأروباوي أو الشاب اليهودي.

صاحب الطّابع وأحسن تربيته، ولم يلبث حتّى ظهرت نجابته وصدقه وأمانته فأخذ يتدرّج في مدارج المعالي بالبلاط الملوكي على عهد المولى حسين باي الثاني، وإخلافه بكرسي الملك إلى أن بلغ لدرجة الوزارة فباشر كلّ الوزارات واحدة بعد الأخرى عدا وزارة القلم، واشتهر بلقب خزندار اكتساباً من سيّده شاكير لا مباشرة لهذه الخطّة، وكان من أهل الجدّ والكدّ والعمل، حسن السّلوك ثقة أميناً في تصرّفاته، اكتفت به الدّولة في سفارات عدّة شرقاً وغرباً، تشرّف بمصاهرة آل البيت أهل النّسب الزّكيّ وأوصى بدفنه في مقابرهم توفّي رحمه الله سنة 1306 [1888] بعد أن باشر الخدمة في ست دول حسينية وتولّى الوزارة الكبرى مرّتين.

(6) أصله من البيوت العريقة في المجد بالجزائر مسقط رأسه، وفيها تزوّج بابنة الدّاي مصطفى باشا وهزّته أرياح الأقدار لتونس في أواخر الدّولة الصادقية ولم يلبث حتى انخرط في سلك متوظّفيها إلى أن صار وكيلاً لأوقاف المدرسة الصادقية في سنة 1303 [1885] ثم عاملاً على حلق الوادي في سنة 1310 [1892] وكان رحمه الله سيّداً كريماً شهماً هماماً أبيّ النفس صادق اللّهجة يجهر بالقول ولا يخشى ملامة توفي عن نحو ثمانين سنة خلال عام 1314 [1896].

بقيت حالة وحيدة في تقبيل اليد ليس في وسع القانون جرّها للخضوع والخنوع لحكمه، وهي حالة تقبيل يد المحبوب من حبيبه، فهذه الحالة الشاذّة خاضعة فقط لسلطان الوجدان، والوجدان من أعمال القلوب، والقلب أحد الأصغرين، والآخر هو ترجمانه. وأستغفر الله لي ولصاحب المجلّة ولقرّائها الأكرمين، وتعميم الدّعاء من مظنّات الإجابة، والحمد لله بدءاً ونهاية(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 4 ـ الجزء 4 (جانفي 1941).

دخول الزّيّ الأروبي
في العادات التّونسية

كان أهل تونس في القديم لا يعرفون من الأزياء غير الزّيّ العربي، ويمتاز أهل الحواضر بلباس القفطان، والعمامة، والطيلسان، وهو شعار الشّيوخ، وكان لبس الجُبَّة الواسعة من الأمور المحضورة بين أهل العلم. وفي أيّام الدّولة المرادية ظهر بتونس اللباس المعروف بالمحصور، وتأصّل رواجه بالدّولة حتى كان هو ملبوس أولياء الأمر في بحر القرن الثاني عشر، والنّصف الأوّل من القرن بعده كما تراه في رسم بالدّهن للمرحوم المولى حسين باي الثاني ببيت الأفراح بسراية باردو. فلما كان سنة 1246 [1830] لبس السّلطان العثماني محمود خان الثاني الزّيّ الأروباوي، وأصدر أمره لولاة الممالك العثمانية، ولأمراء البلاد الممتازة، ومنها تونس، بإجراء العمل في بلادهم بالأنظمة الجديدة التي رتّبها الباب العالي، وكان في جملتها اللّباس الأورباوي[1]، والعسكر النّظامي، فكان حسين باي[2] السّالف الذّكر هو أوّل من خلع الثّياب العربية، ولبس

(1) اللّباس الأروباوي أي الإفرنجي ينعته العامّة في تونس باللّباس السّوري، نسبة لسوريا وهي أوّل بلاد شرقية اختلط بها المسلمون بالأروباويين أثناء حروب الصّليب.

(2) المشهور بين الناس أنّ أوّل من اتّخذ الزّيّ الأروبّاوي من الأمراء الحسينيين هو المرحوم مصطفى باي، ولعلّ هذا الوهم انجرّ لهم من كون مصطفى هذا هو أوّل من لبس نيشان الافتخار الذي هو من توابع الزّيّ النّظامي، والحقيقة التّاريخية هو أنّ أخاه حسين باي هو الذي لبسه من قبله كما اتّفق على ذلك كتّاب تاريخ تونس الحديث، ومنهم الشيخ أحمد بن أبي الضّياف كاتب سرّ الباي حسين المشار إليه. فقد جاء في تاريخه عند تعرّضه لرحلته للأستانة في سنة 1246 [1830] ما ننقله عنه، ونصّ محلّ الحاجة [منه:] «رجعنا (لتونس) في جمادى الأولى سنة سبع وأربعين بعد

الثّوب الأروباوي، اقتداء بخليفة الإسلام، ولكن لم تعرف له صورة بالذُّهن أو غيره تمثّله بهذا الزّيّ الجديد الذي انتقده النّاس في عصره، ورأوه بدعة وظلالة، حتّى أنّهم عثروا ذات يوم في مجلس حكمه على رقيم أمام كرسي الملك، ففتحوه وإذا به قصيدة مجهولة المصدر في إنكار ذلك الصّنيع مطلعها:

بــربّـك أيّهـا الملك المـطاع أكفـر ذا الصّنيـع أم ابتـداع

ولكنّ أهل العلم من فضلاء الشّيوخ، لم يعتبروا لذلك حساباً، فقد تصدّى العلاّمة الشيخ محمد بيرم الرّابع لنسج قصيدة من عيون شعره في تهنئة الباي المشار إليه بمشروعه الجليل، ننقلها هنا إتماماً للفائدة، لأنّه لم يتقدّم نشرها بكتب الأدب التونسية ونصّها:

نـظامـك أيّهـا الملك الهمـام به للدّين قـد ظهـر ابتسـام
نـظام يكتسي الإسـلام منـه سروراً ليس يحصيه النّـظام
به نسخت شوائب كلّ عجز كما بالصّبح قد نسـخ الظّلام
كأنّ صفوفهـا نظم الـدّراري بـدت ولكـلّ واحـدة حسـام

= أن ألبسنا هناك (يعني في الأستانة) زيّ العسكر النّظامي، وجاء معنا رسول بالشّعار الملكي النّظامي، فلبسه الباي في ديوان حافل على العادة وأخذ الوزير (يعني شاكير صاحب الطّابع) اللّباس من يد الرّسول، وهو الذي باشر وضعه على الباي» أهـ. بحروفه.

وقال الشّيخ الباجي المسعودي في الخلاصة النقية عند ذكر مآثر حسين باي ما نصّه: «ووافته الخلعة النّظامية السّلطانية في جمادى الأولى من سنة 1247 [1831] صحبة رسله (أي رسل الباي) إلى الدولة العليّة الدّاي مصطفى البلهوان كبير حوانب التّرك وكاتب السّرّ، ونخبة الكتّاب أبي العبّاس الشيخ احمد بن أبي الضّياف، وكان لباسه لها في يوم مشهود ومحفل عظيم، وأمر حينئذ رجال دولته وأتباعه بلباس النّظام، فتسارعوا لعليّ أمره» أهـ. بحروفه.

وقال المؤرخ (هوكون) الفرنساوي في كتابه المسمّى «شعار بآيات تونس» في 23 دجنبر 1831: «عرف قنصل فرنسا بتونس (ماتيو دي لاسابس) بوصول شاوش (مبعوث) من اصطنبول لبلاط باردو حاملاً لحسين باي خطّاً شريفاً في تأكيد ولاية الباشليك، وخطّاً آخر في الأمر بأنّ اللّبوس الجديدة التي تزيّى بها السّلطان يقع لبسها في الإيالة». وهذه عبارة ما عرّف به القنصل: «قد ظهر الباي بين الناس لابساً كسوة الباشا وبه اقتدى حتماً الوزراء وأهل البلاط وكلّ الذّوات الذين لهم علاقة بالدولة، وهذا اللّباس الجديد الذي هو بدعة نظره جيش الترك (يعني جيش الانكشارية) وأهل البلاد بعين السخط» أهـ. بنصه.

إذا ما شاهدت عيناك منه مسيراً فيه ذلّ واحتشام
رأيت البحر يزخر فيه موج بنار قد غدت ولها اضطرام
وقد خفقت لهم رايات عزّ تشير بأنّ جندك لا يضام
فإنّك فوق هذا الدّهر تاج وحسن التّاج يكسبه النّظام
ألَا يا ضيغم الإسلام يا من بعزّ مقامه تعلو الأنام
سبقت إلى المفاخر كلّ ملك فما لك مشبه فيما يرام
وهب أنّ الملوك سموا إليها وكلّ بالوصال له غرام
فما ضربوا من العليا بسهم وإن طاروا حواليها وحاموا
لأنّك في الملوك عزيز أصل وأنّك قد سهرت لها وناموا
بقيت كما تحبّ عزيز ملك محلّك من ذرى العليا السّنام
ولا زالت وجوه النّاس تعنو لعزّك كلّما صاح الحمام
ومنّي كلما هبّت شمال على علياء حضرتك السّلام

ولمّا التحق المولى حسين باي الثاني بالدار الآخرة في سنة 1251 [1835] سلك مسلكه في لبوسه الرّسمية أخوه المولى مصطفى باي، وعلى قياسه كانت لبوس أهل الدولة، لكنّ عامة التّونسيين بقوا على حالتهم القديمة في مدّة هذا الباي، وكذلك في مدّة ابنه المشير أحمد باي الأول، غير أنّ مدّة هذا الأمير التي استغرقت ثمانية عشر عاماً كانت موسومة بظهور مبادىء التّمدّن العصري بتونس، الأمر الذي هيّأ للإيالة التّونسية محاولة السّير مع تيّار الحضارة الأروباوية، ووافق ذلك أيلولة كرسي الإمارة للمشير الثاني محمد باي، وكانت مدّته قصيرة، إلاّ أنّها امتازت بتأصّل العلائق بينه وبين مبعوث فرنسا القنصل (ليون روش) المستعرب المشهور، وهذا غرس في نفس الباي حبّ القانون، والتشبّه بالأمم الرّاقية، فابتكر سموّه مشروع عهد الأمان، وبمقتضاه جاز لليهود التملّك العقاري، ولبس الشّاشية الحمراء، وكانوا قبل ذلك لا يملكون العقار، ولا يلبسون غير القلنسوة السّوداء، أمّا كساؤهم الخاصّ باللون الرّصاصي، فإنّه انجرّ لهم من أسلافهم في عهد

الدولة الحفصية، وكانت التّسوية في الحقوق بين عموم سكّان الإيالة التونسية حسبما اقتضاه دستور عهد الأمان، فاتحة باب تسهيل التّفرنج على اليهود، وهم أهل تطوّر وتشبّه بالعناصر الحيّة في كلّ زمان ومكان، وكان بينهم الكثير من أبناء عمومتهم، نسيلي إسبانيا، ولا سيما إيطاليا، حيث مدينة القُرْنَة، ومنها كان يفد على هذه الدّيار الأطبّاء، والصيادلة، وغيرهم من مفكّري اليهود، وأرباب المساعي ذات الألوان والأشكال المختلفة، ومنهم سماسرة السّوء الذين لعبوا شوطاً فسيحاً بهذه الدّيار، وامتازوا بالرّقص في ظلّ معابر دواوين الدولة في الدور القديم، فكان العنصر الإسرائيلي في عهد الدولة الصادقية شديد العلقة بالتّمدّن الأروباوي، وكان الكثير من أبناء البيوتات اليهودية متزيّين باللّبوس الأروباوية، ولكن لم يقدم على الاقتداء بهم في لبسهم أيّ نفر من التونسيين المسلمين، بحيث إنّ اللّباس الأروباوي بالنّسبة للأهالي المسلمين كان خاصّاً بأهل الدّولة كضبّاط الجيش، ومتوظّفي الحكومة، ومنهم طائفة الكُتّاب، فكان لباس هؤلاء في ساعات العمل هو السّترة السّوداء، والسّراويل الطويلة، مع الشّاشية المعروفة بالكالبوش، على أنّهم كانوا يخلعون هاته اللّبوس عند رجوعهم لبيوتهم، ويعودون للبس القفطان، والجبّة الواسعة، والعمامة، ناهيك أنّ بعضهم لم يقدر على التكلّف بترك عمامته، فأعفاه الباي من لبس الشاشية الكالبوش، كالكاتب الأديب الشيخ محمد التّطاوني، فإنّه كان يتزيّى بالزّيّ الأروباوي مع إبقاء رأسه متوّجاً بتاج العرب، وقد وقفت لهذا الأديب المغربي على شيء من شعره الرّقيق، من ذلك أبيات لطيفة في وصف بلد نابل مطلعها:

إلى نابل يشتاق كلّ نبيل ... إلى حيث مغنى الأنس غير محيل

ومنها:

فماشيت من روض أريض ومنظر ... نضير ومن ظلّ هناك ظليل

تجمعّت الأهواء فيها فحيثما ... حللت تلقّاك الهوى بقبول

إلى أن قال في تمجيد وادي السّحير:

فيا وادي السّحير[3] رواك صيب كدمع لذي شوق إليك طويل

والكلام هنا قاصر على الوجهة التّاريخية، فلا مبرّر لإطالة القول من النّاحية الأدبية، لذلك نقول إنّ الزّيّ الأروباوي أخذ في الانتشار بين أغلب أهل الحواضر التونسية في عصر الحماية، تبعاً لناموس اقتداء المغلوب بالغالب في بزّته وأخلاقه ومعاشه[4] وتفشّى اتّخاذه بين الخاصّة والكافّة سواء في ذلك أصحاب الحيثيات والوظائف وغيرهم، وصاروا ينعتونه باللّباس الطّلياني، وهو تعريف يهودي، إلى أن تناولته الألسن في كلّ مكان، وتغنّى به أصحاب الشّعر الملحون كما في قولهم:

يَـا حْـبِيِـبـي يَـا مِـزْيَـانْ لاَبِسْ كِـسْـوَة آلـطّلْيَـانْ
مَـا يَـكْـسِـبْـشِـي حَـتَّى زْيَـالْ وَالسِّـيـڤَـارَه فِي فَـمُّـو

وفي آن واحد، عمّ الشّبّان التونسيين لبس الشّاشية المجيدي[5]، وتقاصر شأن الشّاشية التونسية كتقاصر العمامة التي سيؤول أمرها فيها يلوح للتّقاصر والتّراجع، وكأنّها ستبقى وقفاً على أهل العلم، فعليهم أن يجتهدوا في إبقائها على ضخامتها الأصلية التي لا يوافقها من الألوان غير البياض النّاصع، وأن لا يشاركوا في أسباب تضاؤلها حتى لا تصبح الكَشطَة[6] كُشَيْطَة، والهرَّة هُرَيْرَة، وتغالى بعض الشّبّان التونسيين في التّشبّه بالعنصر الأقوى، فكشفوا عن رؤوسهم في الطّرقات العامّة قياساً على مساكنيهم، من الأروباويين واليهود، وكأنّهم غفلوا عن نتيجة هذا الاندماج، وإذا استفحل الدّاء عن العلاج(*).

---

(3) لفظ السّحير المشتقّ من السّحر، رسمته إدارة الأشغال العامّة في خريطة الطّرقات العمومية بلفظ السّحيل المشتقّ من السّاحل ولعلّه أقرب للحقيقة لوقوع مكانه على مقربة من البحر فليتأمّل.

(4) هذا النّاموس وفاه حقه المؤرخ ولي الدين ابن خلدون في المقدمة فليرجع إليه.

(5) نسبة للسلطان عبد المجيد خان المتوفى سنة 1277 [1860].

(6) معرب من كشته في اللغة التّركية ومعناه عمامة على حد قول سحيم:

أنـا ابن جـلا وطـلاّع الثّـنـايـا متى أضـع العـمـامـة تعـرفـوني

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 2 ـ الجزء 4 (جانفي 1938).

الباب الرابع

المعالم والآثار

جامع الزيتونة[1]

لقد حضرت بينكم السّاعة لأتحدث إليكم بأحوال جامع الزيتونة الذي هو أعزّ وأفخر مؤسّسة إسلامية تونسية عمّت سمعتها المشرق والمغرب. وإنّي لمبتدىء في الأوّل بالكلام على سبب انتساب هذا المعهد الجليل للشّجرة المباركة منذ بدء الخليقة، فقد حقّق المؤرّخون أنّ موقع الجامع كانت به زيتونة حوالي صومعة كان يتعبّد بها راهب نصراني عند نزول المسلمين الأوّلين بتونس، وتلك الصّومعة كان موقعها حيث صومعة الجامع لهذا الزّمان. ومعلومكم أنّ العرب فتحوا تونس سنة 79 للهجرة أي عام 698 للميلاد، وكان زعيم تلك الحركة المباركة الشّيخ الأمين حسّان بن النّعمان الغسّاني الذي وفد على إفريقيا لنشر الدّعوة الإسلامية بين أهاليها الأصليين، وقد اقتضت شريعة الإسلام إيجاد مسجد للصّلاة حيث يكون جمّ غفير من المسلمين، لذلك أحدث العرب الفاتحون أوّل مسجد للصّلاة بتونس، وسمّوه جامع الزّيتونة. وممّا حفظه التّاريخ أن الرّاهب النّصراني الذي ذكرته لكم آنفاً هو الذي دلّ جماعة المسلمين على موقع محراب الجامع المنير، إلى آخر ما جاء في حكاية مشهورة، وإذ ذاك وقع الاختيار على صومعة الرّاهب ـ ولا شك أن ذلك كان برضاه ـ لتكون مأذنة ينادي المنادي من أعلاها «حيّ على الصّلاة حيّ على الفلاح».

---

(1) [نص المحاضرة التي ألقاها المؤلّف في نادي الضّبّاط الفرنسيّين بتونس].

وبديهي أنّ المسجد وصومعته كانا في بداية أمرهما على فطرة البساطة والسّذاجة، لأنّ التّاريخ لم يتكلّم على المسجد المتحدّث عنه بصفة مسجد جامع، إلّا إبتداءً من عام 114 الموافق لعام 732 للميلاد، ففي هذا العام قام الأمير عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية من قبل الخليفة بتوسعة الجامع وإحكام وضعه على أساس فخـم، ومن يومئذ ما زال شأنه في تعاظم إلى هذا الزّمان. فالأغالبة أمراء القيروان، وأمراء الشّيعة في المهدية، وبنو حفص سلاطين تونس، كانـوا على اتّفاق في احترام جامع الزّيتونة، اللهم إلّا سطراً واحداً من نقوش سنية محته يد أعداء السّنّة من الكتابة المطرّزة بها واجهة صحن الجامع أثناء الخلافات المذهبية التي ظهرت حوالي المائة الخامسة بين أهل السّنّة والشّيعة (شيعة سيّدنا عليّ بن أبي طالب القائمون بدعوة الإمام المعصوم).

أمّا هندسة بناء جامع الزّيتونة، فإنّها موافقة تماماً لبقية جوامع عواصم إفريقية الشّمالية، وسواري المرمر الملوّن المقامة عليها أقواس بيت الصّلاة، جيء بها من أنقاض قرطجنة، وأبوابه أحكم صنعها من عود الصندل حوالي القرن الخامس عشر للميلاد، وصومعته المشاهد جمال بهجتها على حدّ سواء من داخل الجامع وخارجه، شيّدت أركانها بموقع الصومعة القديمة في سنة 1312 (1895) في ارتفاع 43 ميتر، وكان الواقف على بنائها المهندس البلدي المرحوم سليمان النّيقرو، وبلغت نفقاتها من صندوق جمعية الأوقاف لمائة وعشرة آلاف فرنك، والصّومعة الدّارسة المعتلية على صومعة الرّاهب، زيد في ارتفاعها ثمانية أذرع على عهد الدّولة المرادية، وآخر تـرميم حصل بالجامع كان إجراؤه في عام 1939، وكان قاصراً على إصلاح قبّة المحراب حيث يتقدّم الإمام للصّلاة بالمسلمين، ويبسط أكفّ الضّراعة بالعزّ والتّمكين لنصير الدّين حضرة وليّ النعم سيدنا ومولانا دام عزّه وعلاه[2]. وهذه القبّة التي وقع إصلاحها كانت أقيمت سنة 250 [864] في عهد الخليفة المستعين

(2) [المقصود به الأمير الجالس على العرش آنذاك وهو أحمد باي الثاني].

بالله، ومزيّة تجديدها كتبتها يد الأقدار في صحيفة حسنات صاحب التّاج الوهّاج، أدام الله ملكه، وأجرى في بحر السّعادة فلكه، وهنا لا يسعني إلا الإصداع بالحمد والشّكر من أجل العناية الدّولية التي ما برحت شاملة لجامع الزّيتونة، ولا شكّ أنّها سياسة محمودة تترجم لنا عن وفاء فرنسا الكريمة بما تعهّدت به لنا من حمايتنا واحترام عقائدنا وعوائدنا القومية[3]، وآخر ما أذكره لكم في حقّ أبنية جامع الزيتونة، هو وجود ماجل فسيح بصحن الجامع يذكّرنا عهد الظّمأ الذي كان باسطاً جناحه على تونس في القرون الغابرة، كما توجد به مزولة لضبط أوقات الصّلاة حسب فصول السّنة، على أنّ مأمورية هذه المزولة هي اليوم في عهدة الموقّت القائم بسنّة الأذان بصومعة جامع القصبة المشرفة على جميع أحياء العاصمة التونسية، وبقي عليّ الإشارة لحفر صغيرة بصحن الجامع هي من آثار سنابك خيل العساكر الإسبانية أثناء احتلالهم لتونس على عهد الأمبراطور شارلكان، (CHARLES QUINT).

هذا وقد أشرت آنفاً لفقدان مياه الرّيّ بتونس في الأزمنة الماضية، والحقيقة أنّ ماء عين زغوان كان جارياً بجامع الزّيتونة أثناء القرن الثالث عشر للميلاد (المائة السابعة للهجرة)، فإنّ السّلطان المستنصر بالله توفّق خلال مّدته لجلب ماء زغوان على الحنايا القديمة التي أحدثها الأمبراطور هوريان الرّوماني أثناء القرن الأوّل للميلاد، قصد المستنصر بذلك العمل الجليل تزويد جامع الزّيتونة بالماء الطّهور، وتزويد رياض أبي فهر، حيث مساكنه السّلطانية، ومحلّ نزهة آل بيته، من ذلك حوض فسيح تجري به زوارق حضياته في الطّول والعرض، قالوا إنّ هذه الجابية لمّا محتها يد الزّمان من لوحة الوجود، غرسوا مكانها ستّمائة عود من الزّيتون، فانظر ماذا كان اتّساعها في زمن المستنصر الحفصي!.

إن ما قررته لكم أيّها السّادة يشخّص صورة حقّة، ولكن موجزة من أبنية

---

(3) [لعلّ المؤلّف أراد بذلك أن يجامل مستمعيه من الضّبّاط الفرنسيين].

جامع الزّيتونة نتخلّص منها لحديث الجامع بصفته بيت ديانة لعبادة الله خالق كلّ حيّ ومدبّر كلّ شيء، فالإسلام يجيز للمسلم أداء صلواته المفروضة ببيته، ولكنّ النّصوص الشّرعية جاءت مفعمة بالتّرغيب في أداء الصّلاة جماعة بالمسجد، لما في ذلك من فائدة التّعارف بين المسلمين، فالمسجد المجرّد إنّما جعل لاجتماع أهل الحيّ الواحد لعبادة الله جماعة، كما جعل المسجد الجامع لصلاة أهل المدينة جميعاً، وهي طريقة أوسع من السّابقة لتعارف المسلمين والتفافهم حول بعضهم بعضاً، وهنالك اجتماع آخر أعمّ من اجتماع المسجد الجامع الذي يقوم فيه المسلمون بأداء صلاة يوم الجمعة الذي هو يوم عيدهم الأسبوعي، كيوم الأحد بالنسبة للنّصارى، ويوم السّبت بالنّسبة لبني إسرائيل، وعندنا أنّ عيسى وموسى عليهما السّلام بنسبة أخوين لنبيّنا سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، والاجتماع الأعمّ الذي نقصد الكلام عليه هو الحجّ الأكبر بمكّة، حيث يجيء المسلمون من أطراف المعمورة للطّواف بالبيت الحرام، والوقوف على جبل عرفات يوم تاسع شهر حجّة، وهنا ينبغي أن نشرح لكم أنّ كلّا من هذه الاجتماعات الثّلاثة يفوت منه المقصود الذي وضع لأجله ذلك الاجتماع، وهو عبادة الله تعلى وحسب، إذا تدخّلته غاية أخرى، فالسّياسة والتّجارة وجميع المصالح الدّنياوية لا نصيب لها من الجامع، والعبادة عندنا تجري حسب قواعد أحد مذاهب السّنّة الأربعة، وبتونس خصيصاً لا يوجد منها إلا مذهبان، مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان، وبه يتمسّك آل البيت الحسيني الرّفيع العماد، وأعقاب الأتراك الفاتحين الذين حكموا تونس في القرن الحادي عشر للهجرة (السادس عشر للميلاد)، ومذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس الذي يغمر تسعة أعشار مسلمي الإيالة التّونسية، وإمام المذهبين بالنّسبة لهذه الدّيار هو المقام الملوكي المؤيّد بالله.

وأراني قد استوفيت تلخيص الحديث على جامع الزّيتونة من حيث هو بيت عبادة، فلننتقل من ذلك للكلام عليه بصفته كلّية جامعة لتعليم علوم الدّين والعربية، وسرعان ما نقول لكم إنّ شهرة هذه الجامعة الإسلامية



صومعة جامع الزيتونة

تتجاوز بمراحل حدود بلادنا المحبوبة، لأنّ جامع الزّيتونة هو أقدم المعاهد العربية الثّلاثة الموجودة بشمال إفريقية، والمعهدان الآخران هما: جامع القرويين بفاس، وهو من مآثر المحسنة فاطمة أمّ البنين، أصيلة مدينة القيروان، والجامع الأزهر الشّريف الذي لا يقلّ عدد طلبته عن أربعة عشرة ألف تلميذ، والذي هو باتّفاق في مقدّمة النّهضة الفكرية بعموم بلاد النّاطقين بالضّاد. أمّا جامع الزّيتونة فيبلغ عدد تلامذته لثلاثة آلاف طالب، وجامع القرويين لا تضمّ عرصاته إلا نحو ألف طالب، وتلامذة الكلّية الزّيتونية خاضعون لنظام شديد الوطأة، لا يعرفون غير المطالعة والقراءة من الصّباح إلى المساء، وأكثرهم من أبناء الآفاق التونسية، أمّا رفقاؤهم أبناء الحاضرة، فسكناهم بديارهم، وأمّا التّلاميذ الأفاقيون فمساكنهم بالمدارس، وهذه المدارس التي هي من مآثر أهل البرّ - تقبل الله سعيهم - أقدمها المدرسة الشّمّاعية التي ظهرت في أوائل القرن السابع للهجرة، وظهرت معها في عصر واحد المدرسة التوفيقية، أسّستها امرأة نصرانية بعد اعتناقها للإسلام وتزوّجها بالسّلطان أبي زكرياء يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص، وعلى رأس كلّ مدرسة شيخ بعهدته السّهر على سير أحوال المدرسة حسب التّراتيب الرّسمية، وتوزيع بيوت المدارس على مستحقّيها موكول بأمانة مجلس تابع لمشيخة التّعليم بالجامع، ومن المتّفق عليه أنّ العيش بهذه المدارس عيش زهد وقناعة، لأنّه لا يتناوله شيء من التوسّعات الدنياوية، فقراءة الجرائد، والكلام في السّياسة، والاشتغال باللهو واللعب، لا رواج لها بالمدارس مطلقاً، وعلى التّلميذ معالجة غذائه بنفسه في الأغلب، وإذا تمكّن من اجتراع كأس أو اثنين من التّاي، فذلك منتهى نواله.

أمّا دراسة العلوم بجامع الزيتونة، فقد ابتدأت ضئيلة حوالي القرن الثالث للهجرة الشّريفة، ولكنّها ما لبثت حتّى أثمرت وسايرت كلّيات قرطبة وبغداد والقيروان، وناهيك بأقطاب العلم الذين أنبتتهم رياض جامع الزّيتونة، منهم المؤرّخ ابن خلدون صاحب الشهرة العالمية، والإمام محمد بن عرفة وكفى بفقهه حجة، وليس هما بالقطبين الوحيدين بتونس بل تجدون ذكر

غيرهما ممّن هم ليسوا بأقلّ شهرة منهما في العلم والأدب والحكمة بكتب نبغاء المستشرقين والمستعربين، كالعلاّمة (دي ساسي) (DESACY) صاحب شرح المقامات الحريرية الموجودة منه نسخة بخزانة جامع الزيتونة، ومعلومكم أنّ هذا المستعرب الطّائر الصّيت ترجع إليه مزيّة تأسيس دراسة العربية بفرانسا.

هذا وقد ذاق جامع الزّيتونة مرارة الهوان أثناء احتلال الإسبان لتونس وحلق الوادي، فقد نقل المؤرّخون، ومنهم ابن أبي دينار، أنّ عساكر الإسبان مزّقوا كتب الجامع كلّ ممزق، وداسوها بسنابك خيولهم خلال شوارع تونس، بحيث لم يبق منها شيء يذكر في المائة العاشرة وما بعدها، ورأيت بكنّاش للشيخ الجدّ ـ طاب ثراه ـ وكان من الشّيوخ المشرفين على أحوال الجامع في أواسط القرن الماضي، أنّ مكتبة جامع الزّيتونة لم يكن بها في زمنه إلاّ نحو عشرين مجلّداً، بقيّة من خزائن سلاطين بني أبي حفص التي كانت تشتمل على أكثر من ثلاثين ألف مجلد مخطوط باليد، ولكنّ تونس وضعتها الأقدار في موقع وسط بين المشرق والمغرب، فكانت حاضرتها حول العصور ملتقى أهل التّفكير والإنتاج، كما هو حالها اليوم، وفي هذه الكرّة كان إحياء دراسة العلم بعناية ملك غيور مصلح من ذرّية المولى حسين بن علي ـ طاب ثراه ـ ونعني به المشير أحمد باي الأوّل، فهذا الملك صاحب الشّهرة المطبقة، كان من المعجبين بالعبقرية الفرنسوية، وقبل أن يسعى في سنة 1262 (1846) للميلاد لزيارة حبيبه وحليفه الملك (لويس فيليب) بباريس ردّاً للزيارة التي تلقّاها بباردو من الأمراء أبنائه في السّنة قبلها، جعل في مقدّمة مشروع الإصلاح الذي أنجزه بمملكته، ترتيب الجنود، وإحياء خزانة الكتب بجامع الزّيتونة، وتأسيس دراسة العلم بتونس، بحيث إنّ مكتبة الجامع بأقسامها تشتمل في الوقت الحاضر على نحو عشرين ألف مجلّد[4] منها خمسة آلاف

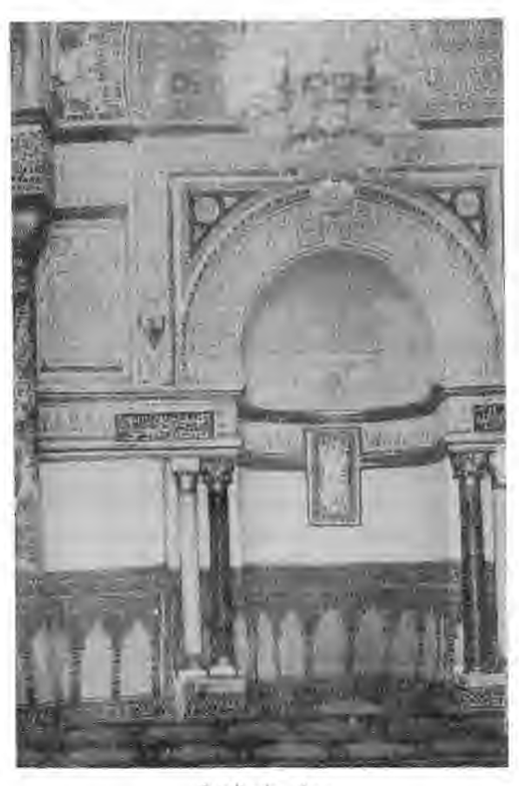
(4) [كانت توجد بجامع الزّيتونة مكتبتان هما: المكتبة الأحمدية التي أسّسها أحمد باشا باي الأوّل في سنة 1840، والمكتبة العبدلية أو الصادقية التي أنشئت منذ العهد الحفصي، ثمّ جدّد =

بعنوان الطّلبة وفقاً لإرادة المقدّس المبرور المولى محمد الحبيب باي، مؤسّس فرع الجامع اليوسفي الذي عزّزه حضرة وليّ النعّم سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي بفرع آخر بالجامع الحفصي، أمّا بقيّة الكتب الموقوفة على خزانة جامع الزّيتونة، فأغلبها مخطوط باليد، ويوجد ضمنها كتب نادرة لا تقدّر بمال، كتفسير ابن سلاّم المكتوب على رقّ الغزال في المائة الثالثة للهجرة الشّريفة.

والتّعليم بجامع الزّيتونة أساسه القرآن والسّنّة، أمّا القرآن، فهو كلام الله القديم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾، نزل به جبريل الأمين على قلب سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وبه يؤمن المسلمون قاطبة، وأمّا السّنّة، فهي مجموع الأحاديث النّبوية الواردة في الصّحاح، وهي شاملة لسيرة رسول الله، ولتاريخ حياته، ومعلوم أيّها السّادة الأعزاء، أنّ القرآن الكريم هو دستورنا الدّيني والاجتماعي، ولأجل ذلك كان أمراء المسلمين بيدهم مصالح أممهم الدّينية والدنياوية معاً، فصاحب السموّ الملوكي باي تونس المعّظم، هو صاحب الولاية العامّة الذي بيده حقّ الإشراف بالنّصّ الشّرعي على مصالح رعاياه المطيعين من الوجهتين الدّينية والسّياسية، وهذه القاعدة مستمّدة في أصلها من نظام الخلافة، والخليفة هو إمام المسلمين، فهو بابا المؤمنين بالله وبرسوله، ولكنّه غير البابا عند النّصارى، لأنّ سلطة زعيم النّصرانية روحية فقط، وسلطة الخليفة عند المسلمين روحية وزمنية. نعم إنّ الخليفة لا وجود له في هذا الزّمان، ولكن للمسلم أن يكون مسلماً بتمام المعاني، رغم فقدان الخليفة، لأنّ الإسلام لا يقتضي وجود واسطة بين الخالق جلّ جلاله، وبين مخلوقاته، ولست أنا الآن بصدد القيام بدعاية أو بالتّبشير لفائدة الإسلام، بل أنا في مقام التّعريف بمعنى الإسلام السّمح وحسب.

ولنرجع بكم لحديث التّعليم بالجامعة الزيتونية فنقول: إن المقصد منه

= رصيدها الوزير خير الدين باشا في سنة 1875، وبمقتضى أمر رئاسي مؤرخ في 1967/9/7 تمّ نقل جميع مخطوطات المكتبتين المذكورتين إلى دار الكتب الوطنية بتونس].



محراب جامع الزيتونة

هو تعليم أبناء المسلمين ما لهم وما عليهم، وهذا التّعليم ينقسم لفرعين كبيرين، تعليم علوم الشّريعة، وتعليم العلوم الوضعية، أمّا علوم الشّريعة فهي: تفسير القرآن، والقراءات، والحديث، والتّوحيد، والفقه، والفرائض، والكلام، والتّصّوف، وغير ذلك. وأمّا العلوم الوضعية فهي: النّحو، واللّغة، والمعاني، والبيان، والأدب، والشّعر، وآداب البحث، والمنطق، والتّاريخ، والجغرافية، والحساب، والمساحة، والهيأة، وغير ذلك. وكلّ واحد من هذين التّعليمين يجري في ثلاث درجات: ابتدائية، ووسطى، وعالية. فالدروس الابتدائية تزاول بفرعي الجامع، وتمكّن مزاولها من الحصول على شهادة ابتدائية تسمّى «الأهلية»، وتعليم الدّرجة الثانية يمكّن مزاوله من شهادة تسمّى «التّحصيل». والتعليم العالي ينتهي بالحصول على شهادة «العالمية» وكلّ هذه الشّهادات تمنح لأصحابها بالامتحان العمومي، كتابي وشفاهي، والجلسة الختامية للامتحانات السّنوية تزدان بحضور جناب المولى الوزير الأكبر، وأهل الحّل والعقد، ورجال الشّرع المطهّر، والعلماء، والأعيان.

والتلاميذ المحرزون على شهادة العالمية لهم الحقّ في طرق أبواب الوظائف العامّة، فالذين زاولوا علوم الشّريعة لهم أن يتقدّموا لخطط العدالة، والإمامة، والقضاء، والفتوى، إلخ... والنّابغون في العلوم الوضعية لهم حقّ الانخراط في سلك الوظائف بالإدارات، وبالمجالس العدلية، وبالأعمال، والوكالة[5] إلخ. أما ولاية التّدريس بجامع الزيتونة، فهي رهينة الشّغور بإحدى رتب التّدريس التي يبلغ مجموعها المائة وأربعة عشر، مناطة بمعرفة مائة وأربعة عشر من العلماء الأعلام، يباشرون مأموريتهم تحت رقابة فضيلة شيخ الجامع، وشيخ الجامع يعضده في مهمّته شيخان من خيرة المدرّسين الأوّلين، يعينهما لذلك المولى الوزير الأكبر الذي من وظائفه الإشراف العام على التعليم الإسلامي بالإيالة التونسية، ورتب التّدريس بالجامع تندرج في أربع طبقات، طبقة استثنائية، وهي رتبة الأستاذية، لها شبه برتبة «الأقريقاسيون» (agrégation) بالجامعات الأروباوية، وعدد أهل هذه الطّبقة

(5) [الوكالة بمعنى المحاماة].

الممتازة ثمانية، نصفهم من الأحناف، ونصفهم من المالكية، وطبقة أولى تضمّ ثلاثة وعشرين مدرّساً، ثم ثانية يقوم بها واحد وعشرون مدرّساً، فثالثة منوطة بستّين مدرساً، وهؤلاء الستّون، هم المباشرون للتّعليم الابتدائي بالجامع وفروعه، ويضاف إلى هؤلاء معلّم الخطّ، ومعلّم الميقات، ومعلّم الصّحّة.

هذا وتبلغ أعداد الدروس لخمسين درساً في التعليم العالي، ولمائة وثمانين درساً في تعليم الدرجة الثانية، ولأربعمائة درس في تعليم الدرجة الابتدائية. وحيث كان عدد المدرّسين مضبوطاً بالصفة التي ذكرناها، فكلّ شغور يحدث بإحدى طبقات التّدريس، يجبر فراغه بالمناظرة بين مدرّسي الطّبقة التّالية، أمّا مدرّسو الطّبقة الثالثة، فإنّهم يؤخذون بالامتحان من بين المحرزين على شهادة العالمية. ومدرّسو الطّبقتين الاستثنائية والأولى، هم الذين ينتخب من بينهم شيوخ الفتوى والقضاء بديوان الشّرع المطهّر، وأهل الشّرع هم المؤتمنون على كتاب الله وسّنة رسوله، بصفتهم أيمّة للدّين وحكّاماً بما أنزل الله تعلى، وهذه الصّفة الشّريفة تجعلهم في صفّ أهل الحلّ والعقد الذين يحضرون بيعة الأمير وتنصيبه في العرش الحسيني. وانتخابهم للخطّة الشّرعية الحنيفة من حقوق المولى الأمير بالّذات، إذ هو الذي يقدّمهم للفتوى والقضاء نيابة عن سموّه، وشيوخ كلّ مذهب يتقدّمهم رئيس منهم، يلقّب بشيخ الإسلام، وهذا أعظم الألقاب الدينية عند المسلمين. وقد امتاز في هذين القرنين اثنان من بيوت العلم بتونس بتكرّر ولايتهم مسند المشيخة الإسلامية، وهما البيت البيرمي، والبيت الخوجي. وبديهيّ أنّ أهل المجلس الشّرعي، هم الممّثلون لأرفع هيأة إسلامية في المجتمع التّونسي، وعددهم اثنا عشر فقيهاً، ستّة من الحنفية، وستّة من المالكية، وللأولين حقّ الأسبقية في المواكب الرسمية باعتبار أنهّم متمذهبون بمذهب صاحب التّاج الوّهاج، وفيما عداه فالمساواة جامعة لشيوخ المذهبين في المرتّب والرّتبة والاعتبار، وحضراتهم يباشرون وظائفهم العالية نيابة عن سموّ المولى الأمير، الذي هو قاضي القضاة وإمام رعيّته قاطبة، وإذا اختلف

الشّيوخ في الرّأي، فالقول الفصل من حقوق سموّه الملوكي، وعليهم السّمع والطّاعة.

وختاماً أقول لكم، إنّه يوجد بالعمالة التونسية خمسة فروع أفاقية لجامع الزّيتونة، أهمّها: فرع مدينة صفاقس، وبه توجد مكتبة عامرة من حسنات حضرة وليّ النّعم سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي دام له العزّ والبقاء، وبقيّة تلك الفروع هي: فرع جامع عقبة بن نافع بالقيروان، وفرع مدن سوسة، وقفصة، وتوزر، وزيادة على ذلك يوجد فرع زيتوني آخر لتعليم اللّسان الفرنساوي ومبادىء العلوم الرّياضية لطلبة جامع الزيتونة، وهو معهد ابن خلدون الذي أحدثته دولة الحماية في سنة 1896، بمساعي جميل الذّكر الوزير (مسيو ريني ملي) المقيم العام الأسبق (Louis René MILLET).

وهنا انتهى بنا الحديث في الموضوع الذي دعيت لبسطه لديكم أيها المستمعون الكرام، ولي منكم المعذرة عمّا ارتكبته من التّطويل الذي تكلّ منه الهمم، ولكم منّي تحيّة طيّبة معزّزة بشواهد الإعزاز والاحترام(*).

(*) المجلّة الزيتونية ـ الجزء 10 ـ المجلد 4 (جويلية 1941).



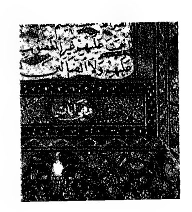
جامع الزيتونة: بيت الصلاة

خزائن الكتب
بجامع الزّيتونة

(1)

اعلم أنّ عناية المسلمين بالكتب والتّرجمة والتّدوين، كان ظهورها أوّلاً في مبادىء الدّولة العبّاسية على يد الخليفة أبي جعفر المنصور، وفي مدّة هارون الرّشيد وجد بيت الحكمة ببغداد، وهو عبارة عن مدرسة للتّرجمة ونساخة الكتب، وكان ازدهارها في زمن ابنه عبدالله المأمون، وفي عنفوان الدّولة كانت لهم خزانة كتب فيها ما لا يحصى من الأسفار، أكلتها النّيران فيما روي بإيعاز من الصّاحب بن عبّاد لاحتوائها على النّسخة الوحيدة الموجودة بالعالم الإسلامي من تفسير الأشعري المسمّى بالمختزن، وهو في خمسمائة مجلّد، قالوا إنّه بذل في ذلك عشرة آلاف دينار لحافظ تلك الخزانة ليلقي النّار في كتبها نكاية في تفسير الأشعري المشار إليه، وكان لمشاهير العلماء والأدباء في ذلك العهد من خزائن الكتب ما يضارع المكاتب العمومية، فقد بلغت كتب الصّاحب بن عبّاد المتقدّم ذكره إلى حدّ أن يحتاج في نقلها إلى أربعمائة راحلة.

ومن خزائن الكتب العّامة التي اشتهرت في تلك الأزمان، خزانة الأمير نوح بن نصر السّاماني في المائة الرّابعة، وممّن انتفع بكتبها الشّيخ الرئيس ابن سينا، وعاصرتها مكتبة الوزير (سابور بن أردشير) ببغداد، كان بها أكثر من عشرة آلاف مجلّد، منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة، وهذه الخزانة أفنتها النّار في سنة 451 [1059] واعتبر ما حكاه ياقوت الحموي عن نفسه في



كتابه معجم البلدان حيث قال حاكياً عن مدينة مرو ما ننقله عنه بحروفه: «فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدّنيا مثلها كثرة وجودة». ثم وصف أولاها ثم الثّانية، وقال: «كان بها اثنا عشر ألف مجلّد ثمّ البقيّة» ثم قال: «وكانت سهلة التّناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلّد وأكثره بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبّها كلّ بلد، وألهاني عن الأهل والولد، وأكثر فوائد هذا الكتاب (معجم البلدان) من تلك الخزائن». وتنافس ملوك المسلمين في تلك النّهضة العلميّة فكان منها لأمراء الأندلس بالمغرب ما لبني العبّاس بالمشرق. ومن ذلك مكتبة الحكم بن النّاصر بقصر الزّهراء بلغ فهرسها إلى 44 مجلّداً، وبلغت كتبها إلى أربعمائة ألف مجلد، وكان بغرناطة وحدها سبعون مكتبة عمومية عامرة بنفائس الكتب التي جعلها (الملك فردينانـد الخامس) (شهـر الكاثليكي لتحمّسه في النّصرانية) من نصيب النّار إثر سقوط دولة الإسلام بالأندلس. قالوا إن ما أحرقه فرديناند بجهله وحمّيتـه الدّينيـة تجاوز ألف ألف من المجلّدات المخطوطة بالقلم، فيا لها من معرّة في وجه تاريخ الإنسانية.

ومعلومك أنّ من بلاد الأندلس كان إشراق شموس العلم، وقد بلغت أشعّتها لهذه الدّيار في عهد بني الأغلب أمراء القيروان، فرحل من رجالها جمـاعة في طلب العلم، منهم أسـد بن الفرات، وعبـدالله بن غـانم، وسحنون، وعند رجوعهم لإفريقية أخذ العلم في الظّهور والانتشار، كما

ظهرت أوّل مكتبة عمومية بالقيروان، وكان بها من نفائس الكتب ما لا يقدّر بمال، وأغلبها منسوخ على رقّ الغزال، ومنها المصاحف الجليلة المزركشة والمزوّقة بالذّهب الوهّاج، منها مصحف فاطمة حاضنة باديس، وما زالت منها بقيّة بجامع عقبة بن نافع لهذا اليوم[1]. أمّا هذه الخزانة القيروانية فقد ذهبت شذر مدر أثناء الفتن التي تناولت مدينة القيروان في القرنين الرّابع والخامس، ثم أجهزت على البقيّة الباقية منها فتنة دخول مراد أبي بالة في سنة 1111 [1699] للقيروان، وفتنة حصارها من الباشا علي بن محمّد للإجهاز على عمّه المولى حسين بن علي باي في سنة 1153 [1740].

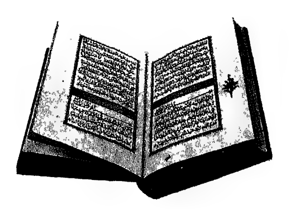
وأمّا خزائن الكتب بمدينة تونس، يعني بجامع الزّيتونة، وهي المقصودة بالذّات من هذه النّبذة التاريخية، فأوّل ما ظهر من ذلك الخزانة العامّة التي أحدثها أبو فارس عبد العزيز الحفصي في سنة 797 [1395] وجعلها بالجامع المذكور بمجنبة رصد الهلال، وعلى قياسه جرى عمل حفيده السّلطان أبي عمرو عثمان، فقد أضاف في سنة 839 [1435] لخزانة جدّه خزانة أخرى مشتملة على أهمّ الكتب، وضعها بالمقصورة الشّرقية بالجامع، وتعرف بمقصورة سيّدي محرز بن خلف، ثمّ تلاه حفيده أبو عبدالله محمد بن الحسن بن محمد المسعود، فأسّس في أوائل المائة العاشرة المكتبة المعروفة بالعبدلّيّة التي سيأتي الكلام عليها، وجعلها بالرّواق الشّرقي بالجامع، مشرفة على جهة سوق العطّارين. وجميع هذه الخزائن الثّلاث عبثت بها الأيّام أثناء الاحتلال الإسباني لتونس في عام 980[1572] قالوا إنّهم مزّقوها كلّ ممزّق حتّى كانت تباع بأبخس الأثمان، أو تدوسها سنابك خيولهم المرابضة بصحن جامع الزّيتونة. فقد ذكر بعض المؤرّخين أنّ المارّ حول الجامع من جميع جهاته لا تكاد تقع قدمه على غير الكتب، فبادت جميع

(1) [بمقتضى الأمر المؤرخ في 1967/9/7 تمّ نقل رصيد مكتبة القيروان إلى دار الكتب الوطنية بتونس، وفي المدّة الأخيرة قرّرت وزارة الشّؤون الثقافية نقل ذلك الرصيد إلى المعهد الإسلامي برقّادة (القيروان)].

الكتب وتلاشت ولم يبق منها بالجامع إلّا بضع نسخ من صحيح الإمام البخاري، وأمسى العلم بتونس كشمس على مغيب حوالي القرن الحادي عشر. وممّا زاد نجمه أفولاً تعاقب الأوبئة في ذلك العهد منها وباء عام 1100 [1688]. قال الوزير السراج[2]: إنّ العلم انقطع من تونس بذلك الفناء المتعاقب وذلك من بقيّة الأسباب التي أتت على ما تركته أيدي الفتن والسّرقة، لأنّ الكتب لا تعيش طويلاً بين غير أهل العلم.

ولمّا أردا الله إخراج هذه الدّيار من ظلمات الجهل الذي أرخى عليها سدوله في تلك العصور، أشرقت عليها شمس البيت الحسيني، فتوجّهت عناية الباي حسين بن علي تركي، رأس العائلة الحسينية إلى بناء المدارس، ونسخ الكتب، لا سيما كتب الفقه، واجتهد في ذلك لحدّ تكوين خزانة معتبرة، وقفها على المحكمة الشّرعية بتونس، منها نسخة المدّونة المحفوظة الآن بالمكتبة العبدلّية، وفاقه في هذا الميدان حفيده للأخ الأمير العالم الباشا علي بن محمد صاحب النهضة العلميّة، إذ أرسل للأستانة مفتي دولته الشّيخ حسين البارودي، لاشتراء أكثر ما يمكنه اقتناؤه من أحسن الكتب وأبدعها خطّا وتزويقاً وتذهيباً، جمعها بمكتبته التي جعلها بمسجد بيت الباشا بباردو، وكان في جملتها من الكتب النّادرة إذ ذاك حواشي الكشّاف التي لم تكن موجودة قبل ذلك بين أهل العلم بتونس، كما أسّس الباشا المذكور مكاتب أخرى بمدارس الطّلبة للمعلّمين والمتعلّمين، فكان هذا الأمير الذي خلط في مدّته عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، هو أبو النهضة العلميّة الأولى في العصر الحسيني، إلّا أنّ كتبه تلاشى منها الكثير بامتداد يد النّهب إليها من باي قسنطينة، الذي شارك في النّزاع الحاصل بيبن الباشا المذكور، وبين ابني عمّه محمد الرّشيد باي، وعلي باي، اللذين استرجعا منه بالقوّة القاهرة ملك أبيهما المغصوب في سنة 1169 [1755]، وفي خلالها كان مصرع الباشا

(2) [الوزير السّرّاج محمد بن محمد الأندلسي: «الحلل السّندسية في الأخبار التّونسية» (3 أجزاء) - تحقيق الحبيب الهيلة - دار الغرب الإسلامي - بيروت - 1985].



المشار إليه. قال شاعرهم:

وأمسى دفينا بعد أن كان دافنا فقلت وقد أرّخته دفن الباشا
[1755] 1169

ويستفاد من فهرس قديم موجود بمحفوظات الدّولة التّونسية، أن الكتب التي كانت بمسجد بيت الباشا بقصر باردو عند صعود المرحوم محمود باي على الأريكة الحسينية في سنة 1230 [1814] كانت جملتها (2726) مجلّداً، وكان الأمراء يتفاخرون بها بين أهل العلم، فقد كان الباي حسين بن محمود باي، وأخوه مصطفى باي بدوره، يشيران على شيوخ المجلس الشّرعي عند اجتماعهم بمجلس الباي في قصر باردو، بمراجعة ما شذّ من كتب الفقه لديهم بمكتبة مسجد بيت الباشا عند حصول خلاف بين الشّيوخ، أو عند الحاجة للوقوف على عبارة نصّ بعينه.

هذا ولمّا كان النّاس على دين ملوكهم، اقتدى بصنيع ملوك البيت الحسيني، وزراؤهم، ومنهم أبو المحاسن يوسف صاحب الطّابع، فقد أحدث مع جامعه بالحلفاوين، خزانة عامرة بأنفس الكتب في شتّى العلوم، وممّن استفاد من كتبها شيخ الشّيوخ، وطود الرّسوخ، الشّيخ إبراهيم الرّياحي، قدّس الله روحه.

أمّا جامع الزّيتونة الذي فارقناه على حالة الفراغ التي كان عليها أواخر المائة العاشرة، واستمرّ كذلك حتى القرن الثاني عشر، فقد كساه ثوب العلم

والفخار، الأمير المشير أحمد باي الأول، إذ وفّقه الله لتأسيس دراسة العلم به، مع تعميره بخزائن الكتب النّافعة، صدر منه ذلك في سنة 1256 [1840] بما أطلق ألسن العلماء والشّعراء بالثّناء عليه، والحمد لله والشّكر إليه، وخطب بذلك على رؤوس المنابر، تنويهاً بشأنه بين القابل والغابر، ومن ذلك ما خطب به بركة القطر، أبو إسحاق إبراهيم الرّياحي على منبر جامع الزّيتونة، وهي خطبة أمست وثيقة تاريخية، ننقلها هنا إتماماً للفائدة ونصّها:

«الحمد لله الذي رفع للذين أوتوا العلم درجات، لما خفض لأهل الجهل دركات، ﴿أفمن جعلنا له نوراً يمشي به في النّاس كمن مثله في الظّلمات﴾، أحمده وحمده من جملة ما به أنعم، وأشكره على ما علّمنا ما لم نكن نعلم، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة رفع العلم قواعدها، وأسّس اليقين براهينها وشواهدها، وأشهد أنّ سيّدنا ومولانا محمّداً عبده ورسوله المصطفى المختار، الذي أرسله بنور يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب اللّيل والنّهار. أيّها الناس! ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكّر أولوا الألباب﴾، ألم تعلموا أنّ الجهل نعت الخلق والعلم وصف ربّ الأرباب، ألم تعلموا أن أبانا آدم فضّل بعلم الأسماء، وأمر بالسّجود إليه ملائكة السّماء والعالم الأسمى، ﴿وقالوا نحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾، ألم تعلموا أنّ الدّين علم وعمل، فمن لم يكن له علم فعلى أيّ شيء حصل، أيظنّ الجاهل أنه ذو بصر نافذ في الأمور، كلاّ بل هو رجل أعمى مغرور، ﴿فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصّدور﴾، وحيث كان العلم بهذا الشّرف الأثيل، والرّتبة العليا التي ليس لها مثيل، فما للهمم متقاصرة عن استطلاع طوالع أنواره، وما بال العزائم متقاعدة عن استكشاف خبايا أسراره، أخور في الطّباع، أم فقد لموادّ الانتفاع، كيف وقد تيسّرت في هذا الزّمان المبارك أسبابه، وفتحت للمعلّمين والمتعلّمين أبوابه، وتضوّعت في بيت الله أعطاره، وطلعت فيه شموسه وأقماره، وذلك بهّمة الملك الهمام الخطير، الباي أحمد باشا المشير، الذي

وسع الجمّ الغفير، بالعطاء الكثير، ليجد ثوابه عند الله مدّخراً، يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً، واعلموا أنّ العلم النّافع ما قارنه الإخلاص في التّعلّم والتّعليم، والعمل بما يحكم به من التّحليل والتّحريم، وإلاّ كان جديراً بأن ينبذ بالعراء وهو سقيم، وقد مثّل العلماء العلم النافع بشجرة ثابتة الأصل حلوة الثمرة يستريح برائحتها المحزون، ويستلذّ طعمها الآكلون، وغيره بشجرة ما لها قرار، خبيثة الرائحة مُرَّة الثِّمار، يستمجّ رائحتها المستنكهون، ويستبشع مذاقها الطّاعمون، ﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلاّ العالمون﴾. في الحديث الشّريف أنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال: العلماء ورثة الأنبياء. وقال صلّى الله عليه وسلّم: يستغفر للعالم أربعة أشياء، الملائكة في السماء، والطّير في الهواء، والدّوابّ في القفار، والحيتان في البحار. وقال صلّى الله عليه وسلّم: فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة. وعن أبي ذرّ رضي الله عنه: حضور مجلس عالم خير من صلاة ألف ركعة ومن عيادة ألف مريض ومن شهود ألف جنازة. قيل يا رسول الله، ومن قراءة القرآن؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم: وهل ينفع القرآن إلاّ بالعلم. جعلني الله وإيّاكم ممّن علم وعمل وأخلص الله فقبل. ألا إنّ أنفع ما تنشرح به الصدور، وأصدق حديث منطوق ومسطور، كلام مولانا الغفور الشّكور، أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء إنّ الله عزيز غفور﴾ اهـ.

وقد وصف المؤرّخ الوزير الشّيخ أحمد بن أبي الضِّياف هذه المنقبة المشيريّة الأحمديّة بقوله: «يا له من عمل ذلّل صعاب العلوم وراضها، وأنشأ حدائقها ورياضها، وأجرى جداولها وحياضها، وأصاب شواكلها وأغراضها، نسج على أعزّ مثال، انهلّ به ودقّ العلم وانثال، وسرى ذكره مسرى الأمثال»[3] (*).

(3) [الإتحاف - ج 4 ص 50].

(*) المجلّة الزيتونية - المجلد 1 - الجزء 2 - (أكتوبر 1936).

(2)

إنّ هذه النّهضة المباركة هي النّهضة الثّانية بالعصر الحسيني، إذ بها استدرك المشير أحمد باي الأوّل ما درج عليه سلفه من الانتصار لجانب العلم وأهله. ولقد تسلسلت أشعّة أنوارها بالدّيار التّونسية، فأولـدت **المدرسـة الصّادقية**[4] التي جاءت بكلّ نتاج خصيب. أمّـا تعمير المشير المشار إليه لجامع الزّيتونة بخزائن الكتب التي نوّهنا بشأنها، فقد كان تكوين ذلك بجمعه للكتب الموجودة بمسجد بيت الباشا بباردو، وأضاف لها كتب الوزير حسين خوجة باش مملوك التي باعها عليه دائنوه، اشتراها بريالات (28917)، ثمّ أضاف لها بعد ذلك ما أمكنه اقتناؤه من الكتب على التّوالي، ومن ذلك خزانة كتب الشّيخ إبراهيم الرّياحي بعد وفاته في سنة 1266 [1849] وأوقع بها تحبيساً وجعل ثوابها في صحيفة الشّيخ المذكور. وهذه الكتب الرّياحية هي أنفس قسم اشتملت عليه المكتبة الأحمديّة لأنها جمعت بين النّفائس والنّوادر المغربيّة والمشرقيّة ممّا اختاره الشّيخ رضي الله عنه بنفسه في رحلته لفاس سنة 1218 [1803]، وللأستانة سنة 1254[1838] فصار الجميـع (2696) مجلداً، زيّن بها صدر الجامع، وجعل نظرها لشيخي الإسلام، بإعانـة القاضيين الحنفي والمالكي. وكان نظّار الجامع يومئذ أي في سنة 1256 [1840] هم: الشيخ محمد بيرم الثّالث، والشيخ إبراهيم الرّياحي، والشيخ محمد بن الخوجة، والشيخ محمد بن سلامة، وسوّغ إعارتها لأهل العلم على شروط، وأقام لها وكلاء وحفظة. ثمّ لمّا تأخّر الوزير مصطفى خزندار عن الوزارة الكبرى في سنة 1290 [1873] وكان مستغرق الذّمّة للدّولة، كان في جملة ما صالح عليه من المال خزانة كتبه النّفيسة المشتملة على الكتب الغريبة والنّادرة، ذات الإبداع في النّسخ والتّزويق والتّذهيب، وكان في جملتها كتب المرحوم الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضّياف الذي باعها في قائم حياته، وجملتها (1798) مجلّداً ألحقها المشير محمد الصّادق بـاي

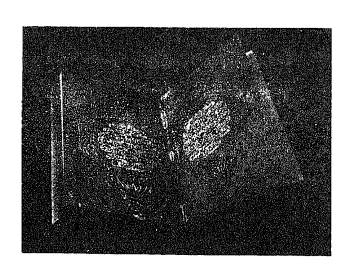
(4) [تأسّست المدرسة الصّادقية سنة 1875 في عهد الوزير المصلح خير الدين باشا ـ (انظر الفصل الموالي)].

بالتّحابيس المتقدّمة من ابن عمّه المشير الأوّل أحمد باي، واقتدى بصنيعه المأثور أخوه صنو الشّجرة الحسينيّة المولى علي باي الثالث، إذ خصّص من خزانته العامرة ثلاثمائة كتاب بنيّة التّحبيس على الجامع، تمّت عقدة تحبيسها على يد ابنه المقدّس المولى محمد الهادي باي، حسبما سيأتي الكلام عليه عند التّعريف بالمكتبة العبدلية.

وهذه الكتب تضمّنت عيوناً ونفائس، منها. كنّاشات شيخ الإسلام العلاّمة الشيخ أحمد كريم. وديوان شعره الرّقيق، وبعض شرحه على منن المحبّبة في الفقه الحنفي، والبعض الآخر استأثر به جامع عقبة بن نافع بالقيروان في جملة التّحابيس الصّادرة من المولى محمد الهادي باي المتقدم ذكره على مكتبة هذا الجامع. وهنا يتبادر للذّهن بأن من مصلحة المعلّمين والمتعلّمين، الجمع بين هذين القريبين الشّتيتين، إمّا بضمّ ما بجامع القيروان لجامع الزيتونة، أو العكس وأوّل الوجهين أولى، لانتظام دراسة الفقه الحنفي بتونس دون غيرها من بلدان المملكة، ولأنّ الشّرح المتحدّث عنه لم يمثل للطّبع، ولا توجد منه غير النّسخة الوحدة المنقسمة بين تونس والقيروان، فجمع شتاتها لا يمكن أن يكون إلاّ حسنة تسنمدّ من الأقدار كتابتها في صحيفة من يهمّهم أمر الجامع. قال الشّاعر.

وَقَدْ يَجْمَعُ الله الشَّتِيتَيْن بَعْدَمَا   يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أنْ لاَ تَلاَقِيَا

هذا وقد اقتدى بصنيع من تقدّم من المحبّسين السّابقين غيرهم من المحسنين، كالوزير محمد خزندار المتوفى عام 1306 [1888] إذ وقف على الجامع خزانتين عامرتين بالكتب المعتبرة، منها دائرة المعارف لبطرس البستاني، كما أنّ الوزير مصطفى بن إسماعيل حفظ له التّاريخ حسنة كلّلت مدّة صولته وجولته بالبلاط الصادقي، حيث اشترى كتب الفاريق عصمان أمير عساكر المنستير وأضافها لما تقدّمها من التّحابيس على جامع الزّيتونة. وتوفّق بعض العمّال الأقدمين للتّحبيس أيضاً على خزانة الجامع، كالمرحوم القائد إبراهيم بن عبّاس الرّزقي، حيث ألحق بالخزانة المذكورة مكتبته الخاصّة،



وعلى ذلك المنوال جرى عمل بعض الأعيان التّونسيين، منهم: المرحوم الشيخ المختار بن عمر شهر قابادو، حيث أوصى بإضافة ما انجرّ له من كتب متبنّيه المفتي الشيخ محمود قابادو الشّريف، للتّحابيس المتقدّمة. ومعلوم أنّ كتب الشيخ قابادو كانت كلّها عيوناً، نعم إنّ ورثته عارضوا يومئذ في صحّة تلك الوصّية، ولكنّهم ما لبثوا أن ركنوا لقبول صلح في النّازلة، وتمّ إنفاذ تلك الوصّية لفائدة خزانة الجامع، وكتب نصّ الصّلح المشار إليه على ظهر أحد تلك الكتب، وهو كتاب الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي، وتوالت تحابيس الأفراد من الحاضرة وخارجها ابتغاء الثّواب، وحسن المثاب، إلى أن بلغ جملة ما بخزانة الجامع الأحمدّية ليومنا هذا من عيون التّصانيف، وأغلبها مخطوط باليد إلى (7833) مجلداً، وهذا العدد ينبغي أن يضاف له كتب المكتبة الفرعية التي أسّست بالجامع لفائدة طلبة العلم في سنة 1344 [1925] بمساعي جميل الذّكر المولى محمد الحبيب باي، وجملتها (6377) جزء كلّها كتب دراسية، من طبع مصر والمشرق، تطوّعت الدّولة التّونسية بدفع ثمنها من الميزانية العمومية.

واستفدنا من المصادر الوثيقة أنّ مشيخة الجامع الجليلة ما زالت همّتها منصرفة نحو التّوسيع والتّوفير في هذه الخزانة الدّراسية لفائدة طلبة العلم، وأنّها حصلت على وعود من الدّولة في مديد الإعانة لها في ذلك، الأمر الذي

لا يسع كلّ محبّ في العلم إلّا تحبيذه مع إهداء جميل الشّكر من أجله للمقامات العالية بالدولة التونسية، ولصاحب الفضيلة شيخ الجامع وفروعه

بقي علينا أن نتكلّم على خزانة كتب العبدلية وتسمّى في الاصطلاح الرّسمي بالمكتبة الصادقية، نسبة لمحييها بعد الاندراس، وهو المشير محمد الصادق باي. ففي سنة 1292 [1875] أحدث هذا الأمير بإشارة من المصلح الكبير الوزير خير الدين المكتبة المشار إليها، وجعل مركزها بالمحلّ الذي كانت به المكتبة العبدلية بجامع الزّيتونة التي حبّسها في المائة العاشرة السّلطان أبو عبدالله محمد بن الحسن الحفصي حسبما سبقت الإشارة لذلك، وجمع بها أكثر ما تيسّر له جمعه من التّحابيس التي كانت مشتّتة بالمساجد، والأضرحة، والمدارس، بتونس وخارجها، وشارك الوزير خير الدين في هذه المبرّة بإضافة ألف مجلّد لذلك من خزانة كتبه الخاصّة، ومنها كتب البيارمة الأعلام، وعليها بخطوطهم من التّعاليق والحواشي الشّيء الكثير، وفي ضمنها كتب المرحوم محمد داود، من رجال دولة المشير أحمد باي، ووضع لها قانوناً من شروطه الانتفاع بتلك الكتب مطالعة واستنساخاً من دون إخراجها من الجامع على قاعدة خزائن الكتب العمومية بأروبا.

هذا وقد أشرنا فيما تقدّم من الحديث لما عقد عليه النّيّة المقدّس المولى علي باي الثالث من تحبيس (300) مجلّد من الكتب القيمة على جامع الزّيتونة، فإنجازاً لذلك المقصد الأشرف، بادر ابنه ووريث ملكه المنعّم المولى محمد الهادي باي، إثر صعوده على عرش الملك بإنفاذ التّحبيس الموعود به من والده، طاب ثراه، وأضاف لذلك نصف خزانة كتبه العامرة، فكانت الجملة نيّفا وثمانمائة مجلّد، حبّسها على المكتبة العبدلّيّة، وحبّس النصف الآخر من كتبه على مكتبة جامع عقبة بن نافع بالقيروان. أما تحبيسه على العبدليّة، فقد وضع له دفتر خاص، مفتتح بخطبة نفيسة، من إنشاء المفتي الشيخ محمد بيرم ابن الشيخ الرّابع.

هذا وقد توفّق غير من ذكرنا للنّسج على ذلك المنوال، فحبّسوا كتباً كثيرة على المكتبة الصادقية. وممّن كتبت له الأقدار هذه المزيّة في صحيفة

حسناته من أهل عصرنا الحاضر، المدرّس الشيخ الشاذلي بن ضيف، إذ كان من أكثر العلماء تحبيساً على العبدلية، ومثله البرّة العفيفة، باهية بنت السّعيد، إذ حبّست في رجب 1352 [1933] نحو الاثني عشرة مائة جزء من الكتب، إنفاذاً لوصيّة من زوجها المرحوم الحاج صالح بن عمّار الحدّاد المزابي.

وآخر تحبيس تمتّعت به المكتبة العبدلية، هو الكتب النّفيسة التي وقفها في هذا العام ملكنا الحالي، بهجة الأيّام والليالي، سيّدنا ومولانا أحمد باشا باي الثاني، بلغه الله الأماني، وقد تضمّن هذا التّحبيس عيوناً من الكتب النّادرة، منها: تفسير الإمام الثّعلبي النّيسابوري في أربعة أجزاء ختامها وافق العدد (5808) الذي هو آخر عدد عمومي لما بالمكتبة العبدلية من الكتب في كلّ فنّ باشتمال ذلك على مجموعة الفهارس المصرية والتّركية والأروباوية التي توفّق كاتب هذه النبذة لنزعها من خزانة كتبه الخاصّة وإلحاقها بكتب العبدلية إيثاراً للجنة تدوين الفهرس الجديد، وتسهيلاً لمراجعاتها أثناء أبحاثها الفنّية، وفي ضمن ذلك فهرس المكتبة الخديوية بمصر، ومكتبة راغب باشا بالأستانة، وطبعة كشف الظّنون الألمانية، وكلّها ممّا جمع فأوعى. وبإضافة العدد (5808) المشار إليه آنفاً للعددين المتقدمين، يعني لعددي الكتب المحفوظة بخزانة الجامع الأصلية، وبخزانة الطلبة، تكون جملة الكتب الموجودة في هذا اليوم بخزائن جامع الزيتونة عمّره الله (20018) مجلّداً أغلبها مخطوط باليد، ويوجد ضمنها من الكتب النّادرة والغريبة ما يعزّ عن النّظير، وحسبك الوقوف على أعيانها بخزائنها.

وممّا لا يجوز إهمال ذكره في هذا المقام، الكتب الكثيرة والثّمينة المنجرّة من خزانة المرحوم الشيخ محمد بن مصطفى بيرم، دفين مصر، التي بعث بها ابنه الهمام الأرشد السيد مصطفى بيرم، لخزانة جمعية قدماء المدرسة الصّادقية، وجعل مرجعها على شروط لخزانة المكتبة العبدلية. وهذه الكتب المخطوط كثيرها بخطّ القلم، تضمّنت عيوناً ونفائس، منها: تفسير

ابن عادل، وهو من الكتب النّادرة، ومنها غير ذلك من غـريب التّآليف والنّفائس.

ولنا أن نقول إنّ خزائن جامع الزّيتونة احتوت على كنوز لا تقدّر بمال، وقد قام بوصف بعض مدّخراتها العلميّة الفهرس الجديد، الذي طبع منه أربعة أجزاء، وما زالت العناية منصرفة نحو إنجاز بقيّته، بهمة اللجنة العلميّة المنوط بعهدتها تدوينه. وإنّي لمفتخر بمشاركتي في المساعي التي سهّلت تأسيس تلك اللجنة للقيام بذلك العمل الجليل، ونشكر لأعضائها النّابغين مجهوداتهم في ذلك السّبيل، لا سيما وقد أنجزوا في هذه الأثناء تدوين بقيّة فهرس المكتبة العبدلية بأجمعه، بحيث لم يبق منه غير مطبوع سوى جزأيه الخامس والسّادس، ولكن نرجو لها التّمادي في مشروعها بنشاط لتدوين فهرس مكتبة الجامع الأحمدية، لأنّها تستغرق نحو العشرة أجزاء على أقل تقدير، ومنه تعلى نستمدّ الإعانة والتّيسير(*).

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 1 ـ الجزء 3 (نوفمبر 1936).

المدرسة الصّادقية

(1)

ما هي الظروف التي سمحت بإحداث المدرسة الصادقية؟

اعلم أنّ الوزير خير الدين لمّا تسلّم مقاليد الإدارة التّونسية في سنة 1290 [1873] كانت أحوال هذه البلاد في ارتباك، وظهرها مثقّل بالدّيون، وموارد الثّروة العامّة بيد العناصر الأجنبية، والقول قولهم فيها بلا يمين، وكان لتيّار التّمدّن الأروبي يد عاملة في تلك الحال التّعيسة، لأنّ تونس لم تكن حينـذاك متهيّئة لمجاراة الأمم الأروبية ولكنّها رمت بنفسها في أحضانها، فجرّها سيلها العرم وجعلها على شفا جرف هار. وكان الوزير خير الدين أوّل تونسي فهم الدّواء الصّالح لمعالجة الدّاء الدّفين الذي تأصّل من جسم البلاد التّونسية، حيث تحقّق بعد اختبار ودرس طويل أثناء رحلته الكبرى بأغلب عواصم أروبا سنة 1278 [1861] أنّ سبب تأخّر المسلمين في القرون الحديثة هو جهلهم بالعلوم الكونية التي أشرقت أنوارها على أنحاء أروبا بفضل أسلافهم الذين ضربوا فيها بسهم مصيب، لأنّ مباحث الأديـان وحدهـا أصبحت غير كافية لمجاراة الأمم التي بلغت أوج الحضارة بفضل الاكتشافات العلمية والمستجدّات العصرية، ولا سبيل لتدارك ما فات إلاّ بالنّهوض بالأمّة التّونسية من مدارك الحضيض إلى مستوى السّؤدد والمجد بنشر العلوم في ربوعها سواء كانت قديمة أو عصرية. والعلم حقّ مشاع يستوي فيه المسلم

وغير المسلم، ونحن مأمورون بطلبه ولو بالصّين. وكان للوزير خير الدين في منهجه قدوة من صنيع جميل الذّكر محمد علي باشا والي مصر الذي عزّز جانب العلوم العربية في الأزهر الشّريف بإدخال تعليم الفنون الأروبية لبلاده، وبإرسال البعثات لمدارس أروبا، وبترجمة كثير من الكتب في التّاريخ والجغرافية والطّبّ والحكمة والطبيعة والكيمياء، وغير ذلك ممّا لم يكن له رواج ببلاده.

واتّفق أنّ الدولة التونسية انجرّ لها في تلك الأثناء أملاك معتبرة من ربع وعقار شملتها عقدة الصّلح مع وزيرها السّابق أبي النّخبة مصطفى خزندار، فدبّر خير الدين على المشير محمد الصادق باي أن يغتنم تلك الفرصة الثّمينة للقيام بصنيع نافع للبلاد، يخلّد له الذّكر الجميل على ممرّ الآماد، ألا وهو إحداث مدرسة لتعليم العلوم العربية وبعض اللغات الأروبية مع ما يتبعها من العلوم العصرية، كما أشار عليه في الوقت نفسه بتهذيب أساليب التّعليم بجامع الزّيتونة على معنى وضع برنامج مستكمل لتدريس علوم الدّين وعلوم العربية، مع تأسيس مكتبة عمومية للمطالعة بالجامع. ولقد وجد الوزير خير الدين أذناً واعية من لدن سموّ الباي، غير أنّ مساعيه بخصوص إحداث مدرسة للعلوم العصرية صادمتها دسائس أضداده الذين كانوا يعملون في خفاء لإحباط سعيه إذ أوعزوا للباي بأنّ مشروع هذه المدرسة سينتج له بعد حين خصوماً وأعداء في شخص أبناء البلاد الذين سينشأون على مذهب الثّقافة الأوربية، وأشاعوا هنا وهناك أخباراً زائفة لتثبيط العزائم ولتكوين فكرة عدوانية في الأوساط الأهلية للقضاء على هذا المشروع وهو ما زال ببطن أمّه. ولكنّ الوزير خير الدين عرف من أين تؤكل الكتف إذ استشار قبل المجاهرة بفكرته طائفة من أهل العلم، منهم الشيخ أحمد بن الخوجة، والشيخ الطاهر النيفر، والشيخ عمر بن الشيخ، والشيخ محمد بيرم رئيس الأوقاف، وتحقّق منهم الموافقة بل الرّغبة في إحداث المدرسة المشار إليها لما فيها من المنفعة للأمّة التّونسية، وكان في الإعلان باستحسان النّظر

الشّرعي لذلك تطمين للخواطر، ومحق لأقاويل الكاذبين، فعقد سمّو الباي العزيمة على وضع برنامج للتّعليم بجامع الزّيتونة، وعلى إحداث المكتبة الصادقية، ووقف عليها كتب الوزير مصطفى خزندار، مع ما ألحق بها من الكتب المتجمّعة من المساجد والمدارس وغيرها وابتدأ بتأسيس المدرسة الصّادقية لتعليم العلوم العصرية.

تلك هي الخطوة الأولى في سبيل هذه النّهضة المباركة. ثم إنّ الباي نظر بمشاركة وزرائه في المحلّ الصّالح بنصب هذه المدرسة، واستقرّ الرّأي على أن يكون ذلك بقشلة الزّنايدية[1]، وهي من محدثات المرحوم حمودة باشا الحسيني، أسّسها لعساكر الينكشارية في سنة 1224 [1809] وما زالت أسماء كبرائهم منقوشة بواجهة بيوتها إلى هذا اليوم. وفي آن واحد أمر بتشكيل لجنة عليا للنظر في إبراز مشروع المدرسة من حيّز الفكر إلى قوّة العمل[2]، وتركّبت هذه اللجنة من رئيسها الوزير الأكبر خير الدين، وأعضائها: الشيخ أحمد بن الخوجة المفتي الحنفي، والشيخ الطاهر النيفر القاضي المالكي، والشيخ عمر بن الشيخ قاضي باردو، وأمير الأمراء الشيخ محمد العزيز بو عتّور باش كاتب وزير القلم والاستشارة، والمدرّس الشيخ محمد بيرم رئيس جمعية الأوقاف، وأمير اللواء السيد محمد العربي زرّوق رئيس المجلس البلدي، والمدرّس الشيخ مصطفى رضوان، والمدرّس الشيخ أحمد الورتتاني، فنظرت هذه اللجنة في المشروع وسنّت له قانوناً جامعاً، وتمّ إحداث المدرسة بصدور أمر عليّ في ذلك (5 حجة 1291) [13 يناير 1875][3].

---

(1) [هي ثكنة قديمة بناها حمودة باشا في أوائل القرن التاسع عشر، وهي ما زالت قائمة الذّات إلى يومنا هذا بنهج جامع الزّيتونة عدد 55].

(2) [بدأت اللجنة أشغالها في أوّل يوبيو 1874]

(3) [فتحت المدرسة الصّادقية أبوابها في وجه الدّارسين خلال شهر فبراير 1875. انظر: أحمد عبد السّلام «الصّادقية والصّادقيون» (باللغة الفرنسية) ـ تونس 1975].

ومما تضمّنه برنامج التعليم بالمدرسة: ففي العربية حفظ القرآن الكريم، والقراءات، والحديث، وعلوم الدين من عقائد وفقه بالمذهبين. ومن علوم العربية النّحو، والصّرف، والمعاني، والبديع، والأدب، والتّاريخ الإسلامي، والأخلاق. وناط ذلك بعهدة مدرّسين من أعلام جامع الزيتونة، منهم الشيخ الأمين بن الخوجة، والشيخ محمود بيرم، والشيخ الصادق الشاهد، والشيخ عثمان الشّامخ، والشيخ محمد القرطبي، والشيخ الطاهر جعفر، والشيخ علي بن الحاج، رحم الله الجميع، وألحق بذلك تعليم الخطّ بالقلم العربي، وكان أستاذه الشيخ محمد الكتّاني، والخطّ الثّلث وكان أستاذه الشيخ محمد الفخري. وفي اللغات الأروبية اقتضى البرنامج المذكور تعليم اللسان التركي، واللسان الفرنسي، واللسان الطّلياني، وغيرها إن اقتضى الحال، وعهد بتعليم العلوم العصرية كالتّاريخ العام، والجغرافية، ومن الرياضيات الحساب، والجبر، والمقابلة، والهندسة، وجرّ الأثقال، والطبيعة، والكيميا، والهيئة، وعلوم الصّحّة، والنّبات والفلاحة، والحيوان، والقوانين والأنظمة السياسية، إلى أساتذة فرنسيين منهم من سبقت له مباشرة التّعليم بمدرسة الضّبّاط بباردو كالأستاذ أيمون والأستاذ سوليه. وأمّا تعليم اللغة التركية فقد استحضر له من الأستانة علي رضا أفندي من كبار أساتذة المدارس الملكية.

ونيطت نظارة التّعليم الأروبي بالعالم نونس روكا [NONCE ROCCA]، وهو من خيرة الفرنسيين نزلاء تونس في الدّور القديم، وأسندت إدارة المدرسة بلياقة الفذّ الغيور الشّريف أمير اللواء **محمد العربي زرّوق**[4] رئيس المجلس البلدي بتونس، يعضده كاهيتان أوّل وثان وهما الأمير آلاي إسكندر من مماليك المشير أحمد باي، والآلاي أميني عمر بن بركات معين الوزير خير الدين، وكان يحسن اللسان الفرنسي والعلوم الرياضية، زاولها

(4) [تولّى العربي زرّوق إدارة المدرسة الصّادقية منذ إنشائها سنة 1875 إلى سنة 1881. ففي شهر ماي من تلك السّنة استقال من منصبه إثر انتصاب الحماية الفرسية على تونس بمقتضى معاهدة باردو المبرمة في 12 ماي 1881].

بمدرسة باردو المتقدّم ذكرها. وجعلت جراية المدير (6000) ريال في العام وللكاهية الأول (4200) ريال في العام وللكاهية الثاني (2400) ريال ولكل من المشائخ المدرّسين (3000) ريال في العام، والمعلّمون تختلف مرتّباتهم من المائتين إلى الخمسمائة في الشّهر، وللنّاظر الفرنسي (6000) ريال في العام.

ووقف الوزير موقف الحزم والعـز في سبيل مشـروعه، ورأى من الإنصاف تعميم النّفع به لكافّة العناصر التونسية، فجعل عدد التّلاميذ مائة وخمسون، منهم ثلثان من أبناء الحاضرة، وثلث من أبناء الآفاق التّونسية، وهذا الثّلث جعل نفقته من كساء ومؤونة وإقامة على صندوق المدرسة، والتّعليم مجاناً للجميع، واشترط لهم لبوساً خاصة بشكل ظريف، خلاصتها قفطان عربي شبيه بلبس المشارقة بحاشية طوقه عدد التّلميذ مرسوم حوله سنبلة وغصن زيتون بسلوك الذّهب، ولم يزل هذا الوزير مجدّاً في سيره عاملاً لتكليل مشروعه بالنّجاح رغم أضداده الذين لم ينفكّوا عن مناوأته وإنكاده بإشاعة الأخبار الكاذبة بعد فتح المدرسة للتّعليم ونعت تلاميذها بالصّفقة الخاسرة، ورميهم بالزّندقة والمروق، لتثبيط عزائم آبائهم، من ذلك قصيدة لم ندر لمن، بقي بمحفوظي مطلعها وهو قوله:

أيّها القوم الذي في المدرسهْ   كـلّ مـا علمتمـوه وسـوسـهْ

وهي طويلة شملت كثيراً من ألفاظ الهجو والتّشهير ممّا جاء على قياس منجسة، ومنحسة، ومبخسة، ومنكسة، ومكنسة، وشبه ذلك. ولكنّ هذه المساعي السّخيفة لم تزد خير الدين إلاّ نشاطاً وثبوتاً في المركز، فكان لا يتخلّف أسبوعاً عن تفقّد المدرسة، حيث يقضي السّاعات الطّوال بين حلقات الدروس وأقسام التّعليم، وقد اتّفق له الحضور مرّة بدروس الجغرافية وكان بصحبته أحد الوزراء المماليك، فألقى المعلّم على التّلميذ البشير صفر سؤالاً عن إحدى بلاد البلقان، وعندها طلب خير الدين من الوزير المملوك الجواب عن السؤال، فعجز عن ذلك وقام مقامه في الجواب عنه بأحسن بيان التّلميذ المشار إليه، فقال الوزير خير الدين مخاطباً صاحبه: من أجل هذا اقتضى

نظر سيّدنا الباي إحداث هذه المدرسة ليكون وزراء تونس في مستقبل الأيّام علماء بمواقع البلدان[5]. ولا تسأل عن مظاهر العناية ووسائل التّنشيط التي كان يجريها خير الدين نحو تلاميذ الصّادقية، فقد كان يفيض عليهم الإحسان، ويعقد الاحتفالات الجامعة لختم الامتحان بسراية المملكة في مجلس يشرّفه الباي بحضوره ويحسن سموّه بجوائز فاخرة للتّلاميذ الذين امتازوا بالنّبوغ في العلوم العربية والفنون العصرية بين الأقران ويتلقّى التهاني من أهل المجلس الشّرعي وقناصل الدّول والأعيان المستدعين لحضور الحفلة بنجاح المدرسة التي زيّنت وجه البلاد في مدّته[*].

(2)

وبفضل هذا التّنشيط تكوّنت بالصّادقية طبقة من التّلاميذ النّجباء أهّلتهم مواهبهم ومعارفهم لاستكمال نصاب تحصيلهم في العربية بجامع الزّيتونة بدرس الأشموني على الأستاذ الأكبر الشيخ سالم بو حاجب، وفي العلوم العصرية بمدارس باريس.

وممّن نظم في تحبيذ مشروع المدرسة الصّادقية عند تأسيسها أديب الأدباء التّونسيين الشيخ الباجي المسعودي، أنشأ في ذلك قصيدة هي من عيون ما رصّع به ديوانه مطلعها[6]:

الصّادقية حسنها بهر الورى ... فأجل لحاظك معجباً ومفكرّا

ومنها في فضل العلم:

يدعو إلى ما لا حياة بدونه ... فالعلم داعية البقاء لمن درى
هل يستوي اللذ يعلمون وغيرهم ... شتّان ما بين الثّريّا والثّرا
هبّوا بني الخضراء وانتبهوا له ... فالعلم في الدّارين أربح متجرا
وخذوا المعارف والفنون بقوّة ... تنسيكم بُقْراط والإسْكَنْدَرَا

---

(5) [انظر مقدّمة كتاب «مفتاح التّاريخ» تأليف البشير صفر - تونس 1928].
(*) مجلة شمس الإسلام - الجزء 2 - المجلّد 1 - 1937.
(6) [ديوان الباجي المسعودي - تحقيق عبد الفتاح الزيتوني - الدار التونسية للنشر - 1983 - ص 76]

وتسـابقـوا لفضيلة جـاءتكم حـاشاكم أن تنبـذوها بـالعرا
أغنت على خوض البحار وغُرْبَةٍ ومشقّـة تـذر الفتى متحيّـرا

وممّن نسج على ذلك المنوال، وأتى فيه بأبدع مقال، الأديب الكاتب الشيخ محمد التّطاوني، فقد وقفت له على قصيدة في ذلك يقول في مطلعها:

كفيت اعتراض البيد أو لجج اليمّ بتسهيل طرق العلم يا طالب العلم

ومنها في التخلّص للمدرسة الصّادقية:

فأحيا لنا رسم المعارف بعدما تقضّت دهور وهي عافية الرّسم
مكـاتب تعليم أجـدّ بنـاءهـا وصان مبانيها بوقف عن الهدم
تغنّى بها شادي العلا مترنّما ألا هكذا نبني المدارس للعلم
وضمّ بها من شام منه نجابة ستعرب عن فتح لدى عامل الضّمّ
وما أنس يوم الامتحان وقد بدا يقينا للذي الإنصاف ما كان في الوهم
تناسقهم في ضبط ما أخذوا به من العلم والتأليف مع سرعة الفهم
ولمّا دروا والله كافل حفظهم بأنّ شياطين العيون لهم تصمي
تـلا أوّلاً منهم أختيـر كـأنّهم كواكب تقفو إثر بعضها للرّجم

وممّا رأيته في هذا المقام قصيدة أخرى للمفتي الشيخ محمد البارودي[7] تضمّنت الإشارة من طرف خفيّ للمساعي العقيمة التي تنـاولت مشروع الصّادقية في مباديه مطلعها:

بشرى فصادقنا المليك الأمجد بثّ العلوم ففخـره متجـدّد

ومنها:

أوما رأيتم من ثمار النّصح ما أبـداه مكتبـه الأعـزّ المنجـد
لا توجلوا من بعض ما لم تعهدوا إنّ الـدّواء يمجّ وهـو الجيّد

(7) [الشيخ محمد البارودي عالم حنفي من علماء جامع الزيتونة والإمام الأوّل بجامع باردو - توفّي في سنة 1887].

إلى أن يقول:

طيبوا به نفساً عسى أن تكرهوا شيئاً وذاك لكلّ خير موجد
وتمسّكوا بعرى نصيحته لكم فهو الشّفيق عليكم المتودّد
طوبى لمن قبل النّصيحة واقتفى وبها مؤدّب نفسه ومعوّد
سيذوق في الزّمن القريب لذائذاً فيها النّعيم الأعجب المتعدّد
وبها حياة الرّوح والفوز الذي جعل الظّنون بأنّ ذاك الموعد

وممّا شمله ديوان العلاّمة الشيخ أحمد كريم[8]، قصيدة له في تحبيذ هذه النّهضة العلمية التي شملت في آن واحد جامع الزيتونة والمدرسة الصّادقية ومطلعها:

الصّبح أصدق شيء حين يبتسم والصّدق أنجح ما تأتي به الكلم

إلى أن قال:

والصّادقية أبدت من غراستها نتائجاً شاهدتها العرب والعجم

وكان في مقدّمة أنصار تلك النّهضة، زعيم أهل العلم لعهده، الشيخ أحمد بن الخوجة[9]، فقد نظم في ذلك قصيدة استغرقت أربعين بيتاً مطلعها:

مآثرك الغرّاء كالأنجم الزُّهْرِ تجلّت بها الخضراء عقداً على نحر

إلى أن قال:

ولله مبنى الصّادقية مذ بدت مطالع شهب العلم وقّادة الفكر
ففي كلّ فنّ حلقة حول جهبذ كما دارت الزُّهر النّجوم على البدر
تلامذ سرّ الله جلّ جلاله لهم في نجاح السّعي في الزّمن النّزر
يساير في الأسفار ذكر نجاحهم وصدّقت الأخبار مشهدة الخبر

(8) [الشيخ أحمد كريّم عالم من علماء الزّيتونة، تقلّد مشيخة الإسلام خلفاً عن الشيخ أحمد بن الخوجة بعد وفاته. ولم يمضِ عام واحد على ولايته حتّى أدركته المنيّة في السّادس من شهر يونيو سنة 1897].

(9) [الشيخ أحمد بن الخوجة عالم زيتونى معروف بأفكاره الإصلاحية، تولّى خطّة مشيخة الإسلام من سنة 1877 إلى وفاته سنة 1896].

ولقد برهن أعيان البلاد من آباء تلامذة الصادقية وغيرهم عن اعترافهم بالجميل، وامتنانهم لسمّو الباي ولوزيره خير الدين من أجل هذه المنقبة الجليلة، فأقاموا **المبايت**[10] الحافلة بآيات الذّكر الحكيم والأناشيد، حمداً لله وشكراً على نجاح مشروع الصادقية. ومنهم من آثرها بالتّحبيس كالمنعّم الشيخ محمد عريف ناظر أوقاف الحرمين الشّريفين، إذ وقف على تلامذة المدرسة خمسة مواضع زيتوناً بغابة تونس تشتمل على أصول (450) واستمرّت الصّادقية متدرّجة في مراقي التّقدّم إلى أن انقضت مدة الوزير خير الدين، وكانت ويا للأسف قصيرة، لأنّه استقال من الوزارة الكبرى خلال سنة 1294 [1877] وتلاشت بعده الأحوال، وتناولها الاختلال، لا سيما أثناء وزارة **مصطفى بن إسماعيل**، ومن تصرفاته الممقوتة مدّ يده لأرزاق المدرسة الصّادقية، كاستحواذه على بعض أوقافها بطريق المعاوضة المغبونة، من ذلك هنشير قعفور، وهنشير قرنبالية، وهما أعظم مستملكات الصّادقية، وأعقب ذلك **إعفاء مديرها السيد العربي زرّوق لأسباب سياسية**[11]، فخرج مهاجراً ومات بالمدينة المنورة سنة 1320 [1902][*].

(3)

الدّور الثاني للمدرسة الصادقية

ثمّ دار الفلك دورته المعروفة فبسطت فرنسا جناح نفوذها على تونس، وكان في باكورة الإصلاحات التي رسمها الوزير المقيم مسيو كمبون [CAMBON][12] في برنامج الحماية إحداث إدارة للعلوم والمعارف تولاّها المستعرب الكبير مسيو لويز ماشويل [MACHUEL] مدرّس العربية بوهران

---

(10) [مْبَايِتْ: جمع مْبِيتَه، أي حفلة دينية ليلية في الاستعمال التّونسي].

(11) [استقال العربي زرّوق من منصب مدير المدرسة الصّادقية، وهاجر بلاده احتجاجاً على انتصاب الحماية الفرنسية على تونس في 12 ماي 1881].

(*) مجلة شمس الإسلام - الجزء 3 - المجلد 1 - 1937.

(12) [المقيم العام كمبون (Paul CAMBON): 1882 - 1886، هو الذي ركّز نظام الحماية الفرنسية بالمملكة التونسية].



المدرسة الصادقية

في 28 جمادى الآخرة سنة 1300 [1882] وهنا بداية الدّور الثاني من تاريخ حياة المدرسة الصّادقية.

كانت بداية هذا الدّور الجديد شاملة لتغيير قانون المدرسة الأساسي ولتشكيل إدارتها بوجه جديد، وفي آن واحد وضعوا لها تراتيب مالية لضبط أرزاقها وحفظها من التّلاشي، كما وضعوا لها برنامجاً جديداً ضابطاً لأساليب التّعليم بالفرنسية، وفي الوقت نفسه أُلغي تعليم اللغتين الطّليانية والتّركية، وجيء بالتّلاميذ الذين سبق إرسالهم للأستانة لاستكمال نصابهم في اللغة التّركية، وأُبطل توجيه البعثات المركّبة من تلامذة الأقسام الانتهائية لإتمام تعلّمهم بباريس، وهذه البعثات كان أحداثها ـ كما قدّمنا ـ اقتداءً بصنيع محمد علي باشا والي مصر، فإنّه هو أوّل من انتبه لتكوين طبقة من الشّبّان المصريين علماء في الفنون الأروبية، وممّن اشتهر من رجال تلك الطّبقة المرحوم الشيخ رفاعة الطهطاوي، كاشتهار السيد البشير صفر بين رجال البعثة التونسية التي أوفدتها المدرسة الصّادقية لإتمام نصاب تحصيلهم بباريس، وبقيّة أقرانه هم السّادة: يونس حجّوج، وأبو بكر زرّوق، والمرحومون محمد الجنادي، والعربي بن عمر، ومحمد القـلاّل، وحسن بن الوحشية، ومحمد المعتمري، وأهل البعثة التي أوفدتها الصّادقية للأستانة لإتمام تعلّمهم في اللغة التّركية هم المرحومون: رشيد بو عمود، والطاهر ثابت، ومحمد بن يحيى.

ثم إنّ إدارة المعارف اجتهدت في توسيع نطاق المدرسة الصّادقية بإحداث فروع لها بالحاضرة التّونسية عزّزوها بفتح المدرسة العلوية التي نصبوها بمدرسة الشيخ محمد بن ملوكة بباب القرجاني، وبمدرسة سان شارل التي أحدثها الكردينال لافيجري وابتاعتها الدّولة التّونسية من الكنيسة بمليون فرنك، وسمّتها المدرسة الصّادقية العليا، ثمّ سمّتها باسم الفقيد مسيو سعدي كارنو [CARNOT] رئيس الجمهورية في سنة 1311 [1893] تخليداً لذكره، وهاتان المدرستان والمدرسة الصّـادقية هي أسّ التّعليم الـرّسمي باللغـة

الفرنسية في المملكة التونسية، وما أضيف لذلك كان ظهوره على التّدريج حسب اتّساع نطاق العمران وتعميم اللسان الفرنسي بالحاضرة والآفاق.

ونعود للكلام على المدرسة الصّادقية فنقول: إنّها في دورها الأوّل زارها كثير من رجال الشّرق والغرب، منهم المرحوم جمال الدين الأفغاني، وفي دورها الجديد زارها أيضاً كثير من عظماء الفرنسيين، منهم الكردينال لافيجري [LAVIGERIE] ويؤثر عنه قوله أثناء تلك الزّيارة ما معناه: «إنّ العنصر التّونسي أهل لتلقّي الثّقافة الأروبية، وإنّه ما برح معتقداً أنّ الدّيانة الإسلامية لها تأثير عظيم في مقام التّربية الرّوحية، وأنّ العرب جنس شريف لا تصلح بهم إلّا شريعة الإسلام، وهم لا يصلحون إلّا بها».

وفي سنة 1310 [1892] آلت إدارة المدرسة الصّادقية للمستعرب دلماس [DELMAS][13] بعد أن تولّاها قبله ستّة من التّونسيين، وهم: أمير اللواء السيد العربي زرّوق، وأمير اللواء السيد حسونة متالي، وأمير اللواء السيد عمر بن بركات، والأمير ألاي السيد محمد القروي (بارك الله في أنفاسه)، والسيد العروسي بن عياد، والسيد الطاهر بن صالح. وفي مدّة مسيو دلماس وقعت نقلة المدرسة الصّادقية في سنة 1315 [1897] من قشلة الزّنايدية الموقوفة عليها، للبناء المشمخرّ الذي أسّسته لنفسها من حرّ مالها جوار قشلة القصباء، وبلغت مصاريف بنائها يومئذ الأربعمائة ألف فرنك، وقد أرّخوا نقلتها لبنائها الجديد بأبيات مطلعها:

هذا المحلّ هو المحلّ الأكرم يهب العلوم لمن بـه يتعلّم

وبيت التّاريخ:

يـا أيّها المتعلّمـون بـه لقـد أرّخت فيـه فـوزكم والمغنم
1315[1897]

ومات المستعرب دلماس مأسوفاً عليه من تلاميذه التّونسيين الكثيرين،

---

(13) [تولّى المستعرب دلماس إدارة المدرسة الصادقية من سنة 1892 إلى سنة 1912].

وخلفه غيره ممّن لم يكن بدرجته في فقه اللغة العربية وأخلاق أهل هذه البلاد[14]، فتقاصر بالمدرسة تعليم العربية، الأمر الذي أثار الخواطر، وتسبّب عنه قيام ضجّة صحفية استلفتت أنظار دولة الحماية، ولا سيما مدير المعارف العلاّمة مسيو شارليتي [CHARLETY] فتدارك ذلك بوضع برنامج مستكمل في العلوم العربية والعصرية تعطي للتلميذ في ختام مزاولتها شهادة بالتّحصيل، تؤهّله في الوقت نفسه للحصول على شهادة الباكلوريا التي هي شهادة التّبريز في التّعليم الثّانوي، وما بعدها هو التّعليم العالي، كالحقوق، والطّبّ، والصّيدلة، والهندسة، وشبه ذلك، ويوجد في الوقت الحاضر، أربعة عشر شابّاً من تلاميذها بصدد مزاولة علوم الطّبّ، والحكمة، والصّيدلة، والتّجارة، والسّياسة، بمدارس فرنسا العليا، تحمل صندوق المدرسة بمدّهم بإعانات معتبرة لإتمام نصاب تحصيلهم في تلك العلوم.

ولقد أنتجت المدرسة الصّادقية في بحر الجيلين الأخيرين طبقة من التّونسيين يحقّ لبلادهم الافتخار بهم، منهم صاحبنا المرحوم البشير صفر، والمرحوم محمد الأصرم، والمرحوم علي باش حانبة، وغيرهم من نخبة الأقران الذين امتطوا صهوة الوظائف السّامية، وقاموا بالمساعي الجليلة والأعمال النّافعة، ومنهم من ساعده الحظّ على تسنّم ذروة الوزارة وآخرون بلغوا مسند الصّدارة، ونبغ من تلاميذ الصّادقية في الزّمن القريب نخبة من الشّبّان برعوا في آداب اللغتين العربية والفرنسية، وفي الفنون العصرية، وأدركوا بكدّهم وجدّهم درجة عالية في المعارف كالدّكتورا والأستاذية، لذلك رأت دولة الحماية عند شغور إدارة المدرسة في المرّة الأخيرة تشريك أحد المبرّزين من خرّيجيها ـ وهو الأستاذ الضّليع **السيد محمد عطية**[15] في إدارة

---

(14) [بعد وفاة المستعرب دلماس، تولّى إدارة المدرسة الصّادقية المسيو بولون (Bollon) من سنة 1912 إلى سنة 1927 ثم المسيو ميرا (Merat) من سنة 1927 إلى سنة 1934].

(15) [الأستاذ محمد عطيّة هو أوّل تونسي مبرّز في اللغة والآداب العربية، عيّن مديراً مساعداً للمدرسة الصّادقية من سنة 1934 إلى سنة 1944، ثم مديراً من سنة 1944 إلى سنة 1955].

شؤونها عملاً بسياسة التّعاضد والمشاركة بين العنصرين الفرنسي والتّونسي في العمل والانتفاع، وبهذا التّنصيف والتّنصيف من الإنصاف سكت عن موسى الغضب، وبات الفكر العام في هدوء وسكون، بعد أن كان مجاهراً بطلب إرجاع إدارة المدرسة لأحد المثقّفين من أبناء البلاد.

ولا خلاف في أنّ المدرسة الصّادقية أصبحت لهذا العهد محطّ الأنظار ومحل الرّجاء والانتظار، لأنّها سالكة بتلاميذها مسلك الاستكمال بتعليم نافع مفتوح بابه على مصراعيه، وما زالت إدارتها مجتهدة في توسيع نطاق التّعليم بها، ناهيك أنّ بها اليوم من التّلاميذ ثلاثمائة وثلاثون، وأذا أضفنا لها تلاميذ فرعها المجاور لها، يصير مجموع عدد المتعلّمين ستّمائة وثلاثين تلميذاً، والعزم معقود على إضافة أقسام جديدة خصّصت الدولة لأجلها مليوناً من الفرنكات لبناء محلاّت جديدة حول المدرسة للتّعليم، بما يحمل على الظّنّ وأنّ تلاميذ المدرسة الصّادقية سيبلغ عددهم الألف أو أكثر في مستقبل السّنين. ولا بدّ للمنصف أن يعترف هنا بما لمدير المعارف الموجود العلاّمة مسيو قو[GAU] من الأيادي البيضاء في سبيل مساعدة المدرسة الصّادقية جرياً على قدم سلفه الأسبق مسيو شارليتي الذي جعل نفقة التّعليم الفرنسي بالمدرسة على خزينة الدّولة التّونسية، وقدر ذلك في الزّمن الحاضر قريب من المليون، وأبقى بعهدة أوقاف المدرسة مصاريف تعليم العلوم العربية وغير ذلك من الشّؤون. وهذه المصاريف تستغرق جملة مداخيل المدرسة، ولولا إعانة الدّولة لها لما تمكّنت خلال هذه الضّائقة المالية من توسيع المجال لتعليم العلوم العصرية واللغة الفرنسية لحدّ مضاعفة غالب الأقسام بالمدرسة زيادة على الخمسة عشر قسماً الموجودة بفرعها.

أمّا عدد المدرّسبن المنتخبين من جامع الزّيتونة لتدريس الفقه والعلوم العربية بالمدرسة الصّادقية، فقد تضاعف عن ذي قبل، بحيث صاروا اليوم أحد عشر بين أستاذ ومدرّس، وعدد المعلّمين الفرنسيين كذلك.

ومن متمّمات المدرسة الصّادقية وكالة أوقافها، وهي الآن لنظر الحازم

النّزيه السيد **الهادي بن الطاهر**[16] وهو من الأفراد النّابغين الذين أنبتتهم رياض المدرسة الصّادقية، وأوّل من تولّى هذه الخطة في عصر الحماية، الشّهم الغيور المرحوم السيد حسّان بن القائد أحمد، وأوّل طبيب بالمدرسة النّطاسي المرحوم السيد قدّور بن أحمد. وكان عدد المؤدّبين بالمدرسة عند تأسيسها اثني عشر مؤدّباً من مشاهير الحفّاظ، ومنهم من كان جامعاً بين الحفظ والأدب.

هذه خلاصة تاريخ حياة المدرسة الصّادقية التي هي اليوم في السّنة الرّابعة والستّين من عمرها، والرّجاء دوامها في العيش الرّغيد، والزّمن السّعيد، والنّفع المزيد، إلى الأبد الأبيد(*).

---

(16) [الهادي بن الطاهر وكيل أوقاف المدرسة الصّادقية من سنة 1907 إلى سنة 1941].

(*) مجلة شمس الإسلام - الجزء 4 - المجلد 1 - 1937.

دار الباي بتونس

استفيد من بعض الصّكوك العتيقة أن الجهة التي منها البقعة الموجودة بها سراية المملكة كانت في المائة التّاسعة مشتملة على فنادق شتّى منتشرة هنا وهناك. وجاء في كتاب (ابتسام الغروس) أنّ أحد الفنادق بتلك الجهة انتزعه السّلطان الحفصي ممّن كان بيده وبنى مكانه زاوية للشّيخ أحمد بن عروس ووقفها عليه وعلى أقاربه، ثمّ لما توفّي رضي الله عنه في عام 868 [1463] على عهد السّلطان أبي عمرو الحفصي دفن بها.

وكان مركز الإمارة على عهد بني حفص بالقصبة، وبها مساكنهم، ولم يبق بها شيء من آثارهم سوى الجامع الحفصي وصومعته الجميلة، وهذه قام بإحكام صنعها (علي بن محمد بن قاسم عريف البنّاء) في سنة 630 [1233] وبعد سقوط الدولة الحفصية في المائة العاشرة وقيام الدولة المرادية في ظلّ آل عثمان جعل الأمراء المراديون مساكنهم خارج القصبة على مقربة منها فكان موقعها بالبقعة التي بها سراية المملكة كما سيأتي الكلام عليه وأبقوا مركز الإمارة بالقصبة، والأخبار في ذلك مستفيضة والتواريخ على اتّفاق فيها وفي عهدهم تعدّدت أسواق الشّاشية، وكان بعضها واقعاً حيث بطحاء القصبة اليوم، فوقع حريق قضى عليه بما فيه، ولمّا دخلت الإيالة التونسية في حكم البيت الحسيني، خلّد الله بقاءه، سكن المولى حسين بن علي تركي بدار حمودة باشا المرادي أوّلاً، وسكنها قبله المرحوم إبراهيم الشّريف، وهو آخر من تولّى حكم تونس في منتهى الدولة المرادية، ثم انتقل المولى حسين إلى

قصور باردو. ومن هذا التاريخ جعل الأمـراء الحسينيون كـرسي ملكهم ومساكنهم بباردو، وباردو من بقايا الدّولة الحفصية.

ولما آلت نوبة الملك للباي **حمودة باشا الحسيني**[1]، وجّه مهجته نحو عمارة الحاضرة التونسية فبنى داخلها وخارجها الثّكنات والحصون والمساجد والأسبلة وغير ذلك من أعمال البرّ، وفي جملة ذلك أنه أسّس سوق الباي، وباشر إحياء دار الأمراء المراديين. قال في (**مسامرات الظريف**)[2] في ترجمة المشير محمد الصادق باي: «وبنى (أي الباي) سوق القصبة والعلوّ الباذخ الذي قبالته على دار المولى حمودة باشا المرادي التي عاوضها حمودة باشا المشير الحسيني في غرة شوال 1219 [1804] وجدد بناءها على الوجه الأتقن فكان هذا العلوّ الصّادقي كالتّاج على جبهة ذلك الجمال وتسمى اليوم سراية المملكة» أهـ. فحمودة باشا الحسيني هو الذي أنشأ سراية المملكة فوق أطلال دار المراديين، وبنى علوّه البديع المشتمل على مساكنه ومساكن حاشيته، ومن أجملها ترصيعاً وتزويقاً وتنميقاً قـاعة الانتـظار ذات البهو العجيب، والسّقيف المموّه بالذّهب الوهّـاج، وبيت القبّة ذات النّقـوش الأندلسية الجميلة، وبه يجلس في هذا العهد سموّ الملك أبقاه الله في حفلة يوم رابع العيد، كما يجتمع به مجلس الوزراء في موفّى كلّ شهر، وفي مجاري العادة هو بيت صدر الوزارة.

وقد قدّمنا لك أنّ هذا العلوّ اجتهد الباي حمودة باشا في تنسيقه وتهذيب أساليه كما تشهد بذلك عرصاته وجدرانه وسقوفه، ولا سيما صحنه الفسيح الذي هو عبارة عن نموذج حيّ ممّا حفظه الذّوق العربيّ الصّميم لأهل الأندلس بقرطبة وغرناطة، وقد جعل النّظر على تلك الأشغال لوكيل مرمّته الحاج العربي زرّوق، وكان شاهد المرمّة الشيخ إسماعيل التّميمي الذي قدّمه لخطّة القضاء بعد حين. أمّا المباشرون للبناء فكانوا جماعة من

(1) [حمودة باشا الحسيني. 1777 ـ 1814].

(2) [مسامرات الظريف للشيخ محمد السنوسي ـ ج 1 ـ ص 84].



حمودة باشا الحسيني

مهرة البّناءين بعصرهم، منهم الأمين محمد توسه، والأمين حميدة النيقرو، جدّ المرحوم سليمان النّيقرو المهندس البلدي، وهذا الحفيد شارك في بناء باب البحر سنة 1264 [1847] والأبيات التي على واجهة الباب من نظم المدرّس الشيخ أحمد بن محمد بيرم المتوفى سنة 1280 [1863].

ومن البديهي أنّ أشغال (النّقش حديدة) والتطريز الفسيفسائي المحلّاة به جدران بيوت ذلك العلوّ كان إنجازه بمشاركة معلّمين من المغاربة وفدوا على تونس، وعنهم حفظ تلك الصّناعة جماعة من أبناء البلاد، ظهر حذقهم فيها بما أنجزوه من الأشغال السّاحرة كما تراه بمعالم كثيرة، منها زاوية سيدي حسن بن مسكه بسيدي المشرف بناها المرحوم مصطفى بن محمود باي في حدود سنة 1252 [1836] ودار الأصارمة بنهج التريبونال، ودار العشرة المعروفة بدار حسين[3]، حيث مساكن ودواوين الجنرال القائد الأعلى للجيوش الفرنساوية بتونس، ولسوء الحظّ إنّ هذه الصناعة الجميلة طوى حديثها الزّمان، وآخر من اشتهر فيها الأمين الحاج يونس النّقّاش المتوفّى سنة 1290 [1873] ومن تلاميذه المرحوم قاره مصطفى الذي باشر أشغال (النّقش حديدة) الموجودة بواجهة المحكمة العدلية الفرنساوية بشارع باب البنات [قصر العدالة الآن].

وسمعنا من الثّقاة، ومن المرحوم الأمير ألاي محمد برّوطة، وهو رجل ولد على عهد الباي حمودة باشا ومات في سنة 1331 [1912] عن مائة وأربع سنين، أنّ الباي المذكور لمّا باشر بناء السّراية التي نحن بصددها، وافق ذلك عام مسغبة، فكان يستقدم المحتاجين من العامّة للتّوسيع عليهم والانتفاع بيدهم العاملة في مرمّتها، ويموّنهم في مقابلة ذلك، فالصّانع الكبير بخبزتين، والصّانع الصّغير بخبزة واحدة، وهذا ممّا حمل بعض معاصريه على وصفه بالشّحّ على أنّة ندم على بناء هذه السّراية وقال إنّ الأموال التي أنفقها من أجلها لم ترجع بفائدة على أهل البلاد.

(3) [دار حسين. هي الآن مقرّ المعهد القومي للآثار والفنون].

وفي هذا العهد جدّد الأمير المذكور عمارة المسجد المجاور لسرايته، ووقف على إمامه داراً لسكناه ابتلعتها إدارة الأشغال العامّة بطريق المعاوضة في جملة الأبنية من أسواق، ودور، وحوانيت ألحقوها بالإدارة المذكورة لنحو ربع قرن فائت.

وفي عهد المرحوم المولى **حسين بن محمود باي**(4)، تولّى هذا الأمير إنجاز ما لم يتمّ من الأشغال بالطّاق السّفلي من السّراية في عهد خاله حمودة باشا، فباشر إتمام سقيفتها مع ما يتبعه من البيوت، وأضاف لذلك جرياً على عادة أسلافه في التّسابق لأعمال البِرّ سبيلاً عمومياً موقعه ببيت العسّة الموجود في هذا الزّمان بسقيف السّراية، وما زال أثره حيّاً لهذا اليوم بشهادة الأبيات المنقوشة فوق شبّاك ذلك البيت ومطلعها:

هذا سبيل الفضل والإحسان ومـورد عذب لـدى الظمآن

وجاء عصر المشير أحمد باي الأوّل، وهو صاحب المواهب العالية والأطماع الواسعة، فاعتنى بهذه السّراية أيمّا اعتناء، وجدّد رياشها وأثاثها، وزاد في زخرفتها، وكان كثير التّردّد عليها، لأنّه يقصدها كلما جاء لتعاهد الثّكنات والعساكر المشغوف بهم، وكانت في أيّامه كما في أيّام سلفه معدّة لنزول ضيوف الدّولة، كالأمراء والمبعوثين الوافدين على تونس من أروبا ومن الأستانة، وممّن سكنها في عهده الدُّوك (منبانسي) أصغر أبناء الملك (لويـز فيليب) في سنة 1261 [1845]. قال في **تاريخ تونس للحكيم (فرانك)**(5) طبيب الباي ما معناه في شأن هذه الزيارة: إنّ الباي الذي هو أمير مسلم خصّص منذ عدّة أيّام قصره الجميل المسمّى دار الباي لقبول ضيفه المسيحي والاحتفاء به بتلك الدّار التي أحكم تأثيثها بإبداع على النّمط الأروباوي، مع الاحتفاظ في جميع كلّياتها وجزئياتها بالبذخ والفخامة العجيبة التي لا يناسبها في الوصف إلاّ أعاجيب قصص ألف ليلة وليلة. ثم قال: ومن حسن مصارفة

(4) [حسين بن محمود باي. 1824 ـ 1835].

(5) [تاريخ تونس ـ للحكيم لوي فرانك (Dr LOUIS FRANK) ـ باريس 1885].

الباي ونحريريته أن زيّن جدران تلك السّراية بصور تمثّل أشهر الوقائع الحربية التي كلّلت جبين فرنسا بالفخر مدى هذه الخمسين سنة الأخيرة، يعني من انتصارات الجمهورية الأولى بإيطاليا حتّى الاستيلاء على مدينة قسنطينة، وقدم بعد الدّوك (منبانسي) المذكور أخواه البرنس (جوانفيل) والدّوك (دومال) ونزلا أيضاً بسراية المملكة في ضيافة المشير أحمد باي وقلّدهما نيشان البيت الحسيني، وكتب لهما في ذلك ظهيراً عظيماً من إنشاء كاتبه الشيخ أحمد ابن أبي الضّياف، تضمّن ما لهذا الباي من المودّة والتعلّق بفرنسا، فقد جاء فيه قوله «فإنّه حصل لنا بقدومكم فرح وسرور، لا ينسى مدى الأعصار والدّهور، حيث تفضّلتم بزيارتنا، ووضّحتم وثيق الرّبط في صحبتنا، ومزيد الاعتناء بدولتنا، وصداقة عيلتنا. ومنه أيضاً قوله: وقبولكم له (أي للنّيشان الحسيني) زيادة في سرورنا، وإيضاح لنورنا، وتقوية لصدورنا، وتزداد الرّفعة والشّأن، لهذا النّيشان، ومن هذا رأيت الدّارين واحدة، والقلوب على الصّفا متعاضدة، وهي أعظم فائدة حصلها عمري، وأكبر سرور ساعدني به دهري، وأقوى كنز أعددته لذخري.

وهذا الظّهير لم نقف عليه بتاريخ الشيخ ابن أبي الضّياف، ولكنّ عبارته بأكملها نشر ترجمتها البحّاثة (هوقون) بكتابه المتعلّق بالبايات الحسينيين. أمّا الأثاثات والمعلّقات الكثيرة والغريبة المشار إليها في كلام الحكيم (فرانك) السّالف الذّكر، فقد تناولها التّلاشي على توالي السّنين، وما بقي منها بيع بالمزاد العمومي في جملة الأشياء القديمة التي وقع تجديدها في سنة 1320 [1902] بعد الفترة التي خيّمت على السراية مدى الأربعة أعوام قبلها.

وفي أواخر سنة 1277 [1860] نزل ضيفاً بدار الباي البرنس (نابليون) ابن عمّ الأمبراطور (نابليون) الثالث، مصحوباً بزوجته البرنسيسة (كلوتيلد) ابنة ملك إيطاليا (فيكتور عمانويل الثاني) ولمّا توجّه لزيارة سمّو الباي في قصر باردو، أهداه سموّه سيفاً دمشقياً مرصّعاً، وقلّده النّيشان الحسيني في

موكب حفيل، وردّ له الزّيارة بنفسه في يومه بسراية المملكة، والوثـائق التّاريخية التي لدينا بشأن هذه الزّيارة تضمّنت إفادات شتّىٰ منها أنّ زوجة البرنس لمّا كان زوجها في حضرة الباي، دخلت هي لزيارة الحريم، حيث جلست ساعة زمانية في حضرة سموّ البابة، ومن حولها من نساء الأعيان، وأنّه في اليوم الثاني من سكناه بالسّراية أخلوا له حمّام دار الجلد ليستحمّ فيه مع رجال حاشيته، وكان المكلّف بمؤانسته مدّة إقامته بسراية المملكة أمير اللواء فرحات مستشار الوزارة الخارجية، وأنّ الذي تلقّاه عند وصوله ونزوله بحلق الوادي هو وزير البحر خير الدين.

وفي العام المذكور أجريت إصلاحات معتبرة وتوسيعـات وتأثيثـات بسراية المملكة، منها بيت المجلس الأكبر لاجتماعه بعد الإعلان بقانون عهد الأمان، وكان عدد أعضاء هذا المجلس ستّين من العلماء والأعيان، ومن رجال الدّولة، وكان بصدر بيت المجلس كرسي ملوكي يجلس عليه سموّ الباي عند افتتاح المجلس، وبه كانوا يعقدون الحفلة السّنوية لختم امتحانات تلامذة المدرسة الصّادقية، يحضرها سموّ الباي، ووزراؤه، ورجال دولته، والعلماء، والقناصل، والأعيان، وكانت دواوين الدولة قبل عصر الحماية تنتصب مؤقّتاً في شهر رمضان بسراية المملكة بالبيت الذي به اليوم رئيس القسم الأوّل ومعتمده، وبيت المجلس الأكبر المذكور آنفاً هو الذي قسّموه أقساماً لنصب دواوين الحكومة عند انتقالها من باردو لتونس في عام 1300 [1882].

وفي ذي القعدة 1278 [1861] وفد على الحاضرة مبعوث عثماني اسمه سعيد باشا، أوفده السّلطان عبد العزيز خان مع النّيشان العثماني المرصّع للمشير محمد الصادق باي، فأسكنه الباي في ضيافته بسراية المملكة مدّة إقامته بتونس، وفي العام التّالي نزل بها البرنس (دي فال) وليّ عهد بريطانيا العظمى، والبرنس (فريدريك) ولي عهد ألمانيا، وقدم بعدهما في العام نفسه البرنس (همبرت) وليّ عهد إيطاليا، وكان قدوم هؤلاء الأمراء ومن تقدّمهم من أقرانهم عنواناً على ابتهاج دولهم بما توفّق له سموّ الباي من الإعلان بقانون

عهد الأمان، وهذا الصنيع نفسه هو الذي كان باعثاً على إتحاف الباي بجملة من الأوسمة العالية وبرسوم بعض ملوك أروبا، كرسم الامبراطور (نابليون الثالث) والامبراطور (فرانسوا جوزاف) والملك (فيكتور عمانويل) الثاني ممّا هو موجود لهذا اليوم في جملة المجموعة النّادرة والثّمينة من الرّسوم الملكية التي منها صورة الملك (لويز فيليب) المصنوعة من نسيج قوبلان أهداها صاحبها لحبيبه المشير أحمد باي في سنة 1262 [1845] قدّروا قيمتها لستّين سنة فارطة بمائة ألف فرنك فتكون قيمتها في الزّمن الحاضر قريبة من المليون.

ولما ابتليت العمالة التونسية بثورة علي بن غذاهم، قدمت الأساطيل الأروباوية للمياه التّونسية، كما حضر بحلق الوادي في ذلك الوقت قسم من الأسطول العثماني ومعه حيدر أفندي الموفود من لدن الباب العالي لاستكشاف الحال، فهذا المبعوث نزل أيضاً ضيفاً بسراية المملكة أثناء تلك الأيّام العصيبة (حجة 1280) [1864].

ولقد وقعت بيدي ورقة في جملة أوراق وتقاييد لبعض رجال الدّور القديم ممّن كان لهم إلمام بأحوال الدّولة فإذا بها بيان ما صرفوه على البرنس (فريدريك شارل) في كامل المدّة التي نزل خلالها ضيفاً بسراية المملكة في أوائل 1289 [1872] وقدر ذلك (6985) ريالاً على يد مستشار الوزارة الخارجية، ومقتضى ورقة أخرى بلغ ثمن فطور رتّبوه بسراية المملكة في رجب 1292 [1875] إكراماً لأميرال عثماني إلى (624) ريالاً، وممّن حضر هذا الفطور أمير لواء العسّة حسن الزّاوش، وصالح أفندي مترجم اللغة التّركية بالوزارة الخارجية، واتّفق أن قدمت لتونس في العام قبله البرنسيسة (ده هيس) من قرابة أمبراطور ألمانيا مصحوبة بولديها البرنس (أرنست) والبرنس (ألبير) وكان وصولهم ليلة المولد الشّريف، فحال ذلك دون إنزالهم بسراية المملكة لقدوم سموّ الباي بنّية المبيت بها للاحتفال بذلك الموسم، ولكنّ سموّه أنزلها وولديها وحاشيتها على نفقته بدار الكفلير طابيا بحومة باب البحر ولم يسمح بنزولها في أحد الخانات وخرجت وولداها للتّفرّج على زينة الأسواق في

الليل، وفي صبيحة يوم المولد اقتبلها سموّ الباي مع ولديها بسراية المملكة بعد رجوعه من الجامع، وقلّد كلاّ من الولدين الصّنف الأكبر من نيشان الافتخار، ثمّ بعد انصرافها وجّه الباي حفيده البرنس حسين باي لردّ الزّيارة لها بدار قنصلات ألمانيا. هكذا وقفت عليه بمجموعة الرائد التونسي لعام 1291 [1874] ونظير هذه الضّيافة الرّسمية خارج دار الباي وقعت مرّة أخرى في عهد المشير أحمد باي، فإنّه لما قدم عليه عمر جمال أفندي في سنة 1259 [1843] من قبل الباب العالي لتسوية الخلاف الحاصل بينه وبين دولة سردانيا أنزله الباي بالكرم ببستان صهره أبي النّخبة مصطفى آغة وزير الحرب.

وفي أواسط عام 1291 [1874] شرع المشير محمد الصادق باي في بناء العلوّ الجديد المطلّ على بطحاء القصبة الذي سبقت الإشارة إليه، وسيأتي الكلام على سبب هدمه، أمّا إتمام بنائه فقد كان في شعبان 1292 [1875] وافتتحوه عن إذن الباي بتلاوة آيات الذّكر الحكيم. هكذا سمعت من والدي رحمه الله. وأوّل موكب رسمي أقيم به كان لتلقّي زيارة أميرال الأسطول الفرنساوي الذي قدم لتونس أواخر الشّهر المذكور، وتسابقت أقلام البلغاء والشعراء لتهنئة المولى الأمير بما أحدث من الأبنية الجميلة التي أعادت على سراية القصبة شبابها: من ذلك قصيدة عصماء للمفتي الشيخ أحمد كريم[1] جاء فيها قوله:

وانظر إلى تونس الخضراء قصبتها عاد الشّباب إليها وانتفى الهرم

وقد وقفت على تقييد لبعض الأعيان تضمّن تفصيل المصاريف النّاتجة عن بناء العلوّ المتحدّث عنه مع ما يتبعه من البطاح والسّوق المواجهة لدار الباي حيث محلات إدارتي المال والأشغال العامّة في التّاريخ الحاضر، فإذا به ريالات:

---

(1) [انظر ترجمته في «تراجم الأعلام» للشيخ محمد الفاضل بن عاشور ص 103]

89000	مصروف بناء العلوّ بواسطة الحاج الطاهر بن عمر أمين البناء والحاج عمر بو عشير أمين النّجارة على يد أمير اللواء العربي زرّوق رئيس المجلس البلدي.
15875	مصروف الدّرج والدّربوز والواجهة.
6970	تحسينات إلحاقية لم تشملها وفقة البناء.
6410	مصروف دهن شامل لمحلاّت العلّو الجديد ولحوانيت السّوق.
35000	مصروف إتمام بناء السّوق بعد عجز الجمعية التي أحدثته.
32360	مصروف تهيئة بطحاء القصبة وجلب ماء زغوان لها وتنويرها بسّتة فوانس غازية.
185615	

وإصلاح حائط مقبرة السّلسة، وتمهيد الطّريق بينها وبين باب المنارة مراعاة للباب الذي فتحته جمعية الأوقاف في تلك الأثناء بالجامع الحفصي على الطريق المذكور، وكان بابه بداخل القصبة فيما تقدم من القرون. وهذه الحسنة الخالدة عزّزتها الجمعية يومئذ بحسنة أعظم منها ألا وهي إحياء جامع الحلق الذي أسّسته أميرة حفصية حوالى المائة الثامنة للهجرة، وكانت هذه المآثر هي فاتحة السّعي في عمارة بيوت الله بعد إحدات جمعية الأوقاف بهمّة المصلح الكبير الوزير خير الدين. وكان بوسط بطحاء القصبة خصّة عظيمة وسط حوض حوله دكاكين لجلوس العموم، وبصحن زاوية الشيخ سيدي الشريف المجاورة للسّراية كانت هنالك نخلة عالية كادت تناطح السّحاب قضت عليها زوبعة شديدة في سنة 1316 [1898].

هذا وقد رأيت أنّ السوق المسامت لسراية المملكة كان في عهدة جمعية تونسية عجزت عن إتمامه، وصورة الخبر أنّ هذه السوق أقيم بعضها فوق مقبرة التّرك الدّارسة، وبعضها على طلل معصرة قديمة كانت بجوار ديوان المدافعية في عهد التّرك، وحديثها طويل، ملخّصه تشكيل جمعية رجالها أربعة من كبار الموظّفين، ولا حاجة لذكر أسمائهم، أقطعتهم الدولة

مساحة من الأرض ليتولّوا بناء أسواق للتّجارة بطريق المساهمة، ؛ ولمّا شرعوا في ذلك تداخل بينهم بعض شياطين الإنس، وتعطّل إتمام المشروع فتولّى إنجازه بطريقة حاسمة رجل الحزم والعزم الوزير خير الدين، إذ كلّف المجلس البلدي بأمره، وهذا بدوره ناط بناءه مقاطعة بعهدة من تحمّل بذلك من لزامة البناء الأروباويين، ولمّا تمّ بناء السّوق انتصب به جماعة من أعيان التّجّار المسلمين ليوازنوا به تجارة سوق الباي التي كانت حوانيتها بيد اليهود، فكانت متاجرهم في البداية دالجة ولكنهم ما لبثوا حتى رجعوا القهقرى لأسباب مالية يطول شرحها، فمدّت الخيبة جناحها على ذلك المشروع الأهلي، وغلقت السوق وحوانيتها إلى أن جاءت دولة الحماية وأقامت مقامها إدارتي الأشغال العامّة والمالية إثر انتقال دواوين الحكومة من باردو للحاضرة.

وفيما بين عام 1292 [1875] وعام 1294[1877] تكرّر نزول الضّيوف من الأمراء الأروباويين بدار الباي تارة بالسّكنى، وتارة بحضور مأدبات إكرام أقيمت لهم بها عن إذن سموّ الباي.

وفي شوال 1295 [1878] وفد على تونس شريف وزّان مولاي عبد السّلام بن مولاي الحاج العربي من ذرّية مولاي الطّيّب صاحب الطّريقة المشهورة، فأنزله الباي في ضيافته بسراية المملكة، وقلّده الصّنف الأكبر من نيشان الافتخار، وفي مّدة إقامته بالسّراية زاره قنصل فرانسا وغيره من نواب الدول بتونس ممّا قامت بنشره مفصّلاً صحيفة الرائد التونسي ووقفت بالصحيفة 71 من كناش للشيخ الوالد على نصّ مكتوب خصوصي من السلطان عبد الحميد خان مؤرخ في 10 قعدة 1295[1878] خاطب به المشير محمد الصادق باي في إعلامه بتوجيه باخرة عثمانية مع الأمير ألاي سليمان بك، لحمل عائلة الوزير خير الدين من تونس للأستانة، وأن الرّسول المذكور أنزله سموّ الباي بسراية المملكة مدة أسبوع، وكان المصاحب له أثناء إقامته بدار الباي المعين الأمير ألاي إبراهيم باش بلهوان.

ولم يقع العثور بعد هذه الضّيافة على أسماء من نزل بالسّراية من

الضّيوف في الثلاثة الأعوام التالية أللّهم إلاّ سكنى الجنرال (لمبير) بها في أواخر حجة 1298 [1881] كما سيأتي الكلام عليه.

وقد ورد فيما تقدم ذكر زاوية **سيدي الشريف**[6] المجاورة لخزانة المكاتيب المنتصبة بالطّابق السّفلي من السّراية، فهذه الزّاوية فيما يقال أشار المكلّف إذ ذاك بالوقوف على أشغال بطحاء القصبة بإزالتها ونقل رفاتها لمقبرة السّلسّلة، واتّفق أنّ ذلك المأمور أدركه أجله في تلك الأثناء بحادث عرضي، فتشاءم النّاس من ذلك ورأوه عقاباً للمساعي المبذولة في محو الزّاوية المشار إليها، ولم يمسّها بعد أحد بسوء. وما أشبه هذه القصّة بنظيرتها قريبة العهد المتعلّقة بقبر الفرعون المصري (توت عنخ أمون) الذي كشف عنه أحد علماء الآثار من الانكليز بوادي الملوك في سنة (1341 1922 للميلاد) واتفق أن لسعته ذبابة عند دخوله للرّمس الفرعوني فَسُمَّ دمه ومات بعد يومين من تلك اللسعة، والتّاريخ يعيد نفسه كما هو مقرر معلوم.

وفي الشّهور الأولى من انتصاب الحماية سكن بسراية المملكة الجنرال (لمبير) حاكم قلعة تونس وهو أوّل من مثّل الدولة الحامية بالمشاركة في موكب المولد الشريف حيث صاحب سموّ الباي محمد الصادق في 12 ربيع الأنور 1299 [1881] من السّراية إلى جامع الزيتونة، وإبتداءً من العام التّالي صارت هذه المشاركة من متعلّقات الوزير المقيم، فكان المسيو (كمبون) هو المصاحب للمولى علي باي عند خروجه لمولد عام 1300 [1882] وعلى هذه القاعدة استمرّ العمل بها إلى اليوم. ولما وقع إحداث الكتابة العامة لإجراء الرقابة الفرنساوية على الإدارة التونسية باشروا في منتصف ربيع الآخر سنة 1300 [1882] نقل دواوين الحكومة التونسية من باردو للحاضرة لنصبها بصفة قارّة بسراية حلق الوادي التي أحدثها أحمد باي آخر مدّته، وفي رمضان بسراية المملكة بالحاضرة حيث هي الآن وعنهـا تفرّعت بقيـة الإدارات

(6) [لقد أزيلت زاوية سيدى الشّريف بعد الاستقلال (1956) في نطاق توسيع ساحة القصبة]

الموجودة لهذا العهد، منها إدارة الحرب، وإدارة الأمور العدلية ومجالسها، والمطبعة الرّسمية التي كانت نفسها إسطبلاً تابعاً للسّراية في العهد القديم، وإدارة المحافظة، وكان مكانها قهوة الأتراك في عهد الدولة المرادية، وزيد على ذلك أبنية الكتابة العامة، وكان حولها بئر عميقة من عمل الأقدمين، فجعلوا دار الطّباعة خزنة عمومية لمحفوظات الدولة، وبنوا فوقها وفوق البئر وما حولها أقسام الكتابة العامة الشّامل نظرها للقسم الأول الذي أبقي مركزه بمحلاّت السّراية الملكية، حيث كان هو صلة الوصل بين الكتابة العامة وبين الوزارة الكبرى، وهذه مركزها بالسّراية العامرة. ومن وقت هذا الازدواج بين القديم والجديد نزعت من سراية المملكة صبغة الضّيافة التي كانت متلبّسة بها في الدّور القديم، ولم يبق من مظاهرها إلا المأدبة من محدثات المشير أحمد باي لأنه هو أوّل من رتّب الاحتفال بموسم المولد النبوي، ولم يكونوا يحتفلون به قبله، أللهم إلاّ ما اعتادوه من عهد الدولة الحفصية من قراءة بُرْدَة الشيخ البوصيري بكتاتيب تعليم القرآن الكريم، فرتّب المشير أحمد باي في عام 1257 [1841] حفلة عسكرية نهار المولد كما هو جار لهذا العهد، ورتّب المبيت بسراية المملكة لإحياء تلك الليلة، أمّا المأدبة التي تقام ليلتئذ بالسّراية فإنّ أغلب ألوانها كان يؤتى بها من ديار الوزراء وأهل الدائرة الملكية، يتنافسون في ذلك ومن يحرز منهم قصب السّبق يحتفظ بحساب أيّام العام ولياليه ليتدارك ما فاته في الموسم التالي، ولا خلاف في أنّ المشير محمد الصادق باي هو الذي وسّع في حفلة ليلة المولد وليلة 27 رمضان وكساها حلّة الفخامة والجلال، فقد رأيت في بعض التّقاييد أنّ مصروف مأدبة عشائه ليلة مولد 1289 [1872] بلغ إلى (6900) ريالاً وهو ملغ عظيم بالنسبة لذلك الزمان.

وكان كأسلافه يقضي تلك الليلة بسراية المملكة، ومبيته بالبيت المطلّ على القصبة، وعلى قياسه جرى عمل أخيه المولى علي باي في مبادىء ملكه، وكان يعقد مواكبه الهامّة بالبيت المشار إليه، وبه تلقّى زيارة ملك البلجيك (ليوبلد الثاني) وزيارة الكثيرين من وزراء فرنسا منهم وزير المعارف

مسيو (بوانكاري) الذي تقدّم فيما بعد لرئاسة الجمهورية، وكان قدومه للمشاركة في حفلة فتح مرسى تونس لسير السفن (1310) [1892].

ولمّا قدم على التوالي لزيارة تونس أصحاب الفخامة رؤساء الجمهورية الفرنسوية، أقيمت لكلّ منهم مأدبة ملوكية فاخرة بسراية المملكة، آخرتها الوليمة السنية التي أقامها سيدنا ومولانا الملك الموجود ـ متع الله ببقائه الوجود ـ بمناسبة قبوله لفخامة مسيو (دومرق) في عام 1350 [1931] وفي سنة 1330 [1911] اكتشفوا على تداعي بسقف صحن العلوّ الجديد، واستقرّ الرأي على هدمه، ولما شرعوا في ذلك وجدوا أنّ بقية السّقوف كانت متداعية أيضاً، فاضطرّوا لهدمها، وفي جملتها سقف البيت المطلّ على بطحاء القصبة، والبيت نفسه لظهور سقوط في جدار الطّاق السّفلي القديم المقام عليه البيت المذكور، وهذا البيت هو الذي كانت تقام به امتحانات الجامع الأعظم في صائفة كلّ عام، وكان مناخها جامع الزيتونة في الدّور القديم، فلما تولّى المستعرب مسيو (ماشويل) مديراً للمعارف سعى في نقل الامتحانات المشار إليها من الجامع لدار الباي ظناً منه فيما يقال أنّ جعلها خارج الجامع يسهّل له الحضور لجانب المشائخ النُّظّار بمجلس الامتحان، وفعلاً قدم ذات يوم لمجلس الامتحان وكان المشائخ في الاختبار، والجميع بحال جلوس فوق فرش أرضية (جراري) فوجم المدير عن خلع نعاله واكتفى بإشارة السّلام على الشيوخ بيده وهو واقف بالباب، وحضراتهم حيّوه بالمثل من مكانهم ولم يزيدوا على ذلك شيئاً، فكان هذا الحادث هو المانع لفتح باب مشاركة مسيو (ماشويل) في امتحانات جامع الزيتونة عمره الله.

وفي خلال هذه العشرين سنة الأخيرة، دار الحديث مراراً في شأن تجديد ما وقع هدمه من سراية المملكة وإصلاح ما بقي منها متداعياً للسّقوط، وكلّما عزموا على إنجاز تلك الأشغال إلاّ وكانت حالة الميزانية عثرة في ذلك السبيل، وبقي بمحفوظي أنّ الأشغال المذكورة كان وقع تقديرها بنحو ثلاثة ملايين في مدة الحرب، ولا شكّ أنها اليوم أكثر من ذلك بكثير،

ويلوح أنّ دار الباي سيطلع نجم شبابها من جديد في الأجل القريب، لأنّهم اعتبروا لها في ميزانية العام الفارط مبلغاً من المال لفحص أبنيتها الموجودة بأجمعها، مع تحرير خريطة هندسية لما تحتاج إليه من التّجديد، وقد استغرقت هذه الأشغال التحضيرية عدّة أشهر وتمّت على الوجه الأكمل. ويقال إنّ تلك الأشغال لما كانت ذات أهمية عظيمة لا بدّ من تقسيمها على عدة سنين، لأنّ ميزانية عام واحد ليس في وسعها التحمّل بتلك الأكلاف المعتبرة دفعة واحدة، ولأجل ذلك خصّصوا قسطاً أوّلاً بمقدار مليون بميزانية هذا العام للشروع في البناء المرغوب ليتمّ إنجازه في الأجل المحسوب[7].

ونختم هذه النّبذة بذكر الأسماء التي عرفت بها هذه السراية في أدوار حياتها المديدة، فقد كانت في مباديها تسمى دار حمودة باشا ثم أطلقوا عليها أسماء أخرى منها دار القصبة، ودار الباي، ودار الضّيوف، ودار المملكة، وسراية المملكة، وهذا التعريف الأخير هو اسمها في النّصوص الرسمية الحديثة، وأوّل ما استعملوه في عهد المشير محمد باي أثناء حوادث عهد الأمان، وأمّا عند الإفرنج فإنها لا تعرف بغير اسم دار الباي، وهذا مسك الختام، وعلى القارىء السلام[*].

---

(7) [إثر إحراز تونس على الاستقلال (20 مارس 1956)، تمّ ترميم وتحديد دار الباي التي أصبحت مقرّاً للوزارة الأولى ووزارة الشّؤون الخارجية]

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 1 ـ الجزء 8 (أفريل 1937).

مارستان العزّافين
والمستشفى الصادقي

ممّا لا خلاف فيه أنّ مدينة القيروان في عهد الأغالبة، ومدينة المهدية في زمن العبيديين، ومدينة تونس في العصر الحفصي، كان بجميعها ملاجىء خيرية لمعالجة المرضى، ومــآو للبائس، وابن السبيل، قاموا بذلك وفقاً للمقصود من الأحباس التي كان يتصدّق بها أهل البِرّ والمعروف على إخوانهم المسلمين المعوزين في هاتيك العصور، فلّما استقرّ الأتراك بهذه الدّيار في أواخر المائة العاشرة، كان خيارهم من ذكور وإناث بين سابق ولاحق في ميدان المشاريع الخيرية من شتّى الأصناف، وبديهي أن كان في المقدمة أعظم تلك القربات إلى الله، وهي المساجد، لإقامة الصّلوات، ثم ألحقوا بها المدارس لنشر العلم، وصرفوا مع ذلك مجموع همّتهم نحو حماية البيضة بإقامة الثّكنات والحصون والأسوار، ثم مدّ الجسور والطّرقات بأطراف البلاد، وعمّروها بالأسبلة لتمهيد أسباب العمران

وممّن حفظ لهم التّاريخ جميل الذّكر في هذا المقام، الباي محمد، **ويدعى حمودة باشا المرادي**، فهذا الأمير الصّالح، هو المؤسّس لمارستان العزّافين المعروف بتونس، وهو موضوع الحديث. ولقد عثرت أثناء بحوثي المتواصلة للكشف عن مآثر أسلافنا الكرام، برد الله مراقدهم، على وقفية هذا المستشفى الذي كانوا يسمّونه بالمارستان[1] فرأيت من خدمة التّاريخ،

---

(1) لفظ مارستان محرّف عن بيمارستان في اللغة الفارسية، ودخل للاستعمال بتونس في عهد =

نشر عبارة هذه الوثيقة الجليلة، تخليداً لذكر صاحبها قدس الله سرّه، وآثرت بها هذه المجلّة المباركة، لا سيما وأنّ العامّة في تونس، بل وحتّى بعض الخاصّة، يعتقدون أنّ مستشفى العزّافين من مآثر صاحبة الخيرات عزيزة عثمانـة[2]، وهو مجرّد وهم سرى لبعض المتقدّمين درج عليه المتأخّرون بسبب أنّ هذه المحسنة الكبيرة ما زالت لها صدقات جارية إلى هذا الزّمان، وقع الاصطلاح على إلحاقها من حيث الوجهة النّظامية بأوقاف المارستان، كوقفها المؤسّس لتزويج البنات الأبكار، ووقفها الخاصّ بختن فقراء الصّبيان الذين كانوا يباشرون اختتانهم يوم عاشوراء بسقيف المستشفى[3]، ويزوّدونهم بالأكسية اللاّزمة من ريع ذلك الحبس، فحسبوا أنّ المستشفى نفسه أيضاً من حسنات تلك السّيّدة الكريمة، ولم يكن هذا الغلط التّاريخي بالمقصور على أهل تونس فقط، بل نجده أيضاً بين أهل البوادي، ولنسق لك مثالاً في ذلك، ففي مدّة مباشرتي لعمل بنزرت، حضر لديّ ذات يوم شيخ قبطنة، ليحيطني علماً بأحوال جهته، وكان في جملة مقرّراته الإعلام بنازلة رجل أصيب بطلقة **مكحلة** [بندقية]، جعلت حالته في خطر، فسألته هل عجّل بعرضه على الطبيب؟ فأجاب: نعم، لمجرّد وقوع الحادث عجّلت بحمل الجريح لمستشفى عزيزة عثمانة بفريفيل (كذا) قال ذلك معتقداً أنّ مستشفى فريفيل[4]

= الدّولة المرادية على يد الأتراك. قال الشّهاب الخفاجي: هو لفظة فارسية استعملها العرب، ومعناها مجمع المرضى، لأن بيمار معناه المريض، وستان هو الموضع، وأوّل من صنعه بقراط أهـ من كتابنا جيش الدّخيل في اللسان التونسي الأصيل.

(2) اسمها عزيزة بنت أحمد بن محمد بن عثمان داي، دفين زاوية الشّيخ سيدي أحمد بن عروس، وكانت وفاته سنة 1019 [1610] وعلى عهده كان قدوم جالية الأندلس الأخيرة بتونس، أمّا المحسنة حفيدته العزيزة عثمانة، فقد التحقت بالدّار الآخرة في حدود سنة 1080 [1669] ودفنت بتربتها المجاورة للمدرسة الشّمّاعية بحلقة النحال (لا النعّال كما هو مشهور على ألسنة النّاس بتونس).

(3) ختن الصّبيان الفقراء تباشره جمعية الأوقاف بطريقة منتظمة في موسم عاشوراء من كلّ عام، واختتانهم يقع في هذا الزّمان بمدرسة بئر الحجار.

(4) فريفيل، بلدة تابعة لعمل بنزرت، ظهرت في عالم الوجود على رأس هذا القرن المسيحي، واسمها مقتبس من اسم الوزير (جول فيري) مبتكر مشروع حماية فرنسا على تونس، ومن =

الذي هو مؤسّسة عسكرية فرنساوية حديثة فرع لمارستان عزيزة عثمانة الذي لا وجود له إلاّ في عالم الخيال، أو أنّ كلّ مستشفى يطلق عليه اسم عزيزة عثمانة.

أمّا الوثيقة التّاريخية المشار إليها في مقدمة الكلام، فهذه عبارتها:

الوثيقة التاريخية:

«الحمد لله الذي بيده الضّعف والقوّة وخلق الدّاء والدواء، وجعل الجرم كفّارة للجرم جالباً للأجر دافعاً للبلوى، يعلم ما ظهر وما بطن وما عليه كلّ انطوى، والصّلاة والسلام على نبيّه الأكرم، وطبيبه الأعظم سيّد العرب والعجم سيّدنا ومولانا محمد خاص المحبّة عام الرّسالة والدّعوى، رحمة العالم وأرومة دوائه قطب دائرة حكمه ومعدن شفائه المنزّه في فصيح نطقه عن الهوى، كفى دليلاً بسورة والنجم إذا هوى، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار أنجم الهدى وأساس التّقوى، وبعد: فلّما كانت سلسلة الممكنات مرتبطة بوجود الحقّ تبارك وتعالى فكذلك ينتظم نظام كلّ مملكة بوجود أمير أو خليفة فإنّ الأصل أنّ السّلطان أمان من حوادث الزّمان، كان ممّا منّ الله به على هذه الدّيار التّونسية والبلاد الإفريقية حضرة من أنام الأنام في ظلّ الأمان، وأنشأ لهم سحائب الخيرات والإحسان، فأفاضها عليهم من هاطل وبلها الهتّان، من ردّ بسياسته كيد ذوي البغي والطّغيان، ومهّد بهيبة رئاسته طرق الخوف والعدوان، حتّى سار بها الرّجال والولدان، وذوات الخدور الخرائد الحسان، فكم قاس قساه بقسيّ سهمه السّديد، فأصاب الغرض بحبل الوريد، وكم عاد إليه فعاد عليه بعائدة الضّلة من فيض بحره المديد، وهو السّيّد الأمين، العلم الأظهر الشّهير نخبة الأمراء الماضين. وتحفة سلالة

= ملحفاتها بلدة تينجة، تشملان معاً على نحو ثمانية آلاف نسمة أكثرهم من العملة الفرنساويين بترسخانة سيدي عبدالله بوراوي، وقد اختصّت تلك الجهة بإنتاج ثمار الفراولة ذات التّجارة الرابحة، يصدر منها أرباب السّواني نحو أربعة آلاف رطل في اليوم لفندق الغلّة بتونس.
[اسمها الآن منزل بورقيبة]

الباشات السّالفين، مدبّر حياة عسكر تونس المشهورة، وصاحب راياتها المنشورة، أخو الإنابة والإصابة في القول والإنشا، السّيّد أبو عبدالله محمد باشا، أعانه الله بعناية رعايته، وأدام على المسلمين العافية ببقاء ولايته، إذ كان أعلى الله تعالى قدره، وأحفل وأجمل بجميل الثّناء ذكره، مع اشتغاله بهذه السّياسة العظيمة، والرّئاسة الصّميمة، له مزيد اعتناء بالتّقرّب بالقربات، من مواساة ذوي الحاجات والهيئات، والصّدقات الوافية الجارية، والأحباس الصّالحة الباقية، فمن ذلك ما تعلّقت به الآن همّته العالية، وتوجّهت إليه وجهته السامية، رفقاً بحال الفقراء ورثاً لشأن الضعفاء والمرضى. أحدث مارستاناً إليه يأوون، به دواؤهم وقوتهم وما يحتاجون، وقد استقرّ على ملكه حفظه الله تعالى وأبقى إسعاده، وبلّغه ما أمله: 1 ـ جميع الفندق القبلي المفتح قرب القباقبيين. ومكتب العزّافين داخل تونس المحروسة يحدّه قبلة حيث المفتح وشرقاً حقّ الآن للدعيصي، وجوفاً حقّ للمؤذن الحاج محمد القصّار وغيره، وغرباً الطّريق بحقوقه ومنافعه. 2 ـ وجميع السّتّة حوانيت المخرجة منها الشّاملة لها حدوده المذكورة إلخ. 3 ـ وجميع الفرن المعدّ الآن للطبخ إلخ. 4 ـ وجميع الكوشة المعدّة إلخ. 5 ـ وجميع الفندق الجوفي إلخ. 6 ـ وجميع الحانوتين المخرجين من الفندق المذكور إلخ. 7 ـ وجميع المخزن الجوفي إلخ. 8 ـ وجميع الكوشة الشرقية إلخ. 9 ـ وجميع الحانوت الشّرقي إلخ. 10 ـ وجميع الكوشة القبلية إلخ. 11 ـ وجميع الفندق القبلي إلخ. 12 ـ وجميع الحانوتين الشّرقيين إلخ. 13 ـ وجميع الفندق ذي البابين إلخ. 14 ـ وجميع الفندق الغربي الباب إلخ. 15 ـ وجميع الحمّام الغربي الباب المحدث البناء الكائن ببلد الكاف إلخ. 16 ـ وجميع الخمس حوانيت الملاصقة له إلخ. 17 ـ وجميع الماء المجلوب من العين المعروفة بعين سيدي سالم إلخ. 18 ـ وجميع الماء الخارج من الحمّام المذكور إلخ. 19 ـ وجميع الحمّام الغربي المفتح ببلد زغوان إلخ. 20 ـ وجميع الأربع تبنات ماء من الماء الجاري بالبلد المذكورة إلخ. 21 ـ وجميع الفرن القبلي المعدّ للخبز الكائن ببلد الكاف إلخ. 22 ـ وجميع الطّاحونة المعدّة لرحي

الطّعام الغربية بالكاف إلخ. 23 ـ وجميع الحمام الشّرقي الكائن برحبة بنزرت إلخ. 24 ـ وجميع الكوشة والدّار الملاصقة لها بـربض بلد باجـة إلخ. 25 ـ وجميع الفندق الغربي بها إلخ. 26 ـ وجميع النّصف من جميع الدّار الجوفية الباب الكائنة بحارة اليهود داخل باب السّويقة من تونس المحروسة إلخ. وبعد تقرّر ذلك كذلك حضر الآن لشهيديه السيد المعظّم الأرفع مولانا أبو عبدالله محمد باشا صاحب كرسي مدينة تونس المحروسة، وهو الواضع طابعه هنا أيّده الله ونصره، وألهمه الخير وبصره، وهو المالك لجميع الرّبع المحدود المذكور أعلاه. زيد فخره وعلاه، ابن الأمير المعـظم المنعّم المقدّس المرحوم السّائر إلى رحمة الله الملك القيوم مولانا أبي الظفر مراد باشا قدّس الله روحه، وأسكنه من الجنان فسيحه، وأشهد حفظه الله تعالى أنه حبّس ووقف جميع الرّباع المحدودة المذكورة أعلاه بما لها من الحقوق والمنافع، وما يعدّ منها وينسب إليها على ما سيذكر مفصّلاً بعد، فالفندق المبدأ بذكره جعله مارستاناً منزلاً لسكنى المرضى والجرحى من سفر البحر أو المحال أو الغزو في سبيل الله الفقراء الذين لا مال لهم وليس لهم من يقوم بهم ولا من يأويهم بمدينة تونس، فينزل به المرضى المذكورون ويقيمون مدّة بقاء المرض بهم إلى حصول الشّفاء التام، فإذا برىء من مرضه أحد المرضى وأخبر الطبيب بشفائه، فللنّاظر بالمارستان المذكور إخراجه، ولا فرق في المريض والجريح أن يكون عربياً أو عجمياً، تركياً أو غيره، وباقي الرّباع المذكورة كلّها تصرف غلّتها فيما سيذكر ويفسّر بعد، فمنها ما يكفيهم من القوت والدّواء الـلاّئق بحال كـلّ واحد منهم، ومن يقـوم بخدمتهم وتمريضهم ليلاً ونهاراً إلى بلوغ الغاية، وكذا ما يكفيهم من الفراش والغطاء والوطاء من الحصر والمضارب والسّفاسر والوزاري[5] شتاء، والملاحف من

(5) الوزاري جمع وزره، وهي عبارة عن احرام من نسيج صوف الضّان الأسود في غالب الأحوال، وقد يكون من الصّوف الأبيض، وإليها ينسب سوق الوزر بتونس، خلافاً لما يعتقده بعضهم من أنها نسبة وزيرية.

الكتّان صيفاً، ومن قدّر الله بوفاته من المرضى المذكورين، فالمارستان المذكور ينفق عليه ما يكفيه في كفنه ومواراتـه ودفنه، وعيّن حفظه الله تعالى طبيباً ماهراً لعلاجهم، فيعالج كلّاً منهم بما يليق به من الأشربة والمعاجن والدّهان والمراهم، على أنّ له بيتاً من المارستان المذكور يضع فيه ما يحتاج إليه من الأدوية وغيرها، وحانوتاً من الحوانيت الملاصقة للمارستان المذكور يجلس فيه، وثمانية ناصرية[6] وأربع خبزات موظّفة له كلّ يوم، وعيّن ناظراً على المارستان المذكور ينظر في مصالحه ويقبض محصول أوقافه ويصرفها في مصارفها، وله ستّ ناصريات[7] وأربع خبزات موظّفة كلّ يوم، وطبّاخاً يطبخ لهم قوتهم من لحم وغيره، وله خمسة ناصرية وخبزتان كلّ يوم، ورجلاً ينفق عليهم وكيلاً للخرج وله أربعة ناصرية وخبزتان كلّ يوم، ورجلاً بوّاباً ملازماً للمارستان ليلاً ونهاراً يتعاطى غلق أبوابه وكنس عرصته وفنائه واستقاء مائه للشّراب والغسل وغسل ثياب المرضى وغير ذلك ممّا يحتاجون إليه، وله ثمانية ناصرية وأربع خبزات كلّ يوم، والخبز المذكور كلّ خبزة منه بناصري في زمن الرّخاء والشّدّة[8]، حبّس جميع الرّباع المذكورة ووقفها على من ذكر كيف ذكر، بما لها من الحقوق والمنافع، حبساً حراماً. ووقفاً دائماً سرمداً لا يباع ولا يوهب ولا يورث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهو خير الوارثين، لا يبدّل عن حاله، ولا يغيّر عن منواله، إلى أن يرثه الله قائماً على أصوله، محفوظاً بشروطه، ﴿فمن بدّله بعدما سمعه فإنّما إثمه على الذين يبدّلونه، إن الله سميع عليم﴾، قصد بذلك ابتغاء وجه الله العظيم، ورجاء ثوابه الجسيم، إنّه يجزي المتصدّقين، ولا يضيع أجر المحسنين، وذلك كلّه بعد

---

(6) هذه الجراية المعطاة للطّبيب كانت بمقدار جراية شيوخ التّدريس في ذلك الزّمان.

(7) مفرده ناصري، نسبة لمبتكره السّلطان النّاصر لدين الله، وهو من مسكوك الفضّة، يقابله في المسكوك الذّهبي الدّينار المؤمني، نسبة لعبد المؤمن بن علي، وكانوا يلقّبونه في إفريقية بأمير المسلمين، وتلقّب بعده المستنصر بالله الحفصي بأمير المؤمنين.

(8) يستروح من هذا القيد أنّهم كانوا يعرفون في ذلك الزّمان نظام المقاولات بطريقة المناقصة في لزم التوريد والتموين وشبه ذلك.

التبدية بما يحتاج إليه الرّبع المذكور من بناء وإصلاح، حتّى يبقى قائماً على أصوله، منتفعاً به، وجعل النّظر في ذلك لولديه المعظّمين الأسعدين المرفّعين الأمجدين السيد أبي الظّفر مراد باي صاحب المحال المنصورة، والسّيد أبي عبدالله محمد باي صاحب سنجق مدينة القيروان المحميّة وسوسه والمنستير وصفاقس والبلاد السّاحلية، حفظهما الله تعالى، ثم للأكبر فالأكبر، والأصلح فالأصلح من إخوتهما الذّكور، ثمّ لأولادهم، وأولاد أولادهم، وأعقابهم وأعقاب أعقابهم، ما تناسلوا، وامتدّت فروعهم في الإسلام، لا يتقدّم أهل الطبقة السّفلى على أهل الطّبقة العليا في النّظر، ولو كانوا أسنّ منهم، وأذن حفظه الله تعالى للنّاظر الآن في المارستان المذكور، وهو الأجلّ موسى خميرة الأندلسي، في قبول ذلك منه وحوزه جميع الرّباع المسطورة عنه، فحضر وقبل ذلك منه قبولاً تامّاً، وأحاله على ثواب الآخرة، شهد على إشهادهما بذلك في الحالة الجائزة من وقف على الاستقرار المذكور كيف ذكر بتاريخ أواسط شهر ربيع الأول الشّريف بمولده صلى الله عليه وسلم تسليماً عام ثلاثة وسبعين وألف [1662] بمعرفة النّاظر المذكور، والمعرفة بالسيد محمد باشا المذكور تامّة، حفظه الله تعالى وأحسن إليه، بشهادة الفقيهين الأعدلين الشّيخ أبي عبدالله محمد المحرزي، والشّيخ المفتي عبدالله ناجي[9]، فهذه نسخة ذلك على ما هو عليه، فمن قابله بأصله اتّفقا وكانا نصّا سوا، وشهد بذلك هنا، أوائل حجّة الحرام من عام مائة وألف [1688] أهـ». يليه عقدا شاهديه.

بعد هذا نقول إنّ صريح عبارة هذا التّحبيس تفيدنا أن مارستان العزّافين كان بأصل وضعه مستشفى خاصّاً بالغزاة والمجاهدين المسلمين في البّر والبحر، وبالتّالي وقع التوسّع في النّفع به لفائدة عموم فقراء المسلمين، لا سيما بعد القضاء على القرصنة البحرية ومحو قوانينها من لوحة الوجود، فكان المارستان المتحدّث عنه من يومئذ قاصراً على الفقراء والبائسين من

(9) لم نقف على اسم هذا الفقيه بسلسلة الفقهاء التي بين أيدينا.

أهل البلاد طيلة العصر الحسيني، وقد توفّق الباشا علي باي الثاني ابن حسين ابن علي بتعزيزه بتكيّة للرجال، وأخرى للنّساء في سنة 1188 [1774] ومن القدر المقدور أن كان القرن الثالث عشر للهجرة مرتعاً لمقدّمات التّمدّن الأروباوي بتونس، وفي أثنائه توثّقت روابط الخلطة بن تونس وبين البلاد الأروباوية، ولا سيما فرنسا الفخيمة حامية هذه الديار، فأخذت الدّولة التونسية من يومئذ تتدرّج في مراقي النّهوض بالحاضرة المحمية، اقتداء بعواصم أروبا، إلى أن كانت دولة المشير محمد باي، فأمضى بمساعدة الدّولة الفرنساوية اتّفاقاً في التّحمّل بسبعة ملايين ريالاً لجلب ماء عين زغوان لمدينة تونس التي كانت ترتوي منه قبل ذلك بستمائة سنة في عهد المستنصر الحفصي بواسطة القناة التاريخية التي أقامها لذلك الأمبراطور (هادريان) في أوائل القرن الثّاني للميلاد والخامس قبل الهجرة، وكان في مقدّمة النّظامات الجديدة التي أدخلها المشير المذكور لبلاده، مشروع عهد الأمان الذي أعلن به أخوه من بعده، وأسّس المطبعة الرّسمية، واشترى لوازمها من باريس، كما أسّس مجلساً بلدياً بالحاضرة، ووضع نظاماً لديوان الشّرع المطهّر، وسنّ له قانوناً جامعاً من إنشاء صهره الشّيخ محمد بيرم الرابع وخلفه بكرسي الإيالة في سنة 1276[1859] شقيقه المشير محمد الصادق باي، فسار في منهج الإصلاح العصري من حيث انتهى سلفه، ووجّه مهجته بأجمعها في ذلك السّبيل، مبتدئاً بالإعلان بقانون عبد الأمان المشار إليه، ونصّب المجالس النّاتجة عنه، ثم أحدث جريدة رسمية للحكومة وهي صحيفة الرّائد التونسي التي هي اليوم في السّنة الثامنة والثمانين من عمرها الزّاهر السّعيد، ووضع ترتيباً للوزارات، ووسّع في دواليبها التي أنشأها من قبله ابن عمّه المشير الأوّل أحمد باي، وأعار جانباً عظيماً من نشاطه للجانب العلمي، فوسّع في أرزاق شيوخ التّدريس بجامع الزّيتونة، وأقام المكتبة الصّادقية مكان المكتبة الحفصية بالعبدلية التي عفت رسومها من أواخر المائة العاشرة، متمّماً بذلك مشروع ابن عمّه المشير أحمد باي الذي عمّر صدر جامع الزّيتونة بخزانة كتبه الثّمينة التي أحدثها في سنة 1256 [1840] ووضع ترتيباً للتّدريس بالجامع،

وآخر لضبط أحوال الإشهاد العام، وآخر لتحسين أحوال السّجون وأهلها، وآخر للفلاحـة، إلخ إلـخ... وكانت مفخـرة مساعيـه الجليلة في باب المستجدّات العصرية، تأسيس المدرسة الصّادقية، كلّ ذلك تمّ على يد وزيره النّاصح الأمين المرحوم خير الدين، وهنا لا مناص لنا من الإشارة لكون الإصلاحات التي تمّت على يد خير الدين، كان لأهل العلم نصيب فيها، لا سيما العلماء الأعلام، والشّيوخ العظام، منهم الشيخ أحمد بن الخوجة، وكان في رأس تلك الطّائفة الصّالحة، ومن رجالها الأطهار أيضاً الشّيخ الشّاذلي بن صالح، والشّيخ محمد بيرم، والشّيخ الطاهر النّيفر، والشّيخ مصطفى رضوان، والشّيخ سالم بوحاجب، والشّيخ عمر بن الشيخ، وغيرهم الهداة الأعلام، والمقام لا يقتضي التوسّع بأكثر من هذا لأن زيادة البسط فيه تبعدنا عن الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه، فلنرجع بقرّاء المجلّة لروح المقصود ونقول، إنّ من متمّمات. الإصلاحات التي وقع إنجازها في عهد الدّولة الصادقية، المستشفى الصّادقي، وهذا المستشفى الذي شمله برنامج الوزير خير الدين لم تهيىء له الأقدار إظهاره لعالم الوجود، لأنه بارح الوزارة قبل انتهاء أعماله فيه وبعد تهيئة أسبابه، لأن يكون مستشفى إسلامي تام العّدة، يحاكي المستشفيات الأروباوية، لا سيما وأنّه كان يومئذ بتونس مستشفى خاصّ بالأروباويين، واسمه مستشفى (صان لويس) يعالجون فيه مرضاهم[10]، فتخلّى خير الدين عن الوزارة في سنة 1294 [1877] وتولاّها

(10) في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة ظهر على يد قنصل فرنسا أوّل مستشفى للجالية الأروباوية بتونس، وكان موقعه بحومة سيدي المرجاني داخل باب البحر، وكان يعرف بين أهل البلاد باسم «سبيتار النّصارى» ولفظ سبيتار محرف عن hopital في الفرنساوية ومعناه مستشفى، وبالتّالي عوض هذا المارستان بمستشفى آخر أوفر منه مرافقاً وأحسن مناخاً، وفي سنة 1249 [1833] وقع تحويل المارستان الأوّل بمساعي قنصل فرنسا لكنيسة أطلق عليها اسم «سانت كروا» رمزاً لطغمة الرّهبان الثّالوثيين المنتصبين بها، وهذه هي عين الكنيسة الموجودة لهذا الزّمان بنهج الكنيسة بتونس trinitaires وهذا نصّ الأمر الملوكي الصّادر بذلك من المرحوم المولى حسين باي:

من عبدالله سبحانه الرّاجي عفوه وغفرانه، المتوكّل عليه، المفوّض جميع الأمور إليه، =

مكانه (مؤقتاً) الوزير محمد خزندار وفارقها بعد شهور، فتقدّم لها الوزير مصطفى بن إسماعيل في سنة 1295 [1878] وحاول أن يبني لنفسه ـ ولكن بدون أساس ـ صرحاً من المجد، قياساً على صنيع سلفه الأسبق خير الدين، وهنا دبّر عليه بعض خواصّه بالشّروع في بداية أمره باستمالة العلماء وأعيان البلاد إليه، حيث كانوا على بيّنة من نشأته وأطواره، فبادر لاشتراء كتب المرحوم أمير الأمراء عصمان قائد عساكر السّاحل، وأضاف لها ما وصلت إليه يده من كتب الوزير الأسبق مصطفى خزندار، وحبّس جميع ذلك على أهل العلم بجامع الزّيتونة، ثمّ سعى في إتمام مشروع المستشفى الصّادقي الذي بقي معّطلاً من عهد خير الدين، وفعلاً تمّ ذلك في أوائل صفر سنة 1296 [1879] ووقع نصبه بالقشلة المعروفة بقشلة البشامقية(11)، ونقل إليه مرضى مارستان العزّافين، وجعلت نظارته للشيخ محمد بيرم رئيس جمعية الأوقاف التي كان بيدها من قبل حقّ التّصرّف في مداخيل الرّباع والعقارات الموقوفة على مارستان العّزافين، وفي يوم افتتاحه ترأس سموّ الباي المعظّم بنفسه

حسين باشا باي، أمير إفريقيا وفقه الله لما يرضاه، وعانه (كذا) على ما أولاه، إلى معاهدنا القنصل إسكندر دفال القائم بقنصلية دولة الفرنسيس بتونس، أمّا بعد: فإنّه وصلنا كتابكم في شأن كنيسة لاجتماع النّصارى فيها وجميع ما بيّنتم لنا علمناه، والجواب: نحن أعطيناكم المكان المعروف بالسبيتار داخل باب البحر وجعلنا كراءه ألف ريال كلّ عام، وإن كنّا سابقاً نأخذ منه كراء كثيراً، لكنّ مساعدة أحوالكم آثرناها، وقد أذنّاكم في التّصرّف فيه على الوجه المناسب لكم، ولا زائد إلاّ الخير. وكتب في 28 محرم سنة 1249 [1833] أهـ. ثم في سنة 1261[1845] تفضّل المشير أحمد باي بإسقاط جملة الكراء الموظّف على هذه الكنيسة، وزاد في مساحتها بما يقرب من مساحتها الأصلية

(11) قشلة البشامقية، هي إحدى القشلات الخمس التي أحدثها المرحوم الباي حمودة باشا الحسيني بتونس، والأربع الأخريات هي: قشلة الزّنايدية وبها اليوم دواوين إدارة جمعية الأوقاف، وقشلة العطّارين وبها اليوم المكتبة العمومية الفرنساوية، ومدرسة اللغة والآداب العربية، وإدارة الأنطكخانة، وقشلة سيدي عامر البطّاش، وتسمّى أيضاً قشلة المال، لأنّ المشير أحمد باي نصّب بها البنك التونسي الذي كانت حياته قصيرة وآل أمره للإفلاس، وبها اليوم مصالح الجمعية الخيرية الفرنساوية، وهي الكائنة ببطحاء نهج سيدي علي عزوز، وقشلة الحنفية، وهذه عفت رسومها وأقام المحلس البلدي مكانها بطحاء فسيحة مشجّرة للعموم، وهي الكائنة بسوق الوزر.

على حفلة التّدشين إظهاراً لعنايته بهذا المشروع الجليل، وأشرف بذاته على المرضى وأوصى بهم خيراً، وخطب في ذلك المجلس وحوله وزراؤه ورجال دولته وأهل العلم، فقال، والكلام من إنشاء وزير القلم الشيخ محمد العزيز بوعتّور: لقد سرّني ما شاهدته من حسن وضع هذا المستشفى المبارك، واستحسنت ترتيبه وتنظيمه، وأنا أشكر جنابك أيّها الوزير الأكبر (مصطفى بن إسماعيل) على اعتنائك بهذه المصلحة التي نرجو أن تكون محقّقة النّفع حيث أنجزتها في أقرب وقت وعلى وفق المأمول، كما أنّي أثني على من باشر وضعه على وفق المقصود منه وبذل جهده في ذلك، وأحثّ من انتخبناهم لإجراء ترتيبه على الاعتناء بما تقتضيه مصلحة المحلّ وسكّانه ببذل كلّ منهم جهده في ذلك بما تقتضيه مأموريته، ونرجو من الله تعلى أن يرينا نفعه ويعين أولئك المنتخبين على ما يثمر لهم الشّكر، وأحرّض جنابك على الاعتناء بإعانتهم والمحافظة على إجراء ترتيبه واحترامه، والمأمول من الله تعالى أن يقرّ أعين الأهالي بما يشاهدونه من راحة سكّانه وانتظام حالهم وعموم الشّفاء لهم أهـ.

وقد أرّخه صاحبنا المرحوم العلاّمة المؤرّخ الشّيخ محمد السنوسي بأبيات ننقلها هنا إتماماً للفائدة:

لمشير تونسٍ خير فضل يقتفى ... فيما أشاد إلى الأهالي واصطفا
فحمى جميعهم بفضل وارف ... وحباهم منه الحباء الألطفا
نشر المعارف والعوارف بعد أن ... حاط المحاكم والزّروع بما كفى
والآن اثل خير مستشفى به ... حفظ الحياة لكلّ شخص قد وفا
وأتى يعود جميعهم في موكب ... ظلّ الفخار عليه أضحى مورفا
حتّى غدا كلّ ينادي داعياً ... ويقول في التّاريخ لي قدم الشّفا
1296 [1879]

وبالتّالي زيد في توسيع محلاّت المستشفى الصّادقي بإدخال المدرسة اليوسفية في عموم أبنيته، ثمّ باستلحاق جميع الدّور والحوانيت المجاورة له

بنهج البشامقية، كما ألحقت به أيضاً الأرض الفسيحة الكائنة بالقصباء التي كانت موقعاً لمقبرة السّلسلة الدّارسة التي سبق نقل رفاتها لمقابر الزّلاّج لنحو ثلاثين سنة فارطة، بحيث لقد أصبح اليوم المستشفى الصادقي[12] في ابتهاجه وانتهاجه يضاهي أرقى المستشفيات العصرية بحسن مناخه ومرافقه وانتظام أحواله، كلّ ذلك مع بقائه على قاعدة الاختصاص بمعالجة المرضى المسلمين دون غيرهم، وحيث أصبحت مداخيل أوقافه المنجرّة له من مارستان العزّافين غير موفية بحاجاته لما تناوله من التّوسيع والضّبط والاصلاح الملائم للنّظم الصّحّية العصرية لتحقيق النّفع به لقصّاده الكثيرين من أهل الحاضرة وغيرهم، فإنّ الدّولة أغدقت عليه بما فيه الكفاية من الميزانية العامّة للقيام بمهمته الجليلة، بحيث هو اليوم جدير بأن يعتبر في مقدّمة التّأسيسات التّونسية النّافعة التي حقّ لنا الافتخار بها بين عموم عناصر السّكّان، لا سيما إذا اعتبرنا ما نتج عن نظامه الحديث من تهيئة طبقة معتبرة من المعاونين الطّبّيين التّونسيين الذين بلغوا في الحذق لصناعتهم لمنتهاه، وعمّ به النّفع في الحواضر والبوادي، وربك يخلق ما يشاء ويختار(*).

(12) [بعد الاستقلال أطلق على المستشفى الصادقي اسم: مستشفى عزيزة عثمانة].
(*) المجلة الزيتونية - المجلد 3 - الجزء 9 (اكتوبر 1939).

أرباض مدينة تونس

في البدء كانت مدينة تونس عبارة عن بلد يعرف في التاريخ باسم ترشيش، وهو لفظ محرّف عن طرشيش في اللغة العبرية، ومعلوم أنّ اليهود استوطنوا إفريقية قبل أن أشرق عليها نور الإسلام بأحقاب، نزحوا إليها من سواحل الشّام، وسكنوا بها، واتّخذوا لهم معابد ومتاجر كانت سوقها نافقة حوالى العصور التي ابتدأ فيها ظهور النصرانية بالشمال الإفريقي، والنّصرانية أعقبها دخول الإسلام لهذه البلاد المباركة سنة 29 للهجرة (649 للميلاد). وكانت تونس تعرف في عهد الدولة الرومانية باسم توناس (Tunés) ومنه جاء لفظ تونس، وانتحلوا له ما شاءوا من التآويل حتى أنّ ياقوت صاحب معجم البلدان حشره في المثلّثات فقال: إنّ نون تونس تُضمّ وتُفتح وتُكسر، وقد ساعدهم على ذلك جواز اعتبار لفظ تونس من مشتقّات الأنس، الأمر الذي تفاءلوا منه خيراً، ونوّه به المؤرّخون والأدباء السّابقون واللاّحقون، من ذلك الأبيات المعروفة التي مطلعها:

فتونس تونس من جاءها ... وتدركه حسرة حيث سار

ومنه قول الآخر في ضدّ الأنس المستفاد من اسمها:

- لعمرك ما ألفيت تونس كاسمها ... ولكنّني ألفيتها وهي توحش

وممّن أفاض القول عن نشأتها ومبادىء عمارتها وذكر خيراتها وبركاتها، الشّريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق، ألفه سنة 548هـ [1153] للملك

(روجير) صاحب صقلّية، ولكن يستفاد من عبارة أبي عبيدة الله البكري في جغرافيته، وهو من رجال المائة الخامسة، أنّ تونس كانت متمصّرة في القرن الرابع لاشتمالها على مميّزات المدن الجامعة، كالمصانع، والأسواق، والأسوار، والأرباض، من ذلك ربض باب الجزيرة الذي سيأتي الكلام عليه.

وكانت الأرباض واقعة حول سور المدينة، وأشهرها ربض باب سويقة، وربض باب الجزيرة المذكور آنفاً. وكان لهم ربض آخر خارج سور القصبة، يسمّى ربض حومة العلوج، وموقعه بالجهة المعروفة اليوم بباب العلوج حيث كانت مساكن النّصارى من أهل الذِّمَّة في عهد الدّولة الحفصية. قال الوزير السراج في الحلل السندسية عند الكلام على دولة السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي، إنّ أمّه كانت من العلوج، اسمها مريم، فلّما بويع ورد عليه أخواله فأسكنهم بالرّبض الملاصق للقصبة، وعرف بحومة العلوج من يومئذ. واعتبر ما في طيّات هذا الخبر البسيط من دلائل حذقهم في سياسة الدولة الخارجية لعهدهم، لأنّه يبرهن عمّا كان لهم من المعاملة الحسنة مع معارفهم وخلطائهم الأوروبيين، ويلوح أن أمّ السّلطان الحفصي المتحدّث عنه، كانت من ثمرة تلك المغانم الكثيرة التي كانت تقع بأيدي الغزاة المسلمين في الغدوّ وفي الرواح أثناء مفاجأتهم لبعض جزر البحر المتوسط الغربية من البلاد التونسية، ولدينا مجموعة معاهدات بنصّها العربي فيما كان لبني حفص من العلائق السياسية والتجارية مع بعض الدّولة الأروبية، ولا سيما في عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز، واسطة عقدهم، ولولا خوف الإطالة والابتعاد عن موضوع الحديث لتوسّعنا في هذا المقام، ونقلنا بعضها للقارىء ممّا لم يسبق نشره بتونس.

واعلم أنّ الرّبض في اللغة من معانيه سور المدينة وما حوله من بيوت ومساكن ومأوى للأغنام، وبهذا المعنى عرفت الأرباض في اصطلاح أهل تونس، وهي أي الأرباض في الزمن الحاضر ربضان، ربض باب السّويقة، وربض باب الجزيرة، ولا ثالث لهما، بل هما نفسهما لم يبق منطبقاً عليهما

في الحقيقة لفظ ربض، لأنّ منطقة حاضرة تونس توسّعت جدّاً في هذا الجيل، بحيث إنّ أسوار المدينة وما حولها من المساكن صارت كلّها أو جلّها داخلة ضمن تلك المنطقة بفضل التوسّع في المباني والمساكن الأنيقة المحدثة على الطّراز الجديد حوالي مدينة تونس وأرباضها.

هذا وقد كان أهل الحاضرة في القديم منقسمين إدارياً لثلاثة أقسام، قسم المدينة، وعلى رأسه شيخ المدينة الذي هو عميد السّكّان، وقسما ربضي باب السّويقة وباب الجزيرة، ولكلّ مهما شيخ مستقلّ بأمره. وكان أعيان كلّ قسم يتقدّم بهم شيخهم عند دخولهم على أمير البلاد في مواكبه الرّسمية، هكذا كان نظامهم في عهد الدولة الحفصية، وفي عهد المراديين وفي مدّة هذه الدولة السعيدة منذ زمن المولى حسين بن علي مؤسس بيت الملك الحسيني، خلد الله بقاءه، ولم يعدل عن هذه الطريقة إلاّ في أواسط دولة المقدّس المولى علي باي الثالث، فكان شيخ المدينة أمير اللواء السيد محمد العصفوري عميداً لعامّة السّكّان المسلمين في حاضرة تونس، بدخول شيخي الرّبضين المشار إليهما، وصارت خطّتهما بإثر ذلك اسماً بلا مسمّى، وصاحباها حشرا في زمرة رجال الحاشية السّنيّة، ويستفاد من كتب التّاريخ أنّ شيخ ربض باب السّويقة كان من أصحاب الحول والطول في عهد الدّولة الحفصية. **قال في المؤنس**[1]: إنّ الأمير أبا عبدالله محمد بن أبي محمد الحسن الحفصي بعث محمداً الغريبي رسولاً إلى السّلطان الغوري صاحب مصر، فأرسل له الغوري هدية، منها الزرافة، وكان الغريبي شاخ بباب السويقة فخافه محمد فقتله غدراً أهـ.

بقي علينا التعريف بمسمّيات الرّبضين المشار إليهما أعلاه، يعني باب السّويقة، وباب الجزيرة، فباب السّويقة كان عبارة عن باب كبير فاصل بين سوق يعرف اليوم بالسّوق المسقّف، وبين سور المدينة، وأمّا لفظ سويقة فقد

(1) [«المؤنس» ـ ط 2 ـ ص 161]

جاء ذكره في مواضع كثيرة من التاريخ الإسلامي. قال ياقوت في كتابه (المشترك وصفاً والمفترق صقعاً) سويقة: سبعة عشر موضعاً، وهي بضم السّين وفتح الواو بلفظ التّصغير، لها معنيان: أحدهما أن تكون تصغير سوق البيع والشّراء، والآخر أن تكون تصغير السّاق وهي القارّة المستطيلة تشبه ساق الإنسان، فما كان من ذلك في البوادي فهو من هذا، وما كان في المدن فهو من الأوّل أهـ. ثم ذكر السّبعة عشر موضعاً منها سويقة حجّاج، وسويقة خالد بن برمك، وسويقة العباسة أخت الرشيد، إلى آخر العدد، فكان منها عشر سويقات ببغداد. وقد وقفت في بعض أسفاري للمغرب الأقصى على أماكن باسم سويقة كما بتونس والمشرق، ومن التّعريف الذي ذكره ياقوت، ينجلي صبح الحقيقة في فهم اسم باب السّويقة بتونس، فلفظ باب واضح، وفُعلاً كان هنالك باب من خشب كما قدّمنا، وهذا الباب مسحته يد الزّمان في جملة أبواب الحارات الكثيرة التي كانت داخل أحياء الحاضرة، وكان ذلك في عهد الدّولة الصّادقية بعد تأسيس المجلس البلدي بسنوات، ومعلوم أنّ المجلس البلدي أحدثه المشير محمد باي في سنة 1275 [1858] وكانت وفاته في العام بعده. وأمّا لفظ سويقة فإنّه تصغير سوق بما لا شك فيه، وقد ورد في كتاب (إبتسام الغروس) أنّهم كانوا يسمّونه في الدّولة الحفصية سويقة عساكر، وممّا يؤيّد أنّ سويقة مصغّر سوق، كونهم كانوا ينعتونه أيضاً بباب السّوّاقين في المائة الرابعة، ولفظ سواقين جمع سواق الرجل الذي يرد على السوق ساعة ارتسامه للتزوّد منه، وما زال هذا الاستعمال معروفاً حتى اليوم في أسواق البوادي. ويستفاد من عبارة مرسوم ملكي صدر من المعزّ بن باديس سنة 410 [1019] في الوصاية برعاية حرم وليّ الله الشيخ المربّي سيدي محرز بن خلف، أنّ في جملة ما أوصى به ذلك الأمير الصّنهاجي احترام سويقة الشيخ رضي الله عنه، وإليك محلّ الحاجة منه، قال: بعد مقدّمة فاخرة «فاقتضى النّظر بهذا الظّهير لجماعتكم وحفظكم ورعايتكم وحمايتكم ووو. . . وحرم دياركم وسويقتكم إلخ».

وممّا تقدم يظهر وأنّ السّويقة المضافة للباب ليس هي إلاّ السّوق

المسقّف الموجود الآن بين بطحاء باب السّويقة والزّاوية المحرزية، ويكون هذا السّوق من أقدم أسواق تونس إن لم يكن أقدمها كلّها، وأنّ المهيمن عليه في أوائل المائة الخامسة هو سيدي محرز بن خلف الذي كان من رجال الصّلاح الشّرعي والإصلاح الاجتماعي في زمنه، ناهيك أنّه الذي سعى في إتمام أسوار مدينة تونس وكان إحداثها على عهد بني الأغلب أمراء القيروان، كما أنّه الذي سمح لليهود بسكنى الحاضرة كانوا يسكنون الملاّسين يدخلون لتونس للاشتغال بها في النهار ويبارحونها عند الغروب للمبيت خارجها. وأمّا باب الجزيرة فإنّه كان معروفاً بهذا الاسم حوالى المائة الثالثة على ما يستفاد من بعض تاريخ تونس. قال ياقوت: باب الجزيرة خمسة عشر موضعاً سماها بمواقعها الجغرافية وقال في عاشرها باب جزيرة شريك (بفتح الشين وكسر الراء) بإفريقية بين سوسة وتونس، فهذه الجزيرة التي هي في الحقيقة الجغرافية شبه جزيرة، ما هي إلا (دخلة المعاويين) وتعرف في الاصطلاح الإداري باسم الوطن القبلي وقاعدتها نابل، وفيها يقول الأديب الشيخ محمد التطاوني المتوفى سنة 1296 [1878] ضمن قصيدة فريدة:

تجمّعت الأهواء فيها فحيثما حللت تلقّاك الهوى بقبول

ومنها في الإشارة لواد السحير وحسن مناخه:

فيا وادي السّحير رواك صيب كدمع لذي شوق إليك طويل

هذا ومعلوم أنّ باب الجزيرة هو الذي كانوا يعبرون منه لجهة الوطن القبلي أي جزيرة شريك بعد حدوث باب علاوة في أواخر الدولة المرادية، كما كانوا يعبرون من باب قرطجنة لجهة قرطجنة المرسى وحلق الوادي، وكان اسمه في القديم فم الوادي. وليس بين الفم والحلق غير اللها فاحذر اللها. إنّ موقع باب الجزيرة فيما نقله بعض الشيوخ المعمّرين بمنتهى نهج الصباغين حيث قهوة اللوح الموجودة لهذا اليوم، وخارج الباب كان سور المدينة وحوله مساكن الرّبض المنسوب إليه، ويستفاد من حديث المؤرّخ الشيخ ابن أبي دينار، أنّ هذا الرّبض كان متلاوح الأطراف في أواخر الدولة

الحفصية اشتهر أمره بحدوث معـركات ومـلاحم حصلت أثناء الاحتـلال الإسباني لتونس، وفي تلك الأيّام كان ظهور باب الفلّة نسبة لفلّة كانت بسور البلد، وفي باب الجزيرة يقول إمام البلاغة الورغي[2]، وهي خاتمة الحديث:

سقاك الغيث يا باب الجزيرة   فكم جازتك من حور عطيرة
تميل إذا مشت كالسّرو هبّت   عليها الرّيح من أرض مطيرة
ويـرجع كـلّ ذي عين رآهـا   بكفّ عن تنـاولهـا قصيـرة
إذا ما قال ذو طمع لمن ذا   تقول. . . لمن دراهمه كثيرة[*]

(2) [انظر: محمد الحبيب بن الخوجة «الورغي» من سلسلة أدباء المغرب العربي ـ تونس 1960].
(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 1 ـ الجزء 6 ـ (فيفري 1937).

- تاريخ أبواب تونس

(1)

لقائل أن يقول عند قراءة هذا العنوان، ما هي فائدة التعريف بأبواب مدينة تونس، وقد تناولها القلب والإبدال، بل وبعضها عفت رسومه منذ أزمان، والبقيّة الباقية منها لهذا الزّمان، هي أسماء بدون مسميات. والجواب أنّ موضوع الحديث قاصر على خدمة التّاريخ، أي عمّا له علاقة بأخبار الأزمنة الماضية، فلا اعتبار حينئذ لكون الأبواب التي سنطرق حلقاتها ستكون مجيبة للنّداء على حدّ قول الشاعر:

حسبي من الإسراع نحوك أنني   كنت الجواب عن السّؤال المقبل

أم ستبقى صامتة على حدّ قول الآخر:

لقد ناديت لو أسمعت حيّا   ولكن لا حياة لمن تنادي

ولا حاجة بنا لإكثار الكلام من هذه النّاحية الفلسفية، فالشّيء الذي حفظه التّاريخ لا يمحوه كرّ الزمان،؛ وهذه أبواب تونس مسقط رأسنا هي منافذ الدّخول إليها في الأزمان الغابرة والحاضرة، فلأجل الاحتفاظ بأسمائها، وإن غابت عنّا أعيانها كلّها أو جلّها، كتبنا هذه النّبذة التي جمعنا شتاتها من مختلف المصادر المعروفة وغير المعروفة، لتكون مرشداً وبياناً لأهل الأجيال القابلة، وهذه الطّريقة هي الرّوح الحيّة التي كانت ولا تزال تتخبّط بين جنبي التّاريخ، وجنبا التّاريخ هما دفّتا كتبه المتداولة بين النّاس في كلّ زمان ومكان.

وليتصوّر القاريء الموضوع الذي قصدنا البحث فيه، لا بدّ له أن يتصوّر في البداية كون مدينة تونس كانت محاطة بأسوار، وفقاً لنظم تحصين المدائن في العصور الغابرة بسائر جهات المعمور، وليكن لنا عبرة من ذلك في سدّ ذي القرنين، وما أقيم قبله وبعده من السّدود، وليست السّدود إلا أسواراً، وإنّما الخلاف في التّسمية لا في المسمّى. ولا شبهة في كون تلك النّظم بعنوان التّحصين ممّا أخنى عليها الدّهر، لتغلّب المخترعات الحديثة، وظهور علوم جديدة لم تكن في الحسبان، منها علم الميكانيك الذي من متفرّعاته الحصون المتنقّلة السّابحة على أمواج الفضاء بين السّماء والأرض. وهذا كلّه، مع غيره، ممّا نشاهده ونسمعه في كلّ صباح ومساء، ممّا يجعلنا في غنى عن البحث في صلوحية الأسوار وعدمها، إنّما الشّيء الجدير بالذّكر هنا، هو أن حاضرة تونس كانت مسيّجة بسور من تراب أقامة حولها الأمراء الأغالبة في أوائل المائة الثالثة للهجرة، وهذا السّور تناوله التجديد مراراً في القرون التّالية، ولقد حفظ التّاريخ في هذا المقام منقبة جليلة لوليّ الله سيدي محرز بن خلف، عماد البلد وأهلها، يسمّونه «سلطان المدينة» حيث كان من العاملين على تشييد سور تونس في المائة الرّابعة، ويقول المؤرّخ الشيخ ابن أبي دينار، في المؤنس[1]: إنّ هذا السّور المحرزي عفت رسومه عند ظهور الدّولة الحفصية، لأنّ السّلاطين الحفصيين جدّدوا أسوار تونس عاصمة ملكهم، وجعلوها بالحجارة والبناء المرصوص، وهكذا استرسل حال الأسوار التّونسية حول العصور إلى عهد الدولة الحسينية السّعيدة، ففي مدّتهم ـ خلد الله ملكهم ـ كثرت تحابيس أهل الخير على أسوار تونس، قياساً على صنيع أهل العصر الحفصي، وكانت أغلب تلك التّحابيس الباقية آثارها لهذا الزّمان، هي معاصر الزّيوت التي كانت الحاضرة عامرة بها، وكان من أكثر الملوك الحسينين عناية بالأسوار والحصون الواقعة حول تونس، المولى حمودة باشا، طاب ثراه.

(1) [المؤنس ـ ط 2 ـ ص 8].

هذه الأسوار التي كانت في الزّمن القديم تضمّ داخلها مدينة تونس بأجمعها، أصبحت بالتّالي واقعة داخل البلد بسبب انتشار الأبنية والمساكن خارجها، بحيث إنّها فات المقصود منها، وصار وجودها فيما يقال، منافياً لقواعد الصّحّة بالمعنى العصري، لذلك وقع هدم بعضها لعهد قريب، لأنّ بعضهم يراها مانعاً لانتشار الضّوء والهواء حول الأبنية، والدّور، والقصور المجاورة لها، وليس هذا بالأمر الغريب، فإن بعض أسوار تونس كان وقع هدمه لقرنين ماضيين فيما بين باب البنات وباب قرطجنّة على عهد الباشا علي باي الأوّل. هكذا قال في كتاب **المشرع الملكي**[2]، والتّاريخ يعيد نفسه كما هو مقرر معلوم. على أنّ الأسوار التي وقع هدمها في زماننا الحاضر، أبقي منها نموذجات قائمة لأخبار الأجيال القابلة بأحوال القرون الماضية.

واعلم أنّ حاضرة تونس، كان لها في الأوّل سور واحد محيط بالمدينة، وهذا السّور كان موقعه بالطّريق العام المارّ به اليوم خطّ سكّة **الترامواي** عدد 1 [3]، يعني السّكّة المارة بباب البحر، فباب قرطجنّة، فباب السّويقة، فباب البنات، فالقصبة، فباب المنارة، فالباب الجديد، فباب الجزيرة، فباب البحر حيث البداية. وهذا هو السّور القديم الذي كان موجوداً في المائة الرّابعة على عهد سيدي محرز بن خلف رضي الله عنه، وكانوا ينعتونه بالسّور الدّخلاني، وسنعود للكلام على الأبواب الواقعة حوله. والسّور الثاني هو الذي أحدثه سلاطين بني حفص، وهو المضاف إلى سور باب البحر، وباب الجزيرة، فباب علاوة، فباب الفلّة، فباب الفرجاني، فباب سيدي قاسم، فباب سيدي عبدالله، فباب غدر، فباب العلوج، فباب سعدون، فباب سيدي عبد السلام، فباب العسل، فباب الخضراء، ومنه يلتحق بسور باب قرطجنّة، وباب البحر حيث البداية. وسنعود للكلام على الأبواب الواقعة حول هذا

---

(2) [المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي تأليف محمد الصغير بن يوسف (مخطوط)].

(3) [لقد أزيل «التّرامواي» بعد الاستقلال وعوّض بحافلات الشّركة القومية للنّقل]

السّور الثاني، مع الإشارة لغيرها من الأبواب التي عفت رسومها ولم يبق لها ذكر بين النّاس، وهذا السّور كانوا ينعتونه بالسّور البرّاني.

ولقد أدّاني البحث في الموضوع الذي نحن بصدده لمراجعة مصادر كثيرة، أقدمها عهداً كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد عبدالله البكري (ولد سنة 432 [1040] وتوفي بقرطبة سنة 487[1094]) وكتاب نزهة المشتاق للشّريف الإدريسي (ألفه سنة 548 [1153]) ومعجم البلدان لياقوت الحموي (المتوفى عام 626 [1228]) وأقربها عهداً كتاب المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، لمؤلّفه محمد الصغير بن يوسف الباجي (توفيّ في حدود سنة 1184 [1770]) وتاريخ الحكيم فرانك الفلمنكي، طبيب المولى حمودة باشا ألّفه في حدود سنة 1815 للميلاد (1330 للهجرة) وكتاب نزهة الأنظار للمؤرّخ محمود مقديش الصّفاقسي، أنهاه تأليفاً بحوادث سنة 1233 [1817]. وبقية المصادر التي رجعت إليها في هذا البحث، هي ابن الشّبّاط (المتوفى عام 681 [1282]) ورحلة العبدري التي ابتدأها صاحبها في سنة 688[1289] ورحلة التجاني (واسمه عبدالله بن محمد بن إبراهيم التّجاني توفي سنة 720 [1320]) وتحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار للرّحّالة ابن بطوطة ابتدأها في سنة 725 [1324] وتقويم البلدان لأبي الفداء إسماعيل (المتوفى سنة 732 [1331]) وكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله الدمشقي (المتوفى سنة 748 [1347]) وكتاب العبر لابن خلدون المتوفى سنة 808 [1405] وكتاب صبح الأعشى لأبي العباس أحمد القلقشندي ألّفه عام 814 [1411] وتحفة الأريب لعبدالله التّرجمان[4] ألّفها سنة

(4) كان هذا الفاضل راهباً كبيراً بجزيرة ميورقة إحدى الجزائر الشّرقية التّابعة لإسبانيا، ثمّ وفد على تونس في أيّام السّلطان أبي العبّاس أحمد بن محمد الحفصي، وأسلم على يده، وزوّجه بابنة الشّيخ الحاج محمد الصّفّار، وأولاه قيادة البحر، وهي خطّة شبيهة بخطّة مدير القمارق في هذا الزّمان، وكتابه ترجم لبعض اللغات الأروباوية، وقبره معروف بسوق السّرّاجين بتونس.

823 [1420] وكتاب الأدلة البيّنة النّورانية على مفاخر الدّولة الحفصية لابن الشّمّاع[5] أنهاه تأليفاً بحوادث عام 833 [1429] وتاريخ الدّولتين الموحدّية والحفصية للفقيه الزّركشي، واسمه محمد بن إبراهيم اللؤلؤي المعروف بالزّركشي المتوفّى سنة 932 [1525] وكتاب وصف إفريقية للمؤرّخ ليون الإفريقي[6] وهو كتاب جليل استغرق ثلاث مجلّدات، ظهر بعالم الوجود

(5) اشتبه على بعضهم هذا المؤلّف بأبيه، فنسب تأليفه للفقيه الشيخ أحمد بن محمد الشّمّاع الهنتاتي التّونسي، قاضي محلّة السّلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي، والحقيقة أنّ المؤلّف لكتاب الأدلّة البيّنة النّورانية، هو محمد بن أحمد بن محمد الخ، توفيّ أبوه سنة 833 [1429] وأنهى ابنه تاريخه بحوادث سنة 839 [1435] ولذلك لزم التّنبيه.

(6) ليون الإفريقي، اسمه الأصلي الحسن بن محمد الوزّان الغرناطي ثم الفاسي، ولد بغرناطة من أبوين مسلمين، وهاجر مع عائلته لفاس في حدود سنة 900 للهجرة الشريفة، [1494]؛ وبعد أن قرأ بها واستوفى نصاب تحصيله في العلوم، خرج للرّحلة فساح ببلاد السودان وبإفريقية الشمالية، ثمّ ارتحل للبلاد الأسياوية، فزار العراق، والفرس، وبلاد الأرمن، وجزيرة العرب، ومصر، والشّام. وفي عام 923 [1517] سقط في أسر النّصارى مع المركب الذي كان يحمله على مقربة من جزيرة جربة، فأخذه القراصنة إلى رومة وقدّموه هدية للبابا ليون العاشر، فأكرمه وعرف له قدره وأعطمه وأجلّ مكانه، وما زال به حتى صار يدعوه إلى المسيحية، فتمسّح الحسن فيما يزعمون، واتّخذ له البابا اسمه ليون الإفريقي، وهذا الاسم هو الذي بقي معروفاً لعهدنا الحاضر فهل تمسّح حقيقة هذا العالم المسلم الذي هجر بلاده فراراً بدينه، أو لم يتمسح؟ وعلى تقدير تمسّحه، هل بقي متمسّحاً إلى آخر عمره أو رجع لدين آبائه؟ هذه مشكلة لا سبيل لحلّها ما دمنا لا نعرف من حياة هذا الرّجل إلا القليل، بيد أنّا نقول إنّ بعض مشاهير المستشرقين يقول إنّ الحسن رجع إلى تونس بعد موت البابا ليون العاشر، وعاد مسلماً كما كان، وهذا يحملني على الاعتقاد بأنّ تمسّحه حال وجوده برومة لم يكن إلا صورياً، لأنّ كتابه الذي وضعه في ثلاث مجلّدات في تاريخ بلاد الإسلام وأحوال المسلمين، لا يشعر بشيء ولو بطريق الإشارة يحط من قدر الإسلام نعم إنّه قال عند وصفه لتونس أنه كان فيها من «يعمل الخبائث» أثناء زيارته لها، ولكن هذا القول لا يدلّ على أنه مروق من الدّين، لا سيما وأنّه كلام وافق حقيقة واقعية، لأنّي تتبعّت أخلاق وأحوال مدينة تونس في ذلك العصر، فوقفت على ما يفيد حقّاً وأنّه كان يومئذ بتونس جماعة من المخنّثين نفاهم السّلطان لمكان سحيق. أمّا كتابه «وصف إفريقية» فإنّه ترجم للغات كثيرة زيادة على ترجمته بالفرنساوية، ويقال إنّ ترجمته الألمانية احتوت على تعاليق مفيدة جدّاً وعلى مقدّمة تضمنت تاريخ حياة المؤلّف وذكر تآليفه، منها قاموس عربي عبري لاطيني، ومنها كتاب في تراجم مشاهير الإسلام، ومنها كتب في النحو والبلاغة وغير ذلك

حوالى سنة (639 للهجرة) 1530 للميلاد والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس، لأبي عبدالله محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، ختمه بحوادث سنة 1092 [1681] وكتاب الحلل السّندسية في الأخبار التونسية للوزير السّرّاج، واسمه محمد بن محمد بـن أحمد بن مصطفى الأندلسي المعروف بالوزير السّرّاج، توفّي عام 1149 [1736] وله عقب من أهل الفضل بحاضرة تونس، وغير ذلك من المعاجم والمؤلّفات التّاريخية الحديثة، عربية وفرانساوية، أعرضنا عن ذكر أسمائها خوف الإطالة بدون جدوى، ومن هاتيك المصنّفات اقتبسنا ما به الحاجة من وصف تونس، ولا سيما خبر أبوابها في القديم وفي الحديث.

وها أنا ذا متوكّل على الله في التّعريف بهاتيك الأبواب المفتوحة على مصراعيها للصّادر والوارد، مبتدئاً بأبواب السّور الدّخلاني التي تقدّم ذكرها في البداية، ويلوح أنّ أقدم أبواب هذا السّور، هو باب الجزيرة الذي يعبر منه للوطن القبلي، والوطن القبلي اسمه في كتب التّاريخ جزيرة شريك، نسبة لشريك العبسي عاملها، وهو من الفاتحين الأوّلين، يزاحمه في الأقدمية باب قرطجنّة الذي يعبر منه لجهة قرطجنّة، ومن أطلال هذه المدينة جيء بالحجارة اللازمة لعمارة مدينة تونس، وعلى هذا التّقدير يمكننا جعل ظهور هذين البابين في أواخر المائة الثانية أو في أوائل المائة الثالثة، يعني في الزّمن الذي تمصّرت فيه مدينة تونس، وأخذت نصيبها من العمران والازدهار الفقهي حول مسجدها الأعظم جامع الزّيتونة الذي تم بناؤه باتّفاق المؤرخين في سنة 114 [732] على يد عبيدالله بن الحبحاب والي تونس للخليفة هشام بن عبد الملك، وهنا يناسب الإلمام بوصف تونس على ما حكاه البكري (المائة الخامسة) في كتاب المسالك والممالك، لأنّه أقدم المصادر التّاريخية المعتمدة كما أسلفنا ذكره. قال: ومدينة تونس في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو (الجبل الأحمر)، ويدور بمدينتها خندق حصين، ولها خمسة أبواب، باب الجزيرة قبلي، ينسب إلى جزيرة شريك، ثم قال: وبشرقيّها أيضاً باب قرطجنّة، دونه داخل الخندق بساتين كثيرة تعرف بسـواني المرج (هـذه

البساتين كان موقعها فيما بين باب الخضراء وباب السّويقة شاملة لجهة الحلفاوين، ومنه الرّياض الذي كان محلّ نزهة لأهل الدّولة) وباب السّقّايين جوفي، نسب إلى السّقّايين لأنّ بئراً تعرف ببئر أبي الفقار تقابله، وهي بئر كبيرة عذبة الماء نميره. وباب أرطة غربي، تجاوره مقبرة تعرف بمقبرة سوق الأحد، ودون الباب من داخل الخندق غدير كبير يعرف بغدير الفحّامين، وربض المرضى خارج عن المدينة، وبقبلي ربض المرضى ملّاحة كبيرة، منها ملحهم وملح من يجاورهم، إلى أن قال: ومدينة تونس دار علم وفقه، ولي منها قضاء إفريقية جماعة كثيرة. ولكنّه استدرك على ذلك بما كان ينسب لأهلها من الاختلاف على الحكّام في زمنه، فقال مع الشاعر:

لعمرك ما ألفيت تونس كاسمها ولكنّني ألفيتها وهي توحش

ثمّ أطنب في ذكر خيراتها وبركاتها، وأشار لكثرة الأسماك الموجودة ببحرها، وقال: إن أهلها بسبب كثرة حوتها واختلاف أجناسه في لذّة موصولة، ونعمة غير مملولة، وكلّ جنس يصبر فيبقى السّنين صحيح الجرم، طيّب الطّعم (كشرمولة بنزرت) منها جنس يعرف بالعبانق، وجنس يعرف بالأكتوبري (لعلّه الحوت البوري)، وجنس يعرف بالاشبارس (معروف)، وجنس يعرف بالمنكوس (معروف)، وجنس يعرف بالبفونس، ثم قال: ومن أمثالهم لولا البفونس لم يخالف أهل تونس. وتخلّص للكلام بعد ذلك على مدينة قرطجنة وأطلالها، ولم يذكر لنا الباب الخامس من أبواب تونس، قلت: لعلّه باب السّويقة، لأنّه كان موجوداً في زمن المؤلّف، وهنا يستحبّ الإشارة لكون المؤلّف لم يغادر مسقط رأسه بالأندلس، ومع ذلك فإنّ كتابه جمع فأوعى، واتّفق المؤرخون من بعده على أنّه احتوى على صحيح الأخبار، لأنّه كتبه مّما وقف عليه من الوثائق الصّحيحة والتقارير التي كانت ترد على المنصور بن أبي عامر من أعوانه وعيونه المنتشرين بشمال إفريقية، أضف لذلك أنّ المؤلّف كان صاحب ثقافة واسعة، ومشاركة عريضة في اللغة، والأدب، والتّاريخ، والجغرافية، والطبّ، وعلم النبات، وغير ذلك.

ومن تعريف البكري، يظهر أنّ مدينة تونس كانت لها خمسة أبواب في زمنه، وهي: باب الجزيرة (معروف شمله الهدم مع سور تونس الدّاخلي)، وباب قرطجّنة (معروف شمله الهدم مع السّور الدّاخلي كالباب السابق)، وباب السّقّايين، وكان يفتح بجهة الجوف قرب بير قميرة، يستقي منها أهل تونس، وهذا الباب غير معروف ولم يتعرض لذكره المؤرّخون التّونسيون، ويلوح بمقتضى اتّجاه موقعه الجوفي، أنّه ربّما كان هو باب الأقواس، حيث كانت مخازن المشّاكة وهم أصحاب الأمشاك(7) الخاصّة بتعبئة ماء الشّراب وحمله لتزويد أهل المدينة، وباب أرطة وهو غير معروف أيضاً، ولعلّه نسبة لاسم بشر بن أرطة من أصحاب عقبة بن نافع، لأنّ التّاريخ أثبت قدوم بعض أصحاب عقبة لجهة تونس، أو هو بالأحرى اسم لبقعة مجاورة لسور تونس من ناحيته الغربية كما يستفاد ذلك من عبارة البكري في قوله: وسار حسّان بن النّعمان إلى أرطة، فقاتل الرّوم بفحص تونس. وهذا الباب كان غربي المفتح، وكان لقربه من الخارج جبّانة تعرف بمقبرة سوق الأحد، ودون الباب أي بداخل البلد، كان الخندق الجامع لقاذورات المدينة، وسنعود للكلام عليه، وخارجه أي خارج البلد، كان ربض المرضى، يعني المرضى المبتلين بأمراض العدوى. ويقول بعض المؤرّخين من الأروباويين، إنّ جعل هؤلاء المرضى خارج المدينة كان لسبب إصابتهم بالبرص والعياذ بالله، ومقتضى كلام البكري، كان قبلي هذا الرّبض ملّاحة كبيرة يتزوّد منها أهل المدينة، وهذه الملّاحة ليست هي إلّا ملّاحة رادس المعروفة، إذ لا يوجد حول حاضرة تونس إلّا هذه الملّاحة، وملّاحة رَوَّاد الواقعة لجهة الجوف بالنّسبة لمدينة تونس، وأمّا المقبرة المسمّاة بمقبرة سوق الأحد، فمحلّها بمقتضى اتّجاه موقعها نحو الغرب، يكون خارج السّور فيما بين باب العلوج وباب

(7) الأمشاك جمع مشك، من اللغة التركية، وهو عبارة عن قربة كبيرة محاطة من جلود الإبل كانوا يستعملونها في القديم لمصاحبة المحلّة في تنقّلاتها بالجهات المعطشة، ومن المحتمل القريب أنّ هاتيك الأمشاك في عهد حكم الأتراك قامت مقام الدّنون والجرّات والقرب التي كانوا يستعملونها لتزويد أهل الحاضرة بمياه الآبار الواقعة خارج الأسوار، ومن تلك الآبار البئر النميرة التي كانت موجودة لدى باب السّقايين.

سيدي عبدالله اللذين سيأتي الكلام عليهما، وفعلاً توجد هنالك لهذا الزّمان المقبرة المنسوبة لسيدي أحمد السّقّا، وكون هذا الوليّ من رجال المائة الثامنة (توفي رضي الله عنه عام 743 [1342] وهو يقرأ القرآن فلمّا انتهى لقوله تعلى: ﴿هذا نذير من النّذر الأولى﴾ ووصل لقوله: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ فاضت روحه الزكيّة، لا يقوم دليلاً على عدم وجود مقبرة هنالك قبله، بل الأمر بالعكس، إذ من المحتمل القريب أنّ تلك المقبرة أوّلية، وإنّما بدّل اسمها بتوالي القرون، يدلّك عليه أنّ مقبرة الزّلاّج حبّسها صاحبها في المائة السّابعة، مع كون أرضها كانت بها جبّانة لدفن أموات المسلمين في المائة الخامسة أو قبلها، وهنا ينتهي بنا التعليق على كلام البكري، وبقي مديناً لنا ببيان الباب الخامس بتونس في زمنه(*).

(2)

وأمّا الشّريف الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق الذي هو من رجال المائة السّادسة، فقد قال: وهي (تونس) الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب (سنة 548) [1153] معمورة موفورة الخيرات، يلجأ إليها القريب والبعيد، وعليها سور تراب وثيق، ولها أبواب ثلاثة (لم يذكر اسماءها)، وجميع جناتها ومزارع بقولها في داخل سورها أهـ. قلت: اتّفق المؤرّخون الأروباويون على أنّ كتاب الشّريف الإدريسي أحسن ما وضع في فنّ الجغرافية في زمنه، لأنّه كتبه عن عيان لا عن سماع. قال في الوافي بالوفيات: إنّه ألفه بطلب من الملك روجار (الثاني) ملك صقلّية، وأنّه ابتهج به وأوسعه حظوة وعطاء.

وقال ابن الشّبّاط: ولها (تونس) في زماننا (المائة السّابعة) عشرة أبواب، بعضها في البلد، وبعضها في القصبة، ثمّ قال: وبها أسواق كثيرة، ومتاجر عجيبة، وفنادق كبيرة رفيعة، وبها خمسة عشر حمّاماً، وعضادات أبواب، دورها كلّها رخام بديع، وهي دار علم وفقه، ولي منها قضاء إفريقية جماعة كثيرة. هذا كلام ابن الشّبّاط بالنّقل عن ابن أبي دينار الذي استدرك

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 4 ـ الجزء 7 (أفريل 1941).

عليه بأنّ أبواب تونس في زمنه (القرن الحادي عشر) سبعة أبواب، ولم يبق في القصبة إلّا باب غدر، وأنّ عدد الحمّامات أربعون أهـ.

وقال في رحلة العبدري: ومدينة تونس ـ كلأها الله ـ من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتّساع ونهاية الاتقان، والرّخام كثير بها، وأكثر أبواب ديارها معمول به عضائد وعتباً، وجلّ مبانيها من حجر منحوت محكم العمل، ولها أبواب عديدة (لم يذكر أسماءها)، وعند كلّ باب منها ربض متّسع على قدر البلد المستقلّ اهـ، قلت: هذه الأرباض هي: ربض باب السّويقة، وربض باب المنارة، وربض باب الجزيرة.

وأمّا رحلة التّجاني التي ابتدأها سنة 706 [1306]، فلم نجد بها ما يفيد القارىء من حيث أبواب مدينة تونس، ومثلها رحلة ابن بطوطة، سوى أنّ هذه الرّحّالة الشّهير وصف لنا موكب السّلطان الحفصي بما يشفي الغليل، وكان ابتداؤه لرحلته من طنجة في سنة 725 [1324].

وقال في تقويم البلدان لأبي الفدا إسماعيل، المتوفّى عام 732 [1331]: تونس هي كرسي مملكة إفريقية، ثمّ لاحظ على ضبط لفظها فقال: بضمّ المثنّاة من فوق، وسكون الواو، وضمّ النّون، وفي آخرها سين مهملة اهـ. وبهذا الضّبط يكون اسمها غير مشتقّ من الأنس الذي أشار له الشّاعر في قوله:

وتونس تونس من جاءها وتدركه حسرة حيث سار

ولكن ياقوت الحموي قال في معجم البلدان: إنّ النّون في لفظ تونس تضمّ وتفتح وتكسر. قلت: هذا أغرب من الغريب، لأنّ مثل هذا التّوسّع لا يصحّ استعماله في أسماء الأعلام، ولأنّ لفظ تونس معرّب من لفظ Thunés في اللسان اللاطيني وموجود في كتب الأقدمين قبل أن يفتحها المسلمون بأحقاب، ومن العبث الصّراح الجزم بغير الحقيقة التّاريخية التي جعلت اسم تونس لحسن حظّ أهلها موافقاً بمجرّد الصّدفة والاتّفاق لمادّة الأنس الذي في معناه الاستبشار وانشراح الصّدور.

وممّن وصف تونس وصفاً مستكملاً ابن فضل الله الدّمشقي (توفي عام 748) [1347] في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار حيث قال: هي مدينة مسوّرة في وطئة من الأرض بسفح جبل يعرف بأمّ عمرو، ويستدير بها خندق حصين، وثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها، وأرضها سباخ، وبها قصبة هي سكنى السّلطان، وجميع بناء تونس بالحجر والآجر مسقوفة بالأخشاب، وتفرش ديار أكابرها بالرّخام ومنذ خلا الأندلس من أهله وآووا إلى جناح ملوكها، مصّروا إقليمها ونوّعوا بها الغراس، فكثرت منتزهاتها وامتدّ بسيط بساتينها على بحيرة من البحر الشّامي (البحر المتوسّط) خارجة إلى شرقيّها من فم ضيّق (حلق الوادي)، إلى أن قال: وليس لأهل تونس شرب إلاّ من الآبار، أحدها بير ضبيان، وبالبيوت صهاريج (مواجل) مجمع مياه الأمطار لغسل القماش وغير ذلك أهـ. فترى مع هذا الوصف الجميل لم يتعرّض ابن فضل لذكر أبواب تونس، ولكنّه أفادنا باسم بير ضبيان المقتبس منه بما لا شكّ فيه اسم خندق ضبيان الذي كان متسربلاً خلال ربض باب السّويقة حتّى البحيرة.

هذا ولم نقف بكتاب العبر لابن خلدون على تعريف خاصّ بأبواب تونس، رغم إلمامه الجامع بتاريخ بلاد العرب والبربر بأجمعه، ومثله القلقشندي فإنّه وصف تونس في صبح الأعشى، ولكنّه لم يتعرّض لذكر أبوابها، ومثلهما المؤرّخ ابن الشّمّاع، وهو من أبنائها، وأمّا الفقيه الزّركشي فقد تعرّض لذكر جملة من أبواب تونس المعروفة وغير المعروفة، ومن هذه الأخيرة باب ينتجمي (لفظ بربري) أحد أبواب القصبة، ونصّ عبارته: وفي سنة 651 [1253] بنى (المستنصر بن أبي زكرياء) قبّة الجلوس بتونس التي باسراك (لفظ بربري معناه بطاح) المشرفة على باب ينتجمي، وبنى الممشى من القصبة إلى رأس الطّابية لكي تحتجب فيها حريمه، وأوصله إلى رياض أبي فهر. وقال في حوادث عام 857 [1453]: توفّي القائد نبيل بمحبسه، ودفن ليلاً بالقصبة، ثمّ أخرج ليلة الخميس رابع عشر الشّهر المذكور (جمادى الأولى عام 857) وأنزل إلى المدرسة الكائنة شرقي باب ينتجمي

أحد أبواب القصبة (يا ترى أين موقع هذه المدرسة؟ والمظنون أنّها بجهة الحفصية أو بجهة حوانيت عاشور حيث مدرسة الوزير البربري أحمد بن تفراجين الباقية آثارها لهذا الزّمان بنهج سيدي إبراهيم الرّياحي)، وقال في حوادث عام 861 [1456]: أصاب النّاس بتونس غلاء في الطّعام، بلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهباً، والشّعير على الشّطر من ذلك، فشكى النّاس قلّة الطّعام وغلاءه للسلطان (أبي عمرو عثمان الحفصي) فأمر بأن يخرج من المخزن (الرّابطة) في كلّ يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرّق على الفقراء بتونس بباب ينتجمي، فابتدىء بتفريقها في ثالث ربيع الثّاني، ودام إلى رجب، حتى كثر الطّعام الجديد ورخص ثمنه أهـ. (هذه الشهور الثلاثة يوافقها من الشّهور الشّمسية مارس وأبريل وماية سنة 1457 للميلاد).

وممّن كتب أيضاً في وصف حاضرة تونس المؤرّخ ليون الإفريقي، وهو رجل صاحب شهرة مطبقة بأروبا، ولكنّه غير معروف بين المسلمين، فهذا الرّجل وصف تونس وصفاً مستكملاً عن عيان تعرّض فيه لما بها من الأبنية والآبار والعوائد حتى المأكول، ومنه البسيس، وأثنى على أخلاق أهلها وإقبالهم على الصّنائع والشّغل ولا سيما النّسج وقال: إن السّلطان المستنصر زاد في عمارتها بإحداث ربض خارج باب السّويقة به ثلاثمائة دار، وربض خارج باب المنارة به ألف دار، وربض خارج باب البحر به مساكن النّصارى ومتاجرهم، وأكثرهم من الجنويز، والبنادقة، والكاتلان، وقال: إنّ الدّور مبنية بالحجارة الصّلدة، وصحونها مفروشة بحجر الكذّال، وبلاط البيوت مموّهاً بالألوان. قلت: كان عدد ديار تونس في ذلك العصر مقدّراً بالعدّ الصّحيح لنحو سبعة آلاف دار، وهي في زماننا هذا ثلاثة أضعاف ذلك. ومعلوم أنّ حاضرة تونس كانت مستكملة العمارة في أواخر العصر الحفصي من حيث اشتمالها بالوسط على أحياء المدينة الواقعة داخل سورها الأوّل الموجود مكانه في الزّمن الحاضر خطّ سكة التّراموي كما تقدم ذكره، وعلى أحياء الأرباض المحدثة في العصر الحفصي التي يشملها السّور الخارجي الذي ما زالت منه

بقية عظيمة موجودة لهذا اليوم، وأبواب هذين السّورين المعروفة بين النّاس، ذكر أكثرها المؤرّخ ابن أبي دينار في المؤنس، بحيث لم تبق لنا فائدة بإضافة نقول أخرى لذلك من كتب المؤرّخين المتأخّرين، ولأجله نحصر ما بقي لنا من الحديث في التّعريف بتلك الأبواب، قديمة كانت أو حديثة، موجودة أو غير موجودة، ونتوخّى في ذلك تقديم القديم على الجديد باعتبار تواريخ ظهورها في عالم الوجود حسب ما أنتجه بحثنا في ذلك. ولكن لا بّد لنا قبل ذلك من الإشارة لكون جميع الأبواب التي سنعرّف بها، كانت تغلق ليلاً، كما كانت تغلق نهاراً أيضاً وقت صلاة الجمعة وفقاً لعادة قديمة ظهرت في أواخر الدّولة الحفصية عند احتلال عساكر الأسبانيول لتونس، اتّقاء شرّ الفتنة ودفعاً لهجمات البدو من الأعراب الذين كان بعض سلاطين بني حفص في دور هرم دولتهم يستنفرونهم للدفاع عنهم، فيعيثون في الأرض فساداً، واسترسل الأمر كذلك على عهد حكم الأتراك في كامل مدّة الدّولة المرادية، وبقي كذلك أيضاً في العصر الحسيني إلى أوائل مدّة المشير أحمد باي، فلمّا رتّب الأجناد وتوفّرت لديه العدّة الكافية للاحتفاظ بالأمن العام، استغنى بذلك عن غلق أبواب الحاضرة وقت صلاة الجمعة، وبقي غلقها واقعاً في الليل بانتظام من الغروب، إلى قبيل طلوع الشمس، عدا باب الخضراء، وباب علاوة، فإنّهما لا يغلقان إلا إثر صلاة العشاء، وقياساً على ذلك كانت أبواب الحارات والحومات بداخل المدينة تغلق أيضاً في الليل، وهذه الأبواب الدّاخلية كانت كثيرة بقسم المدينة، لكلّ حومة باب خاصّ بها يجعلها منفصلة عن بقية الحارات طيلة الليل كله صيفاً وشتاء، وكانت مفاتيحها بيد المحرّكين، ولا يجوز فتحها ليلاً بحال، أللهم إلاّ في حالة احتضار مريض لجلب طبيب أو قريب له، أو في حالة امرأة أخذها المخاض ليؤتى لها بقابلة لمباشرتها، ودام غلق أبواب حومات المدينة إلى سنة 1276 [1859]، فلمّا أعلن المشير محمد الصادق باي بقانون عهد الأمان، ترك لأهل الحاضرة حرّيتهم بإبقاء أبواب حاراتهم مفتوحة في الليل كما في النهار، ولم يستثن من ذلك إلاّ أبواب أسواق التّجارة، وما زالت كذلك إلى هذا الزّمان. أمّا غلق

أبواب البلاد ليلاً فقد كان القصد منه حفظ السّكّان من طوارق الحدثان، ومن ناحية أخرى كان وسيلة لضبط الأداء الموظّف على المحصولات التي تجلب لتونس من مختلف الجهات، حتّى لا يقع إدخال شيء من الطّعام أو غيره خفية في الليل، ويفوت بذلك دخل كبير على البايليك، بحيث إنّ أبواب البلاد كانت لا تفتح ليلاً إلّا لحادث عظيم. فقد اتّفق لهم مرّة فتح باب أبي سعدون أثناء الليل عن إذن الداي ليخرج منه جماعة من القرّاء وقع استدعاؤهم للحضور بباردو بمناسبة مأتم بدار الإمارة، حدث فجأة، وهذا الباب نفسه صدر الإذن في أواخر عام 1298 [1881]، بإبقائه مفتوحاً دواماً واستمراراً لتسهيل أسباب المواصلة لعساكر جيش الاحتلال بين تونس والثّكنات العسكرية الواقعة خارجها، ثمّ بطريقة التّدريج وقع فتح باب الخضراء، وباب علاوة، وباب القرجاني، وباب العلوج في الليل كما بالنهار. وكان آخر الأبواب فتحاً في الليل مع النهار، باب سيدي عبد السّلام، وباب سيدي عبدالله الشّريف، وألغيت مع ذلك خدمة استخلاص المعلوم على دخول المحصولات من أبواب الحاضرة لفوات المقصود منها، لأنّ أكلافها أصبحت بتكاثر متوظّفيها تناهز المدخول المتحصّل منها لفائدة صندوق الدولة. وإليك تاريخ نشأة تلك الأبواب:

1 ـ باب الجزيرة: هو من أقدم أبواب تونس إن لم يكن أقدمها، والجزيرة المنسوب لها هذا الباب هي جزيرة شريك العبسي، وقد تقدّم التّعريف بذلك، ونعرف لإمام البلاغة الورغي أبياتاً جاء فيها ذكر هذا الباب ونصّها:

سقاك الغيث يا باب الجزيرة — فكم جازتك من حورا عطيره
تميل إذا مشت كالسّرو هبّت — عليها الرّيح من أرض مطيره
ويرجع كلّ ذي عين رآها — بكفّ عن تناولها قصيره
إذا ما قال ذو طمع لمن ذا — تقول لمن دراهمه كثيره

2 ـ باب قرطجنّة: معروف، وممّا لا شكّ فيه أنّه من أوّل أبواب تونس

حدوثاً، ويلوح أنّه ظهر في المائة الثّانية، لأنّهم كانوا يدخلون منه الحجارة المجلوبة من أطلال قرطجنّة لعمارة تونس، وتونس كانت دار علم وفقه ومتمصّرة في أواخر المائة الثّانية.

3 ـ باب أرطه: غير معروف، ويلوح أنّه من أقدم أبواب تونس على تقدير أنّ اسمه نسبة لاسم بشر بن أرطه من أصحاب عقبه بن نافع الذي تولّى حكم إفريقية مرتين في أواسط القرن الأوّل للهجرة، أو هو نسبة لبقعة من الأرض مجاورة لتونس كما تقدّم ذكره.

4 ـ باب السقّايين: غير معروف، وهو من أقدم أبواب تونس، لأنّه كان موجوداً في المائة الخامسة، ولعلّ موقعه كان بجهة باب الأقواس كما تقدّم بيانه.

5 ـ باب البحر: معروف، وهو من أقدم أبواب تونس اتّفاقاً، لأنّ سوره كان هو الحافظ للمدينة من جهة البحر كما يدلّ عليه اسمه. قالوا: إنّ الواقف بدرج جامع الزّيتونة في المائة العاشرة كان يرى مياه البحر من مكانه.

ـ باب السّويقة: معروف، كان موجوداً باسمه هذا في المائة الرّابعة، ومعنى السّويقة سوق صغيرة كان يملكها سيدي محرز بن خلف وكانت محرّرة من الأمكاس كبقية رباعاته وعقاراته ومتاجره وغروسه. وسيدي محرز رضي الله عنه كان من رجال الدّين والدّنيا، جمع بين علوم الشّريعة وعلوم الاجتماع البشري.

7 ـ باب الأقواس: معروف موقعه، ويلوح مّما ورد في حقّه بالمؤنس، أنّه اندثر مع السّور القديم الذي بناه سيدي محرز بن خلف.

8 ـ باب الفلاق: غير معروف، ذكره ابن أبي دينار في جملة الأبواب التي كان موقعها بالسّور المحرزي المندثرة.

9 ـ باب البنات: معروف، والمتعلّق بمحفوظي أنّه منسوب لبنات أحد

الثّوّار، ولعلّه ابن غانية المعاصر للموحّدين، وهؤلاء البنات كنّ على جانب من الجسارة والشّمم وعزّة النّفس.

10 ـ باب ينتجمي: غير معروف، وكان موقعه بالقصبة بما لا شكّ فيه، لأنّ الزّركشي قال إنّه أحد أبوابها كما تقدّم وصفه بمزيد بيان.

11 ـ باب غدر: معروف، ذكره ابن أبي دينار وقبله الزّركشي، ومنه يستفاد أنّه كان موجوداً في عام 708 [1308] وهذا الباب خاصّ بالعساكر الذين بثكنة القصبة في هذا الزّمان.

12 ـ باب القرجاني: معروف موقعه وسمّي كذلك نسبة لوليّ الله سيدي علي الكبير القرجاني من رجالات المائة السّابعة.

13 ـ باب المنارة: معروف، سمي كذلك لأنّه كانت بجداره مشكاة لهداية أبناء السّبيل، وكان موجوداً في عام 684 [1285].

14 ـ باب الجديد: معروف، بني على عهد السّلطان يحي الحفصي في حدود سنة 676 [1277] وفي مدّة الباشا علي باي الأوّل تناوله التّدمير والتّخريب برمي المدافع أثناء الفتنة التي أثارها الباشا المذكور لاغتصاب الحكم من يد عمّه المقدّس المولى حسين بن علي، ولمّا رجع الدّرّ لمعدنه أمر المولى علي باي الثّاني بتجديد الباب المتحدّث عنه في سنة 1183 [1769]، وقد أرّخ هذا التّجديد إمام البلاغة أبو عبدالله محمد الورغي بأبيات ننقلها من ديوانه، ونصّها:

جدّد هذا الباب باب الجديد	علي باشا بن الحسين السّعيد
أقامه من بعد ما قد هوى	في فتنة يشيب منها الوليد
فالله يحميه وأنجاله	من مثلها في طيب دهر حميد
ويبني لهم مثل ما قد بنى	هذا هنا في الخلد قصراً مشيد
وعندما قدمت أرّخته	لمدخل ارفاق ونيل يزيد
	1183[1769]



باب الجديد

15 ـ باب علاوة: معروف، كان موجوداً في عام 881 [1476] على ما أفاده الزّركشي.

16 ـ باب أبي سعدون ـ معروف، ذكره غير واحد من المؤرّخين، يلوح أنّه بني في أواخر المائة الثّامنة أو في أوائل المائة التّاسعة، لأنّ السّلطان محمد المنتصر الحفصي بنى سقاية هذا الباب في حدود سنة 838 [1434] حسب ما جاء ذلك في المؤنس، وفيه يقول إمام البلاغة الورغي بطالعة نونيته المعروفة:

باكر سعودك ليس الوقت بالدّون   واجعل صبوحك عند باب سعدون

17 ـ باب الخضراء: معروف، واسمه أزهى أسماء أبواب تونس، سمّي كذلك لأنّه يعبر منه لجهة الخضراء التي كانت معمورة بالزّياتين، ويلوح أن بناءه كان في أواخر المائة العاشرة، لأنّي لم نعثر على ذكره في العصر الحفصي، ولأنّه كان موجوداً في عهد الدّولة المرادية.

18 ـ باب العلوج: معروف، وكان اسمه باب الرّحيبة في المائة الثامنة وما قبلها وغلب عليه نسبته للعلوج من أواسط المائة التّاسعة لأنّ السّلطان أبي عمرو عثمان لمّا تولى الملك في سنة 839 [1435] وفد عليه أخواله من إيطاليا، فبرّ بهم وأسكنهم بالرّبض المجاور للقصبة. قال في الخلاصة النّقيّة: كانت أم هذا السّلطان من العلوج، اسمها مريم (ماريه) فلمّا بويع ورد عليه أخواله فأسكنهم بالرّبض الملاصق للقصبة، وعرف بحومة العلوج من يومئذ أهـ.

19 ـ باب سيدي قاسم: معروف، والنّسبة لسيدي قاسم الجليزي (صوابه الزليجي) المتوفى سنة 902 [1496] قال في المؤنس: إنّ اسمه كان باب خالد. قلت: لعلّ خالد هذا هو السّلطان أبو البقا خالد بن أبي زكرياء الذي تولّى الملك في سنة 709 [1309]. وهذا الظّنّ حملني عليه كون زاوية سيدي قاسم المجاورة لهذا الباب بها مقابر للحفصيين، وما هو إلّا مجرّد احتمال لا نجزم بصحّته.

20 ـ باب الفلّة: معروف، هو من بقايا العصر الحفصي في دور انحطاطه. قال في المؤنس: سمّي بذلك لأنّه كان ثلمة في السّور، ولما دهم أهل تونس العدوّ من النّصارى (الأسبانيول) وفرّوا بأنفسهم، خرجوا من هنالك خيفة أن تؤخذ عنهم الأبواب فخرج أكثرهم من هنالك، فكان يقول بعضهم لبعض اخرجوا من الفلّة، وهذا الاسم باق إلى اليوم أهـ.

21 ـ باب سيدي عبد السلام: معروف، ولكن لم نقف له على خبر



باب سعدون

يمكّنني من تحديد تاريخ إحداثه ولو على وجه التّقريب، اللّهمّ إلاّ بطريقة الحدس والتّخمين، وبهذا التّقدير يمكن الرّجوع به للعصر الحفصي من وجهين، أوّلاً انتساب الفسقية التي بقربه إلى اسمه (فسقية باب سيدي عبد السلام) وهذه الفسقية في أصلها من بقايا العصر الحفصي، وثانياً لأنّ هذا الباب أحد الأبواب الثلاثة (والآخران هما باب سيدي قاسم المتقدّم ذكره وباب سيدي عبدالله الذي سيأتي ذكره) من مجموع أبواب تونس التي لم تمسّها يد التّغيير والتّرميم بحيث إنّها (أي الأبواب الثّلاثة المشار إليها) ما زالت في حالة بنائها العربي التي هي عليه منذ قرون، وهي متماثلة الوضع والشّكل والحجم، ممّا يحمل على الجزم بأنّها من بقايا العصر الحفصي، لا سيما وأنّ أحدها وهو باب سيدي قاسم كان موجوداً في المائة التّاسعة، أي قبل سقـوط الدّولة الحفصية بنحو مائة عام.

22 ـ باب سيدي عبدالله: معروف، وكان اسمه في القديم باب سيدي علي الزّواوي على ما ورد في كتاب المشرع الملكي، وزاوية سيدي علي الزّواوي ما زالت موجودة داخل السّور قرب هذا الباب الذي كان منسوباً لصاحبها. قال في المشرع الملكي عند الكلام على جنازة المولى محمد الرشيد باي المتوفى عام 1172 [1758]: ودخلت جنازته من باب سيدي علي الزّواوي ودفنوه بتربة أبيه (زاوية سيدي قاسم السّبابطي) وأمّا سيدي عبدالله الملقّب بالشّريف فضريحه خارج هذا الباب المنسوب إليه في هذا الزّمان، ويلوح أنّه من أهل الأجيال المتأخّرة، لأنّ الباب المتحدّث عنه كان منسوباً لاسم غيره في أواخر القرن الثاني عشر كما تقدّم ذكره قريباً.

23 ـ باب العسل[8]: معروف، واسمه مقتبس من اسم درب ابن عسّال، وهذا الدّرب كان موجوداً في العصر الحفصي، لأنّهم كانوا يسمّون الأزقّة

---

(8) [أبواب مدينة تونس التي ما زالت قائمة الذّات إلى حدّ الآن هي: باب البحر، وباب الجديد، وباب سعدون، وباب العسل، وباب الخضراء].

والشّوارع دروباً في زمنهم، وأمّا الباب المتحدّث عنه فهو من محدثات هذا العصر، وقع فتحه لنحو ثلاثين سنة ماضية، ويروق لي ختم الكلام في هذا المقام بحديث باب العسل، لأنّه لا أحلى من الشّهد(*).



باب الخضراء

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلّد 4 ـ الجزء 8 ـ (ماي 1941).

باب البحر

بمناسبة شروع المجلس البلدي بتونس في هدم الأبنية الملاصقة لهيكل باب البحر بقصد توفير الأسباب العائدة بتسهيل مرور المجتازين طرداً وعكساً بهذا الباب من ثلاثة مسالك عوض مسلك واحد، رأيت النّاس بين متحدّث ومتخرّص بماضي هذا المعلم الباقي من عهد السّلف، لذلك آثرت في هذه الآونة أن يكون بحثي التّاريخي هذا الشّهر في موضوع باب البحر، والحارة الإفرنجية الواقعة حوله، وما كانا عليه في العصور المتقدّمة على الأزمان الحالية، لا سيما وأنّه مبحث لم يطرقه كتّاب التّاريخ الحاضر فيما نعلم، ولذلك نقول:

يستفاد من بعض الكتب المخطوطة المحفوظة بخزائن جامع الزّيتونة منها كتاب في مناقب بعض الأولياء والصّالحين المشهورين بتونس، أنّ باب البحر كان معروفاً بهذا الاسم في المائة السادسة. نقل الشيخ أبو الحسن علي الهواري مؤلف الكتاب المذكور في جملة ما ذكره من المناقب لمعاصره الشيخ سيّدي أبي سعيد الباجي كرامة للشيخ رضي الله عنه تضمّنت حديث طائفة من النّساء أجلاهنّ العدوّ من جزيرة ميورقة، فهاجرن لتونس في زمن سيّدي أبي سعيد، وكان عددهنّ يربو عن المائتين «فنزلن ببعض فنادق الرّوم بباب البحر». ونستخلص من هذه العبارة أنّ باب البحر في المائة السادسة وما قبلها كان به مساكن النّصارى نزلاء تونس، كما هو حاله في هذا الزّمان. ويلوح أن وجود باب البحر كان متقدّماً على ذلك الزّمان، لأنّ الوليّ سيّدي

أبي سعيد الباجي من رجال المائة السادسة ولد في سنة 551 [1156] وتوفي أوائل المائة السّابعة في سنة 628 [1230] ودفن فيما ذكر صاحب كتاب المناقب بمنارة قرطجنة (كذا). وعبارة المؤرّخ الزرّكشي في التّعريف بموضع قبره، أوضح من عبارة صاحب المناقب. فقد قال: إنّه دفن «بجبل المرسى بمقربة من المنار»، والمنار هو النّاظور المعروف المقام بقمّة الجبل لهداية السفن:

وفي النّـاظـور إشعـار بجـود   لأنّ بـــه مقـــام أبي سعيـــد

ويستفاد ممّا تقدم أن ناظور[1] سيّدي أبي سعيد ليس في أصله من المستجدّات الحادثة، بل هو كان موجوداً في أوائل الدّولة الحفصية، ولا نشكّ في كونه كان معروفاً في العصور المتقدّمة على المائة السّادسة للهجرة، يعني في زمن أمراء صنهاجة ومن تقدّمهم من بني الأغلب أمراء القيروان، لأنّ تونس كان لها يومئذٍ أسطول يمخر خضمّ البحر فيما بينها وبين جزيرة صقليّة التي افتتحها الأغالبة في أوائل المائة الثالثة على يد قاضي القيروان وأمير جيوشها أسد بن الفرات، ومات أسد أثناء حصار سرقوسة سنة 213 [828] ودفن هنالك، فمن الضّروري أنّه كان لديهم بجبل المنار، وهو الاسم التّاريخي لهذا الجبل قبل نسبته لسيّدي أبي سعيد منارة لهداية سفنهم ومتاجرهم عند غدوّها ورواحها في ظلام الليل الحالك، ومن المحتمل

(1) النّاظور الموجود لهذا الزّمان وقع بناؤه في حدود سنة 1255 [1839] على عهد المشير أحمد باي بمطلب من قناصل الدول بتونس، وجعلت له مشكاة تبيّن بالتّالي ضعف نور زجاجها فعوّضوها بزجاجة أقوى من السّالفة اشتروها من باريس بخمس عشرة ألف فرنكاً في سنة 1289 [1872] على عهد المشير محمد الصادق باي، وكان مدير النّاظور هو المرحوم البنباشي الحطّاب الزّلفاني من ضبّاط الجيش بالمحمّدية دامت إدارة النّاظور بيده سنين طويلة لحد اشتهاره باسم الحطّاب الناظورجي عوض لقبه الأصلي، وكان المكلّف بإسراج المنارة في ذلك الزّمن رجل من قدماء العساكر اسمه زربوط، يتقاصى من أجل ذلك عشرة ريالات في الشّهر، وكانت خدمة هذا النّاظور من متعلّقات وزارة البحر بحلق الوادي، ولا يوجد عيره في القرن الماضي سوى ناظور جزيرة الكلاب، وناظور رأس أدار.

القريب أنّ العرب انتفعوا بالمنارة المتحدّث عنها اقتداء بمن سبقهم من الأمم التي حكمت تونس قبلهم، لأنّ جبل المنار كان قبل الفتح الإسلامي موقعاً لمقابر أهل قرطجنة في سطوتها وعنفوان شبابها، وقرطجنة كانت يومئذٍ ذات قوّة بحرية مزاحمة لأسطول الرّومان، فلا بدّ وأنّه كان لهم ناظور بقرن الجبل يهتدون به في الظّلمات.

ولنرجع بك لحديث باب البحر بالذّات فنقول: إنّ هذا الباب كان معروفاً بهذا الاسم في زمن الدّولة الحفصية، لأنّ كتب التاريخ تعرّضت لذلك الجامع الذي بناه الدّعيّ أحمد بن مرزوق المسيلي في سنة 681 [1282] وأنّه بناه خارج باب البحر، ونجده أيضاً باسمه هذا في المائة العاشرة عند كلام المؤرّخين على حوادث احتلال الأسبانيول لتونس. قال في المؤنس عند ذكر انتصار عساكر الوزير سنان باشا: «ولمّا أخذ البستيون وجدوا الجامع الذي خارج باب البحر ملآناً بالسّلاسل والأغلال» التي جلبها الأسبانيول في جملة ذخائرهم الحربية لجعلها قيوداً في أعناق أهل تونس، ولكنّها باتت حول رقابهم، كما قصّه علينا التّاريخ.

وسمعت من بعض من أثق بروايتهم، أنّ باب البحر من آثار بني خراسان، بناه أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحقّ عند استبداده بالحكم في تونس، حيث جدّد أسوارها لأوّل المائة السّادسة، وكان في جملة ذلك البناء الحادث باب البحر. وأحمد هذا هو الذي بنى أيضاً قصور بني خراسان، ومنها القصر الأعلى المنسوب له جامع القصر الموجود لهذا الزمان. وذكر بعض المؤرّخين أنّ الواقف بصحن الجنائز بجامع الزّيتونة كان في المائة العاشرة يرى مياه البحيرة بعينه الباصرة من موقفه، ممّا يدلّ على فقدان العمارة حول باب البحر في ذلك العهد، ولم يزل باب البحر معروفاً باسمه هذا بين التّونسيين إلى هذا الزمان.

أما هيكله في القديم، فقد كان ضئيلاً على قياس بعض أبواب مدينة تونس، كباب سيّدي عبد السّلام، وباب سيدي قاسم، وباب القرجاني لعهد

قريب، وكان موقعه لنحو عشرين أو ثلاثين خطوة ليسار الباب الحالي بالنّسبة للخارج. قد سمعت ذلك من بعض مشيخة الجيل الفائت ورأيت ما يؤيّده فيما بعد بخريطة هندسية تقريبية لما كانت عليه الحارة الإفرنجية بتونس في أواسط القرن الماضي. ولمّا رجع المشير أحمد باي من رحلته بفرنسا، حيث شاهد معالم العظمة والثّروة الواسعة، كقوس النّصر بباريس، وغيره من الآثار التّاريخية الخالدة، كما شاهد نظم الدولة الفرنساوية في عزّتها وفخامتها، تعلّقت همّته بمجاراة فرنسا في بعض مظاهر عظمتها ـ ولكن مع وجود الفارق ـ فزاد توسعة في قصور المحمّدية، ورتّب الخطط الوزيرية، وأحدث خطّة أمير الأمراء بالعسكرية، كما أحدث الصّنف الأكبر في سلسلة نياشين الافتخار قياساً على نظام (اللجيون دونور)، ورتّب ترسخانة بغار الملح، وبنى مدرّعة حربية من طراز فرقاطة، وأبطل الرّقيق بممالكه، إلى غير ذلك من المستجدّات التي سهل عليه إنجازها حبّ التّعالي والتّعاظم المحمول عليه بطبعه الذي وصفه لنا التاريخ، وكان في جملة مبتكراته أيضاً بعد إيّابه من فرنسا، إنشاء باب البحر، بعنوان معلم تونسي فخم، يحاكي بعض ما شاهده في رحلته من أقواس النّصر الكثيرة بفرنسا، فأمر بتشييد الباب المذكور عوض الباب القديم الضّئيل الذي هو من بقايا العصر الحفصي فيما أظنّ، وكان ذلك في سنة 1264 (1848 للميلاد) فجاء كما تراه اليوم، وكان القائم ببنائه المعلّم محمد تيوة، وممّن شاركه في ذلك تلميذه المرحوم سليمان النيقرو، مهندس البناء، وقد كتبوا بالقلم الغليظ على واجهتي الباب داخلاً وخارجاً أبياتاً من الشّعر تذكاراً لبنائه، قيل من نظم المدرس الشيخ أحمد بيرم المتوفي سنة 1280 [1863] ورأيت من نسبها لابن عمّه الشيخ محمد بيرم الرابع، فهي على كلّ حال جواهر بيرمية. وعبارة الأبيات المكتوبة على الواجهة الداخلية:

بسم الله الرّحمن الرّحيم ـ ما شاء الله ـ وصلّى الله على سيّدنا محمّد وسلّم

بإبداع هذا الباب قد صدر الأمر   من الملك السّامي الذّرا من له الفخر

فجـاء عديم المثـل أبرز شكله   على صورة غرّا ينـاسبها القـدر
ولا بـدع في إبـداعـه بمشيـده   تـأنّق في إحكام آثـاره الـدّهـر
وما هي أولى ما أفـاد فكم له   بتونس من صنع يشاد به الذّكر
ولمّا اكتسى ثوب التّمام وأشرقت   محاسنه اللاّتي يباهي بها العصر
غدا الدّهر يشدو إذ يقول مؤرّخاً   بنا أحمد ذا الباب دام له النّصر

1264 [1847]

وأمّا الأبيات المنقوشة على واجهة الباب الخارجية، فهذه عبارتها:

بسم الله الرّحمن الرّحيم ـ ما شاء الله ـ وصلّى الله على سيّدنا محمّد وسلّم

بإنشاء هذا الباب قد كمل الفخر   وسار مسير الشّمس في الفلك الذّكر
بـه أمر المـولى المؤيّد من لـه   مراقي علا ينحطّ عن نيلها البدر
فجاء كما ترضى النّفوس مؤسّساً   على صفة ما حام من عدّها فكر
إذا كان ما تبتدي الملوك أزاهر   فإنّ الذي يبدي المشير هو العطر
فشكراً لما أولى وحقّ لمن غدا   جميل المساعي مثله الحمد والشّكر
ودونك من ذا الباب عنوان فضله   ولج لترى الفضل الذي ما له حصر
أديمت له النّعما وعوجل بالمنى   ودانت له الدّنيا وطال له العمر
ولمّـا انتهى تأسيسـه وتكـاملت   محاسنه اللاّتي بها افتخر العصر
تسنّى لمن قـد قال فيـه مؤرّخاً   بنى أحمد ذا الباب دام له النّصر

1263 [1846]

ومصراع التّاريخ في الواجهة الدّاخلية يوافق العام 1264 المرسوم بها وهو بنصّه لا يوافق العام 1263 المرسوم بالواجهة الخارجية، وكان في الإمكان الجمع بين الاثنين لو قال: «بنى أحمد ذا الباب مدّ له النصر» عوض قوله: «دام له النّصر» إذ بسقوط ألف دام ينقص عام من حساب المصراع، والقلب والإبدال من خصائص لغة العرب، ومقتضاه يكون تأسيس واجهة الباب الخارجية متقدّمة بعام على بناء واجهته الدّاخلية، وهو الشّيء الذي يقبله العقل، لأنّ بناء معلم كباب البحر يستدعي لا محالة زمناً يستغرق أكثر من

عام واحد، ومهما كان الحال فإنّي أهدي في هذه الآونة عبارات الشّكر الجزيل للفرنساوي الصميم (مسيو ادمون) مدير مغازة المقْزان جنرال، لأنه هو الذي سهّل عليّ نقل الأبيات المرقومة على باب البحر بواجهته الخارجية، من إحدى نوافذ مغازته القريبة من الباب، ومدّني بنظّارة بدعا في التّجسيم والتّفخيم لحلّ أشكالها الغامضة، وتراكيبها المتداخلة، ولولا هذه المساعدة لما تيسّر لي نقلها لاستحالة أخذها بطريقة أخرى. وأمّا الأبيات المرسومة على الواجهة الدّاخلية فقد كنت نقلتها لنحو ثلاثين سنة ماضية من مطعم (أوتيل) إيمون الواقع ببطحاء البياصة[2] المعروفة في هذا الزّمان ببطحاء لافيجري [Lavigerie]، صاحب التّمثال الذي أقيم بها في سنة 1344 [1925][3].

وقد رأيت فيما تقدم أنّ باب البحر ليس له من الأسماء غير ما عرف به منذ القرون الأولى، وهو اسمه المعروف به لهذا الزّمان بين عامّة التّونسيين، غير أنّه اشتهرت تسميته بين الأروباويين في بحر هذه الخمسين سنة باسم «باب فرانسا» كما اطلقوا اسم «شارع فرانسا» على النّهج الفسيح الواقع خارجه فيما بين الباب وبطحاء السّفارة الفرنسوية، وما زاد على ذلك هو شارع جول فيري[4]، صاحب التّمثال الذي سيأتي الكلام عليه، وكان هذا الشّارع لا اسم له في الأزمان الغابرة، وإنّما سمّي شارع البحيرة في أواخر القرن الماضي بعد تخطيطه وتمهيده بعناية المجلس البلدي بعد انتصابه فلمّا أقيم للوزير جول فيري تمثاله[5] المعروف في سنة 1316 [1898] على عهد

(2) لفظ بياصة معرّب من piazza في الطّليانية ومعناه بطاح وساحة وشبه ذلك.

(3) [على إثر إحراز تونس على استقلالها أزيل تمثال لافيجري وسمّيت السّاحة التي كانت تحمل اسمه بساحة النّصر].

(4) [شارع الرئيس الحبيب بورقيبة الآن].

(5) صخرة التّمثال المتحدّث عنه اشتملت على ذوات أخرى حول قاعدة التّمثال، فالرأس الذي بالقرص المستدير يمثّل وجه (مسيو برتلمي سانتيلار) وزير خارجية فرانسا الذي أمضى في مدّته صكّ الحماية، والذّوات الأخرى هي رسم معمّر فرنساوي يمثّل الكدّ والجدّ في إحياء =

الوزير المقيم (مسيو ريني ميلي) بعد فتح مرسى تونس لسير السّفن على عهد سلفه الوزير (مسيو روفي) (1310) [1892] أبدل المجلس البلدي اسم ذلك الشّارع الذي هو أوسع شوارع تونس في ذلك الزّمان، فجعله شارع (جول فيري) تخليداً لذكر صاحبه حيث كان هو المبتكر لمشروع الحماية الفرنساوية بتونس، ولم يكن لشارع البحيرة وجود قبل بناء قنصلات فرانسا خارج باب البحر، بل كانت تلك الجهة وما حواليها كلّها أراضٍ موات لا تصلح للزّرع ولا للضّرع، لأنها كانت مغمورة بالأعشاب، والأدغال، والحماضة، وما تلفظه أمواج البحيرة بالسّاحل، ولم يكن بشاطئها سوى بناء ضئيل يعبر إليه من سرب على القدم أو على البغال خلال تلك الأدغال والوحل في الشتاء، والغبار في الصيف، للوصول لذلك البناء المنتصب به مأمور القمرق المكلّف باستخلاص المعاليم الموظّفة على البضائع الصّادرة والواردة على طريق البحيرة، ودام هذا النّظام القمرقي بتونس إلى إحداث الرّقابة الأروباوية على مالية الدولة التونسية المعروفة بالكمسيون الذي وقع انتصابه في سنة 1286 [1869] وضبط المال المتحصّل من القمرق كان في عهدة شاهد البحيرة، وآخر من تولّى الإشهاد على ذلك المرحوم الشيخ علي المحرزي. وفيما بين باب البحر والبحيرة كان بالجهة التي بها اليوم مقهى الكازينو، معامل صنع القطران، يسمّيها العامّة مخازن القطران، كانت منتزه الأحداث في وقت الرّبيع، يذهبون للجلوس فوق سطوحها جموعاً ووحداناً لاستنشاق... الهواء العليل، ولأكل بعض المقاثي والبقول الطرية، كفصوص الفول الأخضر، والفجل والبسباسة، والخصّ، ممّا كان ينتجه بعض البستانيين من فقراء النّصارى حول بئر تأوي إليها مياه الخنادق عند جريانها للبحيرة، وهذه الخنادق كانت في الجملة سبعة، أعظمها خندق ضبيان الوارد من ربض باب

= الأرض لاستخراج خيراتها وبركاتها، ثمّ رسم امرأة عربيّة بدويّة تقدّم سنبلة لجول فيري تحدّثا بالنّعمة، والصّبيّان الجالسان يمثّل أحدهما صورة نجل الوزير المقيم (مسيو ريني ميلي) حالة كونه يعلّم التّهجئة والقراءة لصبيّ أهليّ من اللّفيف، كناية على أنّ مساعي فرانسا ترمي لنشر آلاء التعليم بين كافّة الطّبقات. [أزيل هذا التّمثال بعد الاستقلال].

السّويقة، وكانت مكشوفة على طول الخطّ إلى أن تصل لمصبّها بالبحيرة.

وقد وقفت لبعضهم على أبيات لطيفة في وصف مجالس نزهتهم بباب البحر، ممّا يدلّ على ارتياح القلوب، والرّضا بالنّزر اليسير في ذلك الزّمان الذي ليس ببعيد:

سقى الله باب البحر وطفاء ديمة ... تروّي ثراه العاطر النّفحات
محلّ التّصافي لامحا المحل رسمه ... ومنزل لهو آهل العرصات
لعمرك ما الدّنيا ولا عيشها سوى ... عشيّات أنس فيه أو غدوّات
فللّه يوم لم ترَ العين مثله ... حبانا سروراً والزّمان مواتي
لدى حانة حنّت إليها صبابة ... حشاشة نفس روّعت بشتات
يدير علينا الرّاح ضبي مرنّد ... رهيف التّثنّي فاتن الحركات
سقاني بعينيه كؤوساً من الهوى ... تمازج محياي بها ومماتي
غدوت إليها تختشي الأسد صولتي ... ورحت صريع الرّاح واللّحظات

وأوّل بناء عصري أقيم برأس شارع البحيرة قبل تخطيطه وتمهيده، هو قنصلات فرنسا، وكان ذلك بمساعي القنصل المستعرب (ليون روش) (Léon Roches) في عهد المشير محمد باي الذي كان تجمعه بالقنصل المذكور صلة مودّة ومخالطة شخصيّة، زيادة على ما كان بينهما من العلائق الرّسمية الحسنة، فقد كانا يخرجان معاً للصيّد والقنص بجهة وادي الرّمل فيما بين خنقة الحجاج وزغوان ويصيبان الشّيء الكثير. قالوا: إنّ المشير محمد باي كان إذا رمى طائراً أو حيواناً لم يخطه قطّ، وبلغ من امتزاح (مسيو ليون روش) بسموّ الباي مجاراته في بعض أخلاقه وعوائده، حتّى أنّه كان يستعمل نفّة النّشوق في مجلس الباي، لأنّ سموّه كان يستعمل ذلك، وكان الباي يهاديه بملابسه العربيّة الفاخرة فيتزيّى بها، من ذلك برنس من الوبر أهداه القنصل بدوره فيما حكاه عن نفسه لصاحبه الأمير عبد القادر الجزائري، فارس العلم والجهاد. رأيت ذلك في كتاب له عنوانه: «اثنان وثلاثون عاماً حول الإسلام».

وبديهيّ أنّ مصاريف بناء القنصلات المشار إليها، كانت على نفقة الخزينة التونسية بناء على أنّ ملوك تونس متكفّلون من عهد قديم بإسكان قناصل الدوّل بمحلّات مناسبة من أملاك الدّولة، وكان التّجّار الأروباويون يسكنون من أواسط القرن الحادي عشر بالمحلّ المعروف بفندق النّصارى الموجود لهذا الزّمان بنهج القمرق القديم داخل باب البحر، وبقربهم قناصلهم بالمكان، وكان لهم بالفندق مصلّى لإقامة شعائر دينهم، وكانت مقابرهم بالبقعة التي بها اليوم الكنيسة المواجهة لدار السّفارة العامّة، وهذه الكنيسة أمّ الكنائس بتونس، تمّ بناؤها في سنة 1315 هـ [1897].

وفي عيد الفصح من مواسم النّصارى يوجّه الباي على وجه المكارمة للقناصل طبل باشا مع مهتاره للعزف بالفندق، وتكون البداية حتماً بقنصل فرانسا بناءً على أنّ ملوك فرنسا كانوا هم حماة النّصرانية بالبلاد الشّرقية، والفناء الذي كان موجوداً بين باب البحر وموقع القنصلات كان ترسم به سوق الخضراوات والبقول والفحوم وما أشبه، وبالمكان نفسه بقايا حصن الباستيون، ولعلّ من بقيّته محلّات قمرق الدّخان القديم الذي مسح من لوحة الوجود في مبادىء هذا القرن، وما وراء ذلك كان مصبّاً للأزبال المجتمعة بدور المدينة ومساكنها وشوارعها، ولقد بلغ من أمر هذه المزابل أنها اعتلت حتى كادت أن تكون جبلاً في عهد الباي حمودة باشا. قال المؤرّخ الشّيخ أحمد بن أبي الضياف ما معناه: إنّ تلك المزابل أورثت خوفاً في نفس الباي، لأنّها صارت جبلاً يمكن أن يتترّس به العدوّ، ولأجل إزالة ذلك الخطر، حمل الباي أهل المدينة على نقل تلك المزابل للبحيرة، فاستغرقوا في ذلك عدّة شهور، ويلوح أنّهم كانوا في تلك الأزمان ينتفعون في مثل تلك الأعمال الشّاقّة بمشاركة الأسارى، والأسارى كانوا يفدون أنفسهم بالمال النّاضّ، إمّا من عطايا المحسنين من بني جنسهم، وإمّا بما يتوفّر لديهم من الأجور التي يكتنزونها مدّة خدمتهم بالمصانع والمعامل الدّولية، أو من خدمتهم بديار الأعيان، وكانت فدية الأسير ثلاثمائة محبوب في زمن الباي حمودة باشا.

وبالجملة، فإنّ الحاضرة التونسية كانت لنحو مائة سنة ماضية وسخة قذرة فوق ما يتصوّره العقل، لذلك كانت الأوبئة تتعاهدها على دور العصور، وبذلك وصفها كلّ من زارها من الأروباويين في ذلك العهد، والشّواهد على ذلك كثيرة، ويكفي الإشارة لما هجاها به لنحو جيلين فارطين، المعلّم أحمد فارس الشّدياق في قصيدته التي يقول فيها:

يا عيشة مستنكره في بلدة مستقذره
ما أن ترى من روضة فيها ولا من شجره
إلّا غباراً ثائراً في الصيّف بئس الغبره
وفي الشّتاء وحل تغوص فيه البقره
وفي الطّريق جثث مبثوثة منتشره
من حيوان ميّت وبشر للعذره

وهي طويلة احتوت على ما هو أشنع وأقبح من ذلك، ويا ليته عاش لهذا الزّمان ليكتب لنا من نظمه كفّارة سيّآته أو ليردّد معي هذه الأبيات التي نظمتها على رويّ قصيدته:

يا عيشة مستبشره في بلدة مستحضره
ما أن ترى إلّا الرّيا ض الباسقات النّضره
وطرقاً ممدودة ممشاتها مشجّره
ذات ظلال بالثّنا في الصّيف يا ما أجدره
وفي الشّتا منتزه للوافدين البرره
وكل بيت حوله مذياعة كالمخبره
بما يهزّه الفضا من موج صوت البشره
تضيئه أشعّة من كهربا منتشره
مع تلفون ناطق يشبه بعل السّحره
وبالطّريق عجلة أسرع من برق تره
وفي السّما طيّارة لقمع شرّ الفجره

والقوم بين ضاحك ومعجب ممّا يره
صدى لسان حالهم عن السّنين الغابره
يقول بئس ما مضى ونعم حال حاضره

ويأبى القلم أن يتعرّض بسوء للشّيخ أحمد فارس، لأنّ له حسنات كثيرة في مقام الأدب والتّحرير، والحسنات يذهبن السّيئات، ولأنّه من جهة أخرى حكى ما شاهدت عيناه تحت تأثيرات الخيبة والإخفاق، لأنّه جاء تونس مؤمّلاً اكتساب حيثيّة له بالدّولة، فلم يحظ منها بسوى خطّة ضئيلة بحلق الوادي، لذلك ترثّى لحاله بقصيدته التي مطلعها:

ماذا جنيت وما جنت أجدادي حتّى غدا حبسي بحلق الوادي

على أن قصيدته في هجو تونس، أجابه عنها الشّيخ محمد بيرم الرّابع بقصيدة نعرف منها بيتاً واحداً، وهو قوله:

المسلمون صدقوا بجنّة منتظره

وهذا البيت يكفينا لفهم ما غاب عنّا من باقيها، رحم الله قائلها وأثابه.

وفي النّصف الثّاني من القرن الماضي، أخذ الإفرنج نزلاء تونس يتوسّعون بالسّكنى وبالتّجارة داخل باب البحر، فكانت أبنيتهم متعالية، ومتاجرهم نافقة بحومة سيدي المرجاني وما إليها، ووافق ذلك الإعلان بقانون عهد الأمان، ومن شروطه إمناح حرّية البيع والشّراء لسائر الأجناس، الأمر الذي سوّغ للأوروباويين تملّك الربع والعقار مع التّمتّع بجميع الحقوق الممنوحة لأبناء البلاد. وحومة سيدي المرجاني كانت يومئذٍ خاصّة بالإفرنج، وأهمّ أنهاجها الزّقاق المعروف بنهج الكنيسة[6] في هذا الزّمان سمّوه كذلك في مبادىء هذا القرن نسبة لكنيسة سانت كروا (الصّليب المقدّس)، وهذه الكنيسة كانت في القديم مارستاناً للنّصارى اسمه عندهم «مستشفى أهل

(6) [نهج جامع الزّيتونة الآن.]

الثّالوث»، كان تأسيسه في أوائل القرن الحادي عشر. وفي عهد المرحوم المولى حسين باي بن محمود باي رخّص لهم بجعله كنيسة في سنة 1249 [1833] وزيد لهم في مساحتها نحو عشرين ذراعاً على عهد المشير أحمد باي في سنة 1261 [1845] ثم إنّ المشير محمد الصادق باي تفضّل في سنة 1291 [1874] بدار بسوق البراماية قرب تلك الكنيسة على جماعة الرّهبان من فرقة (إخوة المكاتب النّصرانية) للسّكنى بها، ولتعليم أبناء النّصارى بتونس، بحيث إنّ حومة الإفرنج داخل باب البحر كانت في أواخر القرن الماضي تامّة النّصاب، متوفّرة المرافق، ناهيك أنّه كان بها تجّار لبيع الكتب العربية، كالإسرائيلي (لياه المليّح) المتمتّع بالحماية الطّليانية، فقد انتصب في سنة 1291 [1875] لبيع مصاحف القرآن الكريم، وموطّأ إمام دار الهجرة مالك بن أنس، مع رسالة في جواز لبس الْبَرْطَلّة[7] اسمها «أجوبة الحيارى عن قلنسوّة النصارى» للشيخ سليمان الحرايري[8]، وفتوى له في إباحة زكاة أهل الكتاب، ممّا يدلّك على الحرّية الكاملة التي كان يتمتّع بها الأروباويون، ومن استظلّ بحمايتهم المنيعة في ذلك الزّمان.

وما لبثت محاسن التّمدّن العصري ومظاهره الخلاّبة غير قليل، حتّى استهوت أبناء تونس، وامتلكت بهم، فكانوا بين سابق ولاحق للكرع من مناهله وحياضه، والتّمدّن حلو حامض، ولك أن تقول من طعمه وكنهه كالرّمّان إذا لم تحسن علاج هضمه أحدث بجوفك إمساكاً خطيراً، ومن أراد أن يأكل من ثمار التّمدّن بدون خطر، فعليه أكل اللّبّ وطرح اللّباب، ويلوح أنّ الكثير من إخواننا التّونسيين عكسوا القضيّة، لأنّهم ملأوا جرابهم بقشور التّمدّن، وتركوا لبّه لغيرهم.

وفي سنة 1288 [1871] تمّ نصب السّكّة الحديدية بين تونس وحلق

(7) الْبَرْطَلّة [أو القُبّعة]: شيء كالمظلّة ليست من كلام العرب عند الأصمعي، بل هي معرّبة من النّبطية ا هـ. (من شفاء الغليل).

(8) [سليمان الحرايري (1824-1875) - انظر ترجمته في «تراجم المؤلفين التونسيين» ج 2. ص 120].

الوادي، واختير أن تكون محطّة الرّكوب بالفناء الـواقع على مقـربة من الدّبّاغين، لكون تلك البقعة كانت يومئذٍ مركزاً وسطاً بين الأحياء العربيّة والحارة الإفرنجية، ونشأت بحكم الضّـرورة أبنية جـديدة حـوالي موقف الأرتال، لم تكن موجودة من قبل. وفي عهد وزارة خير الدّين، صرف هذا الوزير المصلح عنايته نحو تهذيب الشّارع الواقع خارج باب البحر، قياساً على ما أنجزه من التّنسيق والتّهذيب بحديقة القصبة وبطاحها، فأنشأ حديقة خارج باب البحر بالمكان المجعول موقفاً للعربات في هذا العهد حيث بالاص البكّوش[9] الذي هو من أوّل الأبنية المحدثة خارج باب البحر على النّمط الأروباوي[10] في أواخر القرن الماضي، ورتّب الوزير المذكور عشرين فانوساً بلدياً، منها ثمانية لإسراج بطحاء القصبة وباب البحر، والبقيّة وزّعها بأطراف الحاضرة. وأوّل حومة عربيّة استنارت بضوء الغاز هي سوق البلاط، وكان ذلك في سنة 1291 [1874] ولمّا وقع تنوير واجهة سراية المملكة ليلة المولد الشّريف من ذلك العام، كتبوا بأحرف النّور فوق بابها عبارة «محمد الصادق باشا باي دام عزّه وعلاه»، فأعجب النّاس بذلك واستغربوه أيّما استغراب، حتّى أنّ من لم يره منهم لم يصدّق به عند سماعه من غيره. وكان بالجهة المجاورة لبالاص البكّوش محلاّت خدمة دار الجلد، وهو نظام دولي قديم عفت رسومه بشكله المذكور عند إبطال الكمسيون وانتصاب إدارة المال بتونس، وكان ذلك النّظام يسمّى «دار الجلد والسّكّين» تتقاضى الدّولة منه معاليم معتبرة على ما يذبح ويباع من الأنعام وجلودها، وآخر من تولاّها

---

(9) لفظ بالاص معرّب من Palazzo في اللغة الطّليانية، ومعناه قصر وصرح وسراية وشبه ذلك والاسم المضاف إليه هو لقب أمير الأمراء أبي عبد الله محمد البكّوش مستشار الوزراة الخارجية على عهد المشير محمد الصادق باي، تولّى عدّة أعمال معتبرة وقام بمأموريات هامة على عهد الدّور القديم، توفي رحمه الله سنة 1312 [1894].

(10) أوّل دار بنيت على النّمط الأروباوي بالأسلوب الطّلياني هي دار الوزير مصطفى صاحب الطّابع الواقعة على مقربة من جبل المنار، وهي نفسها في هذا الزّمن كنيسة (سانت مونيك) بإضافة ما زيد بواجهتها عند صيرورتها معبداً نصرانياً في أوائل هذا القرن.

المرحوم أمير اللّواء العربي زرّوق، وكان مع ذلك رئيساً للمجلس البلدي، ومديـراً للمدرسة الصادقية، هاجر للمدينة المنوّرة في منسلخ القرن الماضي وتوفي بها سنة 1320 [1902] رحمه الله.

وهذه المنشآت والتّحسينات التي تناولت الحارة الإفرنجية وغيرها في عهد الدولة الصادقية، حدثت كلّها بعد هدم السّور الدّاخلي الذي كان فاصلاً بين قسم المدينة، وبين قسمي الرّبضين، وكان موقع هذا السّور هو خطّ التّراموای المارّ بباب البحر، وباب الجزيرة، وباب الجديد، وباب منارة، والقصبة، وباب البنات، وباب السّويقة، وباب قرطجنّة، إلى باب البحر، حيث البداية. وجميع تلك الأبواب كانت تغلق مع غيرها من الأبواب الصّغيرة التي كانت بغلقها تقطع المواصلة بين الحارة وأختها داخل المدينة نفسها، وهي عادة قديمة كانت موجودة في الدّولة المرادية، بزيادة غلق أبواب البلاد (باب الخضراء، وباب سيدي عبد السلام، وباب سعدون، وباب العلوج، وباب سيدي عبد الله، وباب سيدي قاسم، وباب القرجاني، وباب الفلة، وباب علاوة) في الليل، وعند صلاة الجمعة في النّهار[11] فلمّا آلت الدّولة للمشير أحمد باي، أبطل غلق أبواب البلاد في وقت صلاة الجمعة، ولمّا أعلن المشير محمد الصادق باي بقوانين عهد الأمان، أبطل غلق جميع الأبواب الداخلية بالحاضرة في الليل، ولم يستثن منها إلاّ أبواب الأسواق، وما زالت كذلك إلى هذا الزّمان. وكانت حاضرة تونس تحيط بها أسوار رابطة لأبوابها التّسعة المتقدم ذكرها، وقد أضيف لها باب عاشر فتحه المجلس البلدي في أوائل هذا القرن، وأسماه باب العسل، اقتباساً من درب العسّال الواقع به الباب المذكور.

والأسوار المذكورة، أوّل ما بنيت في المائة الثالثة على عهد بني الأغلب أمراء القيروان، ثمّ زيد فيها أثناء المائة الرابعة بإشارة من المؤدب،

(11) كانوا يغلقون أبواب البلاد عند الأذان لصلاة الجمعة حوفاً من هجوم الأعراب على الحاضرة بنّية النّهب والفساد عند إقامة الصّلاة.

عالم الظّاهر والباطن، سيّدي محرز بن خلف، رضي الله عنه، وتناولها التّجديد مراراً في عهد الدّولة الحفصية. وآخر من جدّد عمارتها الملك الصّالح الباي حمودة باشا الحسيني، شرع في بنائها سنة 1217 [1802] وكلّلها بالأبراج لسكنى عساكره، وكتب على أبوابها تاريخها باللغة التركية، سياسة منه مع الجند، ومحصّل الكتابة أنّ الآمر بالبناء هو السّلطان سليم خان الثاني في مدة الباي حمودة باشا «أول كريم أول همام نصره الله إلى يوم القيام».

وقد رأيت في بعض التّواريخ أنّ الذي باشر هندسة تلك الأسوار عن إذن الباي، رجل من بلاد الفلمنك اسمه (هنبير)، ولا غرابة في ذلك، فإنّ الباي محمد الرشيد بن المولى حسين بن علي، كان طلب من الدولة الفرنسوية أن تمدّه بمهندس يستعين به على تجديد عمارة أسوار القيروان وحصونها بعد أن دمّرها ابن عمّه الباشا علي باي الأوّل، فوجّهت له المهندس (ترينكانو) في سنة 1171 [1705]. قال الراوي: «لمّا انتهت مأمورية هذا المهندس، أحسن له الباي بتسعمائة محبوب، مع حصانين، وما يحتاجه من لوازم السّفر للرجوع إلى بلاده».

وأسوار تونس حكم أهل النّظر بهدمها في هذه الأيام (1357) [1938] بداعي التّوسعة، وتوفير الهواء، والضّوء الكافي للرّباعات والدّور المسكونة خلفها، وقرّروا فيما سمعنا إبقاء جزء منها بعنوان بناء تاريخي لإفادة أهل الأجيال القابلة بما كانت عليه مدينة تونس في عهد الأجيال الماضية، والتّاريخ كما يثبت بحجارة الجدار، يثبت أيضاً بما تخطّه الأقلام، هي محاريث العقول، لذلك تناولنا هنا حديث ما كانت عليه تونسنا المحبوبة، وتربتنا المرغوبة، ليكون صلة وصل بين زمن الأجداد، وبين زمن الأحفاد.

ونختم هذه النّبذة بالإشارة لعدد ما كان بتونس من السّكّان في أواسط القرن الماضي، فقد قدّر المؤرّخ (بيليسي)[12] عددهم بسبعين ألفاً على وجه

(12) [PELLISSIER «وصف الإيالة التونسية» باريس 1853].

التّقريب، وقدّر المؤرّخ (كيران)[13] عددهم في صدر دولة المشير محمد الصادق باي بتسعين ألفاً، منهم ستّون ألفاً من المسلمين، وعشرون ألفاً من اليهود، وعشرة آلاف من مختلف أجناس الأروباويين. ونستبعد صحّة تقديره الخاصّ باليهود، وعندي أنّ عددهم كان دون ذلك بكثير، لأنّ أبناء الطّائفة الإسرائيلية كبقية التّونسيين تكاثرت أعدادهم في بحر هذه الخمسين سنة، بفضل الإسعافات الصّحّية المتنوّعة التي أنجزتها الدّولة بتونس. فإذا اعتبرنا أنّ عدد اليهود سكّان الحاضرة بلغ حسب إحصائية عام 1936 إلى (27345) نفس، نجزم بأنهم لم يكونوا قبل هذا الزّمان بمائة عام، أكثر من نصف العدد المذكور على أوسع تقدير، وأمّا عدد سكّان الحاضرة من المسلمين، فقد بلغ في إحصائية العام المذكور، إلى (93356) نسمة، وقد رأيت في تاريخ المشرع الملكي، أنّ سكّان تونس في مدّة المولى حسين بن علي، كانوا نحو مائة وخمسين ألفاً، وهو محلّ نظر، اللّهمّ إلاّ إذا اعتبرنا ما حدث بتونس من الأوبية الكثيرة، والحروب الدّاخلية الحاصدة للأرواح في بحر القرنين الثاني عشر والثالث عشر. أمّا مجموع سكّان الحاضرة التونسية في هذا الزّمان حسب إحصائية عام 1936 التي هي آخر إحصائية رسمية لعموم السّكّان، فعددهم بالحساب المدقّق (219578) نسمة، منهم المسلمون واليهود المتقدّم بيان عددهم، ومنهم (98877) أروبويون، يوجد ضمنهم من الفرنساويين (42678) والبقية من عموم الأجناس الأروباوية، وآخر ما أقول، هو قول زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنّني عن علم ما في غد عم[*]

(13) [GUERIN «رحلة أثرية في الإيالة التونسية» باريس 1862].

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 2 ـ الجزآن 8 - 9 (ماي ـ جوان 1938).



باب البحر

البَابُ الخَامِسُ

تَرَاجِمُ الأَعْلَامِ

الرّجال الأربعون
أصحاب الإمام الشّاذلي

— 1 —

بمناسبة موافقة هذا الشّهر المبارك لافتتاح حفلات الأذكار الجمعية بالمقام الشّاذلي، ابتداء من حلول فصل المصيف، وفقاً للنّظام المألوف بين أهل الطّريقة الشّاذلية منذ المائة السابعة فما دون، أحببت في هذه الكرّة جعل مشاركتي التّاريخية في هذا العدد من المجلّة الزيتونية خاصّة بـالتّعريف بالرّجال الأربعين من أكابر الصّالحين أصحاب الإمام الشّاذلي رضي الله عنه[1] الذين لازموه عدّة من السّنين في مجالس ذكره وتعّبده بالمغارة الشّاذلية على عهد السّلطان أبي زكرياء الحفصي. وهؤلاء السّادة يفوت عددهم الأربعين كما ستراه، إنما غلب عليهم نعتهم بالأربعين، كنعتهم أيضاً برجال الزّلاّج، لاحتواء هذه المقبرة لأضرحة جماعة منهم كما سيأتي بيانه، ومن المتّفق عليه أنّهم كلّهم من خيار الخيار، وأنّ قبورهم كانت كما لم تزل

---

(1) هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبّار المشهُور بالشّاذلي، قدم من المغرب لتونس أواسط المائة السّابعة، وسكن بالمغارة المنسوبة إليه بجبل الفتح، وهنالك اجتمع عليه أصحابه الأربعون المشهورون وأقام على ذلك نحواً من عشر سنين، ولما اشتهر علمه وفضله ورجع إلى الله على يده الجم الغفير، حسده قاضي زمنه الفقيه الشيخ أحمد بن البرا، فوشّى به إلى السّلطان أبي زكرياء الحفصي، ورماه بالسّحر، فعزم السّلطان على إبعاده من تونس، وفي ذلك اليوم احترقت جارية للسلطان كان يحبّها حبّاً جمّاً، فخاف السّلطان واستخلص مرضاة الشيخ رضي الله عنه، إلاّ أنّ الشيخ لم يعبأ بذلك وارتحل من تونس قاصداً الإسكندرية ثم مصر، ومنها انتقل لحمثرا، بصحراء عيذاب، وبها التحق بربه في سنة 656 [1258].



مقام أبي الحسن الشاذلي

محاطة بسياج الحظوة والاحترام من عامّة أهل تونس، وبعضهم ممّن يستجاب عند قبره الدّعاء(2)، وهذه قائمة أسمائهم مقتطفة من بعض كنّاشات السّلف، نوّر الله مراقدهم:

1 ـ محمد الغماري هو أوّل من صحب الإمام الشّاذلي عند دخوله لتونس، توفّي سنة 663 [1264].

2 ـ محمد القرطبي، حفظ عليه القرآن خمسمائة رجل، توفّي سنة 661 [1262].

3 ـ ماضي بن سلطان المسروقي، خادم الإمام الشاذلي، توفّي سنة 718 [1318].

(2) هكذا ذكر غير واحد من المؤرّخين، وبه قال بعض أهل العلم، منهم الشيخ محمد بيرم الرابع قدس الله روحه، وممّا يؤيّد هذه الشّهرة المتواتر حديثها بين النّاس خلفاً عن سلف، أن القيّمين على أضرحة أولئك السّادة رضي الله عنهم، كانت ولايتهم تصدر بالأمر العليّ اعتباراً لمنزلتهم الصّالحة في نظر عموم أهل تونس، وكانوا ينتخبونهم من آل بيت الشّماري، ولدينا في ذلك وثائق تاريخية كثيرة ننقل منها نموذجاً تأييداً لما ذكرنا: أمرنا هذا بيد الفقيه علي بن علي الشماري، وإنّنا جعلناه وقّاداً بمقام الشّيخ سيدي علي الزّلاّج (صوابه محمد الزّلاّج) عوض والده المذكور لوفاته، وأوصينا عليه بالرّعي والاحترام، والمبرّة والإكرام. والسلام من الفقير إلى ربّه الباشا علي باي (الثاني) بن حسين باي، لطف الله به أوائل أشرف الربيعين سنة 1194 [1780] اهـ. وممّا هو جدير بالذكر في هذا المعنى أنّ المولى حسين بن علي قدس سره، كان لا يتخلّف عن زيارة أضرحة الرّجال الأربعين، فقد قال القاضي الشيخ محمد سعادة في كتابه قرّة العين بنشر فضائل الملك حسين، ما نصّه: ولقد مررت يوماً بباب الجديد في قضاء بعض الشؤون، فوجدت جماعة من العوّام يثنون عليه (أي على الباي حسين بن علي) بما تقرّ به العيون على ما أظهره من التّواضع مع الفاضل العدل الحاج عبد اللطيف زيتون، وذلك أنّه مرّ بدكّان المذكور حين رجوعه من زيارة ما بجبل الزّلاّج من الرّجال في موكبه وما حوى من الجحاحجة الأبطال فوثب المذكور على ما به من العجز والضّعف في ركبتيه، ونزل من دكّانه لتقبيل كريمة يديه، فمسك عنان فرسه حتّى التحق به ا هـ. قلت وعلى قياس صنيع هذا الجدّ السّعيد درج أخلافه من الملوك الحسينيين، ناهيك أنّ المشير أحمد باي الأوّل، وكان شاذليّ الطّريقة، باشر بنفسه لحد شيخها المفتي الشّيخ الشاذلي بن المؤدّب عند وفاته في سنة 1263 [1846]. قال في تاريخ إتحاف أهـل الزّمان، إنّ الباي المذكور: حمل جثّته (أي جثّة الشّيخ المؤدّب) بنفسه ومشى خلف نعشه راجلاً باعتبار أنّه من أبناء الطّريقة الشّاذلية ا هـ.

4 ـ عبد المغيث الطّنجي، وقف بعرفة 37 مرة، توفّي سنة 680 [1281].

5 ـ عبد الملك الزّعزاع، توفّي سنة 681 [1282].

6 ـ أحمد الغّرابلي توفّي سنة 685 [1286].

7 ـ عمر السّبتي، توفي سنة 687 [1288].

8 ـ محمد الصّمعي، زار المدينة المنوّرة أربعين مرّة، توفّي سنة 686 [1287].

9 ـ محمد الحبيبي، الدّعاء مستجاب عند قبره، توفّي سنة 693 [1293].

10 ـ عيّاد بن مخلوف الزّيات، توفّي سنة 650 [1252].

11 ـ محمد الصّابوني، توفّي سنة 687 [1288].

12 ـ أبو حفص الجاسوس، توفّي سنة 687 [1288][3].

13 ـ إبراهيم المزوغي، توفّي سنة 669 [1270].

14 ـ أحمد اليمني، توفّي سنة 691 [1291].

15 ـ إبراهيم الزّاوي، حفظ عليه القرآن ألف رجل وثلاثمائة امرأة، توفّي سنة 691 [1291].

16 ـ أبو سالم البرقي، بجوار قبره بالزّلاّج قبر ولد القاضي عياض، توفّي سنة 661 [1262].

17 ـ محمد الفاسي، توفّي سنة 659 [1260].

18 ـ محمد الرّيغي، توفّي سنة 661 [1262].

19 ـ سالم المزاتي، توفّي سنة 661 [1262].

20 ـ أبو القاسم القرطبي، توفّي سنة 661 [1262].

21 ـ محمد القطّاع، توفّي سنة 663 [1264].

---

(3) من المحتمل القريب أنّ هذا الفاضل هو المؤسّس للمدرسة الجاسوسية التي لم يحفظ لنا التّاريخ من أخبار نشأتها سوى انتسابها إلى «الوليّ الصّالح الشّيخ سيّدي الجاسوس» أذ من المعلوم أنّ البعض من مدارس طلبة العلم في العصر الحفصي كانت في مباديها رباطات للعبادة والتّفقّه في الدّين كما هو الحال في المدرسة المرجانية المنسوبة للشّيخ أبي محمد عبد الله المرجاني من رجال القرن السابع.

22 ـ إسماعيل اللنتاتي، له ألف منقبة، توفّي سنة 663 [1264].
23 ـ تاج الدّين الصّنهاجي، توفّي سنة 664 [1265].
24 ـ محمد الجبّاس، توفي سنة 664 [1265].
25 ـ أبو عطية المسروقي، توفّي سنة 664 [1265].
26 ـ علي القرجاني، الدّعاء مستجاب عند قبره، توفّي سنة 681 [1282].
27 ـ أبو زيان الدّاودي، توفي سنة 666 [1267].
28 ـ سعد الأسمر، ويدعى سعدون[4] كان من أهل الكشف، وقبره جوار قبر الشّيخ علي القرجاني، توفي سنة 666 [1267].
29 ـ أبو قاسم الدّبّاغ، توفي سنة 666 [1267].
30 ـ محمد الشّريف، كان إمام جامع الهواء وشيخ مدرسته، توفي سنة 666 [1267].
31 ـ محمد الغرامي، توفّي سنة 666 [1267].
32 ـ عبد الله القرشيني، قرأ عشرة آلاف ختمة عند قبر رسول الله ﷺ، توفّي سنة 667 [1268].
33 ـ محمد النّوالي، توفّي سنة 667 [1268].
34 ـ أحمد المزوغي، توفّي سنة 667 [1268].
35 ـ عبد الرحمن الشّفّي، توفّي سنة 668 [1269].
36 ـ علي الحطّاب، توفّي سنة 671 [1272][5].
37 ـ سالم التباسي، توفّي سنة 642 [1244].

---

(4) ظهور باب سعدون بتونس كان في زمن هذا الرّجل الصّالح، فلعلّه نسبة إليه، ويحملني على هذا الظّنّ تعوّد أهل تونس على تحلية من يكبرونه من الزّنوج بلفظ بابا، لذلك سمّي الباب المتحدّث عنه باسم باب أبي سعدون.

(5) ينعته بعض النّاس بلقب بوّاب مكّة، اعتقاداً منهم أنّه هو الشيخ الحطّاب صاحب الضّريح الواقع عند باب البلد الأمين، وهو غلط صراح، لأنّ هذا الشيخ الحطّاب هو شارح كتاب الورقات، وهو من فضلاء المائة التّاسعة، والشيخ علي الحطّاب التّونسي، هو صاحب الزّاوية المعروفة، وهو من رجال المائة السّابعة.

38 ـ حسين السيجومي، توفي سنة 644 [1246].

39 ـ عبد الوهاب، توفّي سنة 675 [1276].

40 ـ سفيان الباجي، توفّي سنة 675 [1276].

41 ـ عبد الرحمن الحلفاوي، قبره غربي باب السّويقة، توفّي سنة 676 [1277].

42 ـ خلف المسروقي، مدفون بإزاء جامع الصّفصافة غربي تونس، توفّي سنة 676 [1277].

إلى هنا انتهت قائمة الجماعة الأخيار المشهورين بمصاحبة الإمام الشاذلي أثناء مقامه بتونس[6] وهذه القائمة لم يجىء بها ذكر اسم الشيخ محمد الزّلّاج، على أنّ هذا الرجل المحسن الكبير، اجتمع أيضاً بصاحب الطّريقة الشّاذلية، ولكنّه لم يكن من أصحابه الملازمين له، هكذا رأيت في كتاب مناقبه. والخلاصة أنّ رجال الزّلّاج يعسر ضبط عددهم بالتّدقيق لتجاوزهم حد الألوف، فقد ذكر الوزير السّرّاج في كتابه الحلل السّندسية، أنّه ضبط عدد قرارات مقبرة الزّلّاج في زمنه، فكانوا أكثر من اثني عشر ألفاً، ورأيت في الشّهاب 144 من كتاب الشّهب المخرقة لمن ادّعى الاجتهاد، لولا انقطاعه من المخرقة العبارة التالية في التّنويه بأولئك الرّجال ونصّها: وكرامات الشيخ محرز ببلدنا، وسيدي علي الفحّام، وسيدي علي القرجاني، ورجال الزّلّاج ببلدنا لا تحصى، وإن أردت أن تقف على بعضها عياناً فعليك بقصيدتنا البائية التي نظمتها في الأربعين أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي بتونس اهـ. قلت: هذه القصيدة لم نقف عليها، وإنّما نعرف قصيدة أخرى لأحد أفاضل الأدباء المتأخّرين، وهو المرحوم الشّيخ محمد الحشايشي[7]، أسماها سمط اللجين في التعريف بالرّجال الأربعين، مطلعها:

---

(6) [يراجع قصيد محمد الورغي الجامع لأسماء أصحاب الإمام الشاذلي ديوان الورغي ـ الدار التونسية للنشر 1975 ـ ص 270].

(7) [الشيخ محمد الحشايشي (1855 - 1912) انظر تراجم المؤلفين التونسيين ـ ج 2 ـ ص 144].

الحمد لله وصلّى الله على نبيّه ومصطفاه
محمّد المبعوث بالهداية ومنبع الأنوار والولايهْ
وآله مناهج اليقين وصحبه ليوث هذا الدّين
وبعد قد أردت نظم ساده أرجو بهم في الموقف السّعاده
أصحاب شيخنا عليّ الشّاذلي غوث الورى مسدي النّوال العاجل
وضامن المريد في الثّلاثة نزع ولحد بعدها الإغاثة
نوّر بهم يا ربّنا القلوبا واقلع بهم عن عبدك الذّنوبا
واجعلهم حرزاً حصيناً نافعاً ويوم عرض الخلق طرّاً شافعا
واقض بهم مآرب العباد حتى نفوز منهم بالزّاد
أوّلهم محمّد الغمّاري بحر الكمال منبع الأسرار

أعقبه النّاظم بذكر بقية الأصحاب المقبورين بالزّلّاج، ثمّ ذكر بعدهم بقيّة الرّجال الأربعين المرموسين خارج مقبرة الزّلّاج، ختمهم باسم سيدي سالم التّبّاسي حيث قال:

ومستجاب الدّعوة التّبّاسي الطّاهر الأعراض والأنفاس
وهو تمام الأربعين صاحي فيما نقلته عن الصّحاح
وقيل هم أكثر من هذا العدد وهو الصّحيح عندنا والمعتمد
والحمد لله على التّمام والعون في المبدإ والختام

أعاد الله علينا من بركاتهم، وجمعنا وإيّاهم في صعيد واحد.

— 2 —

نشرت بالمجلّة الزّيتونية في عددها السّابق قائمة أسماء السّادة الصّالحين أصحاب الإمام الشّاذلي رضي الله عنهم، بمناسبة حلول الجمعات الصّيفية بالمقام، وقد راق ذلك الفصل في أنظار أهل الطّريقة الشّاذلية، كما راق في نظر حضرات الشّيوخ المولعين بالتّاريخ، واقترح عليّ بعض أيمّتهم

بسط الحديث بخصوص الوليّ المدرج اسمه تحت عدد 16 بتلك السّلسلة المباركة، حيث ورد فيها ذكر ابن القاضي عياض رضي الله عنه، وها أنا ذا مجيب على ذلك الاقتراح بنصّ ما رأيت بكنّاش الشّيخ الوالد، الذي لخّصت منه قائمة أسماء أولئك الأولياء المنقولة في أصلها من خطّ الشّيخ محمد بيرم الثاني، هذه عبارته:

ومنهم 16 الشّيخ سيدي أبو سالم البرقي، مدفون غربي جبل الزّلاّج، وتربته بإزاء ولد القاضي عياض، بينهما مجرى السّيل، قبره مجرب لقضاء الحوائج، توفّي سنة 661 هـ [1262] بحروفه.

ولكنّ مقالة الرّجال الأربعين المتحدّث عنهم، أثارت في الأوساط المستنيرة حركة أخذ وردّ، عناية من أهل الفضل بمعرفة أصحاب الشّيخ رضي الله عنه، فأطلعني قطب مشهور من الأيمة الأعلام، على كتاب بخزانته العلمية، تضمّن مجموعة التكملة في مناقب الصّالحين، اشتملت في طيّاتها على الرّجال الأربعين الذين نشرت أسماءهم بالعدد الفارط من المجلّة، بزيادة أربعة من الأصحاب الشّاذليين لم نقف على ذكرهم بكنّاش الشّيخ الوالد رحمه الله، ونصّ عبارة ما ورد في المجموعة المشار إليها:

ومن أصحابه (الإمام الشاذلي) رضي الله عنه، الشّيخ سيدي أبي عبد الله محمد الحبيبي، توفّي بتونس حماها الله تعالى، وهو مدفون قبلة الزّلاّج في جبّانة مباركة، اجتمع فيها أربعة أشياخ من أهل الفضل والبركة، كلّهم من أصحاب شيخنا أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهم، منهم هذا الشيخ المبارك (محمد الحبيبي)، ومنهم الشيخ الوليّ الصّالح العارف بالله تعالى سيدي أبو عبد الله محمد بن سلطان المرزوقي، ومنهم الشيخ الوليّ الصّالح الزّاهد سيدي هلال المسروقي رحمه الله ونفع به ا هـ. فهؤلاء الثّلاثة ينبغي أن يضاف لهم اسم وليّ آخر وقفت على ذكره في مجموعة المناقب أيضاً ولم يتقدم نشره بالمقالة السّالفة في جملة أصحاب الإمام رضي الله عنه، وهو الشيخ سيدي عبد الرحمن الصقلي، المتوفّى عام 665 [1266]. ويلزمني

التّنبيه من ناحية أخرى لشيء من التّصحيف والتّحريف، اشتملت عليه قائمة الأسماء المدرجة بالعدد الماضي، وهذا التّحريف وجدته مكرّراً أيضاً في مجموعة المناقب (وما آفة الأخبار إلاّ رواتها) من ذلك الاسم المدرج بالمجلّة تحت عدد 10 بالمقالة السّابقة، حيث قيل عياد بن مخلوف، وصوابه علي بن مخلوف، كذلك حصل تحريف آخر بالعدد 16، صوابه: أبو النّجاة سالم الدّقّي (نسبة لدقّة قرية معروفة بعمل تبرسق) عوض سالم البرقي، وبالعدد 18 محمد الرفيعي، عوض محمد الريغي، وبالعدد 19 أبو سالم علي المزاتي، عوض سالم المزاتي، وبالعدد 32 عبد الله القرطبي القريشي، عوض عبد الله القرشيني، وبالعدد 33 محمد التّرّاب، عوض محمد النوالي.

هذا وإنّي لمبتهج وفخور بشواهد الإطراء والتّحبيذ التي أكرمني بها حضرات الشّيوخ الذين راق في نظرهم فصل الرّجال الأربعين، وما ذلك إلاّ من فيض بركاتهم، أعادها الله على الجميع.

ومهما كان الحال، فإنّ بحثنا في هذه النّازلة لا يكون تامّاً إلا بالوقوف على القصيدة البائية المشار إليها بالصّفحة 386 من عدد المجلّة الأخير[8]، لأنّ صاحبها من أهل العلم، وهو الشيخ برناز، صاحب كتاب الشّهب المخرقة (لا المحرقة كما هو المشهور)، ويلوح أنّ صاحب القصيدة ضمّنها إفادات جمّة في الموضوع الذي نحن بصدده كما تشهد بذلك العبارة التي نقلتها من كتابه، ويا حبّذا لو نتمكّن من العثور عليها، وما ذلك على همّة الأدباء بعزيز(*).

(8) [الصفحة 402 من هذا الكتاب].

(*) المجلة الزيتونية ـ المجلد 4 ـ الجزء 9 ـ (جوان 1941).

الشيخ إسماعيل التميمي

من أشهر مشاهير الفقهاء المالكية بتونس في النّصف الأوّل من القرن الثّالث عشر، الشيخ أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن حمودة باشا عرف التّميمي، نسبة لبلد مسقط رأسه منزل تميم بدخلة المعاوين من الوطن القبلي[1]. أصل سلفه من هنشير الصّقالبة[2] إحدى مداشر الدّخلة على مقربة

(1) عبارة الوطن القبلي ليست بتعريف جغرافي، بل هي مجرّد اصطلاح عرفي كقولهم «الجزيرة القبلية» يعني بلاد الجزيرة التي يعبر منها لجهات النّاحية القبلية. والوطن القبلي هو نفسه جزيرة شريك الوارد ذكرها في كتب التّاريخ. وتشتمل في الوقت الحاضر على عملي نابل وسليمان، ولا يصحّ إطلاقها على أحد هذين العملين بانفراده. واسمها بالفرنسية Presqu'île du Cap Bon أي شبه جزيرة رأس أدار. ووجه تسميتها بجزيرة شريك نسبة لرجل من كبار الفاتحين المسلمين لإفريقية اسمه شريك العبسي من أصحاب أبي المهاجر دينار والي إفريقية، وشريك هذا هو أوّل من تولّى عاملاً على بلاد الجزيرة التي نسبت إليه بعد فتحها في سنة 51 [671] للهجرة وكان قائد الجيش الفاتح حنش بن عبد الله الصنعاني، والي جزيرة شريك نسبوا باب الجزيرة بتونس لأنّهم كانوا يسلكون منه للجزيرة القبلية. وهي من الأصقاع التّونسية التي تغلّب فيها العنصر العربي الصّميم على بقية العناصر المتساكنة بها. والغزاة الأوّلون من العرب بإفريقية كانوا يسمّون الأماكن التي يتّخذونها قراراً بالمنازل، وأنت تعلم تكرّر لفظ المنزل بعدّة جهات من الوطن القبلي، من ذلك منزل تميم، ومنزل حرّ، ومنزل بوزلفى، ومنزل الرّومي وغير ذلك.

(2) هذا اللفظ يستوقف نظر القارىء لأنّه من الألفاظ المعرّبة فكيف ومتى أطلقوه علماً على إحدى مداشر الوطن القبلي؟ قال الجلال السيوطي في لبّ الألباب «الصّقلبي بفتح أوّله واللام وسكون القاف آخره باء موحّدة نسبة إلى الصّقالبة ولد صقلب ابن ليضي» وقال إمام أيّمة اللغة الشيخ مجد الدين الفيروزأبادي «صقلب كجعفر بلد بصقلية إلى أن قال والصّقالبة جيل تتاخم بلادهم بلاد الخزر بين بلغار وقسطنطينية ا هـ وبضوء هذا التعريف لصاحب القاموس يجوز لك

من منزل تميم لجوفيها يعمرها جماعة من الأشراف أهل النّسب الزّكي، أصلهم من أشراف أزمور بالمغرب الأقصى، عليهم نقيب متولّي مشيخة زاويتهم بالأمر العليّ ولهم منح دولية قديمة ما زالوا متمّعين بها حتى الآن، كإعفائهم من الانخراط في سلك الجندية.

أمّا صاحب التّرجمة، فقد جاء في مسامرات الظّريف أنّه ولد في سنة 1165 [1751] ولكن الشيخ الجدّ، وهو من تلاميذه، جعل ولادته في سنة 1179 [1765] ففي كنّاش التّراجم يقول رحمه الله: «سمعت من شيخنا العلّامة سيدي إسماعيل التّميمي أنّ الشيخ العالم الصالح سيدي عبد الله السّوسي توفي عام تسعة وسبعين (ومائة وألف) ونعاه وقت موته بمصر رجل صالح من الزّراقنة بصومعة الأزهر، وهي سنة ولادة الشيخ إسماعيل التميمي» ا هـ بلفظه من خط يده. ثم إنّ الشيخ إسماعيل دخل الكتّاب وحفظ القرآن الكريم ببلده منزل تميم، وأخذ مبادىء العلوم على رجل من زاوية الصّقالبة، وهو العارف بالله المشهور في عصره اشتهار الصباح، بالعلم والصّلاح، الشيخ أحمد بن سلمان المتوفى سنة 1237 [1821] وشيخه هذا هو الذي أشار عليه بالدّخول لجامع الزّيتونة، فقدم لتونس وسكن بمدرسة النخلة

= أن تقول إنّ الصّقالبة الأوّلين الذين نزلوا بجزيرة شريك كان مجيئهم إليها إمّا من جزيرة صقلّية وهو الأقرب لأنّها كانت تابعة لبني الأغلب أمراء القيروان ثمّ للعبيديين من بعدهم إلى أن حكمها الأمراء الكلبيون من ذرّية الحسن بن علي الكلبي في أواسط المائة الرابعة، وكان سقوطها وخروجها من يد المسلمين في سنة 464 للهجرة [1071] على يد عبد الله بن المواش وهو الذي سلّم الجزيرة صلحاً للغمط روجير الأوّل النّورماندي، ومنه انتقل ملك صقلّية لابنه روجير الثاني وهو الذي ألّف له الشّريف الإدريسي كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ومن المحتمل البعيد أن يكون أصل صقالبة دخلة المعاويين من بلاد الصّقالبة الأروبيين وهم جزء عظيم من ممالك ألمانيا وبولونيا والرّوسيا والتّشاك والصّرب والبلغار الخ يتجاوز عدد مجموعهم مائة وستّون مليوناً من النّفوس، وأهل هذا الجيل يمتازون بشدّة بياض البشرة. قال الشيخ الرئيس ابن سينا:

بالزّنج حرّ غير الأجسادا   حتّى غدت جلودها سوادا
والصّقلب اكتسبت البياضا   حتى غدت جلودها فضاضا

(نعتوها بذلك لأنّها كانت بها نخلة، واسمها الأصلي المدرسة الحسينية نسبة لمؤسّسها المولى حسين بن علي، وهي وقف على طلبة العلم من أهل المذهب المالكي) وكان أغلب تحصيله على الشيخ صالح الكوّاش، والشيخ عمر المحجوب، والشيخ محمد الشّحمي. وقفت على كنّاش لبعض معاصريه من الأفاضل، فإذا هو يقول: «كان الشيخ محمد الشّحمي عارفاً بالحكمة والتّوحيد والمنطق، ولمّا قدم الشيخ لطف الله الخوارزمي على تونس، لم يبارزه في المعارف الحكمية والفلسفية وعلم التّوحيد إلّا هو، بمحضر المرحوم علي باي (الثاني) ابن الباي حسين بن علي، وشيخ الإسلام محمد بيرم الثّاني، والشيخ صالح الكوّاش، والشيخ قاسم المحجوب، وولديه الشيخين محمد وعمر، وقاضي الجماعة الشيخ أحمد بن الخوجة، وغيرهم من العلماء، وقع ذلك بمجالس متعدّدة ببيت الباشا بباردو، وأوّل مبحث تكلّم فيه الشيخ الشّحمي مع الشيخ لطف الله كان في الجوهر الفرد» ا هـ.

كان الشيخ إسماعيل التّميمي بدرجة من الذّكاء فاق بها أقرانه، فما لبث حتّى امتلأ بالعلم وطابه، واعترف له بالفضل شيوخه وأترابه، ناهيك أنّ بعض معاصريه كان يقول بأنّ تحصيله من قبيل العلم الموهوب، فلمّا انتصب للتّدريس بجامع الزّيتونة، التفّ حوله وجوه الطّلبة من أهل الطّبقة الصّالحة التي ازدانت بها النّوادي العلمية بتونس في بحر القرن الفائت، وبلغ أمره للباي حمودة باشا فأولاه خطّة التّوثيق، وكانت في زمنه هي باب الخطّة الشّرعية، ثم أضاف له خطّة الإشهاد على مرمّة[3] سراية المملكة التي بناها على طلل دار الأمراء المراديين بالقصبة في عام 1219 [1804] وبعد ذلك بعامين قدّمه لخطّة القضاء بالمذهب المالكي في سنة 1221 [1806] فتلقّى راية هذه الخطّة باليمين، وجلى في تلك الميادين، بثقوب الفكر وسعة الاطّلاع والشّدّة في الحقّ على نهج المتّقين. ولقد بلغت الخيلاء ببعض

(3) [«مَرَمّة» بمعنى أشغال البناء في اللهجة التونسية].

معاصريه من الأدباء عند تهنئته بخطّة القضاء أن قال فيه:

ترقّيت بالـرّأي الأصيل لـرتبة   يذلّ لها كسرى ويقصر قيصر

والشّعراء في كلّ وادٍ يهيمون، فإذا واتتهم القافية داسوا بأقدامهم تاريخ القرون الخالية والأمم الماضية. ثم إنّ الباشا محمود باي قدّمه في صدور ولايته (1230) [1814] لمسند الفتوى، وأعاده لخطّة القضاء بعد ثلاثة شهور، ودام على تلك الحال حتى سنة 1235 [1819] وفيها امتحن الشيخ إسماعيل بالعزل والإبعاد لبلد ماطر. زعموا[4] أنّه كان ينظر في الأجفار ويترقّب زوال الدّولة، فدسّوا له عند الباشا محمود باي، وهذا الأمير عجّل بعقابه قبل التبيين. ورأيت بخطّ بعض الشيوخ من معاصريه أنّ سبب محنته غير ذلك[5]. ومهما كان الحال، فقد أدرك الباي مغبّة الاستعجال في الحكم، وأذن له بالرّجوع لتونس بعد خمسة أسابيع، فعاد إليها بين مظاهر الفرح الكامل، والسّرور الشّامل، من الخاصة والكافة، ومذ كان بمنفاه بماطر خاطبه تلميذه الشيخ الجدّ أبو عبد الله محمد بن الخوجة بمكتوب ننقله هنا من خطّه عنواناً على متانة التّضامن وصداقة الودّ التي كانت بين هذين الإمامين الجليلين، وإليك ذلك. قال رحمه الله:

---

(4) عن شريح: لكلّ شيء كنية وكنية الكذب، زعموا.

(5) قالوا إنّ الباي مدّ رجله في مجلس ختم الحديث فأنكرها عليه الشيخ إسماعيل، وبلغ ذلك للباي بلسان بعض وسائط السّوء فحفظها له إلى أن حلّت ساعة القضاء. قلت إذا صحّت هذه الرّواية مع بعد جوازها فما أجدرها من شبه بقصّة الأستاذ النحوي أبي علي بن موسى الحضرمي المعروف بابن عصفور الإشبيلي فإنّه لمّا دخل ذات يوم (سنة 666) [1267] على السّلطان محمد المستنصر الحفصي وهو ببستانه المعروف برياض أبي فهر بأريانة، قال له السّلطان معجباً ببذخ دولته وقوة شوكته: «قد أصبح ملكنا عظيماً» فأجابه الشيخ ابن عصفور بقوله: «بنا وبأمثالنا» فأثّرت هذه العبارة في نفس السّلطان، ولكنّه كظم غيظه، فلمّا وادعه الشيخ بعد حين وهمّ بالانصراف، أسرّ السّلطان لبعض حاشيته بدفعه في جابية البستان عند مروره بها، وهكذا كان، وبسبب ذلك لاقى الشيخ حتفه، ومن هذه الحكاية وأمثالها يظهر صدق ابن خلدون في قوله إنّ العلماء أبعد الناس عن السّياسات.

«الله لطيف بعباده، إذا لطف في المحن بعبده قلبها منحاً رحمة من عنده سبحانه من قادر يتصرف في ملكه على وفق مراده، أحمده على السّرّاء والضّرّاء حمد عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضُرّاً متغلغل في توكّله عليه واعتماده، والصّلاة والسّلام على من أعطي رضى اسحق وصبر أيوب المنعم عليه ببشرى يعقوب المجاهد في الله حقّ جهاده، وعلى آله الذين شعارهم التّقوى ودثارهم الصّبر على البلوى المهتدي من اقتدى بهم إلى سبيل رشاده، أمّا بعد سلام كريم، طيّب عميم، تعمّ نفحاته، ورحمة الله وبركاته، حضرة شيخنا الكهف الملاذ، الذي تذوق الأفهام من موائد فوائده أنواع الملاذ، عالم الدنيا، وصاحب الشمائل العليا:

لسنا نسمّيك إجلالاً وتكرمة ... وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت في صفة ... فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

فإنّ المؤمن مصاب، وموعود على ما أصابه بجزيل الثّواب، وبالابتلاء جرت سنّة الله في الذين خلوا من قبل، وما برح هذا الزّمان الخؤون يرمي أفاضل النّاس بالنّبل، ولا يخفى على مولانا آجره الله على ما حدث عليه من الحوادث، وأجاره من مخلب هذا الزّمن العابث، إنّ الهموم بقدر الهمم، وإنّ البليّة على حسب المبتلى في الحقارة والعظم، والمصائب تتفاوت وتختلف في المقدار، والحوادث تختلف باختلاف الأقدار، وعلى قدر المشقّة يكون الثّواب، ويضاعف بحسبه المصاب، وهو الدّهر ليس ينفكّ ينحو بالمصاب العظيم، نحو الرّجل العظيم، لكن لكلّ بداية نهاية، ومع كلّ عسر يسر، والصبّر مشفوع بالعناية، ويفتح باب الفرج والبشر، وإذا كان الصّبر مفتاح الفرج، فلا يكن في صدرك حرج، ولا تحسبنّ يا مولانا أنّه قد نال عليّ مقامك حطّة. عن هذه الحطّة، بل أنت عند معاشر العقلاء، وعامّة النّبلاء، على ما كنت عليه من علوّ منزلتك السّميّة، وسموّ مرتبتك السنّية، وكيف لا وسيادة مولانا أعزّه الله ذاتية، وقرابيسها به نسبية، وهل يخرج الدّرّ عن النّفاسة، لو نثر في كناسة، وكأنّي بصيت مولانا وقد عاد بأحسن من ذلك

المعتاد، ولمّا كان من أمر الله ما كان، وقع في خلدي أنّ ذلك يزيد في علوّ الشّأن، إذ قد جرت سنّة الله تعالى أنّ العبد بعد اسضعافه، وتلقّيه القضاء بالرّضا، وانتظاره من الله جميل ألطافه، يمنّ عليه خالقه بجزيل الآلاء على ما يرشد إليه قوله تعالى ﴿ونريد أن لا نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم الوارثين﴾، ونحن نسأل الله تعالى أن لا يجعل في صدرك حرجاً، وأن يجعل لك من أمرك مخرجاً، والسّلام» اهـ.

هذه القصّة التي ذكرناها ترينا منظراً صحيحاً من مناظر الحكم المطلق في الدّور القديم، وقد حكى الشيخ ابن أبي الضيّاف تفاصيلها فقال[6]: لمّا أتى الفقهاء يوم الواقعة إلى باردو لحضور المجلس ـ وكان في جملتهم الشيخ إسماعيل التّميمي ـ خرج لهم باش حانبة ليأذن لهم بالدّخول على سموّ الباي، ولمّا أتاهم قاموا والشيخ إسماعيل معهم، فقال له باش حانبة: لا إذن لك في الدّخول واجلس هنا، ودخل أهل المجلس فقرّر لهم الباي ما بلغه عن الشيخ ولم يعيّن النّاقل ولا طلب من المدّعى عليه بهذا الذّنب الملفّق جواباً، وأمر بنفيه إلى بلد ماطر، فوجم أهل المجلس ولم يفه واحد منهم ببنت شفة، وأحضرت له كرّيطة[7] فركبها من باردو لمحلّ نفيه وهو بلد ماطر» ثمّ قال بعد ذلك بمناسبة ذكر رجوعه من منفاه «ورجع لأولاده وآله رافلاً في الذّاتي من كماله، وأقبل العلماء والمدرّسون على الأخذ عنه في علوّ داره،

(6) [الإتحاف ـ ج 3 ـ ط 2 ـ ص 170 - 177].

(7) المأثور أن الكرّيطة [Charrette] هي من مبتكرات الوافدين على تونس في أوائل القرن الحادي عشر، جلبوها معهم في ضمن المصانع والمرافق الرّاقية بالنّسبة لذلك العصر في باب الاستعمار الفلاحي، ويلوح أنّ أصلها قديم ومعروف بشكل آخر في البلاد التونسية التي كان استعمرها الرّومان قبل ذلك بنحو ألفي سنة إذ كان لديهم «الشّار الروماني» الذي حفظ التّاريخ والنّقوش الأثرية وذكره ورسمه إلى هذا الزّمان. أمّا الكرّيطة المتحدّث عنها فلم يكن عندهم في زمن الشيخ إسماعيل من وسائل النّقل غيرها بتونس عدا الشّريول (محرّف عن لفظ شاريو في الفرنسية) وهو من خصوصيات رجال البلاط الملوكي، وأمّا الكرّوسة المغلوقة فإنّها كانت من متمّمات الشّعائر الملكية، وأوّل ظهورها كان على عهد الدّولة المرادية جيء بها من إيطاليا لركوب الباي محمد باشا المرادي.

وصار بابه لطالبي العلوم، بعد أن كان مجمع تشاجر الخصوم، وزاده النّفي رفعة، والهضم سمعة» ا هـ. بلفظه من تاريخ الشيخ ابن أبي الضيّاف. ولكنه لم يحك لنا كيف جاز لشيوخ المجلس السّكوت في مقام الكلام، لا سيما وأنّ الباشا محمود باي كان من الملوك المتّصفين بالوداعة، ولين الجانب، واحترام العلماء، لا جرم أنّ المبرّر لعمله كان فيما يلوح، هم بعض رفاق الشيخ إسماعيل نفسه، لأنّه كان محسوداً بين بعض معاصريه من كبار الشّيوخ ولا داء أسمّ من الحسد إذا دخل بين جنبي الفقيه، لأنّ حرارته كحرارة النّار:

والنّـــار تـــأكـــل بعـضهـــا إن لم تجـــد مـــا تـــأكله

قالوا إنّ الشيخ إسماعيل كان من أهل التّرجيح، وكان يؤتى إليه في طلب الفتوى من البلاد السّحيقة كفاس، والجزائر، وطرابلس، والصحراء، وكان أثناء مباشرته الخطّة الشّرعية، تحدث بينه وبين بعض فقهاء مذهبه خلافات نظرية في فهم بعض النّصوص الفقهية، وكلّ من الشّقّين يتمسّك برأيه.

ويلوح من فحوى ما نقله لنا التّاريخ أنّ من فحول السّادة المالكية في ذلك العصر، إمام المذهب، كبير أهل الشّورى، الشيخ محمد المحجوب، وعلى قياسه قاضي الجماعة الشيخ البحري بن عبد السّتّار، فهذان الفقيهان قدّس الله روحيهما، كانا كمعاصرهما الشيخ إسماعيل من المتضلّعين في فقه القضاء لا تأخذهما في الحقّ لومة لائم. وقصّة الشيخ ابن عبد الستار مع أستاذه الشيخ إبراهيم الرّياحي ووقوف كلّ منهما عند حدّ ما أدّاه إليه اجتهاده، لها شبه من قريب بما تقدّمها من المنافسة التي نقلها لنا الشيخ أحمد بن أبي الضيّاف[8] وغيره من المؤرّخين عند التّرجمة للشيخ إسماعيل، فقد ذكروا أنّه حصل ذات يوم خلاف بينه وبين الشيخ محمد المحجوب في تشهير قول، فقال الشيخ المحجوب للشيخ التّميمي: «إنّا نفتي في دين الله ستين سنة

(8) [الإتحاف ـ ج 8 ـ ص 12].

ونعرّف المسألة من حين روايتها عن مالك وما قضوا فيها إلى اليوم» وأجابه الشيخ إسماعيل بقوله: «لا غرابة في اتّصافك بذلك فإنّك حافظ المذهب، ولكنّي أنا أيضاً أعلم اعتماد كلّ متكلّم في المسألة، وأعلم وجه ما قضى به فيها كلّ قاضٍ من لدن مالك إلى هذا الحين». فمن كانت هذه درجته في العلم والإقدام في مقام الكلام، كان ولا بدّ حسّاده كثيرون. فلما كبا به جواده كما تقدّم بسطه، لزم ركن بيته واقتصر على التّدريس نحو الأربع سنين (يعني إلى منتهى دولة محمود باي). وقبل وفاة هذا الباي ليوم وليلة يعني يوم الجمعة في 26 رجب 1239 [1823] أعيدت عليه خطّة الفتوى، وتوفّي محمود باي ليلة الأحد 28 رجب المذكور. قال في مسامرات الظريف: إنّ رجوعه للفتوى كان بأمر المرحوم حسين باي وجعله مفتياً ثانياً بين المفتيين المحجوبين الوالد (محمد) وولده (محمد)، ولعلّه قصد بذلك إنكاد أضداده وحسّاده. ولا يلتبس عليك أنّ الولاية كانت بعد وفاة محمود باي، بل هي وقعت وهو ما زال بقيد الحياة كما تقدّم ذكره، إنّما نسبتها للباشا حسين باي متسبّبة عن كون الأمير محمود باي لمّا أحسّ بقرب أجله، دفع ختمه لابنه حسين باي، فكان هو المدبّر لشؤون الدّولة في الأيّام الأخيرة من حكم أبيه، على أنّ حسين باي هو الذي قدّم الشيخ إسماعيل بعد ذلك لرئاسة الفتوى المالكية في سنة 1243 [1827] ولمّا أدركه أجله في سنة 1248 [1832] حضر هذا الباي جنازته مصحوباً ببنيه ورجال دولته، وتبرّكوا بحمل نعشه رحمه الله.

وعند وفاته تسابق أدباء عصره لرثائه، من ذلك قصيدة لتلميذه الشيخ إبراهيم الرّياحي مطلعها:

هل النّاس إلّا هالك وابن هالك ... وعزّ البقا لله غير مشارك

ومنها في الإشارة لتضلّعه في فقه القضاء:

قضاياه في جيد الزّمان قلائد ... فتاواه تيجان لمذهب مالك
إذا قال إسماعيل فالكلّ منصت ... لأجزل معنى من صياغة سالك

ويستفاد من عبارة تاريخ الوزير ابن أبي الضيّاف أنّ الشيخ إسماعيل كان صاحب حظوة وقدر جليل ليس فقط بين أهل مذهبه، بل كان أيضاً له المنزلة العليّة والمقام الأسمى بمحافل فقهاء الحنفية. قال، أي الشيخ ابن أبي الضياف[9] «وكان عالم الملّة وهو أبو عبد الله محمد بيرم الثّاني يعلم منزلته ويثني عليه، ومهما أتاه يترك شغله ويقبل عليه، ويهشّ لزيارته، ويقول له: لا تحرمنا من زيارتك وإن كنت تأتي لتتعبني بالمسائل فأنا أيضاً أستفيد من سؤالك». إلى أن قال: «وكان يزوره شيخنا عالم الحنفية محمد ابن شيخنا العالم المفتي أبي العبّاس أحمد بن الخوجة فإذا رآه مقبلاً ترك شغله وأقبل عليه يحادثه وكان لا يأتيه إلاّ سائلاً، ولمّا ينصرف يتبعه نظره ويقول: ما أعلم هذا الإنسان، ويكرّرها محدّثاً بها نفسه، سمعت ذلك منه مراراً» ا هـ. بلفظه.

وخلاصة القول إنّ الشيخ إسماعيل التّميمي كان آية في العلم والفهم، وكان كيّساً أديباً لا يملّ مجلسه، له باع طويل في معرفة الأنساب، وفي فنّ التّاريخ، إذا تكلّم في دولة تراه كأنّه من رجالها، وكان في علوم الشّريعة بحر الفقه الزّاخر، مثال كم ترك الأوائل للأواخر، كتب في ذلك الرّسائل الجمّة، والأبحاث الحافلة المهمّـة. قال المؤرّخ ابن أبي الضيّـاف: وله تـأليف نفيس حول المذهب الوهابي[10]، ورسائل في الحبس والخلوّ، وغير ذلك ممّا

(9) [نفس المرجع - ج 8 - ص. 13].

(10) [المذهب الوهابي: نسبة للمصلح محمد بن عبد الوهاب الدي ولد في «العينية» من منطقة نجد وسط الجزيرة العربية سنة 1115 هـ (1703 م) وتوفي سنة 1206 هـ (1791 م) وقد خلّف يقظة إسلامية واسعة برزت في مذاهب الإصلاح التي تكونت من بعده]. وهو ينتسب لمذهب الإمام أحمد بن حنبل، سلك في اجتهاده مسلك شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في مقاومة البدع، ولا سيما زيارة القبور واعتقاد الأموات، والشيخ ابن تيمية كان كما لا يخفى عمدة الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلّة المنار في جهاده ومقاومته للبدع الكثيرة، كانت لنا به صلة روحية نسجتها يد الأقدار على جناح الغيب، توفّي رحمه الله سنة 1354 [1935].

والـمـوت نـقّـاد وفـي كـفّـه جـواهـر يختـار منهـا الحسـان

لو جمع كان جزءاً ضخماً. وقد اعتنى صاحبنا العلّامة المؤرّخ الشيخ محمد السنوسي بالتّعريف بما وقف عليه من تلك الرّسائل، فاستغرق في ذلك نيفاً وعشرين رسالة، منها رسالة في الوقف أبدع مؤلفها في مغزاها، ورصّعها لمن يحاول في رياض الفقه انتزاها، قرّظها جماعة من شيوخ المذهبين، منهم الشيخ محمد بيرم الثاني، والشيخ حسن الشّريف، والشيخ محمد بن الخوجة، ومن غريب الاتّفاق أنّ تلك التّقاريظ ضربت كلّها على وتر رويّ واحد، فممّا قال الشيخ محمد بيرم:

رسالة لست تلفي من يدانيها ... في حسن ألفاظها أو في معانيها
بها البيان مع التّحصيل إذ جعلت ... قواعداً لأصول من مبانيها
فهي المعونة إذ أضحت مدوّنة ... مباحثاً لا ترى في غيرها فيها

وممّا قال الشيخ حسن الشّريف:

رسالة أبرزت من فكر منشيها ... شموس فضل وإتقان معانيها
حلت نظاماً وحلّت في النباهة ما ... قد جلّ إدراكه عن غير مبديها
سامرتها فاقتطفت الدّرّ مبتذلاً ... وأسكرتني حلالاً من أماليها

وممّا قال الشيخ محمد بن الخوجة:

رسالة قد سبى حجى معانيها ... السّحر في لفظها وفي معانيها
يا حسنها روضة أطيارها صدحت ... لله كم شنّفت سمعي مغانيها
كم راق فكري في أدواح ما غرست ... يد الذّكاء التي شدّت مبانيها

ومن رسائله الفقهية الحافلة رسالته المشهورة التي جمع فيها وجوه الخلوّ عند المصريين والمغاربة، ولكنّه لم يتمّ تأليفها، وقد كنت عنيت في سنة 1316 [1898] بنشر المقدار الموجود منها ضمن مجموع فقهي في مسائل الإنزالات والخلوات والكردار وما يتبع ذلك من النّصبة والجلسة والحزقة ومن بيع الوقف الخرب على مشهور مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النّعمان

ومذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس. أمّا مراسلاته الشّرعيات، فقد كانت من الآيات البيّنات، زانت خطّتي القضاء والفتوى، ونشرت على ربـوع الشّريعة رايات العلم والتّقوى. وها أنا ذا مبرهن عن صحّة هذا القول بنقل راموز منها، وهي مراسلة صدرت منه رحمه الله إثر خلاف استحكم أمره بين الشيخ حسن الهدّة مفتي مدينة سوسة، وبين قاضيها الشيخ محمد الرّيغي، فراسلهما في ذلك لوضع حدّ لتلك المنافسة، قال رحمه الله:

«وبعد: فإنّ المنافسة التي بينكم قد تفاقم أمرها، وعظم على النّاس ضررها، وعمّ أهل عملكم شررها، فتعطّل بينهم الإنصاف، وكثر بسبب ذلك الاعتساف، وصار من يطلب حقّه متطلّباً لما هو أعزّ من الأبلق العقوق[11]، وأمنع من بيض الأنوق، ولقد كنّا عالجناها من قبل هذا بصلح فلم ينجع، فأهملناكم عسى أن تراجعوا أنفسكم فلم ينفـع، وما ذاك إلّا لصغـوكم لسماسرة الفتن وأهل الوشاية، وعدم احتراسكم من عقارب السّعاية، حتّى أبقوكم خبالاً، وضرب النّاس بكم أمثالاً. فبينما نحن ندبّر في حسم ذلك، وإغلاق أبواب تلك المسالك، بإقامة ثالث يكون ناصراً للشّريعة، إذ فاجأنا أمر هذه الواقعة الأخيرة الشّنيعة، فتبيّن لوالي النّعم، ومنصف المظلوم ممّن ظلم، سدّد الله أحواله، وبلّغه من نصر دعوة الإسلام آماله، بعد أن تحقّق أمرها، وعرف عجرها وبجرها[12]، أنّ الخرق اتّسع، وأنّ السّكوت عن ذلك لا يسع، إذ قد انقسمتم طائفتين، وتفرّقت عدولكم شيعتين، وجاوز الحزام الطّبيين[13]، وصارت الخطّتان في المعنى شاغرتين، وتعسّر تمييز المحقّ من ضدّه لعدم قبول قول كلّ وطائفته، على صاحبه وشيعته، فاتّبع الطّريق الأقوم، وحاد عمّا يفضي إلى التّحكّم، وتوجّهت همّته الزّكيّة، وفكرتـه

(11) البلق: محرّكة، سواد وبياض. وطلب الأبلق العقوق أي ما لا يمكن، لأن الأبلق هو الذكر، والعقوق هي الأنثى الحامل. فتقول عقت الفرس أي حملت في عقوق.

(12) عجره بضم العين وفتح الجيم، وبجره على وزنها، معناه عيوبه وأمره كله قاه

(13) الطّبيان للفرس بمنزلة الثّديين للمرأة وإذا اضطرب الحزام حتى يبلغ

القدسيّة، إلى حسم هذه القضيّة، بإقامة غيركم للأحكام الشّرعية، أداء لما يجب عليه من إقامة المراسم الدّينية، قائلاً إنّ من لا ينقاد إليها، كيف يؤمّن عليها، أم كيف يتيسّر له إجراؤها مجاريها، ودبّر في ذلك فأصاب لولا أنّ الله تعالى تدارككم بمفاوضة مع جماعتنا وقعت، وشفاعات منهم بعد التي واللُّتَيَّا قبلت، فانثنى عمّا همّ به عزمه، وغلبه والحمد لله حلمه، فاختار أيسر الطّريقين، لعلّ الله تعالى يصلح بين الفريقين، فتقدّم لكم بالإنذار، مبالغة في الإعذار، ويأمركم على لساننا أوامر يساعدها الشّرع، ويوافقها الطّبع، منها أن تلتزموا أن لا تعودوا لما نهيتم عنه، وأن يقوم كلّ بخطّته ويعرف ما ولي عليه فلا يتجاوز ذلك، ولا يتعدّى أحدكم على ما في ولاية الآخر، وأن تتجنّبوا الخلاف المذموم الذي سببه اتّباع الهوى، فإذا اختلفتم في شيء فردّوه إلى الله ورسوله عليه الصّلاة والسّلام، بمراجعة موادّ الأحكام، فإن اهتديتم فذاك وإلاّ فاعرضوه علينا، عساكم أن تجدوا جوابه بنعمة الله لدينا، وأن تلتزموا حضـور مجلس يوم الخميس على الـوجه القـديم، ولتعطوا المجلس ما يستحقّه من التّعظيم، فلا يباشر أحدكم صاحبه إلاّ بما يقتضيه مقامه ويلائم منصبه، وأن تصرفوا الوشاة عن أبوابكم، وتحرسوا من عقارب السّعاية حوزة أعتابكم، إلى غير ذلك من الصّفات المناسبة لمقامكم، فالله الله في أنفسكم بادروا علاجها، وأصلحوا مزاجها، بتقوى الله وإصلاح ذات البين ومقابلة تلك الأوامر المطاعة، بالسّمع والطّمع والطّاعة، فإن رجعتم إلى الحقيقة، واستقمتم على الطّريقة، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا وإلاّ فربّما يسبق السّيف العذل، ويقع على الوجه الشّنيع البشيع العزل، فلا شفاعة حينئذٍ لشافع، بل لا يصغي إليه سامع، ويعود الأمر إلى ما كان، وما شاء الله كان. والسّلام ا هـ».

أمّا نبوغ المترجم له في صناعة التّدريس، ونشر الدّرّ النّفيس، فقد كانت حلقات دروسه عامرة بالمستفيدين، من فضلاء الشّيوخ السّابقين، كما سبقت الإشارة لذلك، وكان مناخها المدرسة الأندلسية التي تولّى مشيختها في سنة 1233 [1817] وبها أقرأ من الكتب في مختلف العلوم، ما دلّ على

تبحّره في المنطوق منها والمفهوم، وكان مع ذلك وافر البراعة، إذا هزّ عسال اليراعة، تشهد له به خطبه البليغة التي خطب بها من إنشائه فوق منبر جامع أبي محمد الحفصي، فكانت هذه الخطب حلقة مضافة لسلسلة فضله وطول باعه، في دروسه وإفتائه، مع إصابته واتّساعه(*).

(*) مجلة شمس الإسلام ـ العدد 5 - 6 ـ المجلد 1 ـ 1937.

تاريخ حياة الوزير أبي عبد الله
الشيخ محمد العزيز بوعتّور

مقدمة وتمهيد

يقرأ النّاظر تراجم مشاهير الرّجال، ويطالع عظائم أعمالهم وجلائل سيرهم، فيرى العالم كيف ارتقى بالعلوم، وكيف قرّبها إلى الفهوم، ويرى الشّاعر والكاتب يصوّران بقلميهما من مظاهر الطّبيعة، ويصفان من أحوال النّفوس ما يسمو بالنّاظر إلى مكامن القلوب، ويطوف به عوالم الشّهادة والغيوب، ويلمح رجال السّياسة تحرّك سير الممالك، وتتوخّى المصالح وتتّقي المهالك، فيراها ترفع أقواماً بحسن التّدبير، وتضع آخرين إلى الحضيض وبئس المصير، ويبصر قوّاد الجيوش ورؤساءها، وعظماء الأمّة ونصحاءها، فيخال البشريّ في صورة الأسود، ويتصوّر محاسن الثّبات في المقام المحمود، كلّ ذلك يبعث في النّفوس حياة روحية، ويشبّ فيها نار التأسّي والحميّة، فيثير من عواطفها السّاكنة ما يدفعها إلى صقل قوّة كانت فيها كامنة، وَلِأَمْرٍ مَّا عني النّاس بتقييد الفضائل والمناقب لأكابر الرّجال، ولازم بعض من صار عظيماً مطالعة سير أصحاب خصال الكمال، وهذا الرّجل العظيم (نابليون الأوّل) كان منذ صباه كلفاً بمطالعة سيرة إسكندر المقدوني، فكان من انتقاش تلك الرّسوم الخيالية على حفظه، ما سما بمقامه لحسن حظّه، ولهذا لمّا أهمل المتأخّرون منّا العناية بسير عظمائهم سلبوا همّة

الاقتداء ونسوا مشاهيرهم حتّى هبّ عليهم نسيم هذه النّهضة الجديدة التي فتحت أبصارهم، وأذكت نارهم.

بيد أنّ رجال الإسلام في كل مكان يعيشون مدّة من الزّمان، ثمّ يطوون في مدارج النّسيان، فكثيراً ما وجد بينهم من هم أسمى مدارك وأعلى فصاحة، وأطيب فطرة وأرجح رأياً من رجال أروبا المشاهير، ولكن قعد بهم ضعف المنبت عن النّموّ فعاشوا مكروبين، ثمّ ماتوا غير مرغوبين، حتى إذا انقطعت بموتهم منافعهم، استيقظت أمّتهم من غفلاتها، وأكثرت من ندبتها وويلاتها، وكذلك تكون الأمم والأفراد الجاهلة لا تدرك قيمة ما لديها إلاّ بعد زواله، لما غشيت به أبصار نقدها من الذّهول عن سائر أحواله، ولكنّ التّقدّم البطيء الذي ابتدأ ظهوره في بلاد الإسلام يدبّ بين أممها بمقدار الشّعور بالضّعف وقوّة الخلطة بالأمم المتمدّنة نبه المسلمين لإدراك فضل نابغيهم وعظمائهم، فإن هم نسوهم في حياتهم لا ينسوهم بعد ثوائهم.

وقد أصيب القطر التّونسي فيما مضى من العام بنادرة الدّهر، وحسنة الأيّام، الوزير الخطير، أستاذ السّياسة ومالك أزمة التّحرير، العالم الفقيه الكبير، والصّدر الهمام النّحرير، أمير الأمراء، وفخر الكبراء، أبي عبد الله الشّيخ سيدي محمد العزيز بوعتّور، ضاعف الله له الأجور، وأمطر على جدثه من الرّحمة الإلٓهية سحائب مدراره، تكافي نصحه وإخلاصه وتقواه ومقداره، فقد كان زينة لهاته الدّولة تفاخر به السّائلين، وتستبقي به بقيّة من مجدها المكين، إذ قد جمع من سموّ المدارك، والتّبصّر بالعواقب، والنّباهة، والحلم والوقار، ما أخرس أمامه ألسن المناطيق، وغلّ أيدي الرّجال الكبار، وإنّا نقول ولا كفران للحقّ، أنّ هذا الوزير لولا أن خانه ضيق منطقه البلاد، وقصورها عن إذاعة صداها في كلّ وادٍ، لما كان يقصر عن رجال التّاريخ الإسلامي مثل غالي وفؤاد، ناهيك بما اختصّ به من بلاغة القول، وقوّة العارضة، وملكة الخطابة التي يبصرها الإنسان الخبير، من خلال ما يفوه به من معتاد التّعبير.



محمد العزيز بو عتور

نسبه ومجده

هو الوزير الشيخ محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب بن الوزير محمد بن محمد بوعتّور، وترتقي سلسلة مجده حوالي السّنين إلى أن تتّصل بوليّ الله الشيخ سيدي عبد الكافي القرشي العثماني دفين صفاقس، الذي يقول التّاريخ بأنّه من ذرّية الخليفة الثالث سيدنا عثمان بـن عفّان رضي الله عنه. وقد قال الوزير ابن أبي الضياف[1] في الجزء الرابع من تاريخه عند ذكر جدّ وزيرنا هذا إنّه «نبيه البيت في حسبه ونسبه في صميم قريش من أبي أمية» وأمّا الجدّ الأعلى الشيخ عبد الكافي المذكور، فهو أوّل من عرف من بيتهم بصفاقس، والظّاهر أنّه كان حيّاً أثناء القرن السابع، لأنّ أحد أسباطه علي بن محمد، كان موجوداً سنة 705 [1305]. وقد ذكر الشيخ مقديش[2] في تاريخه الشيخ عبد الكافي المذكور ولم يأتِ على تاريخ وفاته، على أنّه وصفه بالعلاّمة الخطيب المدرّس القطب عبد الكافي القرشي العثماني، ولزاويته عوائد من الدّولة جارية حتى الآن. هذا أقصى ما توصّلت للوقوف عليه من نسبه وكأنّه لا مطمع في أكثر من ذلك، حتّى نسلسل نسب صاحب التّرجمة إلى أن نلحقه بالخليفة الثالث، لأنّ ما قبل ذلك من العصور كان مظلم التّاريخ، وسيبقى كذلك إلى ما شاء الله.

أوّل من قدم منهم لتونس هو الوزير محمد بن محمد بو عتّور، وكان ذلك على عهد الباي حسين بن علي مؤسّس العائلة الحسينية، فكان من جملة الكتّاب الذين انتخبهم الباي المشار إليه لديوانه، حيث كان محمد المذكور من رجال العلم والأدب والفضل، فكان قرين الوزير حمودة بن عبد العزيز والشيخ صالح الكوّاش وغيرهما من فضلاء ذلك العصر، فلما اغتصب الملك الباشا علي باي من عمّه حسين باي المذكور آنفاً وقتله وتفرق أبناؤه وتفرقت

---

(1) [الإتحاف ـ ج 7 ـ ص 153 ـ]

(2) [محمود مقديش ـ «نزهة الأنظار في عجائب التّواريخ والأخبار» (طبعة حجرية). تونس 1321 هـ 1903 م].

شيعهم في الأرض كما قصّه علينا التّاريخ، كان الشيخ محمد بوعتّور المذكور في جملة الرّاحلين لطرابلس الغرب حيث أقام هنالك يرتزق من النِّسَاخَة، وقد رأينا بخزانة وزيرنا الفقيد نسخة من القاموس المحيط بخطّ الجدّ المذكور، وهي من أبدع ما كتب الكاتبون، لأنّ ناسخها كان من أهل العلم وأصحاب البراعة في اللغة العربية، وهي الآن بخزانة حفيده صاحبنا العالم المدرّس الشيخ سيدي محمد الطاهر بن عاشور، ورثها عن جدّه رحمه الله في جملة ما وهبه من الكتب النّفيسة المخطوطة باليد التي منها نسخة جميلة من المفتاح، نسخها المولى الوزير نفسه سنة 1317 [1899] برسم خزانة هذا الحفيد السعيد، وسيأتي كلام عليها بمحلّه من ترجمة الفقيد.

ولمّا عادت الدّولة لابني المرحوم حسين بن علي، كان الوزير محمد بوعتّور جدّ صاحب التّرجمة في مقدمة العائدين للوطن والملتفّين حول كرسي ابني مؤسّس دعامة الملك الحسيني، فكان محلّ ثقتهما ومستودع سرّهما، والمترجم الفصيح عن سياسة دولتهما نظماً ونثراً، ومن ذلك أشعاره التي نقلها الشيخ حمودة بن عبد العزيز في تاريخه الباشي، حيث وصف هذا الوزير الأديب ما وقع من المعارك التي جرت لافتكاك الملك من يد الباشا الكبير، إلى غير ذلك من صحيح الأخبار النّاطقة بفضله ونبله، وكان تلقيبه بالوزير على عهد الباي علي بن حسين بن علي كما جاء ذكر ذلك بالتّاريخ الباشي.

ولقد أوقفني الفاضل الشيخ سيدي محمد الطاهر بن عاشور على ما يشهد بطول باع الوزير الشيخ محمد بوعتّور في الأدب، وهو ورقة بخطّه وخطّ الشيخ صالح الكوّاش تضمنّت مناقشة قلمية بين الشّيخين في مبحث نحوي، ولولا خوف الإطالة والخروج عن الموضوع، لنقلناها برّمتها هنا. وتوفّي الوزير محمد بوعتّور عن ابنين أحدهما محمد، تولّى الكتابة وكان أديباً، وولي أيضاً خطّة الإشهاد على الغلبة، وهي من الخطط النّبيهة في عصره، وكان مرموقاً بعيـن الإجلال، وتوفّي سنة 1246 [1830] وثانيهما وهو الشيخ محمد الطيب

بوعتّور هو أبو والد وزيرنا صاحب التّرجمة، وكان كاتباً بارعاً، انتظم في سلك ديوان الكتابة، وكانت له حظوة بالدّولة، وشهرة في صناعة الإنشاء، شهد بها الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضيّاف في غير ما موضع من تاريخه، من ذلك قوله: «زان خطّة القلم مع أبيه وله يد في صناعة الإنشاء ومكانة عند مخدومه وكان كاهية الرّئيس في دولته وزاحمه مدّة حياته وانتظم مع العبد (الشيخ أحمد بن أبي الضياف) في هاته الخدمة مدّة قليلة قبل عجزه وكان فقيهاً أديباً خيّراً عفيفاً فاضلاً عالي الهمّة نزيه النّفس محافظاً على عرضه ليّن العريكة حسن الأخلاق ما شئت من مجد ووقار ومحاضرة تسري في النّفوس مسرى العقار ولم يزل معظّماً محبّباً إلى أن دعاه الأجل في سنة 1243 [1827]».

أمّا ابنه الشيخ محمد الحبيب بوعتّور المتوفى سنة 1266 [1849] وهو والد وزيرنا الفقيد فإنّه كان رجلاً حرّ الضمير، أبيّ الضّيم، شريف النّفس، ومن أجل ذلك نبذ الوظايف الدّولية، ولم يقبل على أبواب الملوك، فجعل همّه خدمة العلم، ورأيت له نسخة بخطّه من حاشية عبد الحكيم على المطوّل، تدلّ على بلوغه الأرب في دراسة الفنون العالية، ولقد اعتنى رحمه الله بتربية ابنه صاحب التّرجمة تربية صحيحة هيّأه بها لأن يكون من كبار الرّجال، والرّجال قليل.

ولد صاحب التّرجمة الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتّور في مستهلّ رجب سنة 1240 [1824] بالتّحقيق الذي لا يقبل الشّكّ كما سمعنا منه ذلك قدّس الله روحه. وبالخزانة العامّة لحفظ أورق الدّولة التونسية ما يشعر بذلك، حيث إنّ المرحوم حسين بن محمود باي كان أعطى بشارة لمن أعلمه من طرف جدّ وزيرنا هذا بازدياد ولد لابنه فادّعاء بعضهم أنّ الشّيخ محمد العزيز بوعتّور مات عن سنّ عالية تناهز التّسعين، ممّا يضرب به عرض الحائط وليس من التّاريخ في شيء.

نشأته وقراءته وتعليمه

قلنا إنّ صاحب التّرجمة نشأ في كفالة أبيه، وكان شديد الحرص على تهذيبه وصيانته من مواقع الخطأ فسلك به مسالك الرّشاد، بما هيّأ له طريق الإسعاد، وأوّل ما لقّنه حفظ القرآن الكريم على طرف التّمام، ثمّ علّمه الرّسم والخطّ على أشهر الخطّاطين من أهل عصره، ولدينا نسخة من ألفية محمد بن مالك، حسنة الشّكل، جميلة الخطّ للنّهاية، كتبها الوزير المرحوم في صباه وأهداها لصاحبه والد المحرّر لهذه التّرجمة ـ وقد نشرنا بخاتمة هذه العجالة نموذجاً من خطّه كتبه في حدود سنة 1297 [1879] كما وضعنا نصب عين القارىء مثالاً تحت رسمه الذّاتي من إمضائه بخطّ يده، ولو عرضناه على مرآة النّاظرين بنور الفراسة لاستخرجوا من خلال تعاليقه وتراكيبه ما يدلّ على أخلاقه وأدبه وذكائه ووداعته.

نشأ رحمه الله كما علمنا في كنف والده، وأيضاً في كنف أمّه، لأنّها كانت من الخيّرات الصّالحات، سليلة الحسب والنّسب، حيث كانت من ذرّية الوليّ الشّرعي سيدي محرز بن خلف الذي يتّصل نسبه باتّفاق علماء الأنساب بالخليفة الأوّل سيّدنا أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه، وفي الحديث الشّريف: سدّوا عنّي كلّ خوخة إلاّ خوخة أبي بكر.

ناهيك برجل كريم نسب الطّرفين نشأ بين الكتب والمحابر، فلا غرو أن كان مثال كم ترك الأوّل للآخر، وكان دخوله لقراءة العلم بجامع الزّيتونة الأعظم في شوّال 1254 [1838] فأخذه عن أعلام مهتدين، من أيّمة الدنيا والدّين كشيخ الشّيوخ، وطود الرّسوخ، أبي إسحاق إبراهيم الـرّياحي، والحافظ الشيخ محمد بن الخوجة شيخ الإسلام، والقاضي الشيخ محمد النيفر الأكبر، والمفتي الشيخ محمد بـن سلامة، والباش مفتي الشيخ الشاذلي ابن صالح، وقاضي الجماعة الشيخ الطاهر بـن عاشور، وكان أغلب تحصيله عليه ووقفنا في بعض كنّاشاته على عبارة بخطّه تقول: «قد حضرت درس الشيخ سيدي عاشور فوجدته يقرىء البسملة وذلك في السّاعة التّاسعة صباحاً

فلم يزل في مبحث البسملة إلى أن نودي للزوال، فقال نرجع إليها غداً فلم أرجع إلى درسه بعد». وكان أكثر ما يخصّ من شيوخه بالذّكر الشيخ محمد ابن الخوجة والشيخ الطاهر بن عاشور، ويشهد للأوّل بالتّضلّع والتّبحّر في العلم، وللثّاني بالتّحقيق وسرعة الفهم، ولقد سمعت منه غير مرّة ما انشرح له خاطري من تمجيد ذكر سلفي، فكان يواصل الحديث بالحديث، والنّادرة بالنّادرة عن حياة المولى الجدّ، رحم الله الجميع، وكان يرى من أعظم الرّزايا موت الشيخ الطاهر ابن عاشور، والعلم لا يفقد إلاّ بأهله.

برع الشيخ محمد العزيز بوعتّور في كلّ العلوم العربية نقلية وعقلية، فأجازه شيوخه للإقراء بالجامع، لذلك جلس للتّدريس، وأفاد الجليس، بما نثر من الدّرّ النّفيس، فأقرأ كتباً شتّى في فنون كثيرة، ولقد سمعت من صاحبنا الفاضل أمير ألاي سيدي محمد القروي رئيس الخزنة العامّة بالدولة التّونسية أنّه وقف على ما يشعر وأنّ المترجم له «أقرأ مختصر السّعد في علم البلاغة»، وكان من جملة تلاميذه في هذا الدرّس بعض كبار شيوخ المجلس الشّرعي المالكي لعهدنا الحاضر، وكان يدرّس بالجامع لدى الأسطوانة الثّانية عن يمين الدّاخل من باب الشّفاء.

يومئذٍ كان صاحب التّرجمة في مستقبل العمر ولا همّ له إلاّ العلم، وقد علمنا أنّه أحسن الخطّ، فكان ابن مقلة زمانه، وممّا يؤثر أنّه نسخ في تلك الأثناء حواشي عبد الحكيم على تفسير القاضي البيضاوي، فكان يكتب أربعة كراريس في اليوم إلى أن أتمّها، وهكذا كان يفعل بكلّ كتاب لا يملكه، ومن المعلوم أنّ الطّباعة كانت إذ ذاك في مبادئها ومنفعتها لم تعمّ ببلادنا إلاّ بعد ذلك بزمن طويل. ولم تكن شهرته العلمية والأدبية في ذلك العهد قاصرة على أهل الجامع، بل تخطّى صداها عرصات كلّية العلوم الزّيتونية، وضرب بمسامع المشير أحمد باشا، وكان له ولع بنشر العلم والإعانة عليه بتأسيس خزائن للكتب اشتراها من مخلّف الوزير حسين خوجة، وزيّن بها وجه الجامع في أوائل دولته كما يشهد بذلك رسم تحبيسها المؤرخ بالسّابع والعشرين من

رمضان سنة 1256 [1840] والمشهود فيه عليه بشهادة كاتبه الوزير الشيخ أحمد ابن أبي الضّياف، والمفتي الشّريف الشيخ سليمان المحجوب.

هذا ولمّا كان الشّيء بالشيء يذكر، ناسب أن نلمع بعبارة وجيزة لأصل الخزائن المذكورة، فبعد أن كانت طافحة بألوف المجلّدات على عهد بني حفص، حتّى بلغت إلى نيّف وثلاثين ألفاً، شتّتها الاسبانيول على عهد احتلالهم لتونس أواسط المائة العاشرة، فكانت تذروها الرّياح على ما جاء في كتاب المؤنس بين باب البحر وحلق الوادي.

وقد رأيت بخطّ الشيخ الجدّ ـ نعّمه الله ـ ما يفيد وأنّ خزانة الجامع لم يكن بها على عهد قراءته للعلم أوائل المائة الثالثة عشر، غير عشرين جزء من الكتب، فكان صنيع أحمد باشا من الأعمال الصّالحة التي تخلّد له جميل الذّكر، وتعود عليه وعلى كلّ من اقتدى بمثاله بعظيم المجد والفخر.

وقد قدّمنا أنّ الكتب التي حبّسها أحمد باشا على الجامع انجرّت له بالشّراء من مخلّف الوزير حسين خوجة، والحقيقة التّاريخية للمسألة لا تسمح لنا باستعمال لفظ «مخلّف» لأنّ الوزير حسين خوجة لم يزل إذ ذاك بقيد الحياة، وإنّما ركبه دين، وكان قانون البلاد ـ ولم يزل في بعض الأحوال إلى اليوم ـ يسمح بسجن الدائن للمدين، فاضطرّ الباي لسجن الوزير المذكور، وإجراء عقلة على مكاسبه، ومنها كتبه التي اشتراها لنفسه بريالات (28917) وأضاف لها ما لديه من الكتب الموجودة إذ ذاك بخزانة بيت الباشا بباردو التي كان اشتراها من الأستانة عمّ جدّه الباي علي بن حسين بن علي بواسطة صهرهم الشيخ حسن البارودي، فكان جملة ما تجمّع لديه من التآليف (2527) جزء على ما رأيته ببعض التّقاييد الرّسمية، وكتبها حسنة في صحيفة أعماله إذ بادر بتحبيسها على جامع الزّيتونة عمّره الله.

ولنرجع بالقارىء الدجيد لترجمة الوزير الفقيد فنقول:

دخوله لخدمة الدولة

قال رحمه الله: «أرسل لي الشيخ باش كاتب يطلب أن أقابله بداره، وكانت بين سلفي وسلفه روابط وثيقة، فتوجّهت إليه، وإذ ذاك عرض عليّ انتخاب الأمير إيّاي لخطّة كاتب بديوان الإنشاء بباردو، فاعتللت بصغر السّنّ والشّغل بالقراءة، فأكّد عليّ، فقلت أستشير والدي، فواعدني إلى غد، فلمّا استشرت أبي استحسن ذلك بتحريض عمّي الشيخ محمد العثماني بوعتّور الذي كان يومئذٍ كاتباً بديوان الإنشاء، فرجعت للباش كاتب وأعلمته بالقبول، فاستصحبني معه لباردو غداة ذلك اليوم، وأدخلني على المولى الأمير، فهنّأني بالولاية، وأذن بأن يكتب لي ظهيرها، وأن نمنح عوائدها، وكان ذلك في سنة 1262 [1845]» ثم قال: «ويشهد الله أنّي ما فكرّت قطّ في وظيف مدّة قراءتي للعلم، وما قرأت إلّا طلباً للكمال العقلي، ولقد فاجأتني الأقدار بما آل إليه أمري، والإنسان مسيّر لا مخيّر»، ثم قال على وجه المزح: «وكنت أباسط بعض الأصدقاء، وكان يحبّ الخطط، فأقول له أمّا أنا فلا أودّ إلّا أن آخذ وظيفاً غريباً وهو مفتي البيان».

وفي صحيح الأثر أنّ من الشّعر لحكمة، وأنّ من البيان لسحراً.

فكان هذا الدّور من حياة الفقيد، هو دور الدّهاء والحنكة والتّقلّب مع أطوار الزّمان، وذلك أنّ الدّولة كانت يومئذٍ لا كما نعرف الآن، أي لم تكن مستقرّة النّظام، كافلة بحفظ رجالها من عبث الأيام، فكم من عظيم وقع من شامخ عزّه ورفيع مكانته، في حضيض التّلاشي أو الإعدام، وكم من وزير خطير أفل نجم طلعته من سماء سعادته، فانغمس في دهاليز الظّلام، بمحض التّشهّي وتطوّر الأحكام، أو بدبيب عقارب السّعاية على فراش المنام، لذلك كان صاحب التّرجمة وحيداً منذ بداية خدمته المديدة بالتّبصّر في العواقب، والتّوقّي من فاجعات النّوائب، فقضى عشرة من السّنين في خدمة أحمد باشا ملازماً خطّة الاعتدال والحياد، بعيداً عن مواقع الرّيب والمزاحمة للأنداد، فضلاً عن الحساد والأضداد، ناهيك أنّ الفرص مكّنته من إركاز قدمه برئاسة

ديوان الإنشاء، وخدمة طالعه كما يختار ويشاء، فأعرض عن ذلك وقابل الحظوة بالتفصّي والاّتقاء، نظراً لتقلّب الأحوال، وإعراباً عن اعترافه بالفضل لمن تقدّمه من كبار الرّجال، ولقد أعانه على تلك السّياسة المحمودة في بابها فرط فطنته وأصالة رأيه التي بهر بها عقول معاصريه، وكانت الفاتحة لمحجّة ترقّيه، فتخطّى رقاب مزاحميه، بطبع فطرته لا بمزاحمة وتدبير. ولقد قال في المعنى الشيخ ابن أبي الضيّاف العبارة التالية في ترجمة الشيخ محمد الطيب بوعتّور ونصها: «وحفيده الآن (صاحب التّرجمة) هو شمس ضحاها، (أي الكتابة) وقطب رحاها، ورئاستها مع الوزارة طوع بنانه لو حظي بإعانة من طبع زمانه»[3].

كان المترجم له مقرّباً نجيّاً لدى المشير أحمد باشا، فكان لا يرضى المشير بمفارقته في حلّه وترحاله، حتّى أنّه أوجب عليه الإقامة معه بالمحجر الصّحّي بالمحمّدية عند ظهور الكوليرة بتونس اثناء سنة 1266 [1849] فبقي ستّين يوماً بالقصر الملوكي توفّي أثناءها بتونس والده الشيخ محمد الحبيب بوعتّور، فأعلمه الباي بلطف بهذا الحادث المزعج الذي كان يتوقّعه الشيخ محمد العزيز رحمه الله، فخرج من حضرة الأمير وهو يقول:

قد كان ما خفت أن يكون إنّا إلى الله راجعون

هكذا نقلت هذه الواقعة من خطّ الفقيد بالوقوف عليها ضمن بعض كنّاشاته مدّة شبابه، ولقد بالغ الباي يومئذٍ في الاعتناء به حتى قال له: إنّي صرت أعتبرك في مقام ابني، فاعتبرني عوض والدك رحمه الله. وكان أحمد باشا صادق الوعد، فكان له خير أب، ذلك أنّه بعد ارتفاع الحجر الصّحّي، سأل عن حال عائلته، فاستفاد أنّ والد صاحب التّرجمة كان يهيّىء له أثاث تزويجه، فأمر أحمد باشا بأن تكون سائر مصاريف زواجه على نفقته، ووهبه مبلغاً جسيماً من المال يضاهي كرم أحمد باشا وعلوّ همته، وفي هذا المقام

(3) [«الإتحاف» - ج 7 - ص 153،].

نحفظ لهـذا الأمير عدّة هبات بعد العهد بمثلها، من ذلك علبة نشوق مرصّعة بالحجارة الكريمة كان أهداها للمولى الجدّ ـ قدّس سرّه ـ حيث جاءه لأحد أختامه في رمضان، وفي نهاية الختم طلب منه أن يقترح عليه شيئاً، فأجاب المولى الجدّ قائلاً: «نطلب من سيّدنا أن يدعو لي بحسن الختام»: فقال له: «هذا تحصيل حاصل، ولكن يسرّني أن تطلب شيئاً من متاع الدّنيا»، فشكر وقال له: «فرس هشوش، وحكّة بعطر الفشوش» قال: «أمّا الحكّة فها هي، وأخرجها من جيبه»، فكانت قيمة بيعها ثمن اشتراء دار كبيرة للخلاعة بسيدي أبي سعيد، «وأمّا الفرس فيأتيك غداً»، وكان كما قال، إلى غير ذلك من المواهب العالية التي هي من طباع أحمد باشا، ولا غرابة فإنّ صندوق الدّولة كان يومئذٍ تحت أمره ونهيه.

هذا وقد كان لزواج صاحب التّرجمة حسبما أشرنا إليه، رنّة فرح وسرور من خاصّة التّونسيين، لأنّه بنى على إحدى كريمات الحسب والنّسب، ونعني بها ابنة المرحوم الشيخ محمد المنّاعي الكاتب المشهور، ولقد وقفت بكنّاش الأعيان التّونسيين للشيخ الوالد ـ حفظه الله ـ على مكاتبة من الوزير ابن أبي الضيّاف، خال البنت المذكورة، وخطيبها من أبيها لصاحب التّرجمة والجواب عنها. ولإفادة القارىء الكريم، لا نرى مانعاً من نقلها بعبارتها حيث إنّ جميع من تعلّقت تلك الحكاية بهم، طوى المـوت رسمهم، وأصبحوا في حيّز تاريخ الزّمن الماضي، وإليك هي بنصّها وفصّها:

«الأكـتب الماجد البارع الأديب الزّكيّ أخونا الشيخ سيدي محمد المنّاعي حرسه الله. أمّا بعد السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإنّ الله تعالى الذي خلقنا من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً، ونساءً، اقتضت حكمته ببقاء هذا النّوع الإنساني بما حضّ عليه في كتابه، وعلى لسان رسوله، وجذع بالحلال أنف الغيرة، ولتعلم أنّ ابنتنا قد بلغت الأشدّ، وتاقت النّفس على تمام صيانتها وحفظها بما هو ضروري للبشر، فأجرينا في مضمار الاختيار، أفراس الأفكار، فكان الجليّ هو الشّاب

الفقيه العفيف الثّقة الخيّر الماجد الأديب النّجيب أبو عبد الله سيدي محمد العزيز بوعتّور، وهو ما علمته حسباً ونسباً، ومروءة وأدباً، لم يبطء به حسبه حتى يسرع به نسبه القريشي. وكان المقدّس المرحوم شيخنا والدكم، قدس الله روحه، يرى بيته من البيوت الممدودة وله معنا أخوة الصناعة ومن أمثالهم الخال والد وملاك هذا الأمر بيدك شرعاً وطبعاً ومروءة، فإذا انفتح صدرك لما وقع عليه اختيارنا فعرّفني بمكتوب منك لنتّفق مع أهله على يوم يكون الاجتماع فيه بضريح العارف بالله سيدي محرز بن خلف على قراءة الفاتحة لنتيمّن بذلك المقام، ولا بدّ من حضورك معنا، وحضوركم هو الذي نغصبكم عليه بعد الموافقة، وأمّا كتب الصّداق، فإن شئت أن تباشره بنفسك ولا أحسنه لك، والأنسب أن تكتب لي توكيلاً أباشر به كما هي العادة الجارية مع مثلي ومثلك في هذا الأمر، والله يلهم جميعنا إلى الخير والصّلاح، واليمن والنّجاح، ونعيد التّأكيد في حضورك معنا إذا وافقت، واعلم أنّي لا أطلب أحداً للحضور سوى ما يلزم حضوره من الأقارب والأصهار، والله وليّ المؤمنين. والسلام من كاتبه أحمد ابن أبي الضّياف».

وإليك نصّ الجواب عن ذلك، وقد راعى فيه المجيب ما للمخاطب من حقوق الأبوّة الرّوحية، حيث كان خال البنت وكافلها، كما هي عادة أفاضل تونس من تبنّي أحفادهم.

«المقام الذي له الفضائل السّيّارة، والخصائص التي تقتصر عن وصفها العبارة، مقام فخر المقدّمين في البراعة، المالكين أزمة البراعة، الأكرم الأمجد الأفخم الأحظى الأرضى، الخلاصة المعتمد، ذو الوزارتين مولانا الشيخ سيدي أحمد ابن أبي الضّياف أمير لواء أبقاه الله سيّداً وسنداً، وركناً مؤبّداً. أمّا بعد تقبيل أيديكم الكرام، وأداء ما يجب لكم من الإجلال والإعظام، فقد وصلني كتابكم المشحون لطفاً وبرّاً، فأفادني عزّاً وفخراً، وما أشرتم به عليّ في شأن ابنتنا ـ صانها الله تعالى ـ من النّظر في أمرها، بما هو لازم لكمال صيانتها وسترها، والحال أنّها ربيت في حجر كرمك، وغذّيت

بثدي فضلك، مع ما لها بكم من اللّحمة التي هي أوكد حرمة، فالخال والد، والطّبع بذلك شاهد، وعليـه اتّفقت العامّة والخاصّة من لدن الخليقة، فهي ابنتكم حقيقة، والحمد لله الذي ادّخركم لها كنزاً، ووهب لها من جنابكم شرفاً وعزّاً، وحيث قرنتم رأيي برأيكم، وضربتم لي بخطّ من ولايتكم عليها وولائكم، وإن كنت لا أزن نفسي بالصنجة التي بها وزنتني ولا أزينها بالفضل الذي به زيّنتني، فذلك منكم محض فضل عليّ ونعمة، وجوابي عنه لكم طاعة وخدمة، فلتعلم سيّدي أنّي لاختياركم تابع، ولأمركم مطيع وسامع، فأنتم أعلى رأياً وأجود انتقاداً، إصداراً وإيراداً، ويصل لجنابكم التّوكيل، وأنتم لقبوله قاضٍ بحقّ، ومالك رقّ، ومتى تأمرني بالحضور يوم العقد تجدني لأمركم ممتثلاً، ولقبلة مرادكم مستقبلاً، والله يصل بالعزّ بقاءكم، ويجعل من يبغضكم فداءكم. والسّلام من كاتبه محمد المنّاعي» اهـ.

قلنا ومن المعلوم أنّ هاته زوجته الأولى، وأنّها ماتت في عصمته، وتزوّج بعدها زوجته الثانية التي مات عنها، وهي بنت المرحوم الشيخ بكّار الشّريف، ولها اليوم جراية واسعة من الدّولة المحمية تقديراً لما قام به زوجها المرحوم من النّصح والإخلاص في خدمة المملكة التونسية.

وقد كان أحمد باشا شديد الوثوق بصدق وإخلاص صاحب التّرجمة فانتخبه لإلقاء ما بالأوراق والحجج التي تعرض عليه بديوان حكمه، حيث آنس منه البراعة في إيجاز ما يقرأه والإلمام بخلاصته، مع الفصاحة وحسن التّعبير، وبثّ الأعمال الجسيمة في الوقت القصير، وهي شنشنة عرفناها منه بالذّات كما عرفها الجماهير.

وفي تلك الأثناء طلب وليّ العهد أمير الأمحال المرحوم محمد باي من المشير أحمد باشا أن يعين له رئيسا لديوان كتابة المحلّة، فوقع انتخاب الباي على صاحب التّرجمة، فكان يصاحب أمير المحلّة في أسفـاره لأطراف العمالة، ويعود لمركزه بالديوان الملوكي، ولقد قلّده نيشان الافتخار من الرتبة الثالثة، فالرّتبة الثّانية، ووقفت على أمر هذا الامتياز الذي حلاّه فيه المولى

الأمير «بالأكمل الخيّر الزّكيّ العفيف الألمعي الثّقة المؤتمن كاتبنا ابننا الشيخ سي محمد العزيز بوعتّور الخ». . وترجم له في أمر آخر مؤرّخ بعام 1270 [1853] بما عبارته: «البارع الثّقة الماجد النّجيب النّحرير المقرّب الأكمل كاتبنا ابننا الشيخ سي محمد العزيز بوعتّور الخ». .

وقد تقدّم أنّ الأمير كان واثق بصحّة إخلاصه إليه، فلذلك لم يرتب منه في علائقه مع باي الأمحال بالرّغم عمّا كان يومئذٍ في نفس الملك من الحسبان، لوليّ عهد الزّمان، كل ذلك لما يعلم منه من التّباعد عن مواقع الخطل، ومظنّات العطل، حتى أنّه لم يؤاخذه بقصيدته التي امتدح بها المرحوم محمد باي، والتي منها قوله:

حتّى غدا بين الملوك بأسرهم   مثل الرّشيد في بني العبّاس

مات أحمد باشا في منتصف رمضان 1271 [1855] وانتقل الملك لابن عمّه محمد باشا باي، فكان صاحب التّرجمة لديه كما علمت بالمكانة المكينة، حتّى أنّه حلاّه في بعض أوامره التي لدينا بعد ديباجة طويلة بقوله: «محبّنا كاتبنا الشيخ سي محمد العزيز بوعتّور» وكان لفظ «محبّنا» قاصراً يومئذٍ على تحلية بعض شيوخ المجلس الشّرعي ومن نحى نحوهم ليس إلاّ، ولقصر دولة هذا الباي لم نقف على شيء يستلفت النّظر بخصوص الوزير الفقيد، سوى أنّه اختصّه بأخيه وليّ العهد محمد الصادق، باي الأمحال، حيث ألحّ في طلبه منه، فكان كاتب محلّة هذا الباي، بل وصاحبه ونجيّه، وهكذا بقي إلى أن أتاهم نعي المرحوم محمد باشا باي، وهم بمحلّة باجة في صفر سنة 1276 [1859].

جاءهم نعي الأمير بمكتوب رسمي من إنشاء الشيخ أحمد بن أبي الضّياف ننقله بعبارته من أحد كنّاشات الشيخ الوالد، لإفادة قرّاء الرّزنامة، حيث لم نقف عليه بجهة أخرى، ونرى من تعميم الفائدة عرضه على أنظار القرّاء خدمة للتّاريخ التونسي، ونصّه:

«المقام الذي صبره في النوائب جميل، وشكره على المواهب بالمزيد

كفيل، مقام وارث الملوك السّادة الغادة، ومن تأتيه القلوب آمنة منقادة، يمين الدولة والإيالة، ومقوّي أمان السّكّان والعمالة، أمير الأمراء المرقّع شأنه سيدنا محمد الصادق باي جمع الله به الأمر، ورزقنا بصبره الصبّر، وعظّم له ولهذه الأمّة الأجر. أمّا بعد: فكلّ نفس ذائقة الموت، وإنّما توفون أجوركم يوم القيامة. أحسن الله عزاء سيّدي في صنوه وأخيه، وبارك لنا ولسائر الرّعيّة فيه، وجعله خير خلف عمّن سلف، وحرس بسياسته المملكة من المعاطب والتّلف، توفّي عصر يوم التّاريخ، هذا وإنّ رجال دولتكم، وحماة إمرتكم، على مقتضى مكتوبكم الأوّل يطلبون قدوم السّيادة لجمع الكلمة، ووجهّوا بهذا المكتوب عبد خدمتكم، ولواء عسّتكم السيد رستم، والله المعين على صلاح العباد، وخير الوطن والبلاد، ويسلك بسيّدي سبل الرّشاد، ويجعل الملك فيكم وفي بيتكم على ممر الآماد، ويبلغ هذا القطر بهمّتكم غاية الأمن والمراد. والسلام من مقبّل أيديكم أمير الأمراء الوزير الأكبر مصطفى وزير العمالة. كتب عصر يوم الخميس في 24 صفر سنة 1276 [1859] ا هـ.».

لما بويع الأمير محمد الصادق باي واستقرّ قراره، كان في طليعة رجال دولته صاحب التّرجمة إذ كانت له يد عاملة في النّظامات النّاشئة عن قانون عهد الأمان، فقلّده الصّنف الأوّل من نيشان الافتخار في ربيع الأنور سنة 1276 [1859] ثمّ أسند له رئاسة كتبة وزارة المال في شوّال من السّنة نفسها، ثم كتابة سرّ الملك في العام التّالي، ثم رقّاه لرتبة أمير اللواء في شوّال 1277 [1860]، ثم عيّنه عضواً بالمجلس الأكبر ومستشار للمملكة على مقتضى الفصل 49 من القانون المذكور، فكتب صاحب التّرجمة إذ ذاك على هذا القانون تعليقاً يعدّ من منازع الرّاسخين في علم أدلّة الفقه ومنازع الاجتهاد وسياسة العمران، ثمّ سماه مستشاراً بمجلس شورى الملك سنة 1277 [1860] ومستشاراً لوزارة المال في سنة 1279 [1862] وفي سنة 1280 [1863] رقّاه لرتبة أمير الأمراء، وأنعم عليه بالشّريط الأكبر من نيشان الافتخار، ثمّ في سنة 1281 [1864] رقّاه لرتبة باش كاتب ووزير قلم، فكان أوّل من جمع بين هاتين الخطّتين بالدّولة التّونسية.

وفي سنة 1283 [1866] ضمّ إليه خطّة وزير مال لكن بلا مال، لارتباك الأحوال واختلال الأعمال، وضعف الآمال. قال الوزير ابن أبي الضيّاف في المعنى: «وفي يوم الاثنين 28 محرم 1283 سمّى الباي، الفاضل الماجد الوزير الأكتب أبا عبد الله محمد العزيز بوعتّور وزير مال بعد أن سلّم الوزير (أي مصطفى خزنة دار) فيها لما ناله من شدّة الطّلب وسوء اقتضاء الغرماء فتلقّى المسكين (أي صاحب التّرجمة) هذا الاسم بالصّبر والتّسليم على حال إياس من مسمّاه، وللرّجل كمال إنساني اقتضى ظهور النّفرة والخجل في وجهه ولسان الحال يعذره الخ». . قلت وقد كان رحمه الله يتحاشى عن ذكر حديث وزارته بالمالية التونسية، حتى أنّ حفيده صاحبنا الشيخ الطاهر بن عاشور لم يظفر في مخبّئاته بأمر ولاية هذه الوزارة خلافاً لبقية أوامر ولاياته، إذ وقع العثور عليها بأجمعها مرتّبة حسب تواريخ صدورها على أبدع أسلوب، وأوفى مرغوب.

لقّبه الباي علاوة على ذلك بوزير الاستشارة في سنة 1290 [1873] وفيها ألبسه شريط عهد الأمان، وفي العام التّالي ألبسه العهد المرصّع، فكان في هذه السّنة 1291 [1874] شريك الوزير الخطير خير الدّين في المباشرة، حيث كان خير الدين باشا يومئذٍ هو الوزير الأكبر، ولذلك يجدر بنا أن نسمّي هذا الدّور من حياة صاحب التّرجمة:

دور الجدّ والعمل

لما تسلّم الوزير خير الدين أزِمّة الحكومة التونسية في عام 1291 [1873] كانت الدّولة في هرم، فأراد بمضيّ عزمه ونصحه وحزمه أن يعيد إليها شبابها القديم، ولذلك شمّر عن ساعد جدّه، فنظر في سائر المهمّات والشؤون، ولحسن حظه وجد من يعينه على إنجاز مشروعاته النّافعة، فمن رجال السّياسة والإدارة وزيرنا الفقيد، والوزير حسين، ومن أهل العلم شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن الخوجة، وقاضي الجماعة الشيخ الطاهر النّيفر،

والعالم السّياسي الأستاذ الشيخ محمد بيرم، والأستاذ الكبير الشيخ مصطفى رضوان وغيرهم من نابغي الكتّاب والمدرّسين. والحقّ يقال إنّ صاحب التّرجمة أعان الوزير خير الدين خير إعانة، فكان يمدّه بالعلم من جهة، وبحسن التّدبير من جهة أخرى، حتّى قامت الوزارة الخيرية بكثير من الإصلاحات والنّظامات التي صرّح السفير (مسيو بمبار) الذي كان كاتباً عامّاً بالدّولة التّونسية في أوّل عهد الحماية، بأنّها - أي التّنظيمات والتّراتيب الخيرية - هي أسّ الإصلاح الذي بنت عليه الدولة الحامية هيكل النّظام الجديد الذي نرى آثاره الحسنة صباحاً مساءً.

فشارك المترجم له في تنظيم التدّريس بجامع الزّيتونة، وشارك في ترتيب المدرسة الصادقية، وجمعية الأوقاف، والسّجون، والمستشفى الصّادقي، والفلاحة، والشّهادة العامّة، والمحاكم الشّرعية، وبيت المال، وأقسام الوزارة، وهو الذي أتمّ ما ابتكره الوزير ابن أبي الضيّاف من قواعد الإنشاء وأساليب الكتابة والمخاطبات الرّسمية مما يسمّونه «البروتوكول» بالدّول المتمدّنة.

ولما استعفى خير الدّين من الوزارة في سنة 1295 [1877] كان صاحب التّرجمة عضواً بالكمسيون المالي، وفي السّنة بعدها كان عضواً بمجلس المشورة الذي انتحله الوزير مصطفى بن إسماعيل بداعي إصلاح ما اختلّ من الشّؤون، وإن هو في الحقيقة إلاّ ذرّ الرّماد في العيون، حتّى يشغل الأفكار العامّة عن الموازنة بينه وبين الوزير خير الدين، إلاّ أنّ صاحب التّرجمة كان عليماً بخبايا المسألة، ولكن لا يسعه أن يغيّر سياسة الوزير الذي ألهاه جمع النّقير، عن التبصّر والتّدبير.

ومن سنة 1296 [1878] إلى سنة 1298 [1880] كانت البلاد في هرج ومرج، وحالها إلى الخوف أقرب منه إلى الرّجاء، والعوامل السياسية تنتابها، والأهواء تتلاعب بها، فكان ما كان من إرخاء الستار على دولة الإطلاق، والحساب يوم التلاق. . .

[تقلّده الوزارة الكبرى]

فلما نصبت فرنسا حمايتها على تونس، وأعقب ذلك انتقال الملك لنوبة جميل الذّكر سيّدنا علي باي في الحجة 1299 [1882] صدّر هذا الباي صحيفة حسناته بتقديم صاحب التّرجمة للوزارة الكبرى.

ولقد تهلّل يومئذٍ وجه البلاد لهذه الولاية، وتسابق الفضلاء والعلماء لتهنئة صاحبها، بل ولتهنئة أنفسهم لأنّ المتولّى من أبناء البلاد، وكلّ من تقدّمه في صدارة الوزارة كان من الدّخيلين فيهم، بل وبعضهم في الإسلام، والإسلام يجبّ ما قبله، فمن تلك التّهاني ما وقفت عليه لعمّنا المرحوم شيخ الإسلام ـ قدّس سرّه ـ وهو قوله:

بقيت خليلي بحرز حريز   وصيتك فينا كثير الأزيز
ملكت القلوب بجيش العلا   فهذه مصر وأنت العزيز

ومن ذلك مكتوب ورد عليه من مصر بقلم المرحوم الأستاذ الشيخ محمد بيرم يقول في طالعته:

طلع العزيز في وزارة تونس   ورجا البلاد على الصّلاح تاسس
وافى البشير بذاك إذ أرّختـه   طلع العزيز في وزارة تونس

ولقد أوقفني حفيده ـ حفظه الله ـ على مجموعة أوراق في المعنى، رأيت ضمنها مكتوباً في التّهنئة من الوزير رستم رحمه الله، وكان يومئذٍ مقيماً بأروبا، وآخر من الشريف أبي عبد الله محمد العربي زرّوق باشا، وقصائد كثيرة لكثير من فضلاء التّونسيين، وبعضها لبعض أدباء المشرق.

هذا وليعلم القارىء أيضاً أنّ هذا الوزير هو أول من صدر من التونسيين مات على خطته لأنّ جميع من تقدّمه في مسند الوزارة الكبرى كانوا عرضة لدسائس المزاحمين والأضداد فيركسون بعضاً بعضاً ويتدحرجون من شاهق علوّهم إلى حضيض التّلاشي إمّا بالعزل أو بالحبس أو بالموت، ولم يفلت

منهم عن تلك الخاتمة السّيّئة إلاّ القليل، كالوزير خير الدين، والوزير محمد خزنة دار فإنهما استقالا فأقيلا، ولله في خلقه شؤون. . .

ولا يخفى ما كان لصاحب التّرجمة تلقاء مركزه الجديد من الحرج والمشاكل، لتباين المصالح واختلاف العادات والأغراض، ومزيّة الفقيد أن كان له في هذا الموقف القدم الثّابت، والرّأي الصّائب في التوفيق بين المصالح المتباينة، وهي خصلة جليلة شهد له بها الوزراء الفرنساويون الذين شغلوا مسند السّفارة، على أنّه وجد من كبار الرّجال الفرنساويين من أخلص له الودّ والنّصيحة، كجناب الوزير (مسيو روى) (Roy) كاتب الدّولة العام، الذي قضى في عشرته السّنين الطّوال بين مظاهر التّحابب والإجلال، حتّى أنّه ارتاع أسفاً وحزناً لفقد هذا الصّديق الحميم، والسّيّد الكريم، فجازاه الله خيراً عن هذا الإحساس الشّريف، النّاطق بتعلّقه وحسن عهده مع كرماء التّونسيين. . .

أمّا أعمال الفقيد على عهد الحماية، فهي حديثة عهد لم تزل متعلّقة بالأذهان، ولذلك أغنى فيها العيان عن البيان.

بيد أنّي لا أرى بدّاً من تبرئة ساحته ممّا كان ينسبه إليــه بعضهم من التّقصير في الدّفاع أو عدم تحقيق أسباب الرّزق والسّعادة لمن خانهم الدّهر، أو عاقهم سوء الطّالع من إخواننا التّونسيين، ولذلك نقول:

جاء في المثل المولّد أنّ «المرأة والطّفل الصغير يظنّان الرّجل على كلّ شيء قدير» ويلحق بهذين كلّ من شابههما في ضعف العقل وقصر النّظر، ومهما يبلغ من براعة التّونسيين، وحذقهم، وسلامة ذوقهم، فإنّهم ولعون بالانتقاد، ولا يخلو إنسان من أضداد على تعاقب الآماد، ومن المقرّر أن المنتقد سريع الشّكاية والسّخط، ومن كان هذا خلقه يكون عديم الميز، فاقد التّجربة المقرونة بالتّأنّي، ومن أجل هذا ربّما عذل العاذلون وزيرنا الفقيد في أمـانٍ لم ينالوها، لأنّه قصّر بزعمهم في الأخذ بساعدهم ظنّاً منهم أنّه كان

قديراً على كلّ شيء، وما دروا أنّ لكلّ شيء حدّا محدوداً. ولقد حضرت مجلسه يوماً بصحبة أحد أصدقائنا من فضلاء العصر، فتذاكر معه في شيء طلب منه إجراءه على غير قاعدة أصلية، وألحّ معه في الطّلب للحدّ الذي أفهمه أنّه إن تأخّر عن العمل يعدّ منه ذلك تقصير في خدمة العنصر الأهلي، فكان من جوابه بعد أن بيّن السّبب القاضي بالرّفض أن قال: «وسيأتي زمن يقال فيه كان إنسان يقال له الشيخ سي محمد العزيز بوعتّور فقائل يقول إنّه أحسن التّصرّف في مدّة ولايته، وآخر يقول أساء، وثالث يقول أحسن وأساء، ولكن عند الله تجتمع الخصوم».

ورفع بعض الأجلاف يوماً صوته أمامه، مكثراً بالتّظلّم والتّشكّي من أولي الأمر قائلاً: «يوم القيامة نأخذ حقّي منك»، فأجابه على البديهة: «وهل أنت تتكلّم وحدك يوم القيامة؟».

أمّا أهل العقول الرّاجحة، فقد كانوا يدركون قيمته، ويدعون أبداً بطول سلامته وبقائه لخير الأمّة التي كان يرى نفسه عضواً من جسدها، ينشط لنشاطها ويتألم لألمها، وهذا الشّعور الحيّ الذي كان فيه، أدركه رجال الحماية، ومنهم الوزير العالم والخطيب المصقع (مسيو ملي) الوزير المقيم سابقاً، السّفير الآن، فقد قال إثر موت سيّدنا علي باي: «إنّ وزيره صاحب التّرجمة هو الذي وطّد أسباب الرّاحة والرّقيّ، وأدار شؤون المملكة مدّة العشرين سنة التي قضاها الباي المذكور على تخت الملك».

حبّه في آل البيت الحسيني

كان شديد التّعلّق بهم ولو مع من لم يحسن له منهم، وكان من أشدّ المخلصين للمرحوم سيدنا علي باي الذي كان يعبّر عنه «بالصّاحب الصّادق» ويسيّده في مكاتيبه الخصوصية بلفظ «سيّدي» وهو أقصى شواهد الودّ من الأمير للوزير.

وكان يخلص إليهم النّصح، ويدافع عن مصالحهم دفاع المستميت، فلا يسمح بمسّ كرامتهم، ولا بما يعود عليهم بضرّ سواء في ذلك الكبير والصغير. والحقّ يقال، إنّهم آنسوا منه صدق الولاء فأحبّوه واحترموه، ناهيك بما أظهر من الجلد والحزم عند انتقال نوبة الملك من سيّدنا علي باي لمن خلفه على كرسي الإمارة، فقد كان في تلك المناسبة الخطيرة مثال الحنكة والتّجربة، وسداد الرّاي والتّدبير، لأنه الحبر البصير، ولا ينبئك مثل خبير.

كيف لا وهو الذي تغذّى بلبان نعمائهم، ونشأ في كنف ولائهم، وارتقى للمعالي في ظلّ أمواتهم وأحيائهم، إذ هم ـ أبقى الله ملكهم ـ كما قال فيهم نادرة العصر، العلامة المفتي المرحوم الشيخ محمد بن الخوجة الذي ما زلنا نبكيه:

آبـاء هـذا القـطر مفـزع أهله   فودادهم في القلب موثوق العرى

أو كما وصفهم الفاضل الأديب، صاحبنا الكاتب أبو محمد سيدي حمودة تاج:

ألفنـا بـأنّ الأمـر فيهم وأنّهم   هم أبـداً سـاداتنـا ومـوالينـا

حبّه في العلم والعلماء وانتصاره للشّرع المطهّر

قال المرحوم الأستاذ الكبير الشيخ مصطفى رضوان في مكتوب كتبه في واقعة حال:

«ونحن الآن والحمد لله في دولة وزيرها (أي صاحب التّرجمة) عالم قد رمى به الجامع من أفلاذ كبده الخ» فمن كان هذا وصفه بين أترابه من أهل العلم، لا ينتظر منه غير حبّ العلم وأهله، ولقد قدّمنا في هذه التّرجمة ذكر أعيان شيوخه ممّن كان يتوسّع في ذكر أخبارهم، ونقل نوادر دروسهم، فكان نصير العلم، نصير الشّريعة، نصير العلماء، نصير أيّمة الدّين، وهي شنشنة فيه قديمة عرفناها منه، كما عرفها غيرنا ممّن كانت لهم به علاقة صحيحة.

ولقد خاطر بمركزه عندما اعتدى أحد أتباع الوزير مصطفى بن إسماعيل في رجب سنة 1296 [1878] على القاضي المالكي في مجلس حكمه(4) فكان يوحي لرجال الشّريعة سرّاً بالتّسجيل على صنيع تابع الوزير، غيرة منه على الشّرع العزيز، ويتظاهر بتقديم معذرة ابن إسماعيل للمرحوم شيخ الإسلام حيث اضطرّه الباي يومئذٍ مع أخي الشيخ لمواجهة رجال الشّريعة واسترضائهم لما حصل للوزير من القلق، لأنّ العامّة ساقته يومئذٍ بألسنة حداد.

ولقد أصبح بفضله مركز الشّريعة بعد انتصاب الحماية قارّ الرّسوخ، لأنّه رسم لأولي الأمر خطّتهم بإزاء السّلطة الشّرعية، والحقّ يقال، إنّ صنيعه هذا جاء موافقاً تمام الموافقة لمقاصد الدّولة الحامية، فإنّ سيرة رجالها تلقاء النّظامات والأساسات التّونسية، لم تزد تلك النّظامات إلا إحكاماً، وما بالعهد من قدم، قرأنا على صفحات الجرائد ما ملأ قلوب جميعنا سروراً من العبارات التي أكّد بها فخامة رئيس الجمهورية(5) تلك الضّمانات التي ستبقى إن شاء الله ببقاء الدّهور. . .

رأيه في الوزير خير الدين

كان ينعته بالنّاصح الأمين، وبالمصلح الكبير، ولكن كان يراه عجولاً لأنّه كان يروم استثمار ما غرسته يده قبل الإبّان، وكانا في أوّليات أمرهما ليسا بالمتعاضدين على العمل، لأنّ الوزير خير الدين كان يسمع الوشاية فيه من بعض مضاديّه، ولم ينتبه لحقيقة حاله إلاّ بعد اختباره وسؤاله، فلّما آنس منه خير الدين الفضل والبراعة والإخلاص، أخلص إليه في السّرّ والنّجوى.

وكان الفقيد يثني على بعض المشروعات الخيـرية، ويمجّـد ذكر مبتكرها، ويرى عمله من أقوى الأدلّة على إخلاصه في خدمة دولة الإسلام، لأنّه قاوم في عصر الإطلاق حزب الوزير ابن إسماعيل، وعاكس أميال الباي

(4) [صفوة الاعتبار للشيخ محمد بيرم الخامس ـ ج 2 ـ ص 110].

(5) [يشير المؤلف إلى زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لوبي (E. LOUBET) إلى تونس].

في كثير من المهمّات والشؤون، إلاّ أنّه كان يؤاخذه بصنيعه مع صهره الوزير مصطفى خزنة دار، والآخرة هي الدّار. وفي هذا المقام، لا يسعنا الحكم بصحّة هذا الرّأي أو بنقيضه، لأنّ الرّجل يشير بهذا الفكر لوقائع قديمة انفرد بمشاهدتها، وليس لدينا ما يثبتها أو يدحّضها ممّا سيقوم التّاريخ وحده برفع السّتار عنها، طال الزّمان أم قصر.

على أنّي وقفت للوزير خير الدين على بطاقة بخطّه خاطب بها الفقيد في إعلامه بازدياد مولود له، وهو دليل على ما كان بينهما من علائق الودّ، وإليك نصّ البطاقة بعد الحمدلة:

«أيّها الحبيب، أسعد الله صباحكم، وبعد: فإنّ أمس التّاريخ تفضّل الله سبحانه وتعالى علينا بمولود ذكر، ولمّا كان من الواجب الشّرعي إشهار وجود الابن للإنسان إظهاراً لنعمة الله تعالى، وتصحيحاً للذّرّية، أعلمت جنابكم بما حصل لنا من الفضل الرّبّاني. والسّلام من أخيكم خير الدين في 10 صفر سنة 1289 [1872]» اهـ.

أخلاقه وأدبه

كان الفقيد لطيف العريكة، كريم الطّباع، حسن الأخلاق، ليّن الأعراق، ناطقة شمائله بالهبة والوقار، مع تواضع وتسامح جديرين بالعضة والاعتبار، يغلب عليه الجدّ لنهاية الحدّ.

وكان ميّالاً للعزلة، بعيداً عن الهرج، عزيز النّفس، نزيه الخلق، وكان عالي الهمّة بحيث إنّه لم تحفظ له في دور من أدوار خطّته المديدة طماعية أو تصلّف، حتّى أنّ الباي محمد الصادق باشا كان وجد منه في نفسه، وقال لبعض خواصّه «إني أجد في نفسي من الشيخ باش كاتب حيث لم أسمع منه يوماً كلمة طلب لشيء على قربه منّي».

وكان رحمه الله صادق القول، لا يحفظ له كذب، على أنّه إذا ألحّ عليه إنسان في طلب شيء مستبعد النّوال، يصرفه لا بعبارة اليأس، ولكن

بكلام يفهم منه عدم احتمال الحصول على مطلبه، أو يحيله على غيره من أولي الأمر والشّأن.

على أنّي نحفظ له عدّة أجوبة مسكته، صارت في عرف رجال ديوان الإنشاء بالدّولة بمثابة أمثال حكمية يتناقلها الخلف عن السّلف، وكنت أقضي المجب من براعته في الإفصاح عن الأمور الهامّة وإعطاء كلّ شيء حقّه من الأدلّة التّاريخية، والموازنة بين الماضي والحاضر، فكان تاريخاً حيّاً يمشي على رجلين.

وربما أدّاه البرهان في ساعة الانبساط للتّوسّع في الموضوع إلى سياق بعض الوقائع المضحكة، فكان يضحك سامعه من دون أن يخرج عن حدّ الجلال والوقار المتعلّقين به، ممّا يحمل السّامع على الاعتذار.

وكان واسع الصّدر، لا يظهر عليه الغضب إلا في القليل النّادر، على أنّه مهما واجهه أنسان إلاّ وجده متهلّل الوجه، طلق الجبين.

وهذه الأخلاق المحمودة، والطّباع المشكروة المشهودة، هي التي عناها الشّاعر المفلق المرحوم المفتي الشيخ محمود قابادو بقصيدته النّونية الغرّاء التي لم نجد لها أثراً بديوانه، ولذلك لم نرَ بدّاً من نقلها هنا، إتماماً لترجمة المرحوم، وإلحاقاً للدّيوان المشار إليه لحوق الفرع بأصله، ونصّها بالنّقل عن خطّ النّاظم، رحم الله المادح والممدوح:

بأيّ لسان أستطيع لك الثّنا	ومنذ رنا فكري لفضلك ما انثنى
لقد زجّ منه للمحيط ولم تزل	تقاذفه اللّجّات حتى توهّنا
عذيري له فكراً تقحّم حيرة	تخبّط في أشراكها وتمكّنا
ومن يرم الفضل العزيزي دركه	وتوصيفه فهو المورّط في العنا
لقد فاجأ الأبصار وهي أخافش	به النّور من شمس الظّهيرة معلنا
وما عهدته غير أعلاط أنجم	بنقس دجا حتى جلا الصّبح بينا
لإن بهر الألباب درك كماله	فقد أدركت أن الإله به اعتنا

وإن لم يكـد يبلغ سواه لشـاوه | فقد صار من أفضاله بالغ المنى
كأنّ صفات الفضل إذ نسّقت له | رواة حـديث عن عـلاه تعنعنـا
فعن بشره الوضّاح عن حسن خلقه | عن الحلم يبدو طيب سرّ تبطّنا
ونهضـة جدّ في سكـون سكينة | يرى الملك منها في وزارته الغنا
وحسن بيـان مسفر عن جـواهر | يشنّفن آذانـا ويـجلين أعيـنـا
وبسطة صدر ليس يعـدم طارق | مجالا به رحباً ولا السّرّ مكمنا
ولين حجـاب في صلابـة عفّـة | وخفض جناح فهو مهما علا دنا
شمـائل قـد دنت الإلّه بـودّهـا | وصرت أرى ودّ الحسان تـديّنا
وأقحمت عن إحصـائـها فاقتبست من | أشعّتها مـا يـرشـد المتفـطّنـا
وعوّذتها من طارق السّوء باسمه | لتبقى دهـوراً لـلأنـام وأزمنـا
وسـاءلتـه إبقـاء لابس بـردهـا | مبلّغ مـا يبغيه مسترسـل الهنـا

علمه وقلمه

أما علمه فقد جعله في طليعة أهل التّرجيح والفتوى على معنى اعتراف شيوخ العلم بأجمعهم بواسع علمه وعظيم فضله، ولقد التجأوا إليه غير مرّة للتّرجيح بينهم فيما يعرض بينهم من الخلاف في فهم بعض النّصوص أو في تطبيق بعض للقواعد المذهبية على المستجدّات العصرية، وفي هذا كفاية.

وأمّا قلمه فقد وضعنا بخاتمة هذه التّرجمة مثالاً من خطّه كتبه من إنشائه في واقعة حال، وننقل الآن للقارىء الكريم مثالاً آخر من إنشائه كتبه بخطّه آخر نسخة من كتاب المفتاح سبقت لها الإشارة. قال رحمه الله:

تكلّفت نسخ هذا الكتاب وهو مفتاح العلوم الذي صنّفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السّكّاكي إبقاء على ذمائه، وحفظاً لروضه ومائه، وإدخالاً للمسرّة به على أهله وأبنائه، وتأنيساً لعصابته وأوليائه، إذ قد استسر رسمه، وكاد لا ينبىء عنه على إفادته إلّا اسمه، بحيث لا يلتئم كلّه بجزء يخلو عن تكهّنات، أو يسلم من نقص أو افتيات، والموجود منه أسفار أشتات، وقطع

رفات، أبناء علات، وبقايا أسقام وآفات، قد مدّ الفناء لها يديه، وعوّل على إلحاقها بما آل إليه، مع أنّه كتاب جمع غزارة العلم والدلالة على مسالك التّعليم، وأبان عن استفراغ مؤلفه جهده في توضيح مناهج إعجاز القرآن العظيم، واعتنائه بأسرار اللغة العربية وتعظيم أهلها، ومعرفة مكانها النّبيه ومحلّها، وجل من لا عيب فيه، إذ قد لف مصنّفه في غضون عباراته، ومطاوي إشاراته، نزغات يقف منها الشّعر، وتصريحات ما من واحدة إلاّ وهي أدهى ممّا قبلها وأمرّ، ولو شاء الله سبحانه لاشتغل بموضوع ما هو فيه عن الإعجاب بتناثر شرارها، والاسترواح بعجاجها وغبارها، إذ هو في وادٍ وتلك في وادٍ، وَيَا بُعْدَ ما بين خواصّ التّراكيب ومسائل الاعتقاد، وإنّي لأرجو من فضل الله تعالى أن يثبّته قرب وفاته، بما يباعد بينه وبين هفواته، وإن أنعم عليه إذ ذاك بما يكون له جزاء عن قصده إيضاح وجوه الإعجاز وتبيينها، ومجاهدته بلسانه وقلمه من أراد رواج الشّبه وتزيينها، وقد اتّفق أن كان ما نقل منه معظم هذا الجزء قد بلغ من الصّحّة الغاية، وأتى ناسخه بما دلّ على أنّ له دراية، وباقيه من مفتتح العروض إلى منتهاه، لا يسلم من نقص وتحريف في لفظه ومعناه، وقد أهديته للعالم أبي عبد الله محمد الطاهر ابن عاشور بلغ الله سبحانه بمنّه الأمل فيه من بلوغه مبلغ الرّجال، مع الرّاحة في قلبه وبدنه والعافية في دينه ودنياه في جميع الأحوال، ونفعه بموضوع هذا الكتاب هو ومن يطالعه من الأفاضل الكرام، ويمدّهم بفهم مبرء من شوائب الشّكوك والأوهام، راجياً من جميعهم دعوات تدفع عنّي ضلالاً وغيّاً، وتنفعني يوم أموت ويوم أُبعث حيّاً، وصلّى الله تعالى وسلّم على سيّدنا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم خاتم النّبئين، وإمام المرسلين، وعليهم وعلى آله وأصحابه والتّابعين لهم وعلى من انحسر فيهم ميراث علومهم أيّمة الدّين، وعلى أولياء الله تعالى أجمعين، السّابقين والحاضرين والآتين، إلى يوم الدّين، وعلى العلماء المتجافين عن اتّباع سبل الأهواء، الرّاغبين في أن تكون أعمالهم وأقوالهم جارية على خطّ الاستواء، والحمد لله ربّ العالمين».

رأيه في الجرائد

كان يصرح بأن ضرّها أقرب من نفعها سيما التي لم يكن لأمتها تهيأ وتأهب لفهم المرامي السياسية ومعرفة الأحوال العمومية، فكان مقتصداً بكثرة في الركون إليها لأنه يرى الصحف مثيرة للفتنة النائمة ويراها مضرّة خاصة بالتونسيين فكان لا يقرأ منها إلا ما استلفت إليه نظره وكان يقول نعم إن الجرائد لا بأس بها لو تتخلّى عن الأغراض وتقصد النصيحة لأجل النصيحة وتتوخّى الحقّ حيثما كان، لكنها مهمّة صعبت على صاحب «الجوائب» وهو ما علمت من البراعة وامتلاك عسال اليراعة.

وكان يقول لو كان ابن خلدون حيّاً لاستحسن مشروع الجرائد واستخدمها لا محالة في سياسته، لأن ولي الدين وهو ما علم الكل من الفضل والتبحّر في العلم، كان يميل بطبعه للتهجّم على الأمور الجسيمة وقلّما دخل بلاداً ولم تحدث بها فتنة سياسية. وهذا الكلام لم أخترعه بل حكاه بنفسه على نفسه في خاتمة تاريخه الذي لا يسع المنصف إلا تمجيد مقدمته والترحّم لمؤلفها أحسن الله للإسلام بمثله. على أن ابن خلدون أصبح رجل التاريخ لا ينفعه مدح المادحين ولا يضرّه قدح القادحين.

وبمناسبة إعرابه عن الأفكار المتقدمة سمعت منه والحديث شجون ذكر تاريخ كتّاب الإسلام وأدوار حياتهم في وقت وجيز فابتدأهم بعبد الحميد الكاتب وختمهم بعبد الرحمن بن خلدون. وبالتوسّع معه في الحديث جلبته عن قصد لإبداء رأيه في الكتّاب التونسيين ممن تقدّمه للدار الآخرة وذكرت له اسم بعض متأخّريهم ممن اشتهروا بالكتابة والتأليف فتبسّم وطوى بساط الحديث.

رحلته لباريس

وهي الرحلة الوحيدة التي سافر فيها الفقيد بحراً، وعلى شيخوخته لم يؤثر فيه تعب السفر بل اكتسب من ذلك نشاطاً وكان سفره بصحبة الأمير

المرحوم محمد الهادي باي عندما ارتحل في ثاني ربيعي عام 1322 [1904] لردّ الزيارة التي كان تلقاها بدار ملكه من فخامة رئيس الجمهورية كما تقدمت الإشارة لذلك بمحله وقد كان الوزير المرحوم مظهر الإجلال والإعظام من رجال الدولة الفرنساوية. وبهذه الرحلة استكمل رحمه الله معلوماته العمومية وشاهد عياناً ما كان يتحقّقه سماعاً من ارتقاء الأمة الفرنساوية في العلوم والصنايع والتجارة والعسكرية والمال والعزة والجاه، وحضر مع المولى الأمير المرحوم مواكب الاحتفال بهذا الباي بقصر رئيس الجمهورية وبسراية الوزارة الخارجية وبدار المجلس البلدي.

وقد أخذت تلك الزيارة بمجامع مهجته لما عاين من حسن أخلاق القوم ومبالغتهم في إكرام الغريب فكان لسانه يردّد مع الشاعر البيت الآتي سمعه منه مراراً صديقنا الوجيه الأمجد الأثير العامل سيدي مصطفى دنقزلي الذي صاحب الأمير في تلك الرحلة وهو قوله:

ولا عيب فيهم غيــر أن نــزيلهم   يعــاب بنسيـان الأحبّــة والأهــل

نظامه العائلي من يقظة ومنام وأكل وشرب

كان رحمه الله من أكثر الناس حرصاً واعتناء بحفظ الصحة حتى صار يضرب به المثل عند كل من يعرفه ويقدره حقّ قدره. فكان قنوعاً في أكله لدرجة كادت أن تخرجه من نوع الإنسان وتجعله في مصافّ مخلوقات أسمى من جنس البشر. يأكل مرّة واحدة في اليوم والليلة وإذا فاتت ساعة أكله المعلومة أعرض عن تناول أيّ طعام بل يكتفي بشرب قدح من اللبن وما أشبه ذلك. وكان يجلس معه للأكل بعض أقاربه الذكور ومن حضر من أصهاره، فكان يحلي المجلس بما يناسب المقام من حديث المائدة، ويكون ذلك غالباً على وجه المزح من انتقاد الأطعمة الخ.. وكان صبوراً على ما يعرض له في داخليته من مرض قريب أو إصابة مهولة يلاقي ذلك بالتجلّد والدعاء، وكان حريصاً على إدراك صلاة الصبح في وقتها والتهجّد بالقرآن وتلاوة كتاب

الشفا للقاضي عياض ويختم صحيح البخاري في كلّ رمضان مرّة أو مرّات.

وكان لا يشغل لسانه بلهو الحديث. فمن عرف سيرته في الخارج يراه بمثلها بين أهله وذويه. لذلك كان في أوقات فراغه يعتاض بالنوم عن الاشتغال بما لا يعني. سمعت من والدي وكان من أعلق الناس بالفقيد أنه سمع منه مرّة بأنه أقام نائماً يومين متواليين في إحدى وجهاته مع باي الأمحال تفصّياً من الحديث الذي لا يجدي نفعاً، وهذا أعظم دليل على ما كان عند صاحبنا من الثبات والجدّ.

وكان يلبس في منزله اللباس العربي من عمامة وجبة وصدرية الخ.. ويشرب القهوة كثيراً. ويظهر لي أن القهوة هي التي نبهت فيه قوّة الذاكرة وأعانته على اختصار غذاء الليل.

وكان يواصل رحمه للدرجة التي انتقدها بعض المتأخرين من أصحابنا ولكن العبد يرى أن كل عاقل كان يستحسن منه ذلك لأن الزمان قاضٍ به وحب الأشراف أمان أهل الأرض ولا يخفى أن أغلب أقاربه وأنسابه من فروع الشجرة النبوية.

أفرغ جهده في تربية وتهذيب حفيده للبنت صاحبنا المدرّس الشيخ سيدي محمد الطاهر بن عاشور، فكان جليسه في أوقات فراغه وكان يلقنه العلم والحكمة والآداب العربية ومكارم الأخلاق وفضايل الأعمال، بما جعله في مصافّ فضلاء الرجال فرأى منه على حداثة سنّه ما أثلج صدره في شيخوخته فكان يحمد الله على ما أوتيه هذا الحفيد من الفطرة الطيبة والفكر الثاقب والتفاني في خدمة العلم بما أحيى به ذكر سلفه المجيد.

كذلك كان يبدي النصيحة لمن يطلبها منه من خاصّة الناس وعامتهم ويرشدهم لما لهم وعليهم فكان مجلسه مجلس إفادة وإرشاد للحاضر والباد...

مرضه وموته

في أواسط قعدة 1324 [1906] أصيب الفقيد بذات الجنب ونقه منها، ولكن ما لبث أن نكس لاشتداد العوارض الجوية فأخذ نزلة صدرية كان بها ختام أنفاسه المطمئنة الزكية، وكان ذلك عند زوال يوم الخميس غرة محرم 1325 ورابع عشر فبراير 1907 بسراية سكناه بالمرسى. وكان إذ ذاك ثابت الميز والجنان حتى أنه قبيل وفاته بساعات كتب للحضرة العلية الناصرية خلّد الله بقاءها(6) تهنئة بالعام الجديد وهي تهنئة دلّت كما شرحنا على ما كان لهذا الرجل العظيم من التعلّق والتفاني في حبّ آل البيت الحسيني وهي آخر ما خطّته يده الفانية وكتبه قلمه في خدمة الدولة الحسينية.

لذلك كان لهذه التهنئة وإن شئت قلت لهذه العبرة أعظم تأثير في نفس الذات الملوكية فقرّرت أيّدها الله حفظها ذكراً جميلاً لتراها بكرة وأصيلا. وما برح الفقيد على ميزه ونطقه بالشهادتين إلى أن ختّمت أنفساه المعدودة فزالت ويا للأسف مآثره المشهودة.

ولقد سمعنا من حفيده الفاضل وكان بإزائه إلى انقضاء أنفاسه أنّ الفقيد كان يجامل أهله وذويه بتناول الدواء من يدهم ثم يدفعه لحفيده ويقول له لا فائدة في ذلك فإن ساعة الأجل دنت ولم يسمع منه عبارة توجّع أو تأسف على الحياة الدنيا إلى أن غشيه الفناء فردّ عزيز الروح لربّ القلم واللوح.

موكب الجنازة والحداد

لقد كان لمصاب الفقيد أعظم وأشدّ أسف في نفس الحضرة العلية وبالسفارة العامة والدولة المحمية وسائر طبقات الرعية. فلما أوحى التلفون خبر منعاه للدوائر الرسمية اتخذت الحكومة التأهبات اللازمة لموكب الجنازة وحسب الأمر الملوكي وقع تحديد ميقاتها للساعة العاشرة من صبيحة يوم

(6) [المقصود هو الأمير الجالس على العرش محمد الناصر باي (1906 - 1922)].

السبت ثالث المحرم الموافق لثالث فبراير العجمي ولرابع عشر فبراير الإفرنجي سنة 1907 . . .

ولما كانت الساعة التاسعة ونصف من صباح ذلك اليوم قدم على القصبة موكب الحضرة العلية فأخذ سموّها مقرّه بتربة الداي محمد لاز حيث أقبل على المقام الملوكي الجناب الفخيم مسيو (الابيتيت) (ALAPETITE) الوزير المقيم العام مصحوباً برجال السفارة العامة وبجناب الوزير المفوض كاتب الدولة العام وبقية رؤساء إدارة الحماية. وفي تلك الأثناء اجتمع بالقصبة خلق كثير غصّت بهم البطاح، وكان في طليعتهم قناصل الدول وكافة المتوظفين ـ والعلماء والوجهاء والأعيان.

فلما وصل موكب الجنازة لبطحاء القصبة وكان التابوت محمولاً على أعناق العساكر التونسية تتقدّمه الموسيقى مردّدة نغمات الحزن الشجّية يتبعها جموع القراء والمؤذنين والخوجات والمنشدين، تقدّم للصلاة عليه حضرات المشايخ أهل المجلس الشرعي بالمذهبين، فصلّوا عليه بإمامة أفضل الفضلاء الأستاذ الأكبر مولانا شيخ الإسلام الشيخ سيدي محمود بن الخوجة. وبعدئذٍ رفع النعش على الأكف وسار الموكب توّاً إلى تربة البايات حيث الدفن. فمرّ النعش أمام باب سراية المملكة، حيث أخذ الجناب الملوكي العلي موقفه وتلقّى مراسم العزاء من جناب الوزير المقيم العام ومن بقية الذوات الحاضرين.

هذا وإشعاراً بالحداد عليه أصدرت الحضرة العلية أمرها السامي بتعطيل دواوين الحكومة يوماً كاملاً كما أغلقت المدارس أبوابها في ذلك اليوم. كما وقع تعطيل التدريس بالجامع الأعظم والأحكام بدار الشريعة المطهرة مدّة ثلاثة أيام، زيادة على ما قام به التجار والباعة عن طيب نفس من غلق دكاكينهم قياماً بواجب الحداد، ونكست الأعلام بالسفارة العامة وديار قناصل الدول وكافة الإدارات والمحاكم، وبلغ الأسف من الأهالي حدّه، فلا تسمع من كبيرهم وصغيرهم إلاّ عبارات الترحّم إليه والأسف عليه.

وكان مصروف الجنازة على ميزان الحكومة إظهاراً لما كا له من الاعتبار في سامي الأنظار. وحسب الإذن الملوكي وقع إقباره رحمه الله برمس داخل البيت الخاصّ بأبناء العائلة الحسينية مما دلّ على مكانته بالنفس الملوكية. وهاك عبارة القبر المنقوشة على ضريحه ومن قرأها وعرف من ضمّه ذلك اللحد اتّعظ واعتبر والله يرث الأرض ومن عليها(*).

(*) «الرزنامة التونسية» ـ 1326 هـ 1908 م.

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلي وسلم على النبيء الكريم[7]
إنا لله وإنا إليه
راجعون
هذا ضريح الوزير الأكبر العلاّمة الشهير. أستاذ
العلم والتحرير. صاحب الرأي المتين. مازج الحياء بالوقار والعزيمة
باللين. الشيخ سيدي محمد العزيز بوعتّور العثماني القرشي.
المولود في رجب سنة 1240. المتوفى في 1 محرم
سنة 1325. بعد أن درس وحرر فأظهر فكره
وقلمه آيات من المفاخر بيّنات. ونيطت بأمانته استشارات ووزارات. كانت خاتمتها
الوزارة الكبرى. التي نالت به خمساً وعشرين سنة مجداً وفخراً. وكان في جميعها
مثال النصح والشرف والاستقامة. ونها نفسه منذ النشأة عن الهوى
فأطاع ربّه وخاف مقامه. حتى انتقل إلى ما عند الله ومحاسنه بين
أمثال سائرة. فأتاه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة.

(7) [أفادنا السيد أحمد الجلولي بأنّ هذه الرّخامة هي من تحرير المرحوم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وأنّها لم توضع على قبر الشيخ بوعتّور].

الحمد لله

أما بعد حمد الله سبحانه مسبب الأسباب ومبلغ المقاصد والآراب
والصلاة والسلام على رسوله المختار من لباب الألباب وعلى من
تبعه من الآل والأصحاب فلا يخفى تلقيت تحريركم الذي أنساه
الأعيان بهذا العنوان المناسب لذوي الشأن وهو المتضمن
ما ينشرح له الصدر من ثنائكم الجميل ودعائكم الذي هو بكل خير
كفيل وتهنئتي بهذا العمل السعيد الذي نرجو من الله تعالى
أن يمد فيه ويجعل ما يتلوه بما نؤمله من الإعانة والتيسير جدير
وحيث أخبرتكم لأحسن ما يخبر وهو المحب الكريم المتلقي
بالإجلال والتعظيم المخصوص بحضرة سيدنا الذي نسأل من
الله تعالى حفظ عليائه وأن يمتعنا بدوام بقائه والمحب
المخصوص بعطفه وقد حل منه هذا الإخبار محل الاستحسان الذي
يكنه الضمير ويثني عليه اللسان وبلغ المحب الكريم للحضرة
العلية دام عزها في هذا اليوم وهو يهنيه العلي المرجو من الله
تعالى أن يجعله من أسعد الأعوام وتلقاه بما تشاهدونه من حسن
القبول فشملنا بركته التي هي المأمول ومزيد عطفه هذه
الهدية الفاخرة شاكرا من جميعكم هذا السعي الجميل راجيا من الله تعالى
أن يمدني بالإعانة في ما ينفع سيدنا ومولانا دام بعلاه بعين
الاستحسان ويعود بالنفع على الوطن والسكان وأن يهبني
ما ييسر من خدمة البلاد إنه هو غاية ما يؤمل ويراد

نموذج من خط الوزير محمد العزيز بوعتور

الشيخ محمّد النيفر
صاحب «عنوان الأريب»

من جوامع كلمه ﷺ قوله: «إنّ من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً». ولا يخفى ما لهاتين الكلمتين الحكيمتين من التعلّق بعلم الأدب، وقد ساعد القدر على التمكّن من النظر في زبدة ما حواه هذا التأليف الجليل الواقع بين دفّتي هذا الكتاب، وهو تأليف جاء نسيج وحده في بابه، لذلك لم نتمالك عن إجابة مرغوب من نظرني بعين كماله من أبناء مؤلفه لتصديره بترجمة صاحبه الذي كانت تجمعني وإياه روابط الصداقة الوثيقة والودّ الراسخ والسعي المشترك في سبيل إحياء ما اندرس من مجلد السلف، خدمةً للعلم والأدب وسعياً لفائدة الخلف. كيف لا وخيال صورته التي كان ثوبها العلم ومكارم الخلق ما زال حاضراً بالأذهان، وجميل ذكره تردّده ألسن أهل الفضل بكلّ البقاع، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع. وتأليفه هذا جاء عنواناً ناطقاً بما لصاحبنا المذكور، أضاء الله وجهه يوم العرض والنشور، من حبّ بلاده وإظهار مفاخر أبناء وطنه في الحاضر والغابر. لذلك رأيت من تعميم الفائدة أن نبحث في موضوع التأليف نفسه على معنى تصديره بنبذة جامعة لشيء من أدوار علم الأدب ومنزلته بين الشعوب ثم نتخلّص من ذلك لترجمة المؤلف التي هي بيت القصيد.

اصطلح العلماء على أنّ الأدب يشمل عدّة علوم، لا سيما اللغة والنحو والشعر والتاريخ والأنساب، وقالوا إن الأديب هو الذي يأخذ من كلّ شيء أحسنه، يعني الإجادة في النظم والنثر. وعلى هذه القاعدة كان تعليم هارون

الرشيد لابنه المأمون، وناهيك به مفخرة بين ملوك الإسلام على توالي الدهور والأعوام. أما العالم فهو الذي يتصدّى لقراءة علم مخصوص فيتعلّمه وينبغ فيه. وقد قدمنا لك أن من أقسام الأدب علم التاريخ الذي من فروعه طبقات الرجال، وهو علم جليل نبغ فيه المسلمون أيّما نبوغ، حتى قيل إنّهم أكثر أمم الأرض تصنيفاً في تراجم أهل كلّ فن. فقد دوّنوا في ذلك كتباً لا تدخل تحت حصر منها طبقات للمفسرين والقراء والمحدثين والحفاظ والنحاة والفقهاء والشعراء والكتاب والأطباء والحكماء والعلماء والأولياء والصوفية والنسابين والمعبرين والفرضيين حتى الوضاعين والمخنثين والمغنين ومن حذا حذوهم من أهل الخلاعة والانهماك في الشهوات. وأوّل ما كتب في هذا الفن طبقات الشعراء وطبقات الصحابة والتابعين، كان ذلك أواخر المائة الثانية للهجرة، ومن ذلك العهد تسلسل تدوين التراجم حول العصور.

ومعلوم أن اللغة العربية جاءت في آدابها أوسع مادة من بقية لغات العالم لأنها استفادت من المدنيات السابقة ومن ثقافة الأمم الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية كالهند والصين والفرس ومصر والعراق والترك والصقالبة والروم وغيرهم من الأقوام الذين جمعهم الإسلام تحت راية القرآن الحاملة في طياتها بلاغة الكلام وفصاحة اللسان. لذلك جاءت كتبهم جامعة واعية من كل الوجوه لاشتمالها على أحسن ما ابتكرته القرائح واستنبطته الأفهام وخطّته الأقلام التي هي محاريث العقول. وينبغي في هذا المقام أن لا نغفل أيضاً عن الإشارة لما ازداد من السعة في ذلك المجال بفضل ما انضم إلى تلك الآداب من ترجمة الكتب اليونانية وغيرها فيما سلف من العصور، لا سيما في عهد الخليفة المأمون وجدّه المنصور.

وزيادة على ما تقدم فإن العرب أهل شاعرية فطرية كان لموقع بلادهم الحظ الأوفر فيها لصفاوة جوّها واعتدال مزاجها. لذلك كانوا وما زالوا أهل خيال وتأثر نفساني لما يعرض لهم من الحوادث في سبيل الحياة، وقد وصف لنا القرآن حالة الشعراء في الشعراء لما سبق في علمه تعالى من تأثير الشعر

في النفوس واسترسال الشاعر في طريق المبالغة بل والكذب الصراح، لذلك كان شعر السيد حسّان شاعر رسول الله ﷺ أرقى في الجاهلية منه في الإسلام، لأن الإسلام نهاه عن التغالي وعن أقول ولا أبالي. وأول ما تكاثر الشعر بين المسلمين في أيام الوليد الخليفة الخليع السكير من بني أمية وهو القائل في الخمر:

كـأنهـا في زجـاجهـا قبس   تذكو ضيـاء في عين مرتقب

وكان اتساع نطاق الشعر وانتشار فنونه في الدولة العباسية حتى كاد أن لا يخلو بيت من بيوت بغداد عن ديوان شعر مخطوط أو عن حافظ على ظهر قلب لمقدار ما بديوان، ناهيك أن الشعر في أيامهم كان فكاهة المجلس وزاد الأنيس. ولم يكن ذلك قاصراً على الرجال بل حتى النساء أيضاً، فقد كان فيهن الشاعرات والحافظات اللاتي ينزلن الأمثال الشعرية في منازلها، كما جاء فيما نقله صاحب حلبة الكميت عما يقال عن تلك المرأة التي قصدها في طريقها أحد المارين بقوله: «رحم الله ابن الجهم»، فأجابته على البديهة بقولها: «ورحم الله المعري»، واتفق أن كان ثالث بالقرب منهما فاقتفى أثر المرأة وقال لها: والله إن لم تقولي لي ما أراد وما أردت لأفضحنك، فقالت له: قد أراد بابن الجهم قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت بالمعري قوله:

فيـا دارها بـالخيف أن مزارهـا   قـريب ولكن دون ذلك أهـوال

وسواء كانت هذه القصة بنت وقتها أو دبرتها قريحة بعض الأدباء، فهي في الجملة تدلّ على نفاق سوق الأدب والشعر خلال العصور العباسية كما هو معروف.

وأضف لذلك أن اللغة العربية جاءت معينة على نظم الشعر، لأنها في نفسها شعرية لتوسّعها في المرادفات والاستعارات والكنايات وما أشبه ذلك

مما يسهل على الناظم معالجة أوزانه وقوافيه لا سيما وأن لأبنائها شعوراً فطرياً وأنفساً حساسة تجيش لأول حركة فعّالة، لذلك تراهم من أبلغ من نظم في المدح والذمّ.

وعلى قياس براعتهم في الشعر جاءت بلاغتهم في النثر، والقرآن الكريم كلام الله القديم نزل بلغتهم وناهيك به من شهادة على رفعة اللسان العربي المبين، ولنا في جوامع كلمه ﷺ الآية الكبرى في البلاغة والإجادة والإفادة والإيجاز البالغ لحدّ الإعجاز. وكتاب سيدنا الخليفة الثاني القائل لعامله «أما بعد فقد كثر شاكوك وقل شاكروك فإمّا اعتدلت وإمّا اعتزلت» عنوان على ما تؤدّيه العربية من كثير المعاني في قليل من الكلام وهذا حالها حتى الآن، لذلك كانت في سعة لمجاراة المدنيات السابقة واللاحقة ومنها المستجدّات العصرية التي بهرت العقول. ولزيادة البيان نقول إن الإنشاء كالشعر أخذ في الازدهاء من عهد الدولة الأموية، وأول من ضبط صناعته عبد الحميد كاتب مروان الحمار آخر ملوك بني أمية، ومنه انتشرت في الإسلام أساليب التحرير والرسائل إلى أن بلغت الدرجة العالية الموجودة الآن بالبلاد المصرية التي هي المورد العذب الذي يكرع منه في عهدنا الحاضر بقية بلاد الناطقين بالضّاد. ومعلوم أن الإنشاء العصري صار أميل للإرسال منه للسجع، وهذا الأسلوب المنتشر الآن بكثرة بين أغلب كتاب العربية هو الأسلوب الذي انتهجه ولي الدين ابن خلدون في المقدمة وغيرها من مصنفاته الجليلة. والفضل في إحياء هذه الطريقة بين حملة الأقلام في الأعصر الأخيرة يرجع بأكمله لشيخ الجماعة أحمد فارس صاحب جريدة الجوائب التي أسسها خلال سنة 1277 [1860]. فقد كانت هذه الجريدة مناراً لهداية الكاتبين بين العالمين، وما كتاب كنز الرغائب الجليل المقدار إلاّ وليدها كما هو معروف بين أهل الأمصار والأقطار.

ثم اعلم أن من أقسام الأدب الموسوعات المعروفة في الاصطلاح العصري بدوائر المعارف، وهذا النوع من التصنيف الذي ألّف فيه المسلمون

كثيراً قد أعان أيضاً على ازدهار آداب اللغة العربية، وليس كتاب سمط اللآل للعلامة الشيخ محمد بن علي قويسم التونسي المتوفى سنة 1114 [1702] غير موسوعة جليلة استغرقت اثني عشر جزءاً في القالب الكبير نسجت عليها لسوء الحظ عناكب النسيان ولو أخرجتها الأقدار يوماً من مكامنها ومثلتها للطبع لاختطفتها الأيدي قبل الأبصار، ولدينا كتاب للعلامة المصلح المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في تقريض الأجزاء الأولى من الرزنامة التونسية، قال فيه إنها دائرة معارف تونسية ناطقة بتمكّن بلادنا في الحضارة والعلم والأدب. وأعظم الموسوعات الأدبية فخراً كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى سنة 385 [995] ولولاه لهدمت صوامع وبيع وصلوات، يعني لضاع عنا تاريخ اللغة العربية وآدابها، لأنه أول ما كتب في هذا الفن.

وهذه بلادنا تونس المحبوبة وتربتنا المرغوبة قد امتاز بنوها قديماً وحديثاً برقّة الحاشية والذوق السليم بما منحتهم الأقدار من المواهب وحسن الاستعداد لتدبّر معاني الكلام وسبر غوره والغوص لاستخراج أصدافه من مناجمها وسبكها نظماً ونثراً في عقود كل تالد وطريف.

وبالرغم عن كون التونسيين كتبوا كثيراً في فنون الأدب ولا سيما ما كان منه متعلقاً بالإنشاء والشعر، فإن تآليفهم وإن كانت واسعة المدى قد ذهبت بشدة الترك سدى، بحيث أنه لم يظهر ممّا دوّنوه في ذلك إلى عالم الطبع سوى النزر اليسير، على أن لهم في باب التراجم لأهل العلم والأدب القدح المعلى والذكر الجميل، ناهيك بسمعة الكتاب المفقود الذي وضعه ابن رشيق القيرواني تحت عنوان الأنموذج، وهو كتاب جاء ذكره في غير ما تصنيف، يقال إنه توجد منه نسخة مخطوطة باليد بمكتبة الشيخ عبد العزيز الميمني بعليكرة الهند. وبالنسبة للعصور المتأخرة لم يعرف بيننا من كتب التراجم سوى ما كتبه الوزير السراج بالحلل السندسية والمؤرخ حسين خوجة بذيل تاريخ بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، وهو ذيل جليل المقادر ترجم فيه صاحبه لطائفة عظيمة من علماء وفضلاء وأدباء تونس، وقد ساعدتنا

الأقدار على طبعه سعياً لإظهار مفاخر المادح والممدوح، وقس عليه ما كتبه الوزير أبو محمد حمودة بن عبد العزيز من التراجم الكثيرة التي تضمنها التاريخ الباشي وكذلك ما كتبه العلامة الشيخ محمد بيرم الرابع من تراجم بعض الأعيان الذين منهم عالم الأمراء وأمير العلماء الباي محمد الرشيد ابن مؤسس بيت الملك الحسيني خلد الله دوامه، وعلى قياسه ترجم جدنا العلاّمة الشيخ محمد بن الخوجة لطائفة من علماء وفقهاء الحنفية بالكناش الصغير، وأحوط من ذلك كله ما احتواه الجزء الرابع من تاريخ الوزير رالشيخ أحمد ابن أبي الضياف[1] ولا يوجد منه بخزائن الكتب التونسية سوى بضعة نسخ جعلته أعز من بيض الأنوق عدا مقدمته التي طبعت في سنة 1319 [1901]. وعلى قدمه جاءت خاتمة كتاب مسامرات الظريف لفقيد النوادي العلمية المرحوم الشيخ محمد السنوسي صاحب كتاب مجمع الدواوين التونسية الذي أمسى لسوء الطالع في جملة الآثار الوطنية الجليلة التي طوى خبرها الزمان. وترجم الشيخ الوالد طاب ثراه لطائفة من كتاب عصره بالذيل الطويل الذي جعله تكملة لإتحاف أهل الزمان، وقد أدركه الموت قبل جمع شتاته، فالتحق به في مماته كما في حياته.

وتوفّق هذا العبد للترجمة والتعريف بجماعة كثيرين من العلماء والأعيان مما نشرته جريدة الحاضرة أم الجرائد التونسية في الربع الأول من هذا القرن، وآخر ما ظهر في باب التراجم التونسية منتخبات النابغة المؤرخ السيد حسن حسني عبد الوهاب[2]. على أن تلك التآليف كلها ليست من قبيل ما أبرزته قريحة صاحب الترجمة بكتاب عنوان الأريب الذي نحن بصدده لأنه خصّه بالترجمة للعلماء الأدباء، وقد افتتحه بمقدمة حافلة في التعريف بأقسام علم الأدب من كل نوع ثم تخلص منها للمقصود من التأليف مبتدئاً بترجمة

(1) [صدر تاريخ أحمد بن أبي الضيّاف بتونس في 8 أجزاء بعناية وزارة الشؤون الثقافية - (1963 1968].

(2) [«حسن حسني عبد الوهاب» المنتخب المدرسي من الأدب التونسي 1944].

سيدنا الفاتح عبد الله بن الزبير تبرّكاً به ولأنه أول من تكلّم بالشعر بإفريقيا وختم سلسلة تراجمه بترجمة شيخ الدولة ويمينها وأمينها الوزير المرحوم الشيخ محمد العزيز بوعتّور المتوفى في مستهل المحرم 1325 [1907] وفيما بين ذلك ترجم لأكثر من مائة وسبعين عالماً أديباً وسع فيها المجال للعصر الحسيني أكثر مما قبله، كما ستراه بمحلّه، فجاء كتابه هذا وحيداً في بابه لأنه لم يسبقه لمثله غيره من التونسيين.

بيد أنه لا مندوحة لنا عن الإشارة للنهضة الأدبية الأخيرة التي بدأت آثارها تظهر بتونس، فإن انتباه أبناء الجيل الحاضر الذين توفّقوا لتدبّـر معاني «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» بعث فيهم روحاً جديدة دفعتهم نحو الأدب وفنونه. وجرياً على نواميس الخليقة كانت النتيجة ظهور طبقة من الكتاب والشعراء بلغت درجة النبوغ أو كادت، وهـذه النهضة المباركة التي ابتدأت حركتها في أوائل هذا القرن الرابع عشر ذكرتنا كلمة كان قالها أحد كبار الشيوخ في المرحوم الشيخ حسن المزوغي، وأنه بات في جملة الأدباء المنعوتين، حيث قال ضمن قصيدة في امتداح المقدس المولى علي باي:

وتأبى القوافي غير باب مديحكم   وفي مدحكم قد ساعد النظم والنثر

وكم للأديب المزوغي من أشباه ونظائر بين خريجي جامع الزيتونة، كالشاعر المطبوع المرحوم الشيخ محمد الحشايشي نابغة الأدب والقريض.

وقس على ذلك حال بعض أدباء الآفاق التونسية وتراميهم على أبواب الشعر. فقد نبغ منهم فيه الكثيرون كذلك الفقيه من قضاة البر[3] الذي وصف قلم كاتب الدولة العام (Roy) بقوله من قصيدة طويلة:

قلم فصيح بالمحاسن قد روى   وإذا دوى أوهى المفاصل والقوى

(3) [هو قاضي الجماعة المرحوم الشيخ محمد الصادق النيفر].

ولا يخفى على اللبيب أن هذه القافية جاءت على وزن اسم الممدوح المعروف لدى عامة التونسيين الذين ساس أمورهم مدة ثلث قرن، ومن باب الإقرار بالفضل لذويه نقول إن هذا الممدوح كان في مقدّمة الساعين لإصلاح التعليم بجامع الزيتونة، ومنه المشروع الجليل المتعلق بوضع برنامج علمي لما بالجامع من الكتب قياساً على ما هو موجود بخزائن العلم بأروبا. وكم كان له أي للكاتب العام المذكور من الإعجاب بتحريرات صاحب الترجمة والتقدير لفضله ومزاياه. هذا ومن نظر في نسيج الجرائد المحلية وما تنشره على التوالي من منظوم ومنثور في الزمن الحاضر يجد بلا خلاف بوناً بعيداً بين الشعر والإنشاء في عهدنا هذا وبين ما كانا عليه في أوائل هذا القرن، وبعبارة أفصح نرى أن كتاب وشعراء الجيل الحاضر أقوى حياة معنوية ممن تقدّمهم في ذلك السبيل، وهذه الغاية لها أسباب ربما كان للسياسة فيها دخل عظيم فلا سبيل لقرع بابها هنا لأنها تبعدنا عن الموضوع الذي نحن بصدده.

وقد ذكرنا فيما سبق وأن آداب اللغة العربية أوسع نظائرها في بقية اللغات، لكن لا ينبغي أن نبخس الألسن الأخرى قيمتها الحقة، لأن لكلّ لغة عبقرية خاصة بها، فكما امتازت لغة العرب بالفصاحة والبلاغة والبيان، كذلك اختصّت لغات أخرى بسلامة الذوق وجزالة الكلام وغير ذلك من الصفات الموافقة لأخلاق وطقوس بلادها، فهذه لغة الفرس وناهيك بما وصفها به التاريخ احتوت على آداب يعزّ وجودها في غيرها وما رباعيات عمر الخيام غير قطرة من بحرها الزاخر، وكذلك الآداب الهندية والصينية وآداب الأمم السامية التي منها السريانية والعبرية قريبة لغتنا السمحة من حيث الرقة والتأثر، يدلّك عليه ما في أخلاق اليهود من الاستغراق في الخيالات والأحلام بزيادة التشكي والتبكي لما قاسوه من الاضطهاد من عهد تيطوس (Titus) فما دون. واعتبر ذلك في الأمة الفرنساوية وما للغتها من الفصاحة والبيان، ناهيك أن يوليوس قيصر شهد لبنيها بسلامة الذوق وبلاغة القول كاعترافه لهم بالشجاعة في الحروب، وقد نبع منهم غير واحد في الأدب بل وقد امتلأت

بآداب لغتهم دواوين بقية الأمم الأروباوية وهذا شاعرهم المفلق فيكطور هوكو (Victor Hugo) هو الذي عناه شاعر النيل حافظ إبراهيم بقوله:

أعجميٌّ كـاد يعـلو نجـمـه في سماء الشّعر نجم العربي
صـافح العليـاء منهـا والتقى بـالمعرّي فـوق هـام الشّهب

وكم لهم غيره ممّن خاض بحار المعاني ونبغ حتى في علوم الأديان غيـر المسيحية كنبـوغ الفيلسوف رينـان (RENAN) في علم الإلاهيات الإسلامية ونبوغ المستشرق دي ساسي (De Sacy) الذي ضرب بسهم مصيب في الأدب العربي، ولدينا كتاب له سمّاه الأنيس المفيد طبع بباريس لأكثر من مائة عام فارطة (1241 هـ) [1826] صدره بعبارة لجار الله الزمخشري وهي قوله: «فرقك بين الرطب والعجم هو الفرق بين العرب والعجم»، مما يدلّك على اعترافه بفضل العربي، ولا يعرف الفضل إلاّ ذووه. وعلى قياس اللغة الفرنساوية جاءت لغات غيرها من الأمم. فاللغة الانكليزية امتازت بالأدب الصلب الذي لا يتخلّله الخيال كما نسمع ونرى من أخلاقهم في ميدان السياسة بحيث انهم لا يركنون في نظمهم ونثرهم إلاّ للأمور المحسوسة والحقيقة التي تمس باليد، وهذا شاعرهم شكسبير الذي ملأ ذكره الآفاق لممن يفتخر به الأدب ليس بأنكليترة فقط بل بالعالم المتمدن أجمع. وأما الألمان فقد امتازوا بالتوغّل في بحث كلّ شيء، ومن نظر فيما توفقوا لنشره من المعجمات والفهارس المتعلقة بالمصنفات العربية يرى عياناً كيف بلغوا الغاية القصوى في البحث والتنقيب. ومن أشهر أدبائهم بل ومن أشهر أدباء العالم كله شاعرهم غوط (GOETHE) الذي جمع في نبوغه بين النظم والنثر، وقلما يتفقان. وامتاز الأدب الطلياني بحب كل جميل منذ العهود الرومانية، لذلك نرى في أعقابهم النبوغ التام في الفنون المستظرفة وما يتبعها من تصوير وموسيقى ولحون، وعلى هذا القياس كان حالهم في المنظوم والمنثور. وشيخ الجماعة في الأدب الأروباوي هو الجنس اليوناني، وناهيك بـإليـاذة هوميروس حجة في الموضوع، وهوميروس هذا هو أبو الشعراء بأروبا في

العصور الأولى، وقد ترجمت الياذته البالغة لنحو 12000 بيت من الشعر لسائر اللغات، وتولى حمل عبئها الثقيل أي ترجمتها شعراً للغة القرآن فقيد بيروت الشيخ سليمان البستاني، وقد قضى في ذلك عشرين سنة الأمر الذي سيخلّد له جميل الذكر جيلاً بعد جيل. ثم اعلم رعاك الله أن البلاد التونسية اكتسبت شهرة واسعة بين البلاد الإسلامية لإحرازها على قصب السبق بين أخواتها الواقعة بإفريقيا الشمالية، فكانت ولا زالت بفضل الله بلاد علم وأدب، بالرغم عن الانقلابات السياسية التي تناولتها حول العصور، فسواء كانت تحكم نفسها أو محكومة لغيرها لم تبرح منقطعة لجانب العلم، وهذه خزائن جامع الزيتونة وكم عبث بها الزمان مراراً لا زالت عامرة بعيون آلاف التآليف، ممّا يشهد بصحّة ما قدّمنا. وقد اشتهرت بعض البيوت التونسية بانتسابها للعلم وما زالت تلك الشهرة ولله الحمد متواصلة ومتزائدة في أعقابهم كبيت المترجم له الذي هو جدير بأن يرسم اسمه ورسمه في مقدمة العلماء الأدباء من أبناء وطنه الذين خصّهم بالتأليف، وإليك ترجمته:

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الشيخ محمد الطيب بن شيخ الشيوخ وطود الرسوخ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد (بالفتح) بن محمد بن أبي النور بن محمد بن أحمد النيفر، أصلهم من صفاقس ويروى أن جدهم الأعلى جاء فارّاً بدينه من البلاد الأندلسية في جملة المسلمين الذين هاجروا من بلادهم عند استيلاء الأسبانيول عليها، فيكون وفودهم على الديار التونسية خلال تلك الأيام المظلمة الموافقة لأوائل القرن الحادي عشر، وكان استقرارهم أوّلاً بصفاقس، حيث انتصبوا للتجارة واكتسبوا هنالك سمعة حسنة وشهرة تجارية بين الناس، ولا خلاف في صحّة انتسابهم لبيت النبي ﷺ، وبذلك عرفناهم كما عرفهم سلفنا من قبلنا يؤيّده التاريخ والجرايات الرسمية التي كانوا وما زال بعضهم يتقاضاها بذلك العنوان من الميزانية الدولية. وكان انتقالهم لتونس في أوائل القرن الثاني عشر وإن شئت قلت في أواخر الدولة المرادية، ولدينا وثيقة تاريخية ناطقة بوجودهم في جملة سكان الحاضرة أثناء

سنة 1130 [1718] وكانوا يتعاطون بها التجارة بسوق القوافي ثم بسوق العطارين، وما زال بها من أعقابهم من يباشر ذلك وخير الصنائع بعد العلم التجارة، لكنهم لم يلبثوا أن أدركوا فضيلة العلم فكانوا يأخذون منه ما لا بدّ منه كالعينيات والعقائد ولا سيما حفظ القرآن الكريم ويشتغلون مع ذلك بالتجارة الرابحة التي استقر قدمهم فيها سواء ذلك بتونس أو بغيرها من البلاد الشرقية كالقاهرة والاسكندرية. فكان القرمسود[4] الهندي والعمامة المطروزة وأنواع الطيب من عنبر خام ومسك اذفر لا يوجد الرفيع منها إلا في مغازاتهم، ومعلوم ما كان لتلك الأكسية والبضائع الرفيعة من الرواج بين أهل الحاضرة التونسية وإقبالهم على التجارة سهّل عليهم الأسفار، والسفر مستكمل للرجل، وقس عليه رغبتهم أو أكثرهم في حج البيت الحرام، ولو نظرنا في سلسلة أفراد العائلات الكبيرة بتونس لوجدنا لهم الأسبقية على غيرهم في أداء فريضة الحج، وناهيك بها من شهادة في برورهم بجدّهم ﷺ، ومما يؤثر عنهم حفظ القرآن الحكيم، يقال إن أحد أجدادهم وهو الشيخ الحاج أحمد ابن الحاج قاسم النيفر التاجر بالعطارين كان يختم كلام الله القديم مرّة في كل يوم بين صلاتي الصبح والعشاء وكان لا يتخلف عن صلاة الجماعة بجامع الزيتونة وكان مع ذلك محافظاً على نصيبه من الدنيا ومعتنياً بتربية أولاده، ومن حسن نظره أن من بلغ منهم سن التزوج زوّجه بإحدى بنات الأعيان وعمّر له دكاناً للتجارة واشترى له داراً وأسكنه بها على حد قول الشاعر:

أبقى لأسباب المود   ة أن تزور ولا تجاور

وقد روي هذا المعنى عن الخليفة الثاني سيدنا عمر بن الخطاب، وهذه الطريقة هي أساس النظام العائلي بالبلاد المتمدّنة في عهدنا الحاضر، ولا شكّ أنها طريقة حكيمة، لأن من أقل محاسنها توفير الراحة والهناء والتوادد بين أفراد العائلة، وفي الحديث الشريف «زر غبّا تزدد حبّا».

---

(4) [«القَرْمَسُود» نوع من القماش، يعرف في الشرق باسم «المُوَارِي»].

وكان المؤسّس لدعامة بيتهم العلمي هو الشيخ الحاج محمد النيفر الأكبر جدّ صاحب الترجمة وكانت ولادته بتونس سنة 1222 [1807] ووفاته بالمدينة المنوّرة في المحرم سنة 1277 [1861] ودفن بالبقيع جوار قبة الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان. وهذا الشيخ كان من أهل الصلاح الشرعي ودرجته في العلم مشهورة ومداركه فيه بين أهله مشكورة مذكورة. قال الوزير الشيخ أحمد بن أبي الضياف[5] إن هذا الفاضل انقطع إلى العلم انقطاعاً كلياً ونبذ ما سواه ظهرّياً فلم يلبث أن سبق الأقران وفاق من تقدمه بأزمان إلى أن قال: وحصّل من كنوز انقطاعه ما لا يخاف عليه من النفاد بفكر وقاد يومىء به إلى الشوارد فتنقاد ملقية للمقاد. ثم قال: وكان شيخنا أبو عبد الله محمد ابن الخوجة إذا رآه على تلك الحالة يقول لنا هذا معنى راحة العلم لأن مسائل الدرس صارت في نظره كالضرورية ا هـ وكان الباي أحمد باشا الأول قدّمه لخطة قضاء المحلة على كره منه وفارقها بعد حين. وعلى ذكر هذه الخطة نقول إن آخر من تولّاها بالمملكة التونسية العلامة الشيخ الشاذلي بن صالح المفتي فالباش مفتي المالكي فيما بعد وتوفي سنة 1308 [1891]. ومن الخطط الشرعية التي عفت رسومها أيضاً بتونس خطة قاضي باردو، وآخر من تولاها العلامة الشيخ عمر بن الشيخ المفتي المالكي بتونس والعضو بالمجلس المختلط العقاري، وهو أول من تولّى الفتوى بالعنوان الشرفي بعد إعفائه من الفتوى بدار الشريعة وتوفي سنة 1329 [1911] وعلى قياس تينك الخطتين كان مآل خطة قاضي الأهلّة وقاضي الفريضة، والله يحكم لا معقب لحكمه. ثم إن الباي أحمد المذكور لم يلبث أن قدّم الشيخ محمد النيفر المذكور لخطّة قاضي الجماعة بالحاضرة، فباشرها بدين متين وشدة مكسوّة بلين، ومنها ارتقى لخطة الفتوى فزانها بالعلم والتقوى ولم يزل سالكاً سبل المهتدين متجمّلاً بحلى العلم والدين كما لم يزل متعلّق القلب بجدّه النبي الشفيع إلى أن أدركه أجله ودفن كما قدّمنا جوار صاحبه بالبقيع.

---

(5) [«الإتحاف» - ج 8 - ص 112 -].

فهذا الشيخ رحمه الله هو واسطة السلك في عقد البيت وفخر حيهم والميت، وعلى منواله نسج آله كأخويه أبي الفلاح الشيخ صالح النيفر إمام جامع الزيتونة الأكبر والقاضي فالمفتي فالرئيس لمجلس الجنايات فالباش مفتي للمالكية بتونس وتوفي سنة 1290 [1873] وكان آية في الذكاء والفهم والتحصيل والشيخ محمد (بالفتح) النيفر كاهية مجلس التحقيق ثم القاضي والمفتي بتونس وكان من خيرة العلماء العاملين وتوفي سنة 1312 [1894] وكابنيه قاضي الجماعة الشيخ الحاج الطاهر النيفر وسمعته بديوان دار الشريعة ما زالت بين الناس منشورة وآيات حزمه وعزمه مسطرة مذكورة وتوفي سنة 1311 [1893] وأخيه الشيخ الحاج الطيب النيفر والد صاحب الترجمة وقاضي تونس ومفتيها ورئيس مفاتيها، وهو من أركان العلم بجامع الزيتونة لأنه قرأ وأقرأ به ما يناهز السبعين سنة، فهو مفخرة العلم والتعليم بالفرض والردّ لأنه درس وختم بالجامع كتباً عالية بُعد العهد بختمها فيه كشرح الشيخ عبد الباقي على المختصر وشرح القسطلاني على صحيح الإمام البخاري والزرقاني على الموطأ لإمام دار الهجرة والسيرة الكلاعية والحكم لابن عطاء الله وغير ذلك مما يطول ذكره. ومما ينبغي الإشارة إليه خدمةً للتاريخ أن هذا الشيخ الذي كان تولّى خطة العضوية بمجلس الجنايات الذي عفت رسومه حوالى سنة 1280 [1864] إثر ثورة علي بن غذاهم هو آخر من التحق بالدار الآخرة من أعضاء المجلس المذكور وكانت وفاته في سنة 1345 [1926] والله يرث الأرض ومن عليها.

وباعتبار ما سنقصّ عليك من أدوار حياة ابنه المترجم له نستخلص من مجموع ذلك أن آل البيت النيفري زيّنوا بعلمهم وأدبهم وفضلهم صحف تاريخ المذهب المالكي بتونس كما تزيّن تاريخ المذهب الحنفي برجاله من أهل العلم والأدب والفضل منذ ظهوره بهذه البلاد يعني من أواخر المائة العاشرة إلى عهدنا الحاضر. ولا تفهم من ذلك أن المذهب الحنفي كان غير موجود قبل ذلك بتونس فقد أفاد التاريخ أنه كان أظهر المذاهب بإفريقيا أثناء القرن الأولى للهجرة. وفي أواخر المائة الرابعة كثرت الخلافات المذهبية

بظهور مذهب الشيعة فحمل المعز بن باديس الناس على ترك جميع المذاهب والاقتصار على مذهب واحد وهو المذهب المالكي، ومن أراد زيادة البسط في هذا الباب فعليه بمراجعة أمهات التاريخ ككتاب العلامة ابن خلكان وغيره.

فبيت آل النيفر تولّوا أسنى الخطط من شرعية وعلمية وإدارية وأهمّ الوظائف التي زيّنوها بعلمهم وفضلهم هي ما يأتي:

الخطة الشرعية من قضاء وفتوى بحاضرة تونس.
قضاء المحلة في الدور القديم.
التدريس بالمذهب المالكي بجامع الزيتونة وغيره من المعاهد الدينية.
التدريس بالمدارس الدولية.
الرئاسة والعضوية بالمجالس العمومية قبل الحماية.
الإمامة الكبرى بجامع الزيتونة والإمامة والخطابة بالوعظ في غيره من بيوت العبادة.
النّيابة عن الدولة بالنظارة العلمية.
النّيابة عن شيخ الجامع وفروعه.
العضوية بالمجلس المختلط العقاري.
الرّئاسة والكتابة بأقسام الوزارة الكبرى وبالوزارة العدلية.
الأعمال.
العدالة العامة والعدالة الخاصة بالأوقاف.
أمانة سوق الذّهب والفضّة.

هذا وبالنسبة لمشاركتهم في الوظائف الشرعية والعلمية نجد أن اثنين منهم ارتقيا لمسند رئاسة المذهب المالكي وأربعة تولّوا خطة الفتوى وستة تربّعوا على منصة القضاء بدار الشريعة وواحد تولّى قضاء المحلة التي عفت رسومها منذ زمن بعيد وخمسة عشر تولّوا خطة التدريس بجامع الزيتونة.

أمّا صاحب التّرجمة الذي هو بيت القصيد فقد ولد في شعبان سنة

1276 [1860] ونشأ في بيت دعامتاه جده السالف الذكر أبو عبد الله الشيخ محمد النيفر الأكبر والد أبيه وأبو إسحق الشيخ إبراهيم الرياحي جدّه لأمه، وناهيك بهما من دعامتي علم وتقوى وصلاح كان ركنهما الأقوى وبعد أن أتقن حفظ القرآن الكريم أدخله والده لجامع الزيتونة في سنة 1260 [1873] فتفرغ للقراءة بجدّ لا يعتريه ملل ومواظبة لا يتخلّلها الخلل، ومن حرصه على التعلم أنّ والده استصدر له أمراً علياً في شهادة أوقاف المدارس سنة 1291 [1874] فلم يحفل بتلك الخطة على حداثة سنّه بل ولم يباشرها خوفاً من أن تعوقه عن تمام التحصيل واسترسل في القراءة بكدّ وجدّ إلى أن أخذ من كل شيء أحسنه، فحصل على شهادة التطويع في سنة 1299 [1882] فالتدريس من الرتبة الثانية سنة 1312 [1894] فالتدريس من الرتبة الأولى سنة 1316 [1898] ولم يكتف بتلك الرتب الرسمية في العلم دون إجازة الشيوخ الأكابر له جرياً على عادة علماء السلف فقد أجاز له عمّ أبيه الشيخ محمد النيفر ومفتي مكة المكرمة الشيخ زيني دحلان ومفتي تونس الشيخ حسين بن حسين القمار وعالم فاس الشيخ المهدي الوزاني وغيرهم من العلماء الفحول وفي سنة 1323 [1904] انتخبته الدولة للعضوية بلجنة إصلاح فهارس الكتب بجامع الزيتونة وهذه اللجنة التي جمعتنا وإياه مع نخبة من شيوخ العلم منهم صاحبنا الأستاذ العلامة الإمام فضيلة شيخ الجامع بارك الله في أنفاسه وأستاذنا المرحوم قاضي الجماعة الشيخ إسماعيل الصفايحي وحفيدنا العلامة الشيخ محمد بن الخوجة المفتي الحنفي والعلامة المرحوم الشيخ محمد النخلي والأديب المرحوم الشيخ محمد الحشايشي، كانت كما قدّمنا هي الأساس الأول لبرنامج الإصلاحات الزيتونية التي قامت لها البلاد وقعدت في السنين الأخيرة وفي عام 1325 [1906] تقدّم صاحب الترجمة لخطة عضو حاكم معاون فحاكم رسمي في العام بعده بالمجلس المختلط العقاري، وكانت مشاركته ثمينة ومفيدة لأبناء جنسه أثناء مباشرته هاته الخطة العالية التي تعتجرها ذيول السلطة العدلية الفرنساوية ناهيك أنه لما ارتقى من هذه الخطة في سنة 1329 [1910] للنيابة عن الوزارة الكبرى لدى النظارة العلمية بجامع

الزيتونة، لم يتمالك رئيس المجلس المختلط عن التصريح بأسفه العميق من أجل مفارقته لذلك الفقيه النزيه. وفي حال مباشرته للنيابة العلمية كانت فكرته في الإصلاح وأساليب التعليم راجحة وتجارته في العلم رابحة وكان في جميع الوظائف التي تقلب فيها مثال النزاهة والمواظبة والاستقامة مع عزيمة ماضية وسيرة محمودة راضية، فكانت عوامل السياسة وأحرى الاستبداد لا تأثير لهما على حريته الشخصية التي دونها في نظره كل غالٍ وثمين، ولو أداه ذلك لطلب التخلّي عن وظيفه، كما حصل له ذلك فعلاً أثناء مباشرته للنيابة لدى النظارة العلمية، وهي الخطة التي كانت تمشي به نحو دار الشريعة المطهّرة إلا أن أجله المحتوم عاجله وقطع به خط السير أثناء ذلك، فكان مصابه مصاباً عمومياً لأن موته كان باتفاق الجميع خسارة على العلم وأهله.

هذا وكان لصاحبنا رحمه الله الإقبال التام على صناعة التأليف منذ عهد الشباب، ولحسن ظنه بي قد أطلعني على أغلب ما دوّنه لا سيما في الأدب والتاريخ فكانت نفسي تنشرح لقراءة ما يحرره قلمه الفصيح من الأدبيات والحوادث والأخبار التونسية التي كان يتحرّى في نقلها ولا يأخذها من غير مصادرها الصحيحة، وهكذا شأن المؤرخين الثقاة. فمن مؤلفاته المشار إليها كتاب (واسطة التاج فيما إليه من عيون الحكم والوصايا يحتاج) واختصره في كتاب سمّاه (مرصع الزاج من سلسلة واسطة التاج) وكتاب (اللآلي النضيدة بتاج الياقوتة الفريدة) وهو شرح جليل على صلاة الفاتح تعرض فيه لكشف اللثام عن كثير من المسائل المشكلة في الفقه والتصوف والكلام. ومعلوم أنه رحمه الله كان منتسباً لصاحب الطريقة التجانية أعاد الله علينا من بركاته. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب (تقويم المنطق الحضري بكف اللسان المضري) و (جلاء العين بذكر اخبار الوزير خير الدين) وهو رجز بديع يبلغ لنحو ثلاثمائة وخمسين بيتاً شرحه شرحاً مختصراً ساجل به كتاب رقم الحلل للسان الدين بن الخطيب قال فيه:

به لقد ساجلت رقم الحلل　　لابن الخطيب في نظام الدول

(وعنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب) وهو التأليف النفيس الواقع بين دفتي هذا السفر، و(برهان البقية من أدب أهل إفريقية) وهو كتاب نصفه نظم ونصفه نثر، تضمّن ما جادت به قريحة الأدباء من هناء ورثاء بمناسبة وفاة عمه الشيخ الطاهر وولاية والده القضاء خلفاً عنه وما هنىء به والده في ختم بعض الكتب العالية و(كتاب التحفة السنية في الأخلاق والسيرة المدنية العقلية) وموضوعها يستفاد من اسمها و(حسن البيان عما بلغته إفريقية في الإسلام من السطوة والعمران) وقد أدركه أجله المحتوم قبل إتمامه وكان نشر بعضه بالجرائد المحلية وجمع ديوان ذي الوزارتين ابن زمرك الأندلسي في جزءين اشتملا على نحو ثمانية آلاف بيت، وكان رحمه الله اطلعني على قطعة منه معتبرة بخط المؤلف. ونخبة مؤلفاته ديوان شعره المحتوي على آلاف من الأبيات التي جمعت غرر القصائد في سلوك اللآلي الفرائد، وله عدّة رسائل في مواضيع عصرية كتب أكثرها أثناء مباشرته للحكم بالمجلس المختلط منها رسالة في أحكام العقلة وأخرى في أراضي العروش، ذيّلها بالتعريف بطائفة عظيمة من العلماء الذين ورد ذكرهم بها، وغير خفي ما لمسألة العروش والأراضي المشتركة من الأهمية في عالم الأنظمة العقارية بالمملكة التونسية. وقد غاص معه غور هذه المسألة العويصة الأستاذ دوماس DUMAS رئيس المجلس العقاري وكتب فيها كتاباً مفيداً جدّاً مدّت عليه السياسة جناحها فلم يظهر بعد: ونعرف له أي لصاحب الترجمة تحريراً جامعاً في تاريخ نشأة مقبرة الزلاج كتبه إثر حادثة ذي القعدة 1329 (نوفمبر 1911)، وكم له غير ذلك من الرسائل الكثيرة، كرسالته التي وضعها في الردّ على من ادّعى تحريف القرآن. قال الله تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾. أما أخلاقه برّد الله ثراه فقد كانت مثال الهمّة العالية وعزّة النفس التي بلغت به لحدّ الشمم مع تجمّل بالكمال وحسن خلال في الأقوال والأعمال. وله في هذا المقام مواقف مشهورة لم تزل أخبارها بين أترابه من أهل العلم مذكورة. وكان ثاقب الفكر صادق اللهجة فصيح اللسان بليغ البيان ثابت الجنان حافظاً لعرضه ذا وقار وسكينة وتواضع على رفعة مكينة ما شئت

من محاضرة عزيزة الأسلوب تأخذ بمجامع القلوب ومجالسه بالأدب زاخرة وبلاده به فاخرة يبثّ العلم في الصدور بين خاصّة وجمهور، بارّاً بوالديه وأقاربـه وأصحابه ومن انتمى إليه، بالغاً من مقاصده الأمنية والإجلال، يردّ عليه من كل ثنية إلى أن وافاه رائد المنية وكانت وفاته فجأة بمرض القلب ضحوة نهار الأحد السادس من شهر رمضان سنة 1330 [1912] ودفن بمقبرة آله بالجلاز في يوم مشهود، وكنت يومئذٍ حليف فراش بمرض اشتدّ لمنتهاه وكاد أن يبلغ منّي مناه لولا تأخّر الأجل وقوّة الأمل الذي لولاه لانقطع العمل فحاولت أن أرثيه، وعيني تبكيـه، ونظمت في ذلـك أبياتـاً بقي بعضها بمحفوظي مطلعها:

الله يحكم في البلاد وفي الورى   يا مسلمين خذوا القضاء كما جرى

ومنها:

ركن من الإيمـان أمسى فانتبـه   بعد الثّريـا جاثمـاً تحت الثّرى
فـالعلم باك من عـظيم مصابـه   والقلب يدمع والعيون بلا امترا
كـانت لنـا صلة بــه مـوروثـة   خلفاً لسالف من مضى أو عمّرا
العلم والتـأليـف كـانـا إلفـه   والنّفـع والتّنفيع أجلى مـا ترى

ومنها:

ما مات من كانت صفاتـه هذه   رحمــاك ربّ لقبـركم وانيفــرا

ولم يتيسّر لي يومئذٍ ختم أبياتها لأنّ عبارة التّاريخ بعدت عنّي بعد المرّيخ. واتّفق أن سافرت للتّداوي بأروبا وأبت بحمد الله متزوّداً بنعمة العافية ولم نعرج بعد على تلك المرثية لأنها من باب العزاء ولا عزاء بعد ثلاث.

وقد رثاه بأحسن من ذلك جماعة من أهل العلم منهم صديقه الحميم العالم النحرير الشيخ الصادق بن ضيف رحمه الله حيث قال في مطلع مرثيته:

الـدّهر يمنـح والمنايـا تمنـع   والنّفس في فسح الأماني ترتع

إلى أن قال:

خطب له شقّت جيوب الصبـ   ـر أيّ مصيبة من ذي المصيبة أفجع
فقدت معارف جمّـة ومناهـل   طلّاب علم الدّين منها تكرع

ثم قال:

قدم له في كـلّ علم راسخ   وتـثبّـت فـي نـقـله وتـضـلّع
وديــانـة وأمــانـة ورصــانــة   ومكانة عظمت وصوت يسمع
ووجـاهـة ونبــاهـة وفكــاهـة   بنـزاهة عن كـلّ ما يستبشـع
خلق له ناهيك من خلق غدا   كرضاب مسك في الورى يتضوّع

وعبارة التّاريخ قوله:

أرّخ بصوم أي بشهر الصّوم ما   ت محمّـد النّيفـري الأورع

308	381	92	441	108

1330 [1911]

ورثاه الشاعر النابغ المرحوم الشيخ محمد الحشايشي بقصيدة مطلعها:

يبكي الـورى طرّاً بـدمـع هـام   لفقيـد بيت شـريعـة الإسـلام

إلى أن قال:

يا جامع الزّيتونة السّامي الذّرى   كم بثّ فيـك جواهـر الإسـلام
كم قد أنار رحاب بيتك مرشداً   لبيـان مـا يخفى على الإفهــام
لاقيت ربّــك خـاشعــاً متبتّــلاً   ضيفــاً تـجــاوره بــدار كــرام
وتركت طلّاب الهدى من بعدكم   صــرعى تهيم كمعشـر الأيتــام

وبيت التّاريخ قوله:

ومن الدّليل على السعادة قد أتى   تـاريخـه بـدأ بشهـر صيـام

ونقش على قبره من نظم حفيده للأخت العلامة المدرس أبو السّرور الشيخ محمد البشير النّيفر بورك فيه:

قفا واعتبر واسأل رضا الله والرّحمى   لقبر يضمّ المجد والفضل والعلما
قفا مرسلاً نحو المنيّة نظرة اعـ   ـتبار تجلي عن بصيرتك الوهما
أرى الحيّ مفتوناً بدنيا يصيبها   فيعمى عن الأخرى بما ملك اليوما
أفق أيّها المغرور إنّ نعيمها   لأضعف من أن تستفزّ به الحلما
إلى الله رجعى كلّ نفس فتلتقي   بما عملت لا ظلم ثمّ ولا هضما
فأفلح من زكّى بما جاء صالحا   وخاب الذي دسّى بما اجترح الإثما
هو الحيّ بينا أنت تطرق بابه   وتقصده في درء كارثة عظمى
إذ الموت يدعوه فلبّى نداءه   وغادر ممّا جمع الطم والرما
فإما فقيد للسخاء وللنّدى   يصارع دون البائس الفقر والعدما
وإما فقيد للمعارف والعلى   بأجمعها كلاّ أصاب به سهما
كصاحب ذا القبر الإمام محمد   شريف السّجايا العالم العلم الأسمى
سري سما من آل نيفر الأولى   حمى بهم الله الشّريعة والعلما
فأكرم بفرع من أصول كريمة   وأشرف بروض أنبت الأب والأمّا
على مثله تبكي العلوم فإنّه   أصحّ بنيها في مشاكلها حكما
على مثله فليبك مذهب مالك   دماً قانياً فالخطب جلّ ولا لوما
على مثله تبكي الدّروس فإنّه   لقد كان بين القوم أثبتهم فهما
على مثله تبكي الفصاحة فهو في   مواقعها أرقى وأفصحهم كلما
على مثله يبكي القريض وصنوه الـ   ـكلام وخطّ راقٍ منظره رسما
على مثله التّأليف يبكي فإنّه   مجدّد ما قد كان من أمره قدما
على مثله أبكي وتبكي قرابتي   فقد خصّني ما خصّهم بعد ما عمّا
فقدنا به عرضاً من الشّين طاهراً   ونفساً أبت أن تحمل القهر والضّيما

وكـلّ كمال في النّفـوس وخلّة إلى مثلها أهل العلى ثنوا الهمّا
ولكنّنـا لا نفقد الـدّهر قـاصـداً إلى شعث فينـا فيتبعـه لمّـا
وأنت أبا عبد الإلّه لك الـرّضا من الله منهـلاّ سحـائبـه دومـا
وهـا كلّنـا يشـدو بقـول مؤرّخ مقامك في الأخرى بهاء فطب نوما
201 90 832 9 91 97

سنة 1330 [1911]

هذا وفي الحديث إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له. والرّجاء بالله أنّ هذه الخصال الثّلاث متوفّرة في صاحب التّرجمة فقد قدّمنا لك نبذة من خدمته للعلم وبثّه في الصّدور، ومن كان في سعة وخيرية وعقيدة بدرجته لا يبخل بمدّ يد الإسعاف للمعوزين من بني جلدته، لكن على قاعدة لا تعلم شماله ما تعطي يمينه. أما الولد الصّالح فإنّ الله ضاعفه له بأربعة من البنين البررة ممّن تفتخر البلاد بمثلهم في ميادين العلم والأدب، وأكبرهم هو النّائب الأوّل لفضيلة شيخ الجامع في الزّمن الحاضر، وأربعتهم جاءوا على قدم أبيهم في الإقبال على المعارف التي جمعوا منها كلّ تليد وطارف، فهم عمارة الدّار لمحافظتهم على الآثار التي جعلتهم في مقدّمة الفضلاء الأخيار، كيف لا وهم من آل البيت الأطهار، بيت النّبيء والنّسب الزكي، رحم الله السّلف، وبارك في الخلف، والحمد لله أوّلاً وآخراً، وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وسلّم وشرّف وكرّم(*).

تحريراً في عاشر شوّال 1351

(*) مقدّمة كتاب «عنوان الأريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب» - ج 1 - تونس 1932/1351.

انقراض طبقة من أهل العلم والفضل
محمد القروي

اعلم أنّ نسبة القرن من الدّهر كنسبة القطرة من البحر، ولكنّ مائة عام يعمّرها الإنسان لها اعتبار في تاريخ الأزمان، وقد طوى الموت في تاسع شهور العام الماضي شيخاً جليلاً من أهل العلم، ونعني به شيخ الشّيوخ، وطود الرّسوخ، بقية السلف، مفتي السّادة الأحناف فضيلة الشيخ أحمد بن مراد، توفاه الله عن مائة عام قضاها في خدمة العلم وبثّه في الصّدور، ولقد قامت هذه المجلّة في الإبّان بتأبينه وتخليد ذكره، رحمه الله ورضي عنه.

وبينما النّاس في أسف وتوجّع لمفارقة تلك البقية الصّالحة من شيوخ الزّمن الماضي، إذ فاجأهم خبر انطفاء سراج آخر كان هو أيضاً البقيّة الفاضلة من طبقة أهل الثّقافة والنّبوغ في العلوم العصرية، عمّر كسلفه مائة عام قضاها كلّها في الجدّ والعمل، بعزيمة لم تعرف الملل، وثبات لم يتطرّقه الفشل، ونعني به المقدّس المبرور جميل الذّكر أستاذنا الشيخ محمد القروي، قيدوم عموم المتوظّفين التّونسيين المباشرين والمتقاعدين.

أصل سلفه من القيروان، وكان أبوه يباشر الإشهاد بحاضرة تونس، وله نسبة وعلاقة بمشيخة العلم، يلبس الطّيلسان والعمامة الضّخمة والقفطان[1]. ونشأ ولده المترجم له مع طائفة من أبناء البيوت التّونسية في مدرسة باردو

(1) [لم يذكر المؤلف تاريخ ولادة محمد القروي، وتنص الوثائق الرسمية أنه من مواليد سنة 1847. أما الأستاذ الشاذلي بويحيى فهو يرى أنه قد ولد في سنة 1842 انظر: «حادثة جوية على الاستطلاعات الباريسية» تحقيق الشاذلي بويحيى - تونس 1984].



الشيخ محمد القروي

العسكرية، وتعرف باسم مدرسة المهندسين في الأوساط التونسية، وبها زاول علوم العربية، والعلوم الرّياضية، والفنون العسكرية، واللغة والآداب الفرنساوية. وهذه المدرسة التي عفت رسومها لنحو خمسة وسبعين عاماً، أنشأها المشير الأوّل أحمد باي لتعليم ضبّاط عساكره الفنون الحربية، وبعض اللغات الأجنبية، مع ما به الحاجة من العلوم العربية. وأوّل من كلّفه سموّ الباي بإدارة شؤون هذه المدرسة، المعلّم الأمير ألاي كالي قاريس [CALLI-GARIS][2]، ولكنّه عوّضه بعد حين بضابط فرنساوي عيّنته لذلك الدّولة الفرنساوية وهو (الكمندان كمبنون) [CAMPENON] الذي ارتقى فيما بعد لمسند الوزارة الحربية بباريس، وهذا هو الأصل في إناطة تعليم العساكر التّونسيين بعهدة ضبّاط فرنساويين من ذلك العهد إلى الزمن الحاضر.

وأوّل من باشر تعليم العربية بالمدرسة المذكورة العلاّمة الشيخ محمود قابادو، وقد اشتمل ديوانه على نبذة مفيدة في هذا الشّأن[3]، ومن تلاميذها

(2) من المستشرقين الأقدمين، أصله من مدينة توران، وارتحل صغيراً للشّرق لاعتقاده أنّه بلاد العجائب والغرائب، فقرأ العربية بحلب، ثم التحق بالحملة العسكرية المصرية التي واجهت العساكر العثمانية بالشّام، ومن هنالك يمّم الأستانة، حيث دخل في خدمة أركان الحرب، ثم هزّته أرياح الأقدار لتونس في أواخر مدّة المولى حسين باي الثاني، واختلط ببعض رجال البلاط الحسيني ولازمهم إلى أن تهيّأت له أسباب الانخراط في سلك معيني المشير أحمد باي، وهو الذي ناط بعهدته إدارة المدرسة المتحدّث عنها وقد تعرّض البحّاثة مسيو منشيكور المراقب المدني كان بتونس لذكره في كتابه المسمى «وثائق تاريخية في شأن تونس» وأتى على تاريخ حياته بمزيد إيضاح، وممّا قال في ذلك: أنّ كالي قاريس وضع أثناء مباشرته لإدارة مدرسة باردو كتابه المعروف في سيرة نابليون (بمساعدة الشيخ محمود قابادو) فكان كالي قاريس يترجم المادّة وتلميذه حسين مستشار المعارف فيما بعد يكتب والشّيخ قابادو يهذب الألفاظ وقال أيضاً: إنّ كالي قاريس كان يعزو لنفسه علاقة بعلماء آخرين من جامع الزيتونة منهم الأخوان الخوجيان الشّيخ أحمد والشيخ محمود، أوّلهما قاضي تونس طفحت كأسه بعلوم الإسلام والثاني من أساتذة جامع الزّيتونة، كما كانت له أيضاً صلة بالنّحوي الشيخ محمد اللّخمي وبالشيخ محمد التّطاوني من كتّاب الدّولة التّونسية، وهو الذي مدّه بالإعانة الواسعة أثناء تصنيفه لسيرة نابليون ا هـ.

(3) [انظر صفحة 33 وما بعدها من الجزء الثّاني من الديوان].

الأوّلين الشاب خير الدين (الوزير الشّهير) والشّاب رستم (وزير الحرب)، والشّاب حسين (مستشار المعارف)، وغيرهم من المماليك النّاشئين بالبلاط الحسيني ممّن تولّوا بعد زمام الأحكام والوظائف العالية بالدولة التونسية. ولما استعرت نار الحرب بالقريم CRIMEE بين الرّوسيا وبين الدولة العثمانية وفرنسا وغيرهما من الأمم الأروباوية، بعث المشير أحمد باي بنجدة عسكرية تونسية في عام 1270 [1853] للمشاركة في الحرب المذكورة لجانب العسارك التّركية والفرنساوية وهذه النجدة كان في جملة ضبّاطها نخبة من الشّبّان الذين تمّموا نصاب تحصيلهم في الفنون العسكرية بمدرسة باردو، واتّفق أنّ المشير أحمد باي أدركه أجله في العام التّالي، فكان من رأي خلفه بالكرسي الحسيني تسريح أكثر العساكر التّونسية الضّاربين بجهات العمالة، لتدارك الأضرار النّاتجة عن الضائقة المالية التي أوجبها ترتيب جيش عتيد في وقت السلم بدون حاجة إليه، وإذ ذاك تلاشت أحوال النّظم العسكرية التونسية ومنها مدرسة المهندسين المتحدّث عنها، ودام حالها كذلك بضعة سنين فلما آلت نوبة الملك للمشير محمد الصادق باي، كان في مقدّمة مساعيه وأعماله الصّالحة إحياء المدرسة المذكورة للرّاغبين من الشّبّان في تعليم الفنون العسكرية، فكان في جملة أهل هذا الرّعيل الثاني فقيدنا الشّيخ محمد القروي رحمه الله، وبها زاول الفنون العسكرية مع علوم العربية والعلوم الرياضية فكان من النّابغين بين الأقران، المشار لهم بالبنان، وكان من معاصريه بالمدرسة الشاب عمر بن بركات (رئيس جمعية الأوقاف) والشاب صالح عبد الوهاب(عامل المهدية)، والشاب العروسي بن عيّاد (مدير المدرسة الصّادقية)، والشاب سليم فارس ابن الشيخ أحمد فارس الشّدياق.
ولقد وقفت له على رسالة مدرجة بالرّائد التونسي في عام 1378 ذكر فيها برنامج العلوم التي كانت تزاول يومئذٍ بالمدرسة وهي: النّحو، والصّرف، والإنشاء، والتّاريخ، والجغرافية، والحساب، والمساحة، ورسم الخرائط الحربية بأنواعه، وفنّ الاستحكامات وبقية الفنون العسكرية، واللغتان الفرنسوية والطّليانية. وممّا أفادته الرّسالة المذكورة أنّ عدد تلاميذ المدرسة

كان يومئذٍ مائة تلميذ، وكانت إدارتها منوطة بلياقة (الكمندان تفرنه) [DE TAVERNE] من ضبّاط الجيش الفرنساوي، وهو رجل كان الشيخ القروي لا يذكر اسمه إلاّ بعبارات التّمجيد والثّناء على إخلاصه ونصحه في مأموريته، وهو أي الشيخ القروي ورفقاءه ممّن حملوا تابوته يوم أدركه أجله أثناء مباشرته لإدارة المدرسة، وكان مشهد جنازته رهيباً حضره سموّ الباي بالذّات وتأسّف لفراقه أسفاً شديداً.

هذا وبعد أن أتمّ الشيخ القروي نصاب تحصيله في العلوم العربية وفي الفنون الرياضية والعسكرية، انخرط في سلك المعينين الوزاريين، وكان نصيبه مباشرة مأموريته لدى الوزير محمد خزندار، وهو من رجال الكدّ والجدّ والثّقة والأمانة، وهي أخلاق فاضلة صادفت قلباً خالياً فتمكّنت منه، لأنّها كانت مطابقة لمواهب صاحب التّرجمة، فلما آنس منه متبوعه الحذق والنّباهة والبراعة في اللغتين العربية والفرنسية، قدّمه للمباشرة بصفة كاتب مترجم بكمسيون الرقابة المالية الأروباوية، ودار الفلك دورته المعلومة، فمضى عهد الدّور القديم، وحلّ عصر الدّور الجديد بانتصاب الحماية الفرنسوية على تونس، ومن وليداتها مصلحة الكتابة العامة بالدّولة التونسية وأقسامها المحدثة[4]، منها قسم التّرجمة، فاتّفق الكاتب العام (م. بمبار) [BOMPARD] مع الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتّور على أن يكون السيد محمد القروي رئيساً للقسم المشار إليه، وهكذا كان، وظهرت يومئذٍ بمساعدته ونصيحته لياقة نخبة من خرّيجي المدرسة الصادقية الذين تمّموا تعلّمهم بمدارس باريس لمباشرة التّرجمة بين رجال الدّولتين الحامية والمحمية، كان في مقدّمة تلك الطّائفة الصّالحة المرحومان السيد محمد الجنادي، والسيد البشير صفر، وهذا الفذّ الثّاني استقلّ بعد حين برئاسة قسم المحاسبة بالكتابة العامّة، فكان أوّل تونسي مسلم تولّى ضبط الحسابات العامّة بعد أن كان ديوان الحساب بالدّولة وقفا على اليهود.

(4) [أحدثت الكتابة العامة للحكومة التونسية في سنة 1882].

واتّفق إثر ذلك إحداث إدارة للعلوم والمعارف بتونس[5] نيطت مأموريتها بعهدة المستعرب (مسيو ماشويل) [LOUIS MACHUEL] معلّم العربية سابقاً بوهران، وكان من مشمولات خطّته النّظر على جمعية الأوقاف التي شغرت رئاستها في تلك الأثناء، فاختارت الدّولة لرئاسة الجمعية المرحوم السيد عمر بن بركات مدير المدرسة الصادقية، وقدّمت مكانه لإدارة هذه المدرسة المنعم السيد محمد القروي،[6] ولكنّه لم يباشر هذه الخطّة أكثر من أشهر معدودات لأسباب لا يسعها هذا المجال، فرجع صاحب التّرجمة لرئاسة قسم التّرجمة بالكتابة العامّة، ومنها انتقل بعد حين لرئاسة الخزنة العامّة[7]، وهي خزانة محفوظات الدّولة، وكانت أوراقها مشتّتة هنا وهناك، لا يستفيد منها المطالع إلا بالنّزر اليسير، بعد الجهد الوفير، فشمّر الشيخ القروي عن ساعد الجدّ وقضى سنين طويلة في جمع شتاتها وترتيبها ترتيباً فنّياً مستكملاً من كلّ الوجوه، ثم سعى وحصل بمساعدة (مسيو روا) [Roy] كاتب الدولة العام الذي كان يقدّره ويجلّه على بناء محلّات فسيحة بسراية المملكة لنصب نحو مائة خزانة لحفظ تلك الأوراق وما ألحق بها من دفاتر الدولة المرادية، والوثائق التّاريخية النّادرة، والعهود، وجميع آثار العصر الحسيني السّعيد، بحيث أصبحت خزانة إفادة تاريخية غير قابلة للنّفاد، ووضع لها مع ذلك فهرساً عامّاً كان محلّ إعجاب أهل النّظر، لأنّه مكّن الدّولة من الوقوف على الوثائق الصّالحة لتصفية جملة من النّوازل العويصة المتقدّمة على نصب الحماية، كنازلة القائد نسيم شمّامة، ونازلة ابن عياد، وغير ذلك ممّا استحق به الفقيد الثّناء الأعطر، والجزاء الأوفر.

وفي مدّة مباشرته لرئاسة الخزنة العامّة، وضع كتابه المسمّى: السّرّ

---

(5) [أحدثت إدارة العلوم والمعارف في سنة 1883]

(6) [تولّى محمد القروي إدارة المدرسة الصادقية من ماي 1985 إلى جانفي 1986.
انظر: أحمد عبد السّلام (الصّادقية والصّادقيون) (باللغة الفرنسية) - ص 190].

(7) [عيّن محمد القروي رئيساً لقسم محفوظات الدولة (Archives) في سنة 1887].

المكتوم في أحوال النّوم[8] طرق فيه باب البحث عن التّأثيرات النّفسانية وعلاقة الرّوح بالجسد، والتّنويم المغناطيسي، وكان مع ذلك يتعاطى مطالعة كتب الحكمة للكشف عن نواميس الطّبيعة وأسرار الكائنات، ولا سيما فنون الصّحّة ووظائف الأعضاء التي غرف من يمّها غرفة ملية. واتّفق بعد حين استقرار رأي الوزير المقيم العام (مسيو ريني ملي) [René Millet] على إحداث معهد للعلوم العصرية بعنوان طلبة جامع الزّيتونة عمره الله، وتفاهم في ذلك مع الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتّور، فوقع الاختيار بإشارة (مسيو روا) [Roy] على أن يكون السيد محمد القروي رئيساً للمعهد المذكور، وهو معهد ابن خلدون[9]، وتمّ تأسيسه بمشاركة نخبة من المتوظّفين كنت ولا فخر في جملتهم، وأمّا نسبته لاسم وليّ الدّين ابن خلدون، فإنّها من مبتكرات صاحبنا السيد البشير صفر الذي مات شبحه ولم يمت ولن يموت اسمه. وكان يوم افتتاح المعهد المشار إليه يوماً مشهوداً حضره الوزير المقيم السّالف ذكره، والوزير الأكبر، وشيخ الإسلام، ورجال الدّولة، وأهل العلم، والمتوظّفون، وكلّهم كانوا لاهجين بفضل هذه المنقبة التي تمّ تأسيسها بقية الخلد المستفاد من اسم ابن خلدون (خلدونيه) وقام خطيباً في ذلك النّادي الشيخ الرئيس القروي، وتعرّض في خطابه لوظيفة الإنسان في المجتمع، وعرّف بأنّ جنس الإنسان فيما أفاده الحكيم (كلود برنار) [Claude Bernard] عبارة عن طبقة بين الملائكة والحيوان، ولولا ضيق المجال لأتينا على عبارة ذلك الخطاب النّفيس. وبفضل المجهودات التي بذلها الشيخ القروي ورغم العثرات التي لقيها في سبيله، تمّ ترتيب برنامج التّعليم بالمدرسة الخلدونية على أحسن أسلوب، وأتم مرغوب، وكنت من المتشرّفين في تلك الآونة بتدريس علم التاريخ بها لتلاميذها الأولّين.

(8) [طبع هذا الكتاب بتونس في سنة 1308 هـ (1890 - 1891)].

(9) [تأسّست الجمعية الخلدونية في أواخر سنة 1896].

ولمّا زار فخامة رئيس الجمهورية (مسيو فليار) [Fallière] حاضرة تونس سنة 1911 قلّد السيد محمد القروي بيده الصّنف الثّالث ترقية في وسام (اللجيون دونور) زيادة على الوسام العلمي الذي كان محرزاً عليه من الصّنف الأوّل، وبعد ثلاث سنوات وقعت إحالته على التّقاعد بعد أن باشر خطّته سنين كثيرة علاوة على الحدّ القانوني للأعمار. وآخر ما قام به من الأعمال الجليلة، ترجمته لقانون الحدود.

على أنّه بعد إحالته على التّقاعد، لم تستغن الإدارة ذات الشّأن عن الاستفادة من معلوماته الواسعة وخبرته الشاسعة، لذلك تفضّل عليه المولى محمد الناصر باي ـ قدس سرّه ـ بالصّنف الأكبر من نيشان الافتخار في عام 1920.

كان رحمه الله سليم الصّدر، بعيداً عن المجازفة والفضول، وكان لطيف الشّمائل، فصيح اللسان، حسن المحاضرة، بل كان تاريخاً حيّاً يمشي على رجلين، وكان مشتغلاً بنفسه عن عيوب غيره، ثاقب الفكر، يفهم بمجرّد الإشارة قبل سماع العبارة، مقصوداً للإفادة، معروفاً بالثّبات والإجادة، نقيّ العرض، جميل الظّاهر والباطن، كريم الخلق، ما شئت من معارف جمّة، ونفس بالاستزادة من الفضائل مهتمّة، يحبّ الإنصاف، لما له من حميد الأوصافِ، يقول ما يراه حقّاً ولا يبالي، بصيراً بالعواقب، عارفاً بالسياسة، متخلّقاً بأوصاف الكياسة والرئاسة، حنّكته التّجارب، في كل المآرب، ذا عفّة ووقار، وهمّة عالية واعتبار، ولم يزل محبّباً إلى النّاس، إلى آخر ما قدّر له من الأنفاس. توفّي رحمه الله في السّابع عشر من ذي الحجة الحرام سنة 1359 [جانفي 1941] وأعقب أولاداً تخلّقوا بخلقه النفيس، محسوبين في طبقة المتوظّفين الأعيان، جبر الله صدعهم ورزقهم الصّبر والسّلوان.

ملحق ـ بعد الفراغ من تحرير هذه النّبذة تذكّرت وجود بطاقة لدينا من خطّ يد الشيخ القروي رحمه الله، جواباً عن سؤال كنت ألقيته عليه قدماً في شأن مدرسة باردو ومتى كان دخوله للتّعلّم بها، فبحثت عنها بمجموعة

الوثائق التّاريخية التي لدينا، إلى أن يسّر الله لي العثور عليها، ولذلك ننقلها هنا بحروفها لاشتمالها على تحقيقات تاريخية يصحّ الاعتماد عليها لورودها من مصدر لا شبهة فيه، وهذه عبارتها:

الحمد لله. أمّا بعد أتمّ السّلام ومزيد التحية، فإنّ مكتب الحرب الذي أحدثه (المشير) أحمد باي تحت نظر الأمير ألاي (كليقاريس) الطلياني أغلق في أيّامه وأعاده خلفه (المشير) محمد باي سنة 1273 [1856] تحت نظر الأمير ألاي (تافيرن) الفرنساوي[10] وجعله بالسّراية التي صارت محلاً للوزارة بعد انتقال التّلامذة للمحلّ الجديد الذي بناه الأمير محمد الصادق باي، وكان ذلك في صفر سنة 1277 [1860]، ودخلت أنا هذا المكتب عام 76 وبقيت به إلى عام 1286 [1896] ومات في أثناء المدّة الناظر المذكور (تافيرن) وخلفه القائمقام (كمبنون) وهو الذي صارت وحشة بينه وبين الوزير مصطفى خزندار في عام ثورة علي بن غذاهم، وسافر لفرنسا، وصار بها وزيراً للحربية تحت رئاسة (غمبيتا) [GAMBETTA] والمحل الجديد الذي كنا به هو الذي صار الآن قشلة للعسكر. هذا ما عندنا الآن في هاته المسألة، وإن أردتم زيادة الإيضاح فنحن بقربكم. والسّلام من ودودكم محمد القروي في 14 إفريل سنة 1916 اهـ بلفظه(*).

---

(10) [شغل الضابط دي تافرن (DETAVERNE) خطة مدير مدرسة باردو العسكرية من سنة 1855 إلى سنة 1861].

(*) المجلة الزيتونية - الجزء 6 - المجلد 4 - (مارس 1941).

فهارس الكتاب

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الكتب والدّوريات

ـ ن ـ

ـ و ـ

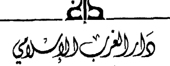
فهـرس الأعــلام

- أ -

- ع -

ـ ف ـ

الفهرس



بيروت - لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الاسود

تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

رقم 86 / 2 / 2000 / 79

التنضيد الإلكتروني : كومبيوتايب للصف الطباعي الالكتروني 

الطباعة : مؤسسة نزيه كركي

M'HAMED BEN EL KHODJA

SAFAHĀT
MIN TĀRĪH TŪNIS
(Pages choisies de l'Histoire de Tunisie)

Texte édité et annoté par:

HAMADI SAHLI JILANI BEN HADJ YAHIA

DAR AL-GHARB AL-'ISLAMI
Beyrouth
1986

M'HAMED BEN EL KHODJA

SAFAHAT MIN TARIH TUNIS

(Pages choisies de l'Histoire de Tunisie)

Texte édité et annoté par:

HAMADI SAHLI JILANI BEN HADJ YAHIA



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
Beyrouth